

تأليف
مرثيدس غارثيا أرينال
جيرارد ويغرس

بين الإسلام والغرب

حياة صمويل باياتشي
يهودي من فاس

ترجمة: ممدوح البستاوي
مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

المشروع القومي للترجمة

بين الإسلام والغرب

حياة صمويل باياتشي
(يهودي من فاس)

تأليف: مرثيديس هارثيا أرينال

جيرارد ويفرس

ترجمة: ممدوح البستاوي

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحيم



المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٣٦
- بين الإسلام والغرب
- مرثيديس غارثيا أرينال
- جيرارد ويغرس
- ممدوح البستاوى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

Entre El Islam y Occident:

Vida de Samuel Pallache, judío de Fez

Por: Mercedes García-Arenal

Gerard Wiegers

© Los autores

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

9	• تصدير
11	• مقدمة المراجع
27	• شكر وامتنان
29	• مدخل
41	• الفصل الأول : من فاس إلى مدريد
41	- الأسطورة
44	- مدريد
53	- سان خوان دي لوث
59	- يهود فاس ومحكمة التفتيش
	• الفصل الثاني: شيء آخر عن البيئة. عصر وأماكن
77	صمويل بياتشي.
77	- فاس
88	- البرتغال، إسبانيا، المغرب.
96	- حاشية السلطان ورجال البلاط والتجار.
	- سيرتان متناقضتان: ميلتشور باث دي أثيبيدو
110	وإسحاق الموسنينو
120	- موريسكيون أيضا: أحمد الحاجري وسيد الدوغالي.
141	• الفصل الثالث : بين هولندا والمغرب
145	- سان خوان دي لوث مرة أخرى

151	- خوسويه وموسى
157	- قضية إسحاق
166	- أنشطة تجارية ودبلوماسية، ١٦١١ - ١٦١٤
172	- ابن أبى محلى
174	- موضوع كاستيلان وكتب السلطان
193	• الفصل الرابع : القرصنة والمعمورة ومحضر لندن
196	- الاستيلاء على المعمورة
200	- ملف قضية فى لندن
202	- الاعتقال
204	- الدفاع
207	- الحكم
209	- مرة أخرى فى هولندا : مشاكل مالية وصحية
	• الفصل الخامس : المحاولات الأخيرة : اسطمبول
221	ومدريد
221	- الاتصالات مع الإمبراطورية العثمانية.
223	- المفاوضات النهائية مع الإسبان.
226	- وفاة صمويل.
233	• الفصل السادس : بعد صمويل : العائلة
234	- بين المغرب وهولندا : جوزيف وموسى
239	- فى أمستردام: جوزيف ودافيد
247	- دافيد
251	- ألفونسو لوبيث

254	- إسحاق	
273	خاتمة	•
281	ملحق وثائقي (بتسلسل تاريخي)	•

تصدير

نُشر هذا الكتاب باللغة الإسبانية عام ١٩٩٩ ثم تُرجم إلى اللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٣. وقد تنبّه المؤلفان — بعد صدور الكتاب إلى بعض الأخطاء فتداركها في النسخة الانجليزية وأضافا إلى هذه النسخة بعض المعلومات، ولا يعيب النسخة الإنجليزية إلا أنها لم تترجم الوثائق الواردة في النسخة الإسبانية. وعندما بدأنا ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية وضعنا في الاعتبار الإضافات التي أدخلها المؤلفان، بل وبعض إضافات أخرى وردت إلينا عبر البريد العادي والإليكترونى. وعليه تكون هذه النسخة التي نضعها بين يدي القارئ أكمل من النسختين الإسبانية والإنجليزية.

(المراجع)

مقدمة المراجع

الكتاب الذى نقدم له الآن ثمرة بحث دؤوب فى الأرشيفات الأوروبية لرسم صورة شخص كان يمكن ألا يلتفت إليه أحد، وهو نموذج لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين باحثين من بلاد مختلفة.

الباحثان اللذان وضعنا الكتاب من أبرز المتخصصين فى الدراسات الموريسكية، وقد أتيحت للقارئ العربى فرصة للتعرف على أحدهما - الدكتور غارثيا أرينال - واليوم نتعرف على الباحث الثانى، وهو الهولندى جيرارد ويغرس الأستاذ بجامعة ليدن والذى التقيت به منذ سنوات فى مؤتمر علمى حول الدراسات الموريسكية.

يستند الباحثان إلى خزان المحفوظات فى كل من إسبانيا وهولندا لرسم صورة صمويل باياتشى اليهودى وبيان تأثيره على مجرى الأحداث فى الفترة التى عاش فيها. وحين يجد المؤلفان فراغاً فى الوثائق الخاصة بصمويل باياتشى فإنهما يسدان هذا الفراغ باستخدام وثائق خاصة بيهود آخرين تتطابق حالتهم مع حالة باياتشى. إنهما يفعلان ذلك مثلاً لرسم صورة للبيئة التى عاش فيها باياتشى، سواء فى المغرب أو فى إسبانيا أو فى هولندا. وقد استطاع الباحثان فى النهاية أن يقدموا لنا صورة تكاد تكون كاملة لصمويل باياتشى، وأن يعرضوا فى الوقت نفسه بعض وثائق تلك الفترة.

شخصية الكتاب رجل يهودى عاش فى القرن السادس عشر ودرس الواقع المحيط به واستغله لصالحه. استطاع صمويل باياتشى أن يوطد علاقته بالبلاط المغربى وبأصحاب السلطة فى أوروبا، وحصل من هنا ومن هناك على مكاسب له ولذويه.

كان صمويل باياتشى عميلاً مزدوجاً. كان يهودياً متديناً وعضواً فى طائفة السفارديم، لكنه أعرب فى أحيان كثيرة عن رغبته فى التحول إلى الكاثوليكية. كان

صمويل وذووه يعيشون في الهامش ويستغل كل منهم قدراته الخاصة على تعدد الانتماءات في الوصول إلى ما يريد.

كان باياتشي «مخلصا لجهات متعارضة»، كما يرد في الكتاب، وإن كنا نرى أنه لم يكن يعمل لصالح سلطان المغرب ولا لصالح التاج الإسباني، بل لتحقيق مصالح شخصية له ولذويه من اليهود.

أعترف أننا عرضنا إدراج هذا الكتاب ضمن إصدارات المشروع القومي للترجمة بهدف إلقاء مزيد من الضوء على أبعاد قضية مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة. والكتاب يتضمن بالفعل بعض الأمور المتعلقة بالموريسكيين، لكنه يتضمن كذلك موضوعات أخرى نحسب أنها بالغة الأهمية.

الكتاب يتضمن وثائق لم يلتفت إليها أحد من قبل على حد علمنا، وتتعلق بتاريخ المغرب العربي، وتوضح بعض الحقائق التي يمكن من خلالها أن نصحح بعض المعلومات الخاطئة.

١- اليهود والموريسكيون:

يتحدث المؤلفان عن دور اليهود في مساعدة الموريسكيين على إخراج ثرواتهم من إسبانيا بعد صدور قرار الطرد عام ١٦٠٩، فقد كان ذلك ممنوعا على الموريسكيين بحكم القانون، أما اليهود فكان بإمكانهم الخروج من إسبانيا وهم يحملون أموالهم. وغنى عن الذكر أن اليهود استفادوا من تقديم تلك المساعدة للموريسكيين.

هناك شخصية موريسكية لا تشير إليها الكتب التي ترجمناها حتى الآن في مصر. أتحدث عن أحمد بن قاسم الحجري^(١). الكتاب الذي بين أيدينا الآن يشير إلى هذه الشخصية، وإن كان بشكل عابر.

(١) الموريسكي أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي ولد في إحدى قرى غرناطة عام ١٥٦٩ / ١٥٧٠، وهو مؤلف كتاب (ناصر الدين على القود الكافرين) ومترجم كتاب (العز والمنافع تمهدين في سبيل الله والمنافع)، وهو عبدة عن كتب يندول صنعه المدفع. كان موفا من قبل مولاي زيدان وممثلا للموريسكيين. ونظرا لأطلاعه على ثقافة عصره فقد كان ممن اشتغلوا بتحليل أدبي بين الممنين والمسنحين.

فى كتاب آخر من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة - الموريسكيون فى المغرب^(٢) - كتبت فى المقدمة أتساءل عن سر استخدام السلاطين المغاربة لليهود كمتترجمين بدلاً من الموريسكيين، والكتاب الذى بين أيدينا يجب عن هذا التساؤل ويبين أن السبب لا يعود إلى عدم الثقة فى الموريسكيين بل لأن هؤلاء كانوا ممنوعين من دخول شبه الجزيرة الأيبيرية. الدليل على ذلك أن أحمد بن قاسم الحجرى قد أوفد إلى هولندا وأن عددا كبيرا من الموريسكيين كانوا موضع ثقة السلاطين المغاربة وقد عهدوا إليهم بمهام خطيرة.

يلقى الكتاب الضوء على اتفاق تم بين المغرب وهولندا تزود بمقتضاه هولندا المغرب بمانعة سفينة حربية لمهاجمة سواحل إسبانيا. تم ذلك أثناء ثورة موريسكى فالنسيا.

من ناحية أخرى يبرز الكتاب أن صمويل باياتشى حاول أن يلتقى بملك فرنسا عن طريق السفير الفرنسى فى مدريد، وقد أوصى السفير بأن يستمع الملك إليه فقد يحصل منه على أخبار تفيد فى التعامل مع تركيا. الخبر إلى هنا عادى، لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن باياتشى قد ذهب بعد ذلك بفترة قصيرة إلى أراغون، حيث كان مسلمو أراغون يقومون بثورتهم وكانت لهم مفاوضات مع ملك فرنسا، فإن الخبر يكتسب أهمية كبرى، إذ يشير إلى احتمال قيام باياتشى بدور ما فى الاتصالات بين مسلمى أراغون وملك فرنسا.

الكتاب يتحدث أيضا عن إمكانية الاستيلاء على أسرى وثروات من ملقة باستخدام ألفى جندى مسلحين بالبنادق وثمانية سفن، وكيف أن مولاي زيدان كان يرغب فى أن تزوده هولندا بالسفن، وكان الاتفاق يتضمن أن يحصل مولاي زيدان على ربع الغنيمة التى يحصل عليها كل من باياتشى والموريسكيين الذين يرافقونه. الغريب فى الأمر أن يهوديا آخر اتصل بأمر السلطان وجعلها تنثنى ابنها عن القيام بتلك العملية.

(٢) الكتاب من تأليف الدكتور غوثالبيس بوسكو، ترجمة مروة محمد إبراهيم، مراجعة جمال عبد الرحمن.

هناك حديث فى الكتاب عن رغبة بعض الموريسكيين الذين وصلوا إلى أمستردام فى التحول إلى اليهودية، ونظن أن ذلك الطلب - إن صح - لم يكن سوى وسيلة للمحافظة على الإسلام، أى أن الموريسكيين أرادوا أن يتحولوا إلى اليهودية للاستفادة من الحرية الممنوحة لليهود آنذاك مما يمكنهم من أداء شعائر الإسلام سرًا دون التعرض لمضايقات محاكم التفتيش. ونذكر فى هذا الصدد أن الموريسكيين قد انخرطوا بين جماعات الغجر فى إسبانيا، أملا فى أن يساعدهم ذلك على الاختفاء عن أعين محكمة التفتيش^(٣).

يبرز الكتاب سعى الموريسكيين إلى الإقامة فى فرنسا واستزراع أرض جذباء فى مقابل التصريح لهم بممارسة شعائر الإسلام بحرية. كم ضحى الموريسكيون من أجل دينهم!

الملاحظ أن المراسلات بين الدول الأوروبية والمغربية خلال القرن السادس عشر والسابع عشر كانت تتم باللغة الإسبانية، ويرجع ذلك إلى تواجد عدد كبير من الموريسكيين واليهود فى المغرب، وكانت المجموعتان نازحتين من إسبانيا وكان أفرادهما يتحدثون الإسبانية.

٢- كتب مولاي زيدان:

الكتاب يلقى مزيدا من الضوء على قضية بالغة الأهمية هى قضية كتب مولاي زيدان التى استولت عليها السلطات الإسبانية ولم تشأ أبدا إعادتها إلى المغرب رغم تكرار المحاولات المغربية.

حينما كان وضع مولاي زيدان فى خطر عهد بأملكه - ومنها الكتب الشهيرة - إلى قبطان فرنسى لكى ينقلها إلى مكان آمن، لكن سفينة إسبانية استطاعت أن تأسر السفينة الفرنسية وتستولى على ما بها وتحمله إلى إسبانيا.

(٣) النظر: جمال عبد الرحمن: «حول كتاب حكايات غجرية لجارثيا لوزكا»، مؤتمر «لوزكا والثقافة العربية»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ولم تنشر أعمال المؤتمر بعد.

الجزء الأكبر من حمولة السفينة كان عبارة عن مكتبة مولاي زيدان الخاصة، وكانت تبلغ نحو أربعة آلاف كتاب كان قد جمعها أبوه السلطان أحمد المنصور الذهبي. في مارس من عام ١٦٢٦ طلب رئيس دير الإسكوريال أن تستعير مكتبة الدير تلك الكتب على سبيل الوديعة، فوهبها فيليب الثالث إلى الإسكوريال، وهي لا تزال موجودة إلى اليوم وتشكل واحدة من أهم مجموعات المخطوطات الدينية في أوروبا^(٤). يذكر الكتاب أن مولاي زيدان قد حمل ملك فرنسا مسئولية ما حدث، وأن ذلك أدى إلى توتر في العلاقات بين المغرب وفرنسا لفترة طويلة، وقد بذل مولاي زيدان جهدا جهيدا من أجل استعادة الكتب، وقد لعب كل من أحمد الغزالي وصمويل باياتشي دورا بارزا في المفاوضات التي جرت. الجدير بالذكر أن جهود المغرب لاستعادة الكتب لم تتوقف طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر نظرا لأهميتها الكبرى لكل من المغرب وإسبانيا على حد سواء.

من المناسب أن نذكر أن سفارة أحمد الغزالي هذه قد استخدمها كاتب إسباني ينتمي إلى القرن الثامن عشر هو خوسيه كادالسو الذي جعل من الغزالي شخصية أدبية في كتاب «رسائل مغربية»، وهو كتاب شهير ويعد أحد معالم الأدب الإسباني الحديث.

٣- اليهودي صاحب النذور وخائن الأمانة:

يبرز الكتاب أن اليهود كان لهم دور بارز في صياغة علاقات المغرب مع العالم الخارجي خلال القرن السابع عشر. كانت هولندا هي المورد الأساسي للأسلحة بالنسبة للمغرب، وكانت - إلى جانب ذلك - هي الحليف الأساسي للمغرب في مواجهته مع إسبانيا، وكان لليهود هولندا دور بارز في كل ذلك.

يتحدث الكتاب أيضا عن دور اليهوديين خيرى وخودا سينافى فى

(٤) دكتور بروليو خوستيل «مكتبة الإسكوريال المنكية ومخطوطاتها العربية: نظرة تاريخية وصفية» المعهد الإسباني للثقافة، مدريد، ١٩٨٧.

المفاوضات التي أجراها مولاي الشيخ مع الإسبان للتنازل عن العرائش مقابل دعمهم له في حروبه ضد أخيه.

وكان بمقدور اليهود أيضا التحكم في مقابلات السلاطين المغاربة، وقد استخدموا هذه الإمكانية لصالحهم حتى عندما كان ذلك على حساب السلطان نفسه. وليس بوسعنا في هذا الصدد سوى أن نبدي انبهارنا بفصاحة اليهودي موسى باياتشي، فقد كتب تقريراً عن رويل الهولندي، ظاهره العطف عليه ومضمونه يشكك في قدرة الهولندي على القيام بأي عمل مهم، وكانت تلك مكيدة دبرت لرويل الذي كان يحتج على الصلاحيات الواسعة الممنوحة لليهود في المغرب.

كانت دول أوروبية — هولندا وإسبانيا على وجه التحديد — ترغب في أن تكون لها السيطرة على ميناء المعمورة المغربي من أجل التحكم في نشاط القرصنة، ويذكر الكتاب أن مولاي زيدان كان يدرس عرضين لبيع ميناء المعمورة، وأنه كلف باياتشي بالتفاوض مع الأسبان في هذا الشأن. والمتابع لسيرة مولاي زيدان يتعجب من هذا الموقف، وربما كان هناك خلط في الأوراق. عموماً فإن الوثائق تتحدث عن عروض إسبانية، وهو أمر لا يعيب مولاي زيدان الذي لم يكن صاحب العرض ولم يرد ما يدل على قبوله العرض الإسباني. لكن باياتشي كان يتجاوز صلاحياته ويستغل ضعف موقف مولاي زيدان بعد استفحال أمر ابن أبي محلي.

يتحدث الكتاب عن وساطة باياتشي بين الإسبان ومولاي الشيخ عام ١٦١٠ (سلم بمقتضاها ميناء العرائش إلى الإسبان)، ويتحدث كذلك عن وساطة باياتشي بين الإسبان ومولاي زيدان عام ١٦٠٩. إذا وضعنا في الاعتبار أن الوسيط في هذه الأمور الشائكة يكون موضع ثقة السلطان عادة، وأنه خلال الأعوام المذكورة كان هناك صراع دموي على السلطة بين كل من مولاي زيدان ومولاي الشيخ، فلنا أن نشك في صدق رواية الأحداث. إننا إذ نعرض الوثائق كما هي نأمل أن يقوم أحد المتخصصين العرب بشرح ما غمض علينا فهمه، أو بإجراء عملية نقد

علمى لبعض الروايات التى لا تتفق مع ما نعلمه من حرص مولاي زيدان على انتهاج سيرة أبيه أحمد منصور الذهبى.

الكتاب يلقى الضوء كذلك على حركة ابن أبى محلى فى المغرب وتهديده لعرش مولاي زيدان ودور اليهودى باياتشى فى الصراع على السلطة. الجدير بالذكر أن ابن أبى محلى كان قد وعد بالحد من نفوذ اليهود وباتخاذ إجراءات ضدهم. لم يتأخر رد فعل اليهود، فكتب موسى باياتشى تقريراً بالهولندية يدافع فيه عن شرعية حكم مولاي زيدان ووجوب تقديم الدعم له.

هذا عن دور اليهود فى علاقات المغرب بالدول الأجنبية، وفى المجال الداخلى يوضح الكتاب أيضاً أن اليهود كانوا يعملون فى الوظائف والمهام التى لا يأتى الملوك المغاربة عليها مسلمين. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فلنا أن نضيف هنا أن بعض الملوك المسيحيين قد استخدم المسلمين كحراس شخصيين لهم من باب ثقافتهم فيهم. وفى القرن العشرين، عندما استخدم الجنرال فرانكو حرساً خاصاً من الجنود المغاربة وسط استهجان الشعب لذلك، أعلن فرانكو أنه لم يبتدع شيئاً وأن الملوك الإسبان فى العصور الوسطى كانوا يستخدمون حراساً مسلمين^(٥).

لا ندرى مدى صحة الأخبار، ولا ما إذا كان اسلام بعض اليهود كان نتيجة دراسة أم لأسباب أخرى، فالكتاب يذكر أن كثيراً من اليهود فى المغرب قد تحولوا إلى الإسلام، وأن أحد اليهود – وكان اسمه سيباستيان باييث – قد أسلم وأصبح اسمه سليمان باشا وتولى منصباً رفيعاً فى جيش السلطان مولاي الشيخ.

الأمر المثير للانتباه أن الوثائق تكشف أمراً خطيراً، وهو أن أحد اليهود كان

(٥) يتحدث انا إيشيناريا عن وجود حراس مسلمين لملوك قشتالة المسيحيين خلال القرن الخامس عشر: خوان الثانى (١٤٠٦ – ١٤٥٤) وإيريكي الرابع (١٤٥٤ – ١٥٧٤). انظر مقالها.

La guardia morisca: Un cuerpo desconocido del ejército medieval castellano

ونذكر فيه أن الوثائق الموجودة فى أرشيف سيمانكار العام تتضمن أسماء الفرسان المسلمين الذين كانوا يقومون بالحراسة.

بإمكانه "أن يقد توقيع مولاي الشيخ مثل مولاي الشيخ نفسه"، ولنا أن نتخيل عدد وأهمية الوثائق التي يمكن أن يكون قد وقعها ذلك اليهودي.

لم يكن ذلك هو المظهر الوحيد لخيانة الثقة، إذ يبرز الكتاب أن اليهود قد أساءوا استغلال الصلاحيات المخولة لهم من قبل ملوك المغرب وأنهم كانوا ينسبون إلى أنفسهم ألقابا تظهر في النصوص الأجنبية للاتفاقيات ولا تظهر في النصوص العربية.

يبرز المؤلفان في خاتمة الكتاب فرقا واضحا بين دور اليهود في قصور المسلمين وفي قصور الملوك الأوروبيين: لم يثق ملوك أوروبا مطلقا في اليهود ولم يعهدوا إليهم بمهام ذات طابع خاص، أما الملوك المسلمون فقد قلّدوا اليهود مناصب حساسة وأولّوهم ثقتهم. هناك فرق آخر: كان الملوك الأوروبيون يوثقون كل شيء، فحينما رغب الملك الإسباني في الاستفادة من موقع ومعلومات باياتشي تم تحرير وثيقة تبين حدود وشروط التعامل بين صمويل باياتشي والتاج الإسباني، فهل كانت هناك وثيقة تحدد شروط تعاونه مع السلطان المغربي؟ مرة أخرى نلفت الانتباه إلى أن أمتنا أهملت التوثيق في مراحل من تاريخها.

٤- اليهود بين الحقيقة والأسطورة:

وثائق الكتاب تدعونا إلى التأمل في مسألة صغيرة لكنها متكررة: خبر غير مؤكد يتعلق بيهودي يرد في وثيقة ما، ثم يتناقله المؤرخون وينسجون حوله الأساطير حتى يصبح شيئا مؤكدا لا يجروأ أحد على التشكيك فيه. وهكذا يصبح من المسلّمات أن اليهود هم الذين شيدوا هذا الأثر أو ذاك، وهم الذين أسسوا ذلك العلم، وهم أصحاب الفضل في هذا الاختراع أو ذاك... كل ذلك على غير أساس. القصة التي يوردها الكتاب تقول إن صمويل باياتشي اصطدم بالسفير الإسباني في هولندا في عام ١٦٠٢. الجدير بالذكر أن "الخبر" قد رده اليهود كثيرا من باب الإشادة بشجاعة باياتشي، وتناقل الناس الخبر حتى أضحي كالحقائق الثابتة، ثم تبين بعد ذلك عدم وجود وثائق أخرى تؤكد صحة الواقعة وأن الأمر لا يعدو كونه من باب المبالغات.

الذى يتأمل واقع اليهود اليوم يكاد يرى أنهم أقوياء أذكىاء يحبون بعضهم بعضاً... إلخ، وقد يتوصل الإنسان الى نظرية تقول بأن اليهود صنف من البشر يتفوق على الآخرين. لكن الوثائق التى يعرضها الكتاب تقول غير ذلك، وتؤكد أن اليهود فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تجسس بعضهم على بعض، وكان بأسهم بينهم شديداً. إذن فوضع اليهود حالياً وضع مؤقت قد يتغير إن هم أهملوا أسباب القوة ولا يعود إلى اختلاقم كجنس عن بقية شعوب الأرض. هذا يعنى كذلك أن الأخذ بأسباب القوة والوصول إلى امتلاكها ليس حكراً على اليهود دون غيرهم، بل تستطيع الأمم أن تجد وتجتهد وتمتلك من أسباب القوة ما يمكن لها من العيش بكرامة.

نعم كان كل فرد من عائلة باياتشى يعمل لصالح الأسرة كلها، لكن يجب ألا ننسى وجود صراعات يعرضها الكتاب بين مجموعات يهودية. فعلى سبيل المثال لم يرحب اليهود الإسبان كثيراً بوصول اليهود البرتغاليين لأن وصولهم كان يعنى تعرضهم للخطر، إذ سيعيد إلى أذهان محكمة التفتيش مسألة محافظة الكاثوليك ذوى الأصول اليهودية على دينهم القديم.

٣- اليهود بين الإسلام والمسيحية:

هناك أمر يلفت النظر، فاليهودى صمويل باياتشى قد عاش بين ظهرانى المسلمين فى فاس وبين ظهرانى الكاثوليك فى إسبانيا، وهو يؤكد من خلال التجربتين أن اليهود — على الرغم من حالة النذل التى كانوا يعيشون فيها فى فاس — فإن ذلك كان أفضل من العيش فى أرض المسيحيين". لكن المؤلفين يعلقان فى جملة لاحقة بأن باياتشى لم يكن صادقاً حين أعلن ذلك، ولا يوضح لنا المؤلفان الأسباب التى استندا إليها فى هذا الحكم.

حالة الانتقال من دين إلى آخر عند اليهود تدعو إلى العجب. تأمل مثلاً حالة فرانتيسكو ديل إسبيريتو سانتو، فقد ولد لأسرة يهودية فى مراكش، وعندما بلغ عامه العشرين تحول إلى الإسلام فى مدينة فاس، حيث كان يعمل فى خدمة

السلطان المغربي، ثم ذهب إلى إسبانيا وتحول إلى المسيحية، ثم يؤكد بعد ذلك أنه يعتنق دين موسى ويريد أن يموت عليه... وعموما فإن الكتاب يلقي الضوء على قدرة اليهودى على إخفاء هويته الدينية عند عقد التحالفات السياسية.

يوضح الكتاب أن مدينة فاس المغربية كانت الملجأ الذى اختاره اليهود بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ففي تلك السنوات كانت البلاد الأوروبية التى تسمح لليهود بالعيش فيها قليلة: البرتغال وبعض المدن الإيطالية. كانت القوة الإسلامية بالنسبة لليهود بمثابة المنقذ لهم من الاضطهاد المسيحى، ولذلك فعندما انتصر المغاربة على الملك البرتغالى سباستيان احتفل اليهود بالنصر وأقاموا صلاة الشكر، وهى صلاة لا تزال تقام حتى اليوم.

تكشف الوثائق التى يعرضها الكتاب أن كثيرا من زعماء اليهود كانوا يتحولون إلى الكاثوليكية، إذ أن التنصر كان وسيلة للإقامة فى إسبانيا. وقد استخدمت عائلة باياتشى تنصر بعض أفرادها لكى يكون لها مكان بين الشرق والغرب، بين المسلمين والمسيحيين، بحيث يمكن استغلال ذلك الوضع المتميز لتحقيق مكاسب لها.

٦- اليهود والعامل الاقتصادى:

يوضح الكتاب سببا اقتصاديا لوجود اليهود فى المغرب، فقد اشتهر اليهود بمهارتهم فى أعمال التجارة، ولذلك كان الملك والأعيان يستخدمون اليهود فى إدارة أعمالهم.

اليهود مهرة فى استغلال أى شىء لصالحهم. فعلى سبيل المثال انتصر المغاربة على البرتغاليين فى معركة القصر الكبير وأسروا عددا من النبلاء البرتغاليين. أقام هؤلاء فى السجن انتظارا لأن يأتى أحد فيدفع فديتهم، ولما كان الأسرى من الأغنياء فقد اقترضوا أموالا من اليهود لإنفاقها وهم فى الأسر، وفى المقابل أعطوا اليهود مستندات يمكن صرفها فى البرتغال.

من باب استغلال الظروف أيضا أن اليهود قد تخصصوا في مهن يحتقرها المسلمون مثل شغل المعادن، فكان من بين اليهود صانعو الذهب وصناع الأسلحة.

٧- ملوك وملوك:

الكتاب فرصه للتعرف على أحمد منصور الذهبي، ذلك السلطان الذي جعل من مراكش عاصمه للثقافة والتجارة والتصنيع، وبذل جهودا جبارة للنهوض بدولته، بل وحاول أن يتحالف مع الإنجليز للاستيلاء على بلاد العالم الجديد وتقاسم السيطرة عليها، وقد وسع أحمد المنصور ملكه جنوبا وحصل على الذهب واستولى على مواقع استراتيجية.

ورد في الكتاب ما يقوله مؤلف مجهول إن أحمد المنصور سلطان فاس قد أرسل إلى ملوك أوروبا يطلب منهم حرفيين مهرة في جميع أنواع الفنون وإن الملوك قد أرسلوا إليه ما طلبه. نحن نستغرب ذلك، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن مملكة فاس كانت في حرب ضد البرتغال وإسبانيا.

إذا كنا نشيد بأحمد المنصور فإن ابنه مولاي الشيخ كان على النقيض تماما، فقد نازع أخاه مولاي زيدان الملك، ولم يترفع عن التحالف مع الإسبان ضد أخيه، بل أراد أن يسلم ميناء العرائش إلى الإسبان مقابل دعم الإسبان له ضد أخيه بدفع مبلغ من المال ومنحه السلاح، وقد دخلت القوات الإسبانية الميناء بالفعل عام ١٦١٠ وأخلته من سكانه الأصليين.

٨- العامل الديني والعامل الاقتصادي:

رغم صدور قرار طرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢ إلا أن السلطات الإسبانية كانت تستثنى من القرار بعض ذوي الثقة ممن كان بإمكانهم تقديم خدمات، ويوضح الكتاب أنه اعتبارا من عام ١٤٩٣ - أي بعد مرور عام واحد على قرار الطرد - أصبح بإمكان اليهود المطرودين العودة إلى إسبانيا.

الملفت للنظر أن الدوافع الاقتصادية كانت وراء منح تسهيل إقامة لليهود في أوروبا، ففي بعض الدول الأوروبية كان يسمح بحرية العبادة، وكان هذا التساهل يمنح لليهود. والمرء لا يستطيع إلا أن يتساءل: هل كان للمسلمين نصيب من ذلك التسامح، أو بالأحرى، لماذا لم يكن هناك تسامح مع المسلمين أيضاً؟ هل كان السبب أن المسلمين كانت لهم إمبراطورية عثمانية تحميهم، ومن ثم كانوا مصدر خطر محتمل، في حين أن اليهود لم يكونوا يشكلون خطراً حينذاك؟

أدى عدم اعتراض السلطات الإسبانية. على عودة اليهود إلى أراضيها من جهة، وتشدد البرتغاليين في التضييق على اليهود من جهة أخرى، إلى هجرة اليهود من البرتغال إلى إسبانيا، وكان المهاجرون كثيرون لدرجة أن كلمة "برتغالي" في القرن السادس عشر في إسبانيا كان معناها يهودي.

كان فيليبي الثالث على استعداد لإبداء التسامح الديني مقابل أن تدفع إليه أموال، وعلى هذا فقد حصل اليهود المتنصرين في عهده على بعض الامتيازات عام ١٦٠١ بعد أن دفعوا مبلغاً كبيراً من المال، وكان ذلك ضد إرادة الكنيسة، وقد وصل الأمر إلى أن الملك الإسباني توسط لدى البابا حتى تنقضي الدعاوى المقامة ضد يهود أمام محاكم التفتيش البرتغالية عام ١٦٠٥. من الغريب أن ذلك "التسامح" لم يشمل الموريسكيين رغم استعدادهم لدفع أموال. كان هناك مرسوم بابوي يحظر على المسيحيين إمداد المسلمين بالأسلحة، وعلى الرغم من ذلك تغلبت لغة المصالح وحصل المغرب على حاجته من السلاح.

٨- فرق تسد:

يأتي بعد ذلك موضوع اللعب على تقسيم العالم الإسلامي على أسس طائفية وسياسية، فقد كان المغرب هو البلد المسلم المتوسطي الوحيد غير الخاضع للإمبراطورية العثمانية، وكان المغرب يخشى من احتلال العثمانيين له، وقد استغل الساسة الإسبان ذلك لمصلحتهم. استغلوا كذلك التنازع على العرش المغربي،

وكانوا يؤيدون بالتأكيد من يروونه أقرب إلى تحقيق مصالحهم... كانت هناك مفاوضات وتنازلات وتسهيلات. في كل هذه الأمور كان يبرز دور اليهودى صمويل باياتشى.

١٠- الأهمية الاستراتيجية:

تعرض وثائق الكتاب أهمية مدينتى العرائش والمعمورة المغريبتين وتأثيرهما على أمن الطرق المؤدية إلى بلاد العالم الجديد، وكيف أن كلاً من هولندا وانجلترا كانتا تنافسان إسبانيا الرغبة فى السيطرة على المدينتين. كان وضع صمويل باياتشى يؤهله للعب دور بارز فى المفاوضات التى جرت فى هذا الشأن بين المغرب ودول أوروبية.

١١- متفرقات:

الكتاب يلقى الضوء وإن كان بشكل عابر على نهج اليهود فى المحافظة على أصلهم والتزاوج فيما بينهم والمحافظة على شعائرهم الدينية وتفضيل الإقامة فى المشرق - الذى يحترم الخصوصيات الثقافية - على المخاطرة بالإقامة فى بلاد الغرب الكاثوليكي الذى لا يحترم العقائد الأخرى وتقديم مساعدات اجتماعية للفقراء اليهود.

يتحدث الفصل الثالث من الكتاب على أن كلا من الكاثوليك والبروتستانت فى أواخر القرن السادس عشر قد أدركوا أن النزاع بينهما لا يمكن أن يحسم فقط بالسلاح وأن ذلك أدى إلى وجود نمط سياسى فى العلاقة بين الطرفين يسمح بتواجد اليهود فى أوروبا بل وبقيامهم بدورهم.

ونظن أن من حق القارئ المسلم أن يتساءل: لماذا لم يستفد المسلمون من جو الحرية الدينية ؟

يبرز الكتاب أن أعضاء العائلة اليهودية الواحدة يتظاهرون بالانقسام

. والاختلاف فى العزل، بينما هم فى السر يتعاطفون فيما بينهم ويعاون بعضهم بعضا. على أن هذا لا ينفى وقوع خلاقات فعلية بين اليهود أحيانا.

الطريف أن الكتاب يشرح الفرق بين القرصان الحكومى والقرصان الخاص، فالأول يبحر فى سفينة يملكها لكنها حاصلة على ترخيص من الحكومة وكانت تحمل علم الدولة التى منحتة "رخصة قرصنة حكومية"، وكان عمل القرصان الحكومى يقتصر على مهاجمة السفن التى رخص له بمهاجمتها، وهى سفن الدول التى لم توقع معاهدة مع حكومته، أما القرصان الخاص فلم يكن يهتم سوى الربح وكان يهاجم كل ما يقابله. الجدير بالذكر أن القرصنة الحكومية كان معترفا بها وكان من يقوم بها لا يقع تحت طائلة القانون.

الكتاب يشير — ربما لأول مرة — إلى أن عددا من اليهود الإسبان قد استقر بمصر.

ما أشبه اليوم بالبارحة، فرغم العلاقات الطيبة وعلاقات المصالح التى كانت تربط بين المغرب وهولندا، إلا أن هولندا كانت تكتفى بإمداد المغرب بالسلاح وكانت ترفض تماما أن يكون له أسطول بحرى.

وبعد:

رأينا أن صمويل باياتشى كان بارعا فى استغلال أى شىء لصالحه ولصالح أسرته، فهو قد استطاع الوصول إلى القصر المغربى، ووصل إلى قصور إسبانيا وفرنسا وأصحاب السلطة فى هولندا... إلخ. وعندما نتصفح الكتاب نجد أنه لم يكن هو الشخص اليهودى الوحيد الذى قام بهذا الدور، بل كان هناك يهود كثيرون ساروا على هذا النهج ووصلوا إلى مواقع السلطة هنا وهناك.

لم تكن هذه التصرفات إنز حكرا على شخص معين، بل كانت تمارسها عائلة يهودية بأكملها ولمدة أجيال عديدة. إذا كنا نتحدث عن صمويل باياتشى فليس ذلك إلا لأنه مؤسس العائلة.

المهم هو أن صمويل لم يكن اليهودي الوحيد الذي اتسمت حياته بتعدد الانتماءات واستخدام علاقاته الخاصة بأصحاب السلطة في العالمين الإسلامي والمسيحي لتحقيق مصالح لنفسه وللإهود بشكل عام.

كان هذا الكتاب فرصة للتعرف على أحد جوانب الحياة في مغربنا العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونحسب أنه أضاف بيانات مهمة لمن يريد دراسة القضية الموريسكية بكل أبعادها. لا يسعنا في النهاية إلا أن نقدم جزيل شكرنا مرة أخرى للزميلين غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس على تعاونهما في سبيل صدور هذه الترجمة العربية للكتاب في مصر، وشكرنا للمجلس الأعلى للثقافة لا ينقطع، فهذا واحد من كتب كثيرة تتعلق بمسلمى الأندلس يصدرها المشروع القومى للترجمة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

شكر وامتنان

استغرق هذا الكتاب وقتا لا يتناسب مع حجمه الضئيل: لقد استلزم بين أمور أخرى ساعات طويلة من البحث في الأرشيفات بحثا عما كان يعد بيانات هي في الغالب قليلة ودائما متفرقة جدا. على مدى هذا البحث أصبحنا مدينين بالشكر، على نحو خاص جدا لإيسابيل أغيرتي، رئيسة قاعة الأرشيف العام لسيمانكاس. ونحن الذين نتردد على هذا الأرشيف نعرف إلى أي حد تسهم معارفها ولطفها في إنجاز عملنا. يجب أن نشكر أيضا لويسا إيسابيل الباريت دي توليدو، دوقة ميدينا سيدونيا، التي سمحت لنا بالاطلاع على أرشيفها العائلي، وقدمت لنا إيضاحات بغرض إرشادنا إلى محتويات أرشيفها الثرى للغاية. هناك أرشيف خاص آخر، مجموعة إم.إتش.غانس القديمة بأمستردام، فتح لنا أبوابه بلطافة وريثه الحالي. نشكر كذلك موظفي الأرشيف التاريخي الوطني والمكتبة الوطنية بمدريد، وأرشيف تورى دو تومبو الوطني بلشبونة، والمكتبة الجامعية بأمستردام، ومحفوظات رويالومي العامة في بروكسل، الذين اهتموا بطلباتنا العديدة، واستجابوا لطلباتنا بعمل الصور الضوئية. لقد أعطوا نماذج من اللطف والتفاهم إزاء تلك العجلة التي تصيب الباحث الذي يعمل لعدة أيام في أرشيف بعيد عن المدينة التي يعيش فيها. من هنا يأتي امتناننا.

فيما يتعلق بمادة العمل، فإن مصدرها ينطلق من مناقشاتنا حول إمكانية القيام بعمل مشترك عندما عثر جيرارد ويغرس على وثائق موحية جدا عن باياتشي في الوقت الذي كان فيه كلانا يبحث في أرشيف سيمانكاس العام. استخدمنا هذه الوثائق كنقطة انطلاق، وقد عثرت غارثيا أرينال على كمية كبيرة من المراجع التي بدت لنا مبهرة. هكذا أنشأنا قاعدة الدراسة الحالية. بدءا من هنا وبالتوافق مع الأماكن التي يعيش فيها كلانا، مدريد وليدن على التوالي، تولت غارثيا أرينال الأرشيفات والمكتبات بشبه الجزيرة الأيبيرية، وتولى ويغرس أرشيفات ومكتبات هولندا وبلجيكا. على مدى السفريات والمقابلات في العديد من المؤتمرات استطعنا أن نناقش ونقارن اكتشافاتنا وأفكارنا وتفسيراتنا وقراءاتنا الأولية التي تبادلناها أكثر

من مرة عبر الإنترنت، ذلك الاختراع الذي شجع كثيرًا على التعاون الدولي. إذا نظرنا إلى الوراء، يمكن القول إن الوزن الأكبر في كتابة المجلد الذي يملكه القارئ الآن بين يديه، كان من نصيب غارثيا أرينال. ومع ذلك فقد قمنا سويًا بمراجعته وتنقيحه بحيث أن كلانا مسئول عن الكتاب بنفس الدرجة. أثناء الأعوام التي أعددنا فيها الدراسة الحالية، حظي جيرارد ويغرس على منحة من الأكاديمية الملكية الهولندية للعلوم (K.N.A.W) حتى أواخر عام ١٩٩٥ وعلى منحة من مؤسسة بنك بيلباو-بيثكيا (FBBV) أتاحت له أن يتواجد في المجلس الأعلى للبحث العلمي بمدريد مدة ثلاثة أشهر من خريف عام ١٩٩٧.

من السهل التخيل أن أقاربنا وأصدقاءنا المقربين قد ملوا من سماع الكلام عن صمويل باياتشي، وزيادة على ذلك وجب عليهم قراءة فصول في مرحلة مختلفة من الإعداد. إن تعليقاتهم، دهشتهم أو عدم فهمهم أحيانًا كانت بالنسبة لنا مفيدة جدًا، وكذلك كان ملهم دافعًا لنا لتخفيف إسهاب فصل.

زملأونا ماريبيل فيترو ومانويلا مارين وفرناندو مديانو من قسم الدراسات العربية في المجلس الأعلى للبحث العلمي C.S.I.C، سجويرد فان كونينجسفيلد من جامعة لينن ودافيد واسيرستين من جامعة تل أبيب قرأوا مراحل متعددة من المخطوط وكانت تعليقاتهم مهمة للغاية. نشكر زميلنا هيرمان برينس سالومون (جامعة ولاية نيويورك) على لفت انتباهنا إلى المصادر في بروكسل، ونشكر اليستير هاميلتون وويم دي بار على مساعدتهما في فك رموز بعض الوثائق. كما نشكر كلًا من دريس منصورى، وعبد الإله بن مليح (جامعة فاس) وخوسيه ماري بينيويلا، الذين أمدونا بالصور التوضيحية.

وقد ترجمت ايسبرانثا ألفونسو المقالات المكتوبة باللغة العبرية المذكورة في قائمة المراجع.

وأخيرًا، نشكر كلًا من إيرنوك فان غوسليغا، وويلمويت بويندير، وهاننى سلووتمان — طالبة من كلية اللاهوت بجامعة لينن — وكريستينا دي لا بوينتى، من المجلس الأعلى للبحث العلمي بمدريد على تقديم المساعدة التقنية في المراحل الأخيرة من هذا الكتاب.

مدخل

هناك أشخاص تُعدّ سيرهم الذاتية نوعاً من التعبير عن الصراعات الكبيرة في الأزمنة التي كُتب عليهم أن يعيشوا فيها. ليست الدراسة عن أبطال لعبوا أدواراً أو أصدروا قرارات حددت ملامح عصرٍ بكامله، بل على العكس تتعلق بـ «سير صغرى»، سير أشخاص، ليسوا بالضرورة عاديين، يضطرون لمجابهة مجموعة من الظروف التي تحكمها أحداث سياسية واقتصادية تخرج عن نطاق سيطرتهم المباشرة. إن مأساتهم الشخصية والطريقة التي واجهوا بها أو تكيفوا أو ساءروا بها هذه الظروف الخاصة لها قيمة نموذجية وتمثل حياة الآلاف من الأشخاص المجهولين. من ناحية أخرى فإن هذا النوع من السير النادرة له أحياناً القدرة على أن يستدعى بأسلوب فعال موقفاً سياسياً أو اجتماعياً محدداً، وعلى أن يستحضر ماضٍ بأكمله.

المشكلة هي أن هذه السير المتعلقة بأشخاص مجهولين بحكم طبيعتها الخاصة يكون من الصعب جداً توثيقها أو إعادة بنائها في مجملها. ولهذا فقد أحسنا بافتتان حقيقى — نأمل أن نعرف كيف ننقله — بالحياة الغامضة والمعقدة لصمويل بياتشى.

وُلد صمويل بياتشى فى فاس وهو من عائلة يهودية من أصل إسباني، وكان عميلاً تجارياً ودبلوماسياً للسلطان المغربى مولاي زيدان فى هولندا حتى وفاته فى عام ١٦١٦. لكنه قبل ذلك، وفى نفس الوقت، كان أيضاً عميلاً فى إسبانيا، حيث حاول أن يستقر ويحضر أسرته، وقد عمل طيلة حياته جاسوساً وعميلاً مزدوجاً وتاجراً وقرصاناً. فى هذه الشخصية تجتمع كل الأنشطة والوظائف الخاصة باليهود والموريسكيين المبعدين من شبه الجزيرة، وكذلك المواقف التى تترواح بين الامتعاظ والثأر من ناحية، والمحاولات المتكررة للعودة من ناحية أخرى، مروراً بالاستخدام الواعى ولمصلحته الشخصية لتلك العناصر الثقافية التى كانت تجعلهم متماثلين مع سكان شبه الجزيرة الأيبيرية. كان بياتشى يهودياً متآملاً وعضواً بارزاً بجماعة أمستردام، مستعداً للارتداد للكاتوليكية فى إسبانيا وللعمل لصالح

التاج الإسباني، ولم يهجر أبداً أساسه العائلي في المغرب، واحتفظ أيضاً بعلاقات وثيقة مع إسطنبول. وكان أخوه جوزيف سفيراً للمغرب في هولندا من بعده، وكان ابن أخيه موسى مترجماً للسلطان مولاي زيدان ولمن جاءوا من بعده. كان هو العضو الأكثر شهرة من بين عائلة لعب أعضاؤها دوراً مهماً ليس فقط في العلاقات بين المغرب وهولندا على وجه الخصوص، لكن أيضاً في علاقات المغرب مع دول أوروبية مختلفة (إنجلترا، فرنسا) ومع الإمبراطورية العثمانية، خلال جزء من القرن السابع عشر: إن مسار هؤلاء الأعضاء الآخرين، والذين سنهتم بهم أيضاً، توضح الخيارات الفردية المختلفة لكل منهم أمام نفس الظروف.

لم يكن صمويل باياتشي شخصاً مجهولاً. فقد كان هدفاً لأبحاث جزئية مخصصة في الأساس لدوره كعضو بارز في طائفة السفارديم بأمستردام أو لدوره، الملتزم على حد سواء، كعدو نشيط لإسبانيا. ولهذا عندما بدأنا العمل في أرشيف سيمانكاس العام (كل واحد منا بمفرده) في محتويات قسم «الدولة الإسبانية» التي تكشف بطريقة أكثر فعالية هذا العالم المدهش من جبهة البحر المتوسط بين إسبانيا والمغرب، تحولت دهشتنا إلى افتتان عندما كانت تظهر أوراق وبيانات متفرقة تشير إلى صمويل باياتشي وإلى أخيه جوزيف. إنها وثائق ترسم في خطوط عريضة شخصية أشد تعقيداً وخداغاً بكثير مما ألمحت إليه الدراسات التي تحدثت عنهما قبل ذلك، وتظهر القصور والطابع النشط لهوية فردية، وكذلك اللحظات المتناقضة لبناء تلك الشخصية. وقد حملنا هذا الافتتان على تمشيط أرشيفات عديدة بحثاً عن تفاصيل كثيراً ما بدا العثور عليها في الوثائق الموجودة أمراً مستحيلاً.

في بعض الحالات — وهذه واحدة منها — يكون عمل الباحث مشابهاً جداً لتحريات الشرطة وربما يكون من المناسب أن نكتب العمل الناتج عن البحث متبعين المسار والاتجاهات والآثار والاكتشافات التي توصل إليها البحث ذاته بنفس الطريقة التي تكتب بها قصة بوليسية أو قصة جاسوسية جيدة. لن نكون قادرين على فعل ذلك هنا لأن عملنا الأكاديمي يمنعنا من ذلك. وهو شيء مؤسف، حيث أن السيرة، كنوع أدبي، هي المجال المناسب الذي تطرح فيه الأسئلة والتقنيات الخاصة بالأدب في كتابة التاريخ.

إن أكبر عقبة واجهناها تمثلت في بناء قصة توضح العناصر المتناقضة التي تشكل هوية شخص، وإعادة صياغة وفهم شخصيته المعقدة حينما تتضمن الوثائق ثغرات كثيرة خاصة في مظاهر سيكولوجية أو سلوكية، وفي أشكال وأفكار الحياة اليومية. وحيث أن هدفنا ليس عمل تسلسل تاريخي محض للأحداث فسوف نحاول أن نتتبع الأسئلة التي طرحها علينا الكشف التدريجي لحياة باياتشى.

لكي نملاً تلك الثغرات — ولو بشكل جزئى — حاولنا أن نوسّع بقدر استطاعتنا عدد الأشخاص والحركات التي كان باياتشى على اتصال بها، وأن نعيد بناء بيئته من حوله، وأن نعدد الأمثلة لسير أخرى متشابهة ومتقاربة مع سيرته.

إن حياة باياتشى، العميقة في تفرداها، ليست مثالية بالمعنى الأخلاقي للكلمة. لقد كان باياتشى يتكتم ويتصنع، فقد كان يمثل أدواراً مختلفة، كان يبتكر شخصيته الخاصة أمام العديد من مخاطبيه وحسب الموقف الذى كان فيه. إن سماته الشخصية هي القدرة على التكتّم والتشكل والتكيف وروح العمل والمخاطرة بالنفس لشخص يفاوض دائماً ويستخدم شتى الحيل، لشخص يعيش في الشك. إن باياتشى الملتوى والمراوغ يعيش، مثل آخرين ممن هم على شاكلته، وعلى الحد الأدنى، في الهامش، مستخدماً دائماً قدرته هذه على العيش موزعاً بين بيئتين، المكان الأخير الذى يستطيع منه الحصول على مركز قوة: هذه السمات ربما كانت استثنائية، بيد أنها لم تكن فريدة مطلقاً. ولا حتى، كما سنرى، قاصرة على اليهود الإسبان المهاجرين: على مدى الصفحات سوف نجد أنطونى وروبرت شارلى، وچان كاستيلان وآخرين كثيرين كانت لهم صفات مشابهة.

من ناحية أخرى؛ فإن السلطات (وخاصة الإسبانية) التي كانت لها تعاملات معه استغلوا قدراته حتى في الحالات التي كانوا يعرفون فيها إزدواجيته أو افتقاده للإخلاص الحقيقي، أو لنقل قدرته على أن يكون مخلصاً لعدد من الجهات المتعارضة. هذا يبدو أحياناً، كما سنرى، شيئاً لصالحه لا ضده. ربما كان ذلك يكشف المظاهر الإيجابية في النفاق والخيانة التي تدل على تغيرات العقلية في عصر النهضة.

سوف نحتاج أن ندمج باستمرار حياة باياتشى ببيئته، لأن ما يعطى ثراء لشخصيته هو وضعه فى وسط محدد اجتماعيا وتاريخيا. أيّا كانت أصالته الظاهرة، واختلافه عن القاعدة، فإن حياته لا يمكن أن تفهم من خلال سمائه إذا لم تظهر البيئة إلى سمحت بها.

فى المقام الأول، اهتمامنا بالعالم الذى كان ينتمى إليه باياتشى. كانت عائلة باياتشى تنتمى إلى واحدة من المجموعات الدينية المطرودة من شبه الجزيرة فى أواخر القرن الخامس عشر، وكانوا واحدة من الظواهر الأكثر أهمية لهذه المجموعة من المطرودين، حيث أنهم احتفظوا بخصائصهم الإسبانية خلال أجيال كثيرة فى الأراضى المختلفة التى أقاموا فيها.

سوف نتتبع المراحل المتعددة لحياة باياتشى ونبدأ بتسليط الضوء على المدينة التى وُلِدَ فيها، فاس، وبالحياة هناك وخصائص مجتمعه اليهودى. سنهتم بوجه عام، بالدور البارز الذى كان لليهود، وعلى الأخص الذين هم من أصل إسباني، فى القصر المغربى وفى العلاقات الدبلوماسية والتجارية على حد سواء، للمغرب مع العالم الخارجى. فى كل هذا فإن ارتباط هؤلاء اليهود بإخوتهم فى الدين فى البرتغال وهولندا وإيطاليا له دور مهم.

فى المقام الثانى، سنشير إلى إقامة باياتشى فى إسبانيا وتعاملاته مع سلطات إسبانية مختلفة، وسنعرض محاولاته لتثبيت إقامته هنا مع أسرته، حتى تعين عليه الرحيل بسبب مشاكل حدثت مع محكمة التفتيش.

فى المقام الثالث، سنتحدث عن المرحلة الأكثر طولاً والموثقة جيّداً وهى ذلك الجزء من حياته الذى قضاه فى أمستردام، حيث عاش بصفته عميلاً دبلوماسياً وتجارياً «ليس سفيراً أبداً» للسلطان المغربى، وسنتناول رحلات ذهابه وإيابه المستمرة للمغرب، واشتراكه فى حياة الجماعة اليهودية التى كانت تتخذ من هولندا مقراً لها.

كان عائداً إلى هولندا حينما غيرت العاصفة اتجاه سفينته المحملة بغنيمة مسروقة من سفن إسبانية هوجمت بالقرب من لاس أنوريس. توقفت سفينة باياتشى فى إنجلترا حيث عانى من محاكمة قضائية طويلة بتهمة القرصنة، بناءً على

دعاوى السفير الإسباني في لندن. وفي لاهاي مات باياتشى عندما كان يتباحث مع السلطات الإسبانية من أجل أن يكون في خدمتها ويتفاوض على العودة إلى إسبانيا.

لم نحاول في هذا الكتاب أن نقوم بعمل بحث مستفيض لكل الوثائق المحفوظة في أرشيفات أوروبية والتي تشير إلى باياتشى. فنحن لم نعالج بعمق، مثلا، المظاهر الاقتصادية لمهنته، على الرغم من أننا وصفنا نشاطاته التجارية الرئيسية. على سبيل المثال، فيما يتعلق بالوثائق العامة في أرشيف لاهاي، قررنا أن نقتصر على تلك الوثائق المنشورة في كتاب «مصادر غير منشورة حول تاريخ المراكشى». عكس ذلك كان سيقدم تفصيلا لبيانات لم تكن لتحدث شيئا سوى التعقيم على الخط العام للكتاب. هذا النهج، مع أنه يسير وفق حياة صمويل باياتشى، لا يعد سيرة فحسب بمعنى أنه لا يتناول فقط حياة صمويل وأسرته؛ لكى نبرز حياتهم أولينا اهتمامنا بحياة أشخاص معاصرين لهم ربما شاركوا في إحدى مراحل حياة باياتشى أو تعرضوا لمواقف مشابهة. تحدثنا على وجه الخصوص، عن يهود آخرين قدموا من فاس إلى إسبانيا أو البرتغال، ثم سافروا إلى هولندا أو إلى الشرق، وكانت لهم وظائف مشابهة لوظيفة باياتشى. البعض منهم حاكمهم محاكم التفتيش وبالتالي توجب عليهم أن يعطوا بيانا كاملا عن نسبهم وعن «قصة حياتهم».

إن حياة باياتشى، كما قلنا، ليست فريدة، ولقد أردنا أن نثبت كيف أن هؤلاء الأشخاص المنتمين لنفس المجموعة، الذين كانوا يواجهون ظروفًا مشابهة تحت ضغط وفي حالة من التهميش، قاوموا بطرق مختلفة جدا أو اختاروا مجموعة كاملة من أساليب البقاء. إن التنوع والاختلاف الداخلى فى كل هذا العالم هو نقطة أخرى من النقاط التى يريد هذا الكتاب التركيز عليها والتي ينطلق منها طرح آخر من أطروحاته.

كثير من الدارسين لتاريخ اليهودية فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد طردهم فى عام ١٤٩٢، يستعملون بكثرة مقولات أساسية حول مفاهيم الأمة أو الشعب اليهودى. إن التنوع والتناوب ليس فقط فى الوسائل الشخصية التى اختارها أعضاء هذه الجماعات، بل تفاوت مستويات الالتزام الدينى وإمكانية تحوّل الانتماءات الدينية منفصلة عن الانتماءات السياسية، وحتى الثقافية، كل ذلك يحملنا على

مراجعة المفاهيم عن جوهر خصائص المجموعة. على أية حال لقد بنيت لنا تلك المقولات غير كافية أو موضحة، وكذلك بدا لنا مستحيلاً إدراك علاقات واضحة بين المعتقدات الدينية اليهودية والتحالفات السياسية.

توجد أيضاً سير مشابهة لسيرة باياتشى فى مجموعات أخرى لأشخاص. هكذا، سوف نبرز أيضاً بعض الشخصيات الموريسكية فى مسارات متشابهة جداً حيث أن الموريسكيين وجدوا أنفسهم يواجهون نفس المشاكل التى يواجهها أبناء وطنهم من اليهود. وعلاوة على ذلك فقد نشأت أحلاف بين موريسكيين ويهود فى المنفى، وهو أمر لم يحدث إلا نادراً عندما كانت كلتا الأقليتان تعيشان فى شبه الجزيرة. سوف نحاول بالتالى أن نوضح كيف أن الأساليب الجماعية والديناميكية للانتماء لدين، لا تقتصر فحسب على دينهم ومحتواه وبالأحرى لا تقتصر على عقيدة قانونية. ورأينا هو أن الإنسان ينتمى إلى ثقافة، بالمعنى الأنثروبولوجى للكلمة، قبل أن يكون مدرجاً فى نظام دينى وأن هذا الانتماء الدينى قابل للتغيير فهو عبارة عن جملة من العناصر المختلفة. من هذا المنطلق فإن باياتشى ونظرانه يستبقون وضع اليهودية المعاصرة. وليس هذا فقط؛ أحد أهم الظواهر فى اعتقادنا، وأحد الطروحات الجوهرية لهذا الكتاب هو أن هذه المجموعات من الأشخاص استبقت بعدة أجيال التغيرات العقلية ومواقف وسمات هوية الإنسان الغربى الحديث الذى يرتبط على وجه العموم بحركة التنوير.

يتناول هذا الكتاب بصفة أساسية ثلاث أماكن: فاس ومدريد (وبطريقة غير مباشرة لشبونة) وأمستردام وكل واحد من هذه الأماكن لا يعنى فقط مرحلة خاصة من حياة باياتشى لكن يعنى أيضاً على وجه الخصوص وجود مجموعات يهودية مختلفة.

كانت البداية فى فاس التى كانت مكاناً للجوء اليهود الإسبان بعد المطاردات فى أواخر القرن الرابع عشر، واستقبلت دفعات كبيرة من المنفيين اليهود عندما حدث الطرد فى عام ١٤٩٢. على مدى القرن السادس عشر تحولت فاس إلى مكان للعودة إلى اليهودية من قبل اليهود الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من الإسبان والبرتغاليين. فى الثلث الأول من القرن السابع عشر وبسبب يرجع فى الأساس إلى

حرب أهلية ضروس أصبحت الظروف قاسية جدا في المغرب، وحاول عدد معين من اليهود المغاربة من أصل إسباني العودة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية حتى لو أدى ذلك إلى تحولهم إلى المسيحية. في مدريد، كان يتنقل يهود ومسيحيون جدد و«خنازير»، اسم كان يُستَبُّ به من كانوا يهود في الخفاء، سواء كانوا من الإسبان أو من البرتغاليين. يبدو مدهشاً، من وجهة نظر مقبولة غالباً وسوف يتعين علينا مراجعتها، الحضور الكبير نسبياً لعملاء ومخبرين وتجار يهود في بلد مثل إسبانيا، كانت قد اتخذت تدابير مشددة لطردهم، ولم تكن تقبل الوجود القانوني لليهود داخل حدودها.

في العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر بدأ يظهر في الدول الأوروبية ميل إلى توطين وإدماج مجموعات يهودية. رسائل وامتيازات وهبات أنهت بالتدريج الموانع القديمة التي كانت تحد من قدرتهم على العيش في معظم الدول الغربية، وكانت تحول دون نشاطهم الاقتصادي والثقافي. إنها مقدمات الفترة المحصورة بين عامي ١٦٥٠، ١٧١٣، التي شارك فيها اليهود في الحياة الغربية بتركيز وتوسع غير مألوفين.

في أواخر القرن السادس عشر بدأ يتكون في أمستردام ما سوف يصبح أهم جماعة لليهود الإسبان المنفيين. كان أغلبية أعضائها قد عاشوا في السابق سنوات طويلة كمسيحيين في شبه الجزيرة، وحصل كثير منهم على شهادات جامعية. في أمستردام سيكونون «يهود جدد». «يهود»، «خنازير»، «برتغاليون».

هذه المصطلحات، التي سوف نستخدمها باستمرار، تستلزم توضيحاً مبسّطاً موجزاً.

إن وجود مرتدين، أي «مسيحيين جدد» يُعدّ واحدة من أهم المشاكل في القرون الأولى من العصر الإسباني الحديث. إن ظهورهم بهذه الصفة، أي كمُشكَلَة، عادة ما يتم تحديد تاريخها مع المذابح الكبيرة والملاحقات في العام المأساوي ١٣٩١، التي أدت إلى هلاك عدد كبير من الجماعات اليهودية في إسبانيا. وقد أدى كل ذلك إلى هجرة اليهود كما أدى إلى ظهور عدد كبير من المرتدين قسراً إلى المسيحية. بعد مرور قرن، وفي عام ١٤٩٢، كان اليهود الإسبان هدفاً لمرسوم

ملكى يخيرهم بين الطرد أو التحول إلى الكاثوليكية. اختارت الأغلبية العظمى الطرد. كان نفس المرسوم الخاص بالطرد يقضى بعقوبة الموت لهؤلاء اليهود الذين يحاولون العودة للأراضي الإسبانية، لكن بين عامى ١٤٩٣، ١٤٩٦ سُمح بعودة اليهود المطرودين الذين فكروا وقرروا العودة إلى إسبانيا بعد أن كانوا يعيدونهم من الحدود إلى حيث أتوا.

توجه المهاجرون اليهود أساسا إلى البرتغال وإلى أراض إسلامية، إما إلى المغرب وإما إلى الإمبراطورية العثمانية. تعرّض الذين ارتدوا وبقوا فى إسبانيا للريبة وللرفض من قبل مجتمع الأغلبية وأيضا من اليهود المرتدين المنحدرين من هؤلاء الذين كانوا قد ارتدوا من قرن مضى ولا يريدون أن يروا أن هذه الدفعة الجديدة تزيد من عددهم وتضعهم من جديد تحت المراقبة.

وكانوا على حق فى مخاوفهم. فى إسبانيا عانى المرتدون والمنحدرون من مرتدين من الرقابة والقهر الشديد من قبل محاكم التفتيش خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، بالإضافة إلى التفرقة الاجتماعية المتعددة والمستندة إلى اللوائح الشهيرة المتعلقة بـ «نقاء الدم». لاشك أن كثيرين كانوا كاثوليكين مخلصين، ولكن ذلك لم ينقذهم من شيء. البعض والبعض الآخر، أى «المسيحيون الجدد» ممن كانوا كاثوليكين مخلصين أو يهود فى الخفاء (هؤلاء الذين كانوا يُستَبَوْنَ باسم «خنازير») دخلوا، على الرغم من لوائح طهارة الدم والرفض الاجتماعى، ليشاركوا فى كل مجالات الحياة الإسبانية، ومنها طبقة رجال الدين، والوظائف الحرة، والمعاملات التجارية والمصرفية، والجامعات ... وحتى المصاهرة بالزواج من طبقة النبلاء.

فى أواخر القرن كان يبدو أن المشكلة تكاد تكون قد حُلّت، وأن اليهود قد ذابوا فى المجتمع المسيحى. خلال العقود الأخيرة لم تحاكم محاكم التفتيش متهودين، وكانت قد أوقفت اهتمامها فى الأساس على الموريسكيين واللوثريين. كانت قد ارتفعت أصوات ضد لوائح نقاء الدم وبدأ أن مشكلة المسيحيين الجدد كانت على وشك الانتهاء. كل ذلك سوف يتبدل بظهور المشكلة «البرتغالية».

ذكرنا أن دفعة كبيرة جدا من اليهود المطرودين كانت قد لجأت إلى البرتغال في عام ١٤٩٢، حيث كان لا يزال يُسمحُ حينئذٍ بوجودهم القانوني. وسرعان ما احتدمت المشكلة هناك بدرجة أكثر مما كانت في إسبانيا: فقد أعلن الملك مانويل الأول ملك البرتغال في عام ١٤٩٧ عن تحويلهم الإجباري إلى المسيحية مانعاً من الناحية العملية خيار المنفى. وعليه، (بمجرد تعميدهم)، فإن المسيحيين الجدد البرتغاليين وأنسالهم مُنعوا من الخروج من المملكة. في البرتغال شكّل اليهود المستترين مجموعة متماسكة ونشطة ولا يمكن قهرها.

في عام ١٥٣٦ أسسَ الملك خوان الثالث محكمة التفتيش في البرتغال حيث كرسَت محكمة التفتيش كل جهودها لقمع الممارسات والعقائد «المتهودّة» لمسيحييها الجدد. بدأت حينئذٍ هجرة ثانية نحو إسبانيا كانت في البداية قليلة العدد وسريّة، وكذلك إلى الأراضي البرتغالية في أمريكا. المعازل البرتغالية في المغرب (سبّطة، ماثاغان، طنجة) كانت أيضاً مكان حاول من خلاله اليهود البرتغاليون المستترون الهروب من وضعهم، والسفر إلى المغرب.

كانت هجرة «البرتغاليين» إلى إسبانيا على نطاق واسع بدءاً من عام ١٥٨٠ الذي حدث فيه الوحدة بين التاجين. كانت محكمة التفتيش في إسبانيا قد تخلّت تقريباً عن قمع اليهود المتخفين، وعلاوة على ذلك فإنه حتى عام ١٦٣٠ لم يكن واجبا تبادل تسليم للمتهمين بين محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال. ولذلك نشأت في سنوات قليلة موجة هجرة حقيقية لمرتدين برتغاليين. هاجر هؤلاء أيضاً بأعداد كبيرة إلى فلاندرس، التي كانت خاضعة للتاج الإسباني ولم يكن فيها محكمة تفتيش حتى عام ١٥٦٥، ومن هناك هاجروا إلى هولندا. انضمت هولندا إلى اتحاد أوترخت في عام ١٥٧٩، وهذا كان يعنى، بين أشياء أخرى، حرية العبادة في أراضيها. وبدأت الجماعة البرتغالية في أمستردام تتشكل في العقد الأخير من القرن السادس عشر واكتسبت بسرعة أهمية هائلة، سواء من الناحية الاقتصادية أو الثقافية. في الثمانينيات من القرن نشرت مدينتان إيطاليتان (فينسيا وليفورنو) رسائل تعرض فيها تسهيلات في الإقامة وامتيازات اقتصادية لليهود. وقد استوطنت دفعات كبيرة من المهاجرين الإسبان هناك.

أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر كانت كلمة «برتغالي» في إسبانيا تعد مرادفاً لـ «يهودي متخفي». إن وصول هذه المجموعة، الأكثر تأصلاً في تقاليد اليهودية من الطبقة المماثلة من المسيحيين الجدد الإسبان، أدى إلى تفاقم هائل لمشكلة المتنصرين. كانت التناقضات الاجتماعية والسياسية عظيمة وخطيرة، لدرجة أن مؤرخين بارزين اعتبروا أن مشكلة المتهمين والمشاعر المتنوعة والمواقف الاجتماعية والسياسية إزاءها في إسبانيا والبرتغال، كانت واحدة من العوامل الأساسية التي أدت إلى فشل الوحدة. في إسبانيا، في أوائل القرن السابع عشر، لم يجد البرتغاليون استقبلاً سيئاً. من الأفضل أن نتحدث عن رجال الأعمال البرتغاليين، فإسبانيا لم يكن لديها طبقة أصحاب أعمال من أهل البلد. قصر البرتغاليون نشاطهم على وجه الخصوص على تجارة الصوف القشتالي مع شمال أوروبا وأيضاً مع حكام المكسيك وبيرو. حاول القصر من ناحية أن يستبدل الإيطاليين والألمان برجال بنوك «برتغاليين» وأن يخفف بهم الصعوبات الاقتصادية للمملكة.

في سنوات حديثة، نشأ نقاش شديد بين المؤرخين حول وجود أو عدم وجود يهودية سرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد عام ١٥٥٠. مجموعة من المؤرخين تنفى نفياً قاطعاً وجود يهود سربيين، وتؤكد أن كل المتنصرين، على الرغم مما يمكن أن تشير إليه ملاحقات محاكم التفتيش، كانوا مسيحيين مخلصين. نحن نعتقد أن كثيرين كانوا مسيحيين، بيد أن وجود اليهودية السرية، خاصة بين البرتغاليين أمر مؤكد ويظهر بوضوح في الوضع الذي سوف نصفه في أمبيرس وأمستردام. باياتشي لم يكن ينتمي إلى هذه المجموعة، لم يكن «يهودياً جديداً»، بل كان «يهودياً من الموطن»، أي أنه وُلِد وتربى في اليهودية.

إن اتحاد التاجين، البرتغالي والإسباني، في شخص فيليبي الثاني، جاء نتيجة هزيمة برتغالية كبيرة حدثت في المغرب. ففي أغسطس من عام ١٥٧٨، في شمال المغرب، وبالتحديد في القصر الكبير، على ضفاف وادي المخازن، واجه الجيش البرتغالي يقوده الملك سباستيان، ويرافقه كل نبلائه، بالإضافة إلى أحد المتطوعين إلى عرش المغرب وكان أخاً ومنافساً للسلطان الحاكم حينئذ، واجه الجيش المغربي يقوده السلطان عبد الملك السعدي. مات الملوك الثلاثة المذكورين في ساحة القتال

وقد سُميت المعركة باسم معركة الملوك الثلاثة التي نتجت عنها هزيمة ساحقة للبرتغال. فقدت البرتغال ملكها الشاب الذي لم يكن له نسل وكان ابن شقيق الملك فيليبي الثاني وكل النبلاء وضباط الجيش، بالإضافة إلى عدد هائل من الرجال الذين قُتلوا أو أُسروا. في السنوات التالية للمعركة بذلت البرتغال المثخنة بالجراح جهداً هائلاً وكمية كبيرة من المال افتداءً لأسراها.

كان من نتائج هذه الحرب أن قامت الأسرة المغربية الحاكمة وبالأخص سلطانها الجديد، أحمد المنصور الذهبي بزيادة كنوز خزانها بدرجة كبيرة. بالإضافة إلى ذلك، وعلى وجه الخصوص، فقد اكتسبت المغرب أهمية جديدة على الساحة الأوروبية وتحولت إلى ورقة توازن في الاعتبار بالنسبة لأولئك الذين كانوا يكافحون ضد الهيمنة الإسبانية. فقد سارعت إنجلترا وهولندا على وجه الخصوص بإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية طيبة مع السلطان المغربي. لقد تحولت مدينتا العرائش والمعمورة، وهما الميناءان المغربيان الرئيسيان اللذان لم يكونا حتى ذلك الحين ملكاً لإسبانيا والبرتغال، إلى ملجأ للقراصنة الإنجليز والهولنديين الذين كانوا يهاجمون من هناك الطريق المؤدى إلى العالم الجديد وممر المضيق. إن الحصول أيضاً على هذين المينائين سيكون الشغل الشاغل لكل من فيليبي الثاني وفيليب الثالث، وقد شارك صمويل باياتشي بفاعلية في المفاوضات التي جرت لتحقيق ذلك الهدف.

كان لإسبانيا أيضاً مصلحة كبيرة في إقامة علاقات طيبة مع أحمد المنصور. فقد كانت المغرب البلد المسلم الوحيد على البحر المتوسط الذي لا ينتمي للإمبراطورية العثمانية، المنافس الكبير لإسبانيا في هذه المنطقة، وكانت تعد أساسية في الكفاح ضد القراصنة الأتراك والبربر. كان للمغرب كذلك مصلحة في تحالف مؤقت مع إسبانيا في كل مرة تضغط عليه التوسعات العثمانية الطموحة، وخاصة في حالات الصراعات الداخلية. فقد لجأ العديد من المرشحين لخلافة العرش المغربي للبحث عن مساعدة برتغالية (كما رأينا في حالة الملك سيباستيان) أو إسبانية. خاصة بدءاً من عام ١٦٠٣، العام الذي توفي فيه أحمد المنصور. فقد سببت خلافته حرباً أهلية طويلة بين ورثته الذين حاولوا الحصول على مساعدة

مادية وعسكرية من أجل قضيتهم من دول عديدة خاصة إسبانيا وهولندا. فى تلك المفاوضات شارك أيضا صمويل باياتشى.

كان المغرب فى حاجة مستديمة للأسلحة والذخائر والسفن. كان استحالة إنشاء أسطول خاص بالمغرب يعتبر واحدة من أكبر نقاط ضعفه وبسبب هذه إلى اللجوء إلى القراصنة وإلى السفن التى يستطيع أن يشتريها من دول شمال أوروبا. فى نفس الوقت كان يتعين عليه أن يجعل سواحله وموانئه وموارده الخام تجت تصرف من يقدمون له المساعدة، وهكذا دخل المغرب فى الفترة التى سوف نفحصها، فى وضع استعماري أو مُمَهَّد لاحتلاله فيما بعد. كان المغرب يصدر السكر وملح البارود والجلود والملح والنحاس، وسوف نجد أن صمويل باياتشى يتاجر فى كل هذه المنتجات.

ينبغى الأخذ فى الاعتبار أيضا، أن إسبانيا طردت الموريسكيين (مسلمون فى الأصل وتم تحويلهم قسرا إلى المسيحية) بين أعوام ١٦٠٩ و ١٦١٤. استقر جزء كبير منهم فى المغرب التى كان يهاجر إليها مجموعات من المسلمين الإسبان منذ سنوات حرب غرناطة فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر. وقد أدت الهجرة إلى التفاقم الشديد للقراصنة وغزوات السلب فى سواحل جنوب شبه الجزيرة، مما جعل التعاون مع السلطات المغربية أكثر ضرورة بالنسبة لإسبانيا خاصة وقد تحولت مدينة صالى إلى جمهورية حقيقية للقراصنة وإلى كابوس بالنسبة لبلاد الغرب الأوروبى. كان صمويل باياتشى على اتصال بالموريسكيين المنفيين وشارك بنشاط فى أعمال القراصنة.

هذا هو — بخطوط عامة وسريعة — العالم الذى عاش فيه باياتشى والذى سنتحدث عنه فى الفصول المختلفة لهذا الكتاب. وأخيرا يمكن أن نتطبق على باياتشى هذه العبارة التى قالها خورخى لويس بورخيس وهو يتحدث عن جد له فى إحدى قصصه: «كان من نصيبه، كما يحدث مع كل الناس، أن يعيش فى أزمنة رديئة».

الفصل الأول

من فاس إلى مدريد

الأسطورة

حزن مولاي زيدان، ملك المغرب لأن فيليبى الثالث ملك إسبانيا رفض أن يُعيد إليه كتبه العربية التى استولى عليها الإسبان أثناء الإبحار من ميناء صافى إلى ميناء سانتا كروث فأرسل صمويل باياتشى سفيرا له إلى دول الأقاليم المتحدة لحشد سفن القراصنة التى جعل جوزيف باياتشى، شقيق السفير قائدا لها، فى مواجهة السواحل والسفن الإسبانية. خرج السفير المغربى المذكور منتصرا من مواجهة عسكرية نشأت بينه وبين السفير الإسبانى حينما اصطدمت عربتاهما فى أحد شوارع المدينة الهولندية لاهاي. بعد ذلك مات السفير باياتشى فى عام ١٦١٦. وقد رافق ماوريشيو أمير أورانج ومعه نبلاء لاهاي جثمانه الذى دُفن فى مقبرة اليهود بأمستردام.

تُعد هذه الفقرة أول إشارة إلى الأخوين باياتشى تظهر فى حكاية تاريخية. وهى عبارة عن «التاريخ العالمى اليهودى» Historia universal judayca المنشور عام ١٦٨٣، وهو كتاب من تأليف ميغيل دى بارتيوس أو دانييل ليفى دى بارتيوس، وهو كاتب يهودى وُلد فى إسبانيا عام ١٦٢٥ وعاش فى أمستردام بعد باياتشى بنصف قرن ونشر فى هذه المدينة العديد من المؤلفات النثرية والشعرية. وبغض النظر عن مميزاته الأخرى، فإن قلة المصادقية التاريخية لعمل بارتيوس

ظلت قائمة بوضوح^(١)، غير أن ذلك لم يمنع أن كتابه كان ولا يزال يُستخدم كمصدر على نطاق واسع. إن هذه القصة نفسها التي يوردها دانييل ليفي دي باريوس هي التي تصلح لتقديم صمويل كعضو بارز في الجماعة اليهودية بأستردام لأنها تذكر صمويل وجوزيف بين رؤوس الجماعة في عام ١٥٩٧/٥٣٥٧، وتوضح القصة أنهم كانوا يجتمعون في منزل صمويل للصلاة. يوجد هذا الخبر أيضًا في كتاب «انتصار الحكومة الشعبية اليهودية» لنفس المؤلف باريوس^(٢)، ويتضمن قائمة الستة عشر شخصًا يهوديًا الذين يبرز من بينهم «صمويل باياتشي بفضل تردد الناس على بيته لأداء الصلوات». بيد أن هذه الأخبار ليست أكيدة، كما أثبت بيترز وشوارتس^(٣) حيث أن أفراد عائلة باياتشي لم يصلوا إلى أستردام حتى عام ١٦٠٨، ومن المشكوك فيه جدا أنهم كانوا أعضاء بارزين في الجماعة.

على الرغم من أن الفقرة المذكورة قصيرة إلا أنها تشتمل على نواة لسيرة رومانسية وبطولية: صمويل باياتشي موفدًا كسفير من قبل السلطان المغربي مولاي زيدان من أجل مهمة تعد بالنسبة للملك غالية على وجه الخصوص، وهي استرجاع كتب مكتبته الخاصة التي كان الإسبان قد استولوا عليها أثناء الانتقال بحرًا ورفضوا إعادتها، خاصة عندما أدركوا كم كانت تلك الكتب مهمة للسلطان. قام صمويل مع أخيه جوزيف بمساعدة من الولايات العامة، وهي تمثل الجهاز الحكومي للجمهورية الهولندية بإعداد السفن لمهاجمة السواحل الإسبانية. حدث تصادم بأحد شوارع المدينة بين عربتي كل من السفير الإسباني وباياتشي فقام باياتشي بإذلاله. كان باياتشي مقربًا وذا مكانة، سواء عند ماوريثيو أمير أورانج أو عند مولاي زيدان، وسوف يتم دفن باياتشي هذه الشخصية النبيلة بمراسم بحضور كل النبلاء الهولنديين في المدفن اليهودي بأودركيرك آن دي أمستيل بالقرب من أمستردام. هذه المقابر المزينة التي خلّدها الرسام خاكوب فان رويسدايل، والتي يمكننا أن نجد فيها حتى اليوم مقبرة صمويل باياتشي.

إن بذرة السيرة البطولية هذه أثمرت وازدهرت حتى أنتجت نوعاً من الأسطورة، هيكلاً يطرز عليه الكتاب المحدثين^(٤)، ويرسمون شخصية تتمتع بمكانة سياسية قريبة جداً من السلطة في المغرب وفي هولندا، وتلعب دوراً دينياً مهماً في الجماعة: يهودى نبيل ورع وبارز، لم يتأخر في المواجهة ضد الإسبان، ليس فقط بتوجيه السفن ضد سواحلهم بل بالحصول على أسبقية المرور أمام سفيرهم في أحد شوارع لاهاى. كان نشاطه ينطلق في الأساس من أسباب معادية لإسبانيا، وهى أسباب كانت توحد الهولنديين والمغاربة ومن الضغينة التى شعر بها أحفاد المطرودين من إسبانيا، بلد محكمة التفتيش.

أخذت الأسطورة تنمو وتتجمل كثيراً في المراجع الثانوية، ومما يدعو إلى الدهشة أن مصدرها قاصر على الفقرة القصيرة التى ذكرها بارْيوس. إن واقعة الاستيلاء على كتب مولاي زيدان والتى كانت، حسب بارْيوس، السبب في إرسال باياتشى كسفير إلى هولندا، هى فى الواقع متأخرة جداً عن ذلك التاريخ ولم يشارك صمويل فى الموضوع، بل اشترك فيه ابن أخيه موسى.

إن ماضى جماعة يهود أمستردام الجدد خلق بينهم، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، رفضاً لذاكرة جماعية محددة متعلقة بفترة غامضة وأليمة وعلى الأخص المتعلقة بالأصل الدنى للجماعة. إن رفض الذاكرة الجماعية هذا، هذا النوع من «فقدان الذاكرة الجماعية»^(٥) يظهر فى رفض حدوث ارتداد، فى رفض حدوث «العودة» لليهودية. إن هذا يعدّ أمراً لا ينبغى التحدث فيه، ولاحتى بغرض تمجيد ضحايا محكمة التفتيش الذين ينتمون لنفس الأصل. إن أخبار إسحق بينتو العائلية (بالإضافة إلى الأخبار المذكورة عن دانييل دى بارْيوس)، تثبت إلى أى حد تخلص يهود أمستردام من المظاهر المزعجة لماضيهم الأيبيرى: إن فكرة سلالة يهودية وفكرة عودة إلى الدين الذى أجبر أجدادهم على تركه، لم تكن أبداً مستحبة^(٦). هناك سبب قوى آخر: ليس من الممكن أن يتحول إلى المسيحية شخصٌ ولّد واستطاع أن يتربى فى اليهودية. تلك الشحنة العاطفية دامت وتغنت بعوامل عديدة، حتى كتابة التاريخ المعاصر.

المؤلفون الجدد، الذين عملوا فى أرشيفات إسبانية، وجدوا فى الأرشيفات بيانات عن صمويل باياتشى. فى دراسته عن إسبانيا والسفرديم الهولنديين، يرسم خ. إسرائيل لصمويل صورة لرجل، خدم فى البداية التاج الإشباني، ثم تحول إلى عضو بمجموعة اليهود الهولنديين الأكثر التزاما، فى تناقض كبير مع مجموعة أخرى من اليهود الذين رفضوا اليهودية، وابتعدوا عن الحياة اليهودية وكانوا على استعداد، مقابل المال، لإمداد الإسبان بمعلومات خاصة بأنشطة اليهود خارج شبه الجزيرة وعن المرتدين فى داخلها^(٨). لقد بدا كل ذلك بالنسبة لنا أكثر تعقيدا، ولم يكن من السهل تصنيفه.

لكن لنبدأ من أول هذا البيان الوثائقي، وبخاصة، مهنة صمويل باياتشى، قبل أن نبحث فى أصل عائلته وأجداده فى المغرب، وهو ما سوف نفعله فى الحال.

مدريد

تشير البيانات الأولية عن عائلة باياتشى التى وجدناها فى مجموعة وثائق إسبانية أنهم جاءوا إلى مدريد لأول مرة عام ١٦٠٣^(٩). قبل ذلك بعام، فى يناير ١٦٠٢، حصل الشريف أحمد المنصور - الذى كان يريد أن يشتري أحجارا كريمة من لشبونة - على إذن من فيليبي الثالث لى يرسل لهذا الغرض خادمين له من اليهود المكلفين بعقد الصفقات. بالإضافة إلى ذلك طلب الشريف الترخيص له بأن يرسل إلى إسبانيا من المغرب، من ثمانمائة إلى ألف قنطار من الشمع ليسدد بهم ثمن الجواهر^(٩). فى خريف عام ١٦٠٢ طلب دوق مدينا سيدونيا جواز مرور ليهوديين مغربيين كانا فى سبته ويريدان المجئ منها إلى إسبانيا لشراء جواهر للشريف ويعرضان كذلك تقديم معلومات عن المغرب. يؤكدان أنهما يتمتعان «بصلاحيات واسعة». رأى الدوق، وهكذا قال للملك، أنه لن يخسر شيئا لو استمع إليهما^(١٠). وقبل الملك رأى الدوق وأمر بإعطائهما جواز للعبور من سبته، حتى إذا ما وصلا، استقبلهما واستمع إليهما^(١١).

التمس اليهوديان الذهاب حتى لشبونة وطُلب رأى ماركيز كاستيل رودريغو الذى حذر من أنه «إذا كان الشخصان اللذان يتوجب عليهما الذهاب إلى هناك من قبل الشريف يهوديين فإنهما سوف يسببان ضرراً كبيراً لأقرانهم من اليهود كما بيّنت التجربة في مرات أخرى»^(١٢) كان يُخشى الاتصال بين يهود مرتدين إسبانيا ويهود شمال إفريقيا المتمسكين بعقيدتهم، لأن ذلك كان يعنى عودة المرتدين اليهود إلى الدين الذى كان يجب عليهم نسيانه. يكتب الملك إلى دوق مدينا سيدونيا يطلب منه بالتالى أن يكتب إلى الشريف ويخبره بالأمر بأن يكون الخاضعان اللذان يرسلهما إلى لشبونة من أجل تلك الصفقة يهوديين^(١٣). ويرد دوق مدينا سيدونيا على ذلك قائلاً إن إعطاء جواز مرور لهذين اليهوديين لن يجلب أى متاعب، حيث أن المشكلة الأكبر تكمن في وجود يهود من شمال إفريقيا مقيمين في البرتغال، وسيكون من الأفضل طردهم، حيث أنهم «أذكياء جداً»، بمعنى أنهم يقومون بأعمال جاسوسية^(١٤). لا تذكر الرسائل المتكررة اسمى هذين اليهوديين (كان الأمر الشائع في وثائق تلك الفترة، الإشارة فقط لليهود بصفاتهم اليهودية وليسوا كأشخاص ولكل منهم اسمه) لكن السياق وأنشطة هذين الشخصين تشير بلا أى شك إلى أنهما الأخوان باباتشى. كان الموضوع بالطبع من اختصاص دوق مدينا سيدونيا. كان ألونسو بيريث دى غوثمان (الدوق الذى وضعه فيليب الثانى فى عهده على رأس الأسطول) — بالإضافة إلى كونه ابن شقيقة الملك — قائد القوات البحرية فى سواحل أندلوثيا، وجيوش البرتغال، ولهذا كانت شئون المغرب من اختصاصه. كان رجلاً لطيفاً ضمن حاشية الملك، وكان واحداً من الأشخاص الأكثر ففناً فى إسبانيا، وكانت له أكبر مساحة من الأراضي (الدرجة أن حفيده غسبار ألونسو اعتقد أنه بمساعدة البرتغال يستطيع أن يعلن أراضيه بلداً مستقلاً فى عام ١٦٤٠). كان أيضاً عاملاً لا يكل وجعل من مقر إقامته فى سان لوكار دى باراميدا، نوعاً من قصر ملكى صغير وُضِعَ فيه كمية ضخمة من الوثائق مكتوبة خلال حياته الطويلة^(١٥). توفى فى يوليو من عام ١٦١٥. يؤكد عديد من الكتاب أنه فى عام ١٥٧٩-٨٠ استعان مولاى أحمد المنصور بصمويل وأخيه جوزيف من أجل بدء

مفاوضات مع فيليبي الثانى ملك إسبانيا^(١٦). لكن الأخوين لا يظهران فى الوثائق الإسبانية الوفيرة، المتعلقة بالتعاملات مع المنصور، والتى تدور دائماً حول العرائش^(١٧)، ولا عائلة باياتشى تشير إلى شىء مشابهِ عندما تريد الافتخار بإنجازاتها فى عام ١٦٠٥ ضد الإسبان.

الإشارة الوحيدة، التى يذكرونها هم أنفسهم، هو ما يرد فى خطاب من السفير الفرنسى بارول الذى يقول فيه الأخوان إن لديهما خطابات من أنطونيو بيريث تثبت أنهما كانت لهما تعاملات سابقة مع التاج الإشباني كمخبرين^(١٨). هذا ممكن حدوثه، لكننا لم نجد أثراً لذلك فى الأرشفات ولا فى المصادر.

لم نجد أدنى إشارة إلى الأخوين باياتشى فى الوثائق الإسبانية السابقة على عام ١٦٠٢ التى يظهران فيها كخادمين للسلطان ومبعوثين، ليس فى مهمة دبلوماسية، لكن بغرض شراء جواهر وأحجار كريمة. وقد استغل الأخوان الفرصة — من تلقاء نفسيهما — لعمل اتصالات مع شخصيات مؤثرة فى القصر الإشباني. بينما كانا فى إسبانيا مات السلطان أحمد المنصور ونشبت الحرب بين أبنائه الذين تنازعوا على العرش. أصبح الأخوان باياتشى بلا سند، وأصبحا تابعين للشخصيات المؤثرة التى أقاما علاقات معها.

أول وثيقة تذكرهما باسميهما ولقبيهما ترجع إلى عام ١٦٠٥. فى هذا العام وبناء على طلب الملك، فخص مجلس الدولة وناقش الأوراق المرسلة من صمويل باياتشى والتى يحاول فيها أن يتقدم إلى السلطات الإسبانية كوسيط ومخبر بخصوص التعامل مع مولاى الشيخ (أحد أبناء أحمد المنصور)، لكن ذلك تم بطريقة عفوية، ولم يكن باياتشى مفوضاً من قبل السلطان نفسه. كان من الواضح أنه يريد الإقامة فى شبه الجزيرة ويبحث عن وظيفة بحيث يصبح ضرورياً للسلطات الإسبانية. أول ذكر يرجع إلى ١٤ مايو ١٦٠٥، وهو التاريخ الذى حدثت فيه مشاورات لمجلس الدولة «فقد أرسل صاحب الجلالة يطلب الرأى النهائى لمجلس الحرب بخصوص أوراق صمويل باياتشى» الذى كان يعرض نفسه كمبلغ

وعميل في موضوع العرائش. فحضر المجلس اقتراح صمويل، الذي قدمه كونت بونيو إنروسترو، للاستيلاء على العرائش، وعقد أعضاؤه مناقشات طويلة حول الشروع في المهمة. رغم أنهم كانوا جميعهم يتفقون على ضرورة الاستيلاء على الموقع إلا أنهم رأوا أن الوقت غير مناسب — بسبب الوضع في المجر وفي فلاندرس — لإرسال قوات إلى المغرب. أما بالنسبة لباياتشي، فذكر المجلس «بالنسبة لليهودي فمن الممكن إعطاؤه شيئاً»، فقد رأى المجلس أن هناك عملاء آخرين (ذكروا منهم على وجه الخصوص المعروفين جيداً خوانيتين مورتارا وخوان دي مارتشينا)^(١٩) يتكفلون بذلك «وسيكون من الأفضل مصارحة اليهودي بأنه لن يسمح له بالمشاركة في الموضوع»^(٢٠). بعد مرور شهر، كتب دوق مدينا سيدونيا إلى رئيس الخزانة يبلغه أمر الملك بأن يدفع ١٥٠ دوكادوس مساعدة إلى كل واحد من الأخوين باياتشي مقابل خدماتهما ولكي يستطيعا العودة إلى بلدهما^(٢١). في شهر يونيو أبلغ المجلس الملك أنه اتفق على إعطاء ٣٠٠ دوكادوس إلى كل واحد من اليهوديين اللذين كانا قد أتيا بخصوص موضوع العرائش، واضعاً في الحسبان أنهما مكثا في المدينة ثمانية شهور. وقد كتب في الهامش: «حسناً، ليضع برادا في اعتباره أن يرحلا بعد ذلك إلى بلدهما» لكن اليهوديين لم يعودا^(٢٢).

في أغسطس فحص مجلس الدولة مذكرة جديدة قدمها كل من جوزيف وصمويل باياتشي أخبرا فيها عن الوضع في شمال إفريقيا: هناك يوجد جوع شديد، انخفاض وزن الذهب، الشعب محمل جداً بالأعباء التي فرضها عليه السلاطين المختلفون، الصراعات على السلطة، إلخ. كان الأخوان يطلبان الإنز لكي يذهب واحد منهما إلى سبتة ليجت عن زوجته وأبنائه و— أيضاً — لجمع معلومات أكثر عن الوضع في المغرب، وقد منحهما المجلس الإنز بذلك^(٢٣).

في نفس هذه التواريخ كتب كونت بونيو إنروسترو إلى دوق مدينا سيدونيا طالباً منه أن يتفضل بالإنعام على صمويل باياتشي، الذي يعمل في خدمته. كان الكونت يريد أن يسمح له الملك بالخروج لغزو العرائش وكان يبدو متحمساً جداً

لخطة صمويل التي تصف بمنتهى الدقة (كيف يجب الاستيلاء على الموقع بمشاعل محمولة بالإضافة إلى تفاصيل أخرى) كان خطاب الكونت يعبر عن استيائه الشديد من مجلس الدولة، «أشخاص لا يعرفون شيئاً»^(٢٤). ويبدو أن باياتشى قد أوصل الخطاب باليد إلى سان لوكار دي باراميدا وهو فى طريقه إلى سبتة، حيث أن دوق مدينا سيدونيا كتب إلى الملك مبلغاً إياه بزيارة صمويل والعرض الخاص الذى قدمه للتفاوض مع مولاي الشيخ بأن يسلم العرائش مقابل المال. يعتبر خطاب الدوق بوضوح عن عدم الثقة فى باياتشى («... كل أفعاله خدع، لأنه ليس لديه أموال ولا يحظى بالثقة...»)^(٢٥).

فى أكتوبر من نفس عام ١٦٠٥ طلب من دوق مدينا سيدونيا أيضاً إبداء الرأى حول ما إذا كان يجب تكليف صمويل باياتشى «لمعرفة أمور عن شمال إفريقيا»^(٢٦). يعود الدوق ليبلغ كيف أن صمويل نفسه مثل أمامه فى سان لوكار ليخبره إنه كان قد عقد محادثات مع مولاي الشيخ ومع قائد العرائش الذى كان يدعى «حامد بيتاورى، وهو أندلسى من غرناطة». لم يكن يبدو للدوق أن باياتشى وسيط جيد لأنه يراه «فقيراً وقليل الشأن وليست له صلاحيات». يجب فهم كلمتى «ليست له صلاحيات» و«قليل الشأن» بالمعنى الحرفى، أى أنه ليس له شفيع ولم يكن موفداً بأوراق اعتماد تضمن مهمته. يعتبر الدوق أن باياتشى ليس الشخص المناسب لـ «صفقة العرائش»، وقد «بدا له أن ذلك اليهودى ليس الوسيط المناسب لهذا الغرض وهكذا قال الدوق إن عليه حالياً أن يهتم فقط بأمور منزله». فى سبتمبر أخطر الملك بوصول خطاب الدوق وفرح لأن «اليهودى باياتشى رحل إلى هناك مدعياً لأمر جلالكم»^(٢٧).

كانت هناك شخصيات أخرى كثيرة تتجمع حول أشخاص نوى نفوذ فى القصر وتحاول بيع خبراتها كمخبرين ووسطاء. قام المكلف بعمل إجراءات اقتداء الأسرى بطنجة، مارتين دومينغيث، فى ذلك التاريخ بإيصال «بيان عن شمال إفريقيا ومولاي الشيخ». حاول باياتشى أن يقلل من أهمية هذا البيان، وكتب الملك

للدوق بشيء من الدعابة «لا يدهشنى أن اليهودى باياتشى تشعر بالغيرة من فكّاك الأسرى»^(٢٨). كان هؤلاء الأشخاص الفقراء يدبرون المكائد ويتشاجرون فيما بينهم من أجل الحصول على نذر قليل من «الرضا الملكى» الذى يعتمد عليه بقاؤهم، وهو أمر يدركه تمامًا أصحاب النفوذ الذين يستخدمونهم أو يستبعدونهم.

فى أواخر نوفمبر كتب باياتشى من سبتة رسالة بخط يده إلى الدوق^(٢٩) وفيها يتضح أن «الشئون الخاصة بمنزله» تلك هى بيع جواهر بيت دوق مدينا سيدونيا فى المغرب. ليس هذا حدثًا غريبًا: كانت أنا دى سيلفا، الدوقة، قد طلبت قبل سنوات من بالتاسار بولو أن يبيع لها مجوهرات فى المغرب^(٣٠). ونحن نعرف عن هواية الجواهر التى كان مولاي الشيخ - مثل والده السلطان - مولعًا بها كخبير جيد^(٣١). الرسالة دليل على الخدمات الجيدة التى كان صمويل باياتشى يريد بها أن يكون مفيدًا وأن يتقرب إلى أصحاب النفوذ: خليط من الأفضال الشخصية والتجارة والإبلاغ. فى نفس هذه الرسالة يحكى باياتشى كيف استطاع أن يجلب إلى سبتة اثنين من أبناء أخيه، وينتظر الآن ابنه وابناً آخر لأخيه. هذه هى إحدى خصائص عائلة باياتشى. إنهم يعملون لصالح الأسرة^(٣٢). يعتبر باياتشى أن الوقت الآن مناسب، بالنسبة للاستيلاء على العرائش - نظرًا للوضع الداخلى فى المغرب - ويستحث الدوق على القيام بالمهمة. إذا كان الدوق لا يعتبر «الآن» أنه من المناسب أن يعهد إليه بأمر العرائش فإنه فى نفس عام ١٦٠٥ قد نظم من سان لوكار دى باراميدا رحلة لصمويل باياتشى الذى سافر من جبل طارق مكلفًا من قبل الدوق بلقاء مولاي الشيخ^(٣٣). بعد ذلك بشهور أعطى دوق مدينا سيدونيا إذن مرور لأخوين يهوديين جاءا برسائل من مولاي الشيخ. الوثيقة لا تذكر اسم هذين اليهوديين، لكن بالسياق الذى حفظت فيه، يبدو بلا شك أنهما الأخوان باياتشى^(٣٤).

فى نفس هذه الشهور أرسل دوق مدينا سيدونيا إلى الملك مذكرة ينبهه فيها عن كمية اليهود الموجودين فى سبتة، والذين يعيش الكثيرون منهم هناك منذ أحد عشر عامًا، والأغلبية منذ أربع أو خمس سنوات. جميعهم تجار يستغلون تجارتهم

لإدخال عملة فى شبه الجزيرة، وهو شىء ضار جدا، حيث أنهم هناك «يكونون ثرواتهم». كان التجار اليهود يدخلون إلى إسبانيا الذهب واللؤلؤ والزمرد والأحجار الكريمة دون دفع رسوم جمركية^(٣٥). طلب الدوق أن تتخذ تدابير جمركية، وطلب أن يعيش أولئك اليهود الذين ليسوا فى الحقيقة ضروريين للخزانة خارج المدينة مثل المسلمين^(٣٦). بمعنى أن يعسكروا فى خيام خارج أسوار المدينة، لكن اليهود ضروريون جدا، وتعيّن على الدوق أن يعطى إذنا لىبقى فى سبتة «اليهود الأكثر ثقة»^(٣٧). هذه قضية كانت تحدث أيضا فى مواقع إسبانية أخرى، فسوف تستمر جماعة من اليهود فى التواجد بصفة قانونية زمنا طويلا بعد أن صدر قرار الطرد من شبه الجزيرة، كما حدث فى مليلة وعلى الأخص فى وهران، حيث كان اليهود مهمين جدا حتى أواخر القرن السابع عشر.

فى عام ١٦٠٦ ظهر الأخوان باياتشى من جديد فى مدريد يحاولان «بيع» قدرتهما على الوساطة فى أمر العرائش لفيليبى الثالث^(٣٨). كانا لا يزالان هناك فى أوائل عام ١٦٠٧^(٣٩). فى رسالة للملك بتاريخ ١٥ من أغسطس لعام ١٦٠٧، يقول الكونت دى بونيو إنروسترو إن صمويل وجوزيف يعملان فى خدمته، كمخبرين، ويعتقد أنه يجب أن يُطلب من دوق مدينا سيدونيا أن يستخدمهما كوسيطين فى مفاوضات العرائش^(٤٠). يتضح بالتالى أن دوق مدينا سيدونيا لم يكن الشخصية البارزة الوحيدة فى القصر الإسباني التى كان قد اقترب منها الأخوان باياتشى. لاشك أنه أمام تحفظات الدوق بحث الأخوان باياتشى عن شخص آخر يساندتهما أمام الملك.

أمام النجاح القليل الذى تم إحرازه، وبطء المفاوضات ونقص المال أو لأنه كان يبحث عن أفضل معين، يستغل باياتشى أيضا إقامته فى مدريد لإقامة اتصالات من جانبه مع ملك فرنسا إنريكي الرابع، من خلال سفيره فى مدريد دى بارول، الذى كتب إلى الملك يخبره بالعرض الذى يقدمه باياتشى. وقد طلب باياتشى إذنا بالذهاب لمقابلة الملك الفرنسى، ليعرض عليه التعاملات التى كانت له

مع فيليبى الثانى. يؤكد أن معه خطابات من أنطونيو بيريث تثبت هذه التعاملات. يقول أيضا إن تلك هى العروض التى يحاول الآن تقديمها فى القصر، لكن احتياجه إلى المال ملح بحيث لا يستطيع الانتظار حتى يحسم الأمر. يؤكد أنه فى الوقت الراهن لا يطلب شيئا من إنريكي الرابع إلا أن يستمع الملك إليه، وإذا تعذر ذلك فعليه أن يعطيه جواز مرور للذهاب إلى أراضى فلورنسيا. أوصى السفير الفرنسى الملك بأن يستمع إلى باياتشى لأنه على الأقل سوف يحصل على أخبار من الممكن أن تكون مفيدة فى التعامل مع تركيا^(٤١).

بعد ذلك بشهور يعود دى بارول ليُلق على الملك أن يستمع إلى باياتشى. يقول إنه لم يره منذ فترة، لكنهم أخبروه أنه ذهب إلى أراغون. هذه معلومة مهمة، ففي تلك السنوات كان موريسكيو أراغون قد قاموا بالثورة، وكانوا قد تفاوضوا مع إنريكي الرابع ملك فرنسا. هل نستطيع أن نتحدث عن اتصال أول، ستكون بعده اتصالات أكثر وموثقة جيدا بين باياتشى والموريسكيين؟^(٤٢) كما سنرى لاحقا (انظر الفصل ٦)، كان بالفعل أحد اليهود، الفونسو لوبيث، هو الذى تولى هذه المفاوضات بين إنريكي الرابع وموريسكيو أراغون. ومع ذلك ففي أغسطس من عام ١٦٠٧، يؤكد دى بارول أن صمويل باياتشى لم يتحرك من الإسكوريال منذ خمسة أشهر، حيث كان يقدم مذكرات وتقارير إلى الملك الإسباني^(٤٣). وقد اضطر السفير الفرنسى أن يخبئ صمويل باياتشى فى منزله بمدريد لأنه كان قد أثار شكوك محكمة التفتيش^(٤٤). سوف نعود «للحديث» عن هذه الجزئية.

فى مدريد اتصل الأخوان باياتشى أيضا بتاروجى الذى كان يمثل دوق توسكانا فى إطار محاولتهما بيع مشروع تسليم مدينة العرائش المغربية إلى إحدى الدولتين فرنسا أو توسكانا، وهو المشروع الذى لم يعره فيليبى الثالث الاهتمام الواجب. ليس من المستغرب أن ينفذ صبر الناس: إن من يقضى بعض الوقت فى قراءة مخطوطات من عصر فيليبى الثالث فى سيمانكاس أو مراسلات الملك مع دوق مدينا سيدونيا ينتابه هذا الإحساس بأن لا شيء يُحل أبدا، كل شيء يسوء

ويؤجل، تقارير تكتب وتمر على مساعدين مختلفين وعلى المجلس، وتُلف بدون نهاية. كل شيء يلف ثم يعود للبداية، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الإيقاع غاية في البطء.

بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدى الأخوين باياتشى مال: هناك إشارات عديدة في الوثائق تبين كيف أنهما أضاعا ثروتهما في خدمة جلالة الملك، وكيف أن السلطات الإسبانية لم تسدد لهما ثمن الخدمات التي قدماها. في إبريل ١٦٠٧ يأمر دوق مدينا سيدونيا بإرسال مائة وخمسين دوكادوس للأخوين باياتشى «كمساعدة في النفقات» «كمصروفات» لكل واحد منهما نظرا للخدمات التي قدماها ومن أجل «أسباب أخرى عادلة»^(٤٥). ومع ذلك، يبدو كما لو أن الأخوين سيقيمان نهائيا في إسبانيا، وسيُحضران باقي عائلتهما من المغرب ويتحولان إلى المسيحية: هذا يتحدد بوضوح في وثيقة بتاريخ ٢٧ مارس ١٦٠٧ والتي يطلبان فيها تصريحًا ملكيًا لإحضار عائلتهما يؤكدان فيها أن ابنين لجوزيف على وشك أن يتعمدا^(٤٦). في هذه الوثيقة يبدو بشكل مؤكد أن كل العائلة كانت مستعدة للتتصر. وقد مُنح الإنز الملكى لهما في إبريل ١٦٠٧، في نفس التواريخ التي منحهما فيها الدوق مساعدة. كيف تفسر هذه الوثيقة؟ من الصعب أن نفكر أن الأخوين باياتشى اعتقدا أنهما بهذا سوف يستطيعان خداع السلطات الإسبانية. لابد أنهما كانا يعرفان بحكم إقامتهما في مدريد ومعرفتهما الوثيقة بالبلد أن إقامتهما فيها تعنى التنصر والتنفيذ التام للقواعد الدينية حيث أنهما سيكونان هدفًا لمراقبة محكمة التفتيش. ليس من المصدق أن الإقرار بالكتابة في خطاب للملك بأنهما يريدان التحول للمسيحية كان شيئًا يظنان أنه ممكن عمله دون تفكير. تؤكد الوثيقة بوضوح أن كل العائلة مستعدة لخدمة «الرب وصاحب الجلالة الملك».

في تلك الأثناء تأتي واقعة محكمة التفتيش التي يشير إليها كل من السفير الفرنسي دي بارول^(٤٧) وصمويل نفسه في رسالة مكتوبة في سبتمبر ١٦٠٧ من سان خوان دي لوث. للأسف لا نعرف شيئًا عن الأسباب التي أدت إلى شكوك

محكمة التفتيش. هل تتعلق بشكوك حدثت بسبب طلبهما التنصر؟. كانت محكمة التفتيش تبدو أحياناً ذكية جداً في هذا الصدد: عندما أراد سالومون وصمويل ساسبورتاس، وهما من يهود وهران أن يعتمدا مع كل عائلتهما ويقوما في إسبانيا، على ضوء خدماتهما للتاج، تدخلت محكمة التفتيش وأمرت بأن يستجوب كل واحد منهما على انفراد «سألتهما عن تفاصيل حياتهما بعد الخروج من وهران، من أين جاءا وبأى تصاريح [...] أى أسباب كانت لديهما لتغيير زيمتهما الخاص باليهود، من أى أبواب دخلا، مع من تعاملتا، وأى أسباب لديهما جعلتهما يريدان أن يعتمدا ويعيشا كمسيحيين»^(٤٨).

على الرغم من أن محكمة التفتيش لم يكن لها ولاية على اليهود (كانت ولايتها فقط على المتنصرين الذين كانوا يعودون إلى اليهودية)، كانت محكمة التفتيش تظل متنبهة ومراقبة لكل تحركات أولئك.

أكد الأخوان باياتشى من ناحيتهما أنهما وجدا نفسيهما متورطين في المشاكل التى كانت لليهودى آخر مع محكمة التفتيش على اتصال بالسفارة الفرنسية، وأن محكمة التفتيش قررت طردهما في الحال من إسبانيا دون أن تضع في اعتبارها أن الفتيين كانا على وشك أن يعتمدا، وأنهما كانا قد مُنحا إذنا ملكياً نظير الخدمات الجيدة التى قدمها الأخوان باياتشى للتاج. هذا هو فقط الذى نعرفه من الفصل الذى يتحدث عن خروج الأخوين باياتشى من إسبانيا. لا تحتفظ المحتويات الوثائقية لمحكمة التفتيش بأى ملف محاكمة لواحد من عائلة باياتشى، وليست هناك أخبار تتعلق بهم في ملفات محاكمة أشخاص آخرين^(٤٩).

سان خوان دى لوث

الواقع هو أن الأخوين باياتشى اضطرا للخروج من إسبانيا على نحو عاجل وغير متوقع. إن الرسالة التى كتبها كلا الأخوين من سان خوان دى لوث إلى الملك تنم عن إحباط وإحساس بالظلم: يتذكرا الخدمات التى أسديها خلال

سنوات، وكيف أنهما من أجل تقديم تلك الخدمات فقدتا الوطن والمال، والآن لكونهما مطرودين يفقدان سمعتهما. يختتمان الرسالة قائلين: «فيما يتعلق بالروحانيات فالله موجود في كل الدنيا وإذا كانوا لم يقبلونا في إسبانيا فهناك أماكن أخرى كثيرة وحيثما نقيم، فنحن نكون وسنكون خدام صاحب الجلالة أطل الله في عمره وحفظ ملكه».

في الثاني من نوفمبر من نفس العام صدرت رسالة من القصر إلى مسئول البريد ليستعلم عن تعميد أبناء جوزيف باياتشى، وأن يتابع ذلك نائب الملك عن نافارا Navarra وأسقف بامبلونا^(٥١). ويبدو أن هذا يشير إلى أن الأخوين باياتشى كانا يعتقدان أن العودة إلى إسبانيا كانت لا تزال ممكنة.

في الحادي عشر من أكتوبر من عام ١٦٠٧ يُخبر دوق مدينا سيدونيا عن عائلات موريسكية هربت إلى فرنسا، ومن هناك سافرت بحراً باتجاه ميناء صافى المغربى، ويضيف «سيكون من المناسب جدا قطع هذا الطريق الذى يغلب على الظن أن الأخوين باياتشى وأبناءهما العبرانيين يعرفونه أيضاً، حيث أنهم نجحوا في بلوغه وبقوا في سان خوان دي لوث حسبما كتبوا لى من تلك المدينة»^(٥٢) يبدو أن الدوق فهم أن عائلة الأخوين باياتشى توجهت أيضاً إلى صافى، بينما كانت فى الواقع قد سلكت طريق هولندا.

فى تلك الفترة لا يذكر فى الوثائق إلا القليل عن تكوين عائلات صمويل وجوزيف. فى وثيقة مؤرخة فى إبريل من عام ١٦٠٧، يطلب صمويل وجوزيف من أجل أبناء جوزيف الثلاثة، الذين جاءوا ليتصرفوا «بعض المساعدة فى النفقة من أجل غذائهم ... وبعض المال لمعيشتهم لكى يستطيعوا أن يعيشوا بشرف، وفقاً لمكانتهم وللخدمات التى قدمها آباؤهم». يلتصقان أيضاً الإنز للذهاب للبحث عن زوجتيهما وباقى الأبناء الذين لا يزالون يعيشون فى بلاد البربر^(٥٣).

نعرف من خلال وثائق لاحقة أن جوزيف كان متزوجاً من بنفينيدا، التى كان له منها خمسة أبناء: الثلاثة الكبار، الذين كانوا مستعدين للتصرف فى هذه

اللحظة، هم إسحاق، وموسى وخوسيه. كان عمر موسى تسع عشرة سنة تقريباً وقت إقامته في مدريد. كان لجوزيف وبنفينا ابنا آخران هما أبراهام ودافيد، اللذان كانا حينئذ صغيرين. بالنسبة لصمويل؛ فقد كان متزوجاً من امرأة تدعى ملكة، وكان ابنه إسحاق صغيراً جداً، حيث كان حدثاً عند موت أبيه في عام ١٦١٦^(٥٤). وقد انتقلت عائلة باياتشى من سان خوان دي لوث إلى هولندا.

لكن قبل أن نتابع ظروف عائلة باياتشى في هذا البلد، هناك سلسلة من القضايا تطرحها علينا الوثائق التي رأيناها حتى الآن: على وجه الخصوص، كيف كان حال مدريد في العصر الذى عاش فيه هؤلاء الأشخاص؟ فى أية مناسبة وصلوا إلى مدريد؟ ما المشاكل التى تعرضوا لها مع محكمة التفتيش؟. إن ما يثير فينا تساؤلات ليست قليلة هو ثبوت وجود عدد من اليهود يعيشون بصفتهم يهوداً في مدريد (بل ويتنقلون داخل البلد)، فى عاصمة بلد كان يُصر إصراراً شديداً على طردهم، وكانت مشكلة التنصير فيه لا تزال على أعلى درجة من الأهمية. من الضروري أيضاً أن نقول شيئاً عن مصالح التاج الإشباني فى المغرب، وفى هذه المصالح بالتحديد حاول أن يتدخل الأخوان باياتشى.

قبل أن ننتقل للبحث عن إجابة، أو على الأقل عن سياق لهذه الأسئلة، وهو ما سنفعله فى الفصل التالى، نقول إن ما يبدو من المؤكد هو الأصل الإشباني لعائلة باياتشى، فيبدو أن اسمها كان فى الأصل بالاثيو: صمويل بالاثيو وبالاثيو هو الاسم الذى وقّع به وثائق هولندية فى عام ١٦١٤^(٥٥). إن أسماء بالاثيو، بالاثيو، بالاثزو هى أشكال تظهر فى وثائق أمستردام الرسمية.

الوثائق المخطوطة المحفوظة والخاصة بصمويل لا تختلف عن مثيلاتها لأى إشباني معاصر. مع ذلك لا نعرف شيئاً عن مسار هذه العائلة منذ خروجها من إسبانيا، لا التواريخ ولا ظروف إقامتهما فى المغرب^(٥٦). إن أول عضو من العائلة لدينا أخبار موثقة عنه هو إسحاق باياتشى، حاخام من فاس، وهو مذكور فى las Taqqanot (لوائح الطائفة اليهودية) لهذه المدينة فى عام ١٥٨٨، وهو حمو

للحاخام الأكبر خوداه أوزييل وأبو صمويل جوزيف. كان إسحاق أوزييل الفاسي، في أوائل القرن السابع عشر، واحداً من أوائل الحاخامات في أمستردام، من الطائفة المسماة نيفي سالوم^(٥٧). إسحاق هذا سيكون إنن زوج أخت للأخوين باياتشي وبالتالي أحد معارفهما في هولندا. عندما يذكر هيكتور ميندس برافو، وهو يهودي هولندي حاكمته محكمة تفتيش لشبونة، ١١٩ عضواً من طائفة أمستردام فإنه يتكلم عن «الحاخام إسحاق ايزييل الفاسي، الذي عاش في إسبانيا»^(٥٨) إنه واحد، مثل صمويل، كان له نفس المسار، من فاس إلى أمستردام مروراً بإسبانيا.

ينقصنا معرفة أمور كثيرة عن صمويل، لاشك أنه كان بإمكاننا التحقق من بعض المعلومات لو كانت هناك وثائق لمحاكم التفتيش في هذا الصدد. على سبيل المثال (هناك شيء كانت المحكمة ستحدث عنه بالتحديد) وهو كم كان عمره، وما هو مظهره الطبيعي، وكيف كانت ملابسه التي يرتديها في سفراته الأولى إلى إسبانيا. هل كان يرتدي ملابس مثل «يهودي موريسكي» أو ملابس مسيحي؟.

منذ أن تمت عملية طرد اليهود، فإن الوحيدين الذين كان بإمكانهم الدخول إلى إسبانيا هم هؤلاء الذين يدعون «يهود الإنن»، أي أولئك الذين التمسوا وحصلوا هم أو أسيادهم على إنن من أجل القيام بمهمة محددة، كما كان حال الأخوين باياتشي عندما كانا يأتیان لشراء جواهر من أجل الشريف. كان يجب على «يهود الإنن» وضع علامات على ملابسهم تتيح التعرف السريع عليهم وتجعلهم دائماً واضحين. في عام ١٥٨٣، بدءاً من اتحاد التاجين، كان فيليبى الثانى قد صدق على القوانين البرتغالية التي تجبر اليهود الذين يدخلون إلى البرتغال على وضع طواقى صفراء على رؤوسهم. كان يهود شمال إفريقيا يستخدمون ملابس مميزة تسمى «جانيفي ganephe» كانت تميزهم عن اليهود القادمين من أماكن أخرى. وقد رأينا أن محكمة التفتيش تسأل أفراد عائلة ساسبورتاس Sasportas، وهم من وهران «ما الأسباب التي جعلتهم ينسلخون من زيهم الخاص باليهود»، بمعنى، لماذا لا يرتدون ملابس اليهود. على العكس من ذلك، كان أفراد عائلة كانسينو

Cansino، يهوذا آخرين مهمين من وهران، كانوا أثناء إقامتهم في مدريد يحرصون على تمييز أنفسهم: «وصل إلى هناك اليهودي خاكوب كانسينو Jacob Cansino، مرتدياً ملابسه المميزة: عباءة وعمامة، وكان من وهران».

ويشير مراسل الأب بيريرا Padre Pereyra — وكان يكتب من العاصمة في مدريد — إلى يهودي على وشك الدخول للتحدث مع الملك، وقد رآه مرتدياً «غثرة بيضاء على رأسه». وفي محاكمة إسحاق الموسنينو Isaac Almosnino، والذي سوف نتعرض له لاحقاً، يؤكد أحد المرتدين أنه عاد إلى المسيحية بعد أن عاش سنوات طويلة كمسلم في المغرب، وأنه يدعى سيباستياو بايس Sebastião Paes. كان ملف محاكمة هذا الرجل موجوداً وبمقتضاه أعيد قبوله في كنف الكنيسة الكاثوليكية، وقد مثل أمام المحكمة «بالزي التركي المعروف، بشعر أزرق مستعار وخمار موريسكي كان يضعه على رأسه». جاء مرتدون آخرون معه من المغرب: نعرف عن سيمون مينديث Simón Méndez أنه «جاء مرتدياً رداءً إسلامياً بشعر مستعار ملون وبعمامة، وكانت جميع ملابسه موريسكية». وقد مثل غسبار راموس «مرتدياً زي مسلم بكساء وخمار موريسكي»، مثل لويس باريتو Luis Barreto...^(٥٩). كان الموريسكيون الأندلسيون الذين يأتون بالسفن للدخول إلى السواحل يرتدون «زيًا إسبانيًا» ولا يمكن تمييزهم^(٦٠). وهكذا فإن الاحتمالات متعددة ولكن كان يجب على اليهود من حيث المبدأ أن يميزوا أنفسهم في الزي إجبارياً. على أية حال لا نريد أن نبالغ في دهشتنا إلى الحد الذي نأسف فيه على أن محكمة التفتيش لم تحاكم صمويل المسكين.

نحب أن نعرف أيضاً كيف كان يتحدث القشتالية، وإذا كان يتحدثها بنوع من اللكنة التي تدل على حاله أو نشأته.

من خطابات الخطبة الأولى نعلم أنه لا يميز «السين» من «الناء» فقد كان يكتب:

«rasion», «sierto», «Sueta», «serteça»

بدلاً من: «ración», «cierto», «ceuta» y «certeza»

غير أن هذا يحدث أيضاً في أقاليم جنوب إسبانيا. أيضاً تختلط عنده بعض الحروف المتحركة

«matiria», «hollo» (بدلاً من huyó), «imbió», «ynpidimento», «sirvidon»,

بطريقة مشابهة للمغاربة المتكلمين بالعربية عندما يتحدثون بالإسبانية. هذه الخصائص تختفي في كتابات لاحقة لباياتشي نفسه. بلا شك كان هناك شيء في الكلام وفي الملبس يميز هويته كيهودي مغربي أو «يهودي موريسكي»، كما تصف الوثائق واحداً من بنى جنسه، في سفرياته الأولى إلى إسبانيا. نحب أن نعرف أيضاً ما إذا كانت له لحية، كما كان شائعاً بين يهود المغرب وشرق إسبانيا. وعلى خلاف «البرتغاليين» الذين كانوا دائماً حليقي الذقن، ولهذا كانوا يختلفون عن مجموعات يهودية أخرى. نعم نعرف على الأقل أن ابن أخيه إسحاق كانت له لحية في هولندا^(٦١).

من الوثائق الوفيرة التي حررها باياتشي، على وجه الخصوص أثناء مرحلته الهولندية، يمكن الاستلال على أن اللغة الإسبانية كانت لغته الأولى. على سبيل المثال، حينما يشهد على صحة الترجمات، سواء إلى الفرنسية، أو بين العربية والهولندية، يفعل ذلك بخط يده، بالقشتالية وبكلمات كالاتي: «أقول إنني كتبت بصدق للملك مولاي زيدان كل ما تقدم ذكره ولكونه حقيقة، أوقع على ذلك في نفس اليوم»^(٦٢). يدهشنا أن نجد هذا النوع من الصيغ في ذيل الوثائق المكتوبة بالعربية والهولندية الموجهة إلى هولندا. كانت لغته الفرنسية ركيكة وصعبة الفهم، ومليئة بمفردات مشتقة من اللغة الإسبانية، وبكلمات إسبانية متداخلة، وعلاوة على ذلك كان يستخدم حرف «ñ» للكتابة في الفرنسية، كما يمكن بسهولة ملاحظة ذلك

فى المراسلة من هولندا وفرنسا وفى الشروحات التى توجب على ناشرى تلك الرسائل إدخالها لجعلها مفهومة^(٦٣). ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الهولندية، كما تقول الوثائق القشتالية، عندما وصل إلى هولندا. أما عن كيفية تمكنه من استخدام اللغة الهولندية فى الأزمنة اللاحقة على وصوله لهذا البلد فسوف نتكلم عن ذلك فى الفصل الثالث.

خطه فى القشتالية لا يختلف عن خط وثائق العصر، ولديه سهولة وثبات يد شخص تعود على الكتابة. يحدث الشئ ذاته مع اللغة العربية، وهى اللغة التى يتقنها تمامًا.

وهكذا فإننا نضيف إلى الأسئلة التى قمنا بطرحها على أنفسنا سابقاً قضية أى نوع من التربية تلقاها باياتشى، وفى أى وسط كان يتحرك. ومن أجل محاولة التعرف أكثر على مظهره الجسمانى، وعن لغته وعن حياته قبل وصوله إلى مدريد، وأيضاً بعد نزاعه مع محكمة التفتيش، لجأنا للبحث فى وثائق محكمة التفتيش.

يهود فاس ومحكمة التفتيش

بحثنا، بين وثائق محكمة التفتيش، عن آثار النزاع الذى سبب خروج الأخوين باياتشى من إسبانيا فلم نجد شيئاً. يبدو أن الأخوين لم يتم إجراء محاكمة لهما. لكن على العكس، وفى نفس السنوات، وجدنا محاكمات عديدة ليهود آخرين من فاس كانوا مستقرين فى مدريد، وسوف نلخص قصص البعض منهم هنا لأنها موضحة جداً لبيئة باياتشى.

إن ملفات محكمة التفتيش المحفوظة عن تلك السنوات، التى تجرى ليهود قادمين من فاس، تستلزم أن نقف عندها. فى المقام الأول، لأنها تظهر يهوداً من فاس مطرودين من المغرب نحو نفس الأماكن التى سيجوبها باياتشى. فى المقام الثانى، لأنها موضحة للأسباب التى جعلت من باياتشى هدفاً لرقابة محكمة التفتيش.

تعد حالة فرانثيسكو دى سان أنطونيو Francisco de San Antonio أفضل مثال. كان يهوديا وُلِدَ في فاس سنة ١٥٧٩ وُسُمِيَ أبراهام روبن Abraham Rubén. في عام ١٦٠٤ (أى بدعا من موت مولاي أحمد المنصور) كان قد هاجر إلى ليفورنو Livorno ثم إلى اسطنبول حيث اشتغل بالتجارة خلال ثلاث سنوات. وانتهى به المطاف مهاجرا إلى أمستردام حيث عاش كحاخام يعلم التوراة بمرتب قدره ٥٠٠ كروثادوس Cruzados. ثم مضى إلى أمبيريس Ambers، حيث تحول إلى الكاثوليكية في عام ١٦١٦، ليعود بعد ذلك إلى أمستردام وإلى اليهودية. ومن هناك إلى لشبونة حيث كرس نفسه لفترة من الوقت لتعليم اللغة العبرية والشعائر والطقوس اليهودية لـ «أناس من وطنه». وقد ألفت محكمة التفتيش فى لشبونة القبض عليه في يناير عام ١٦١٨، وفي شهر فبراير حُكِمَ عليه بالسجن. وخرج في «مشهد الإيمان» في الخامس من أبريل عام ١٦٢٠ مداناً بعد أن حُكِمَ عليه بأن يتوب عن ذنب صغير، وفي عام ١٦٢١ طُرِدَ من البرتغال مذى الحياة.

ذهب إلى مدريد حيث أسرع بإقامة علاقة مع يهود آخرين من فاس، مثل بدرو دى سانتا مارييا، المساعد الشخصى لكونت بينافنتي Conde de Benavente، وفرانثيسكو إنريكيث، الذى كان يعمل في خدمة راهب من رهبانية الثالوث، هو الأب أورتيغسيو، وكان يعلمه دروساً في العبرية. كان إنريكيث هذا يدخر مالا من أجل العودة إلى فاس ويحضر فرانثيسكو دى سان أنطونيو على عمل نفس الشئ.

لكن بغض النظر عن ذلك، فقد تحول سان أنطونيو مرة أخرى إلى المسيحية في يونيو من عام ١٦٢١ في حضور صاحبة الجلالة الملكة بالكنيسة الملكية. يؤكد في المحاكمة أنه تحول إلى المسيحية «لينعم بالصدقات التى يقدمها صاحبها الجلالة للذين يتعمدون» وبفكرة استخدام هذا المال في العودة إلى فلانديس. من الواضح أنه لم يكن صادقاً عندما أكد في حضور مسيحيين آخرين جدد أنه، على الرغم من حالة النذل التى كانوا يعيشون فيها في فاس، فإن ذلك كان أفضل من العيش فى أرض المسيحيين^(٦٤).

فى مدريد عاش حياة «الدعوة إلى الدين»: كان يبحث عن الاتصال بتجار «برتغاليين»، أى مسيحيين جدد، وكان يكرس نفسه «للتهودية». كان لديه أبجدية مطبوعة بالعبرية، بحروف كبيرة الشكل واسم الحرف بجواره، برسم قشالى، وكشكول بحجم كبير مطبوع بالعبرية أيضًا، يشرح فيه كيفية إقامة العديد من الشعائر والطقوس. كان يعلم الصلوات بالعبرية لمن يطلب منه ذلك، وكان يصف الصلاة كتابة، وكان يؤجر الأبجدية والكشكول بثلاثين ريال فى الشهر. كان يعلم أيضًا ذبح الدجاج والأغنام، وكان يقول «ملعون من لا يذهب مع أناس من بنى وطنه». حاكمته محكمة طليطلة بتهمة «تعليم العقيدة اليهودية ولأنه عميل ومتواطئ مع الملحدين». بعد ذلك تم الاتصال معه والحكم عليه بالسجن المؤبد فى عام ١٦٢٥ (٦٥).

فى محاكمة سان أنطونيو هذه يظهر يهودى آخر من فاس يُدعى باسم مسيحي هو بدرو دى كاسترو، أصبح «مترجمًا شفويا ومترجمًا تحريريًا» فى لشبونة. وقد أرسل هذا الرجل من لشبونة، شهادة ضد سان أنطونيو فى مارس من عام ١٦٢٥ وقدم عدة معلومات ضده. عاش بدرو دى كاسترو فى مدريد، حيث تنصّر، ومنها انطلق إلى لشبونة وهو يعمل فى خدمة خيرونيمو دى غوبيا Jerónimo de Gobeal، أسقف سبتة، الذى كان يدفع له مرتبًا قدره ريالان فى اليوم. كان قد أبلغ أيضًا ضد متنصّرين آخرين قادمين من شمال إفريقيا (٦٦).

هناك حالة أخرى مهمة، وهى حالة فرانتيسكو ديل إسبيريتو سانتو Francisco del Espíritu Santo، حاكمته محكمة التفتيش بين عامى ١٦١٥ و ١٦١٨ (٦٧). كان فرانتيسكو فى الأساس مُتهمًا بممارسة السحر والشعوذة، ولكونه قادرًا على العثور على كنوز مدفونة. غير أنه لم يُحاكم بتهمة الشعوذة أو السحر؛ بل كان الشيء الذى أدانته هو أنه من أجل هذه الممارسات كان يحتفظ بكتابات سحرية وطلاسم مكتوبة باللغة العبرية. وبعد إلقاء القبض عليه، أقرّ بأنه كان إسكافيًا، وعمره ٣٣ سنة، ومن أصل يهودى، وأنه ولد فى المغرب فى مدينة

مراكش Marrakech، لأب وأم يهوديين. عندما بلغ عمره العشرين عاما انتقل إلى فاس وتحول إلى الإسلام، وخلال حوالي عشرة أعوام عمل في خدمة ملك فاس. في عام ١٦١١ جاء إلى إسبانيا حيث تحول إلى المسيحية، وهو الآن يعيش في مدريد في بيت المراجع بدرو دي غوثمان Pedro de Guzmán الذي يقوم بخدمته. يؤكد فرانثيسكو أنه يعتقد دين موسى ويود أن يظل محافظاً عليه، وأن يموت على هذا الدين، لأنه ابن لوالدين يهوديين منحدرين من نسل هارون، ونشأ على هذا الدين. سألوه لماذا تحول إلى الإسلام، فقال في البداية لأنه تشاجر مع والديه، وبعد ذلك أضاف: «لأن اليهود بين المسلمين ليسوا محترمين، ولا يمكنهم فعل شيء» وأنه أراد أن يكون محترماً ويعيش ويأكل جيداً. وقد أسلم ظاهرياً فقط وليس بقلبه. عندما وصل إلى إسبانيا بدا له أن المسيحية لم تكن بعيدة جداً عن دين موسى لكنه سرعان ما رأى أنه قد أخطأ: كانت الصور والتماثيل تضايقه كثيراً، وأن المسيحيين كانوا يعتقدون أنهم يأكلون جسد الرب. في المحاكمة تدرج صفحة محررة باللغة العبرية كان المتهم يحملها معه بالإضافة إلى طلسم أدرج في ملف القضية مكتوباً بالعبرية أيضاً. وقد شهد خوان باوتيستا راميريث Juan Bautista Ramírez السجين في سجون محكمة التفتيش لكونه يمارس شعائر اليهودية أن الصفحة عن نص من مزامير داوود، يقوم بترجمته. لخوان باوتيستا هذا ويوجد ملف محاكمة، وسوف نراه لاحقاً.

يوقع فرانثيسكو كل اعترافاته باللغة العبرية. يسألونه لماذا يوقع هكذا وليس فرانثيسكو ديل إسبيريتو سانتو، فيقول إنه لا يريد أن يُدعى بهذا الاسم بل باسمه اليهودي القديم. عندما يلحون عليه أن يوقع باسمه المسيحي يرفض ويقول: إذا كنت يهودياً، فكيف أوقع باسم مسيحي؟. يبدو أن الاسم المكتوب بالعبرية هو إيساكار Isacar بن إسحاق القاسم. حُكم عليه في عام ١٦١٨ بخمس سنوات تجديف في السفن، وهي عقوبة مخففة جداً إذا وضعنا في الاعتبار أنه فعل ما يوجب عقوبة الإعدام خاصة التصميم على الإلحاد. حينما كان في السجن كان يصيح

ويسب أعضاء محكمة التفتيش، وكان يخرج عن طوره ويطلب صارخاً أن يحرقوه في أقرب وقت، فقاموا بوضع كمامة له. ربما اعتقد أعضاء محكمة التفتيش أنه لم يكن سليماً من الناحية العقلية، حيث أصروا على أنه عبارة عن رجل مختل. إن قراءة ملف هذه المحاكمة أمر شديد القسوة ؛ فهو رجل مسكين غير قادر على استراتيجيات الدفاع التي أجادها متهمون آخرون كثيرون.

بالنسبة لخوان باوتيسا راميريس Juan Bautista Ramírez، كان دارساً للاهوت في فاس وسافر إلى إشبيلية عن طريق مليلة في عام ١٦٠٨. بعد تعميده في هذه المدينة «أخذ يبيع لوحات في الشوارع» حتى جمع مالا كافياً من أجل الذهاب إلى ليفورنو Livorno، حيث تزوج من يهودية برتغالية. ثم عاد إلى إسبانيا حيث أبلغ عنه يهودي آخر متنصر من شمال إفريقيا^(٦٨).

لكن من بين أسماء المتهمين والشهود المشار إليهم في المحاكمات، أو عن طريق الأسماء التي ذكرها الاتهام ليهود آخرين كانوا يحضرون اجتماعات أو كانوا أصدقاء للمتهمين، نرى أنه كان في مدريد عدد من اليهود جاءوا من فاس وتحولوا إلى المسيحية ويعيشون في خدمة نبيل أو شخصية من شخصيات القصر. أي أنهم كانوا على اتصال بذوى النفوذ وهو نفس ما فعلوه في المغرب، وكما رأينا ببايتشي يحاول أن يفعل. نفس الشيء كان يحدث في لشبونة: خيرونيمو دي ميندوثا Jerónimo de Mendoza، الذي كتب «يوميات في إفريقيا» Jornada de África في لشبونة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر استعلم عن تفاصيل مختلفة لكي يقدم وصفاً للبلاد، وبخاصة مدينة فاس، وقد طلب هذه المعلومات من يهود من هذه المدينة «الذين نشأوا في الأرض» (أي في المغرب)^(٦٩) وتحولوا إلى المسيحية ويعيشون الآن في العاصمة البرتغالية. على مدى القرن السابع عشر تحاكم محكمة تفتيش لشبونة يهوداً عديدين من المغرب ويقيمون في البرتغال حيث جاءوا برفقة أو في خدمة إحدى الشخصيات البرتغالية التي كانوا يقومون بخدمتها في أحد المواقع البرتغالية بالمغرب وقد أُجبروا على

التنصر ليستطيعوا العيش في البرتغال، وحوكم العديد منهم على أنهم مرتدون يهود ولأنهم يُعلمون العقيدة اليهودية لمتنصرين برتغاليين^(١٠).

عموماً فإن هؤلاء اليهود المتنصرين، على الأقل الذين حاكمتهم محكمة التفتيش الإسبانية، كانوا متصلين بأوساط متنصرين برتغاليين ومدرجين في الرقابة التي كان هؤلاء هدفًا لها، وكانت خطورتهم تكمن في أنهم كانوا يتمتعون بثقافة يهودية كبيرة ومعارف دينية أكثر عمقا، وهو ما أدى إلى اتهامهم بتقوية العقيدة اليهودية عند المتنصرين بعد أن كانت قد اضمحلت. كانت هناك محاكمات ليهود من شمال إفريقيا متهمين بكونهم «معلمين للعقيدة اليهودية» وتظهر هذه الأسماء في ملفات العديد من القضايا التي نظرتها محاكم التفتيش. كان يُنظر إلى معلم العقيدة على أنه مواطن يأتي من الخارج، وعلى الأخص من شمال إفريقيا أو على أية حال من أراضٍ يمكن ممارسة اليهودية فيها بحرية، وبالتالي اكتساب ثقافة يهودية متينة، وكانت مهمته تتمثل في حض المتنصرين على العودة إلى الإلحاد. ويجب أن نتذكر أن أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى قرار الطرد عام ١٤٩٢ كان الرغبة في منع المتنصرين اليهود من الاتصال بأتباع دينهم القديم. هذا الشعور كان لا يزال له وزن كبير.

وتُعد حالة مدينة ملقة مثالا جيدا، حيث كانت تقطنها جالية من المتنصرين البرتغاليين: في الستينيات من القرن السابع عشر كانوا يتحكمون في جزء كبير من تجارة ملقة وفي إدارة العديد من الإيجارات الملكية، والبعض منهم كان قد تولى مناصب مهمة في حياة المدينة. داخل هذا المجتمع كان هناك العديد من اليهود المستترين إذا وضعنا في الاعتبار أنه في عام ١٦٦٩ كان هناك ١٦٢ ممن يمارس الشعائر اليهودية مسجونين في سجون المدينة. وبالرغم من قوة أو صلابة إيمانهم إلا أن المتهودين في ملقة كانوا على وعى بضحالة شعائريهم، وهو ما كان يولد شغفا كبيرا إلى المعرفة. إن الرحلات المتوجهة إلى أحياء الجماعات اليهودية المغربية كانت وسيلة لاكتساب معارف ولشراء كتب، ومن بين وسائل اكتساب

المعرفة أيضا إجراء اتصالات مع اليهود المغاربة الذين كانوا يصلون إلى المدينة ويتمتعون بصيت ذائع بين مجتمع المنتصرين. هذا المجتمع كان بالإضافة إلى ذلك يرسل هبات للجماعات اليهودية «كتضحية يقدمها اليهود إلى حاخاماتهم ليغفروا لهم ما لا يؤدونه من شعائر دينهم». إن محاكمات ليهود من شمال إفريقيا مقيمين بين أهل ملقة تعطى نموذجا جيدا لهذه الاتصالات. هذه هي حالة بالتاسار دى أوران، الذى «كان يقول لهم متى تأتى الأعياد، ومواعيد الصوم وأشياء أخرى من دين موسى». كل ذلك جعل لبالتاسار شأنا كبيرا بين يهود ملقة، وقد استفاد هو من هذه المكانة لصالح مشروعاته التجارية^(٧١).

لا نجد فى أى من المحاكمات التى اطلعنا عليها ذكرًا للأخوين باياتشى. لكن من هذه المحاكمات، ومن محاكمات أخرى من سنوات سابقة^(٧٢)، يمكن استنتاج أن نقطتين أساسيتين تثيران شكوك محكمة التفتيش، وقد تورط باياتشى فى كليهما: إقامة علاقة مع «برتغاليين»، والقيام بتعليم العقيدة اليهودية أو امتلاك أوراق مكتوبة بالعبرية. سوف نرى حالة أخرى فيما بعد. هذه المحاكمات تطرح علينا تساؤلات جديدة، وبخاصة، ما الذى أتى بهؤلاء اليهود القادمين من فاس، إلى شبه الجزيرة وجعلهم يتحولون إلى المسيحية؟^(٧٣).

هوامش الفصل الأول

- 1 Véase W:Ch. Pieters, Daniel Levi de Barrios als geschiedschrijver van de Portugees-Israelietische gemeente te Amsterdam in zijn "Triumpho del gobierno popular". Amsterdam, 1968.
- 2 Apud Pieterse. Op.cit., p. 53.
- 3 Zwarts. "De eerste rabbijnen en synagogen", p. 200.
- 4 D. Corcos Abulafia. "Samuel Pallache and his trial in London"(en hebreo). Studies on the Jews of moroco, Jerusalén, 1976. pp. 122-133; K. Heeringa. "Een bondgenootschap tusschen nederland en Marokko" Onze Eeuw, VII,3 (1907), pp. 81-119. M.H.Gans, "Don Samuel Pallache als moré en zeerover. grondlegger onzer gemeenschap". Opstellen opperrabbijn L.Vorst aangeboden, Rotterdam, 1959, pp. 15-23, M.H. Gans. Memorboek. Platenatlas van het leven der joden in Nederland van de middeleeuwen tot 1940. Baarn, 1971, pp. 34-35; H.Z. Hirschberg. A History of the Jews of North Africa, Leiden, 1974-1981, vol.II, pp.212 y ss.
- 5 D. Swetschinski, "Un refus de mémoire. Les juifs portugais d'Amsterdam et leur passé marrane". en E. Benbassa (ed.), Memoires juives d'Espagne et du Portugal. Publisud, 1996. pp 69-79.
- 6 C.Lorenz Wilke, "Conversion ou retour? La métamorphose du

- nouveau chrétien en juif portugais dans l'imaginaire sépharade du XVII siècle" en E. Benbassa (ed.), Mémoires juives..., pp.53-67.
- 7 J. Israel, "Spain and the Dutch Sephardim" *Studia Rosenthaliana*, XII, n° 1-2 (1978), pp.1-61.
 - 8 Archivo General de Simancas (AGS), Estado, Leg. 208.
في عام ١٦٠٧ يؤكد الأخوان (صمويل وجوزيف باياتشي) أنهما يقيمان في العاصمة (مدريد) منذ أربع سنوات.
 - 9 Archivo Ducal de Medinasidonia (ADM), Leg. 2405.
 - 10 AGS, Estado. Leg. 2636, octubre, noviembre y diciembre de 1602. ADM, Leg. 2405.
 - 11 ADM, Leg. 2405, ١٦٠٣ يناير ١٢ بتاريخ، رسالة من الملك إلى الدوق،
 - 12 ADM, Leg. 2405, 6 de marzo de 1602.
 - 13 ADM, Leg. 2407.
 - 14 AGS, Estado, Leg 2636, رسالة بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٦٠٢.
 - 15 المراسلات المستديمة مع فيليبي الثاني وفيليب الثالث على حد سواء، محفوظة على نحو خاص في سيمانكاس وفي أرشيف ميديناسيدونيا.
- Véase L.I.Álvarez de Toledo; Alonso Pérez de Guzmán... Cádiz, 1994, 2vols.
- 16 يقول ذلك هيرتسبرج في كتابه السابق ذكره، صفحة ٢١٣، دون أن يذكر مصادر؛ نعتقد ببساطة أنه أخذ ذلك عن كوركوس الذي يرجع ذلك بدوره

إلى فقرة خاصة بالسفير الفرنسي، بارثول، وهي الفقرة التي سوف نُسدرجها فيما بعد والتي تعد البيان الوحيد في هذا الصدد.

- 17 الحصول على هذا الموقع كان الشغل الشاغل لفيليبى الثانى، وقد أنتج الموضوع وثائق كثيرة جداً،

Véase Darío Cabanelas, "El problema de Larache en tiempos de Felipe II", *Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos*, 9 (1960), pp. 19-53.

- 18 Sources Inédites de L'Histoire du Maroc (desde ahora SIHM), France, II, p.344.

- 19 عن التاجر خوان دى مارتشينا، أنظر:

Juan luis de Rojas, *Relación de algunos sucesos postreros de Berdería, salida de los moriscos de España y entrega de larache*, Lisboa, 1613, F. 11.

عُين خوانيتين مورتارا عميلاً لإسبانيا عند مولاي الشيخ، أنظر

Fr. Marcos de Guadalajara y Xavier, *Prodición y destierro de los moriscos de Castilla...disensiones de los hermanos Xarifes y presa de Alarache*. Pamplona, 1614, f.96 y ss.

- 20 AGS, Estado, Leg. 493.

ملخص للجلسة. والمحضر الكامل لنفس الجلسة منشور في AGS, Estado, Leg. 2637 لكن المستندات التي قدمها باياتشى لا تظهر بين الوثائق المحفوظة عن اجتماع مجلس الدولة هذا.

- 21 AGS, Estado. Leg. 208.

- 22 AGS, Estado. Leg. 2637, n° 59. 19 de junio de 1605.
- 23 AGS, Estado. Leg. 2637, n° 159, 13 de junio de 1605. انظر التذييل
- 24 AGS, Estado. Leg. 2637, n° 60, 16 de agosto de 1605.
- 25 AGS, Estado. Leg. 2637, n° 60 bis, 6 de septiembre de 1605.
- 26 AGS, Estado. Leg. 200.
- 27 ADM, Leg. 2406, 20 de septiembre de 1605.
- 28 ADM, Leg. 2406, 15 de noviembre de 1605.
- 29 AGS, Estado, Leg 200. انظر التذييل
- 30 ADM, Leg, 2757.
- 31 يبدو أن خوانيتين مورتارا كان قد ذهب إلى فاس في المقام الأول "بغرض التعامل في الماس والجواهر القيمة مع مولاي الشيخ الذي كما قلنا، لم يسأم أبدا منها وقدّر البحث عنها والوقوف عليها ودفع قيمتها بشكل جيد..."
Rojas, op. Cit.,f.11.
- 32 يُعدّ هذا أمرا شائعا بين العائلات اليهودية المعاصرة والذي يُترجم بشكل اعتيادي بالارتباط بالشبكات التجارية التي كانوا يحتفظون بها. أنظر:
Swetschinski, "kinchip and Commerce..."
- 33 طبقا لوثائق أرشيف دوق مدينا سيدونيا، مع أنه لا تُذكر إشارات، عند
Luisa Isabel Álvarez de Toledo, Alonso Pérez de Guzmán,
General de la Invencible. Cádiz, 1994, vol. II. p.65.
- 34 AGS, Estado, leg.200.

- 35 ADM, Leg. 2406.
- 36 ADM, Leg. 2406, 22 de octubre de 1605.
- 37 ADM, Leg. 2406, 22 de octubre de 1605.
- 38 عن قضية العرائش، انظر
T.García Figueras y C. Rodríguez joulfa: Larache, datos para su historia en el siglo XVII, Madrid, 1973.
- 39 AGS, Estado, leg. 208.
جوزيف وصمويل باياتشى يتلقيان مالا لأسباب عادلة.
- 40 Colección de Documentos para la Historia de España (CODON), vol. 81, P. 478
- 41 Carta de de Barrault desde Madrid, 29 de septiembre de 1606. SIHM, France, II, pp. 343-344.
- 42 Carta de de Barrault a Enrique IV. 26 de noviembre de 1606, SIHM, France, II, pp. 352-354.
- 43 SIHM, France, II, p. 375.
- 44 SIHM, France, II, p. 433.
- 45 AGS, Estado, Leg. 208.
- 46 AGS, Guerra y Marina, Leg. 679.
- 47 Véase carta de de Lisle a Enrique IV el 16 de abril de 1608, SIHM, France, II, p.433 y también AGS, Guerra y

Marina, Leg. 679.

48 Archivo Histórico Nacional de Madrid (AHN), Inquisición, Leg. 2643, año 1671.

49 هذا التنصر المقصود ينبغي دراسته كذلك من وجهة نظر الشريعة اليهودية.
انظر على سبيل المثال،

H.J. Zimmels, Die Marranen in der Rabbinischen Literatur.
Forschungen und Quellen zur Geschichte und Kulturgeschichte
der Anusim, Berlin, 1932,

الدراسة الحالية ليست مكاناً لمناقشة متعمقة في هذا الصدد. نأمل ان نعود
لهذا الموضوع في دراسة منفصلة.

50 9 de sept. de 1607. AGS, Estado, Leg. 208. انظر التذييل

51 AGS, Estado, Leg. 208.

52 AGS, Estado, Leg. 206.

53 AGS, Guerra y Marina, Leg. 679.

54 Según doc. notarial de 23 de septiembre de 1616, nr. 1000 en
Studia Rosenthaliana X (2) (1976), p.221.

55 SIHM, Pays-Bas,II,p. 269.

56 Abraham ibn Daud (the Book of Tradition (Sefer ha-Qabbala),
ed. G.D. Cohen,Filadelfia, 1969, pp. 48 y 52).

يذكر عائلة يهودية في قرطبة في القرن العاشر لها لقب مشابه، عائلة ابن
فاليخا، لكن هذه المماثلة غير محتملة للغاية. يذكر لاريدو، أنهم هاجروا إلى

المغرب عندما حدث الطرد في عام ١٤٩٢

(A. Laredo, Les noms des juifs au Maroc, Madrid, 1978, p. 966).

لكنه لا يذكر مصادر يدعم بها هذا التأكيد.

57 Laredo, op. Cit., p.967. سوف نعود لموضوع إسحاق أوثيل في الفصل الثالث

58 Apud Roth, art. Cit., p.243

59 "Reduction de cinco Erches renegados de Ververía y sus confesiones", AHN, Inquisición, Leg. 1821 n° 15. Apud F.R. Mediano, "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazarquivir"

60 ADM, Leg. 2409, خطاب من الملك إلى الدوق، بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٦١٤

61 Véase infra cap.3, "El pleito de Isaac".

62 SIHM, Pays-Bas, II, p.170

63 انظروا على نحو خاص إلى خطابات باياتشى المنشورة في

SIHM, Pays-Bas II, passim.

64 AHN, Inquisición, Toledo, Leg. 134, n° 18, fol. 8.

65 قام هـ. بينارت بدراسة هذه المحاكمة في مقال باللغة العبرية

"Halijatam shel yehudim mi Maroco li-Sefarad bereshit hameá ha 17"

أو "طريق اليهود من المغرب إلى إسبانيا في أوائل القرن السابع عشر"

en Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume on the Occasion of his Eightieth Birthday, Nueva York y Londres, 1974.

- 66 تؤكد ذلك الأوراق التي أرسلت من محكمة تفتيش لشبونة إلى محكمة تفتيش طليطلة،

AHN, Inquisición, Leg. 134, n° 18f. 13r.

- 67 AHN, Inquisición, Toledo, Leg. 145, n° 13.

- 68 AHN, Inquisición, Leg. 156, n° 4.

- 69 Jerónimo de Mendoça, Jornada de África del rey Don Sebastián, Lisboa, 1613, fol. 68v.

- 70 José Alberto Rodrigues da Silva Tavim, Os judeos na expansão portuguesa em Marrocos durante o século XVI, Braga, 1997, pp. 107 y ss, y Apéndice documental.

- 71 Apud B. López Belinchón, "Aventureros, negociantes y maestros dogmatizadores. Judios norteafricanos y judeoconversos ibéricos en la España del siglo XVII" (en prensa)

- 72 Véase Beinart, art. cit.

- 73 ينبغي الأخذ في الاعتبار أن ليس كل اليهود الذين كانوا يعودون إلى شبه الجزيرة كانوا يتصرفون. انظر

Y. H. Yerushalmi, "Professing Jews in Post-Expulsion Spain and Portugal", Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume English

Section, vol.II, Nueva York y Londres,1974, pp. 1023-1058.

الفصل الثاني

شيء آخر عن البيئة

عصر وأماكن صمويل باياتشي

نعرف أن عائلة باياتشي من أصل إسباني، وأنها كانت مقيمة في فاس في أواخر القرن السادس عشر، ويُفترض أن صمويل ولد وقضى سنواته الأولى هناك^(١)، لذا فسوف نتحدث عن مدينة فاس.

فاس

يبدو أن فاس، التي تُعدّ واحدة من أهم مدن الغرب الإسلامي في العصور الوسطى، كان فيها عدد كبير من السكان اليهود منذ تأسيسها. إن المدينة والأقلية اليهودية ازدهرتا على حد سواء بداية من القرن الثالث عشر بعد أن اعتلت أسرة بني مرين السلطة، وحولت فاس إلى عاصمة لمملكتها واستعانت بعمال ومديرين يهود في قصرها. وكما حدث كثيرًا في إسبانيا المسيحية في العصور الوسطى، فإن الضغينة الشعبية ضد اليهود زادت بالتوازي مع الحماية والمعاملة الطيبة التي وفرتها لهم المملكة. في أواسط القرن الخامس عشر نقل السلطان المريني عبد الحق بن أبي سعيد كل السكان اليهود من فاس إلى المدينة التي اتخذها مقراً لقصره الجديد والتي كانت الأسرة الحاكمة قد أنشأتها عاصمةً لنفسها، وكذلك نقل السلطان قصره وحرسه إلى تلك المدينة الواقعة في ضواحي فاس. في هذه المدينة المسماة فاس الجديدة، وفي منطقة تسمى الملاح Mellah أقام السلطان ما سوف يكون أول حي يهودي بشمال إفريقيا، بهدف وضع اليهود تحت حمايته وإبعادهم عن خطر تكرار حدوث ثورات شعبية ضدهم، وهو أمر كان قد حدث في سنوات سابقة. لفظ «ملاح» تحول في المغرب إلى مرادف لـ «حي يهودي». في المائة وخمسين عامًا التالية أصبح الحي اليهودي في فاس على غير العادة أهلاً بالسكان ومهمًا.

ملاحظون أوروبيون معاصرون للأحداث أمثال ديبغو دي توريس^(٢) ولويس دل مارمول وخيرونيمو دي ميندوثا^(٣) أو نيكولاس كلينارثس (نيكولاس دي كلينارد)^(٤) تركوا لنا أوصافا مفصلة عن الحى اليهودى فى فاس والذى كان يسكنه فى أواسط القرن السادس عشر، حسب مارمول، عشرة آلاف أسرة، أى حوالى أربعين أو خمسين ألف مواطن، معظمهم من أصل إسباني.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن فاس تحولت إلى مكان للجوء اليهود الإسبان منذ المطاردات فى أواخر القرن الرابع عشر، وقد استقبلت المدينة على وجه الخصوص مجموعات مهمة من اليهود فى لحظة الطرد عام ١٤٩٢.

يتحدث برنالديث، مؤرخ الملكين الكاثوليكين، عن الموجات الأولى من اليهود الهاربين قبل الطرد وبالتالي قبل سقوط غرناطة، مؤكدا أنهم كانوا يلجأون إلى أراضٍ إسلامية، سواء غرناطية أو مغربية: «توجه الكثيرون إلى أرض المسلمين، هناك وعلى الجانب الآخر، ليكونوا يهودا كما كانوا؛ وذهب آخرون إلى البرتغال وآخرون إلى روما»^(٥). لقد سلك نفس الطريق كثير من المطرودين فى عام ١٤٩٢. فى تلك السنوات كانت الأماكن الأوروبية التى تسمح لليهود بالعيش فيها بصفتهم يهودا قليلة (عمليا وفى تلك اللحظة، كانت البرتغال فقط من بين الدول المجاورة، بالإضافة إلى بعض المدن الإيطالية)، وهو السبب الرئيسى الذى جعل الأغلبية من اليهود يلجأون إلى أراضى الإسلام.

فى مختلف المجتمعات الإسلامية (العثمانية أو المغربية هى التى تهمنى الآن) اندمج اليهود فى تلك المجتمعات بمقتضى ما يسمى بـ «عهد الذمة» وهى لائحة خاصة بالمحميين تسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم الخاصة والحفاظ على سلطاتهم العامة واستقلال نسبي، لكن دائما داخل حالة من الخضوع والانقياد. كانت لائحة مشابهة جدا لتلك التى كان اليهود والمدجنون يخضعون لها فى الممالك المسيحية فى العصور الوسطى بشبه الجزيرة الأيبيرية. سوف نرى لاحقا فى الوثائق العربية المغربية، أن صمويل وجوزيف باياتشى يوصفون دائما بأنهم «ذميون».

بالإضافة إلى ذلك فإن المطاردات التي كان اليهود هدفا لها في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ أواخر العصر الوسيط، وبخاصة منذ أحداث عام ١٣٩١، كانت سببا في وجود «نبوءات». في الاضطهاد المفروض على اليهود من قبل المسيحيين، اكتسب الإسلام - الذي يُعد العدو التقليدي للمسيحيين بالنسبة لبعض الأوساط اليهودية - صفة المنقذ الذي أرسلته العناية الإلهية، وقد تحقق هذا الدور بفتح المسلمين للقسنطينية. في التعارض بين الغرب المسيحي والشرق التركي، يرى اليهود علامات تحررهم وبداية عهد الخلاص^(٦). إن هذا المفهوم المبهم موجود ومشروح بصفة خاصة في كتابات المبشر المفسر للعهد القديم أبراهام بن خاكوب سابا^(٧)، وهو أحد المطرودين من إسبانيا، لجأ أولا إلى البرتغال، ثم إلى فاس، وبعد ذلك إلى فينيسيا، حيث نشر كتابه^(٨). إن هجرة اليهود المطرودين إلى الشرق وإلى شمال إفريقيا كانت كبيرة للغاية، ليس فقط بسبب الإمكانية التي كانت تقدمها الأراضي الإسلامية لممارسة الديانة اليهودية بحرية، لكن أيضا بسبب الأفكار المخلصة وبسبب رؤيتهم للإسلام كعدو منتصر على المسيحية. إن هذه المطابقة كانت لاتزال تظهر في المغرب في عام ١٥٧٨، إثر هزيمة الملك البرتغالي سيباستيان: (احتفل يهود فاس وتطوان بالهزيمة وأقاموا صلاة خاصة يقيمونها للرضا والشكر حينما يبتعد التهديد بالتدمير)، وهي تُقام حتى اليوم^(٩). ومع ذلك فإن حظ الذين رحلوا إلى فاس في عام ١٤٩٢ يبدو أنه كان في البداية قاسيا.

أبراهام بن سالومون دي توريتيل، الذي هاجر إلى فاس مع أسرته وهو يبلغ من العمر عشر سنوات، يروي في كتابه «سفر كابالا» الذي ألفه في عام ١٥١٠، المتاعب التي تعرض لها هؤلاء الذين وصلوا إلى بلد دمره الجوع والجفاف، على الرغم من المعاملة الطيبة تجاههم من قبل سلطان فاس.

في عام ١٤٩٣ وصل جزء كبير من المطرودين إلى المغرب عبر موانئ طنجة والعرائش وأزامور وصافي وعلى وجه الخصوص عبر موانئ أرثيلا وسالي، وقد عانى اليهود كل أنواع المعاملة السيئة وبخاصة نهب ممتلكاتهم من قبل

البرتغاليين والمسلمين. مع ذلك فقد أرسل السلطان بغالاً ومؤناً ومرشدين وقادة إلى أرثيلا بهدف نقل اليهود إلى عاصمته، حيث شيد لهم مجموعة من المساكن المؤقتة خارج هذه المدينة وحول الملاح. استقرّ الوافدون الجدد إنز في أكواخ من الخشب والتبن والخيام، وتعرضت هذه الخيام بعد ثمانية أشهر من وصول اليهود للحريق حيث فقد بعضهم حياته وتقريباً كل ثرواتهم وممتلكاتهم. تأسف المصادر اليهودية على وجه خاص على ضياع كتب عبرية كان اليهود قد أحضروها من شبه الجزيرة. في ذلك الوقت حاول كثيرون العودة إلى إسبانيا^(١٠).

لاشك كان الوضع قد استقر في عام ١٥٠٨ ويحكى لنا الحاخام أبنيير هاسارفاني - وهو مؤرخ يهودي من فاس - أنه في ذلك العام استطاع اليهود الإسبان المعروفين باسم ميجوراشيم أو مهاجرين لتمييزهم عن اليهود الأصليين المقيمين في المغرب أو توشافيم، استطاعوا أن يبنوا بيوتاً من عدة طوابق ومزينة بالرسومات والفنون العربية. كان للجماعة الإسبانية بالإضافة إلى ذلك معابد عديدة ومدارس مليئة بالدارسين^(١١).

وقد وصلت مجموعات جديدة من اليهود الإسبان إلى فاس ليس فقط في السنوات اللاحقة مباشرة للطرد، بل على مدى النصف الأول من القرن السادس عشر، هذه المرة من خلال المواقع التي كانت لدى البرتغاليين في الشاطئ المغربي. هذه المواقع كانت منذ البداية ملجأً للمتصرين: في أكتوبر من عام ١٤٨٨، حينما علم خوان الثاني ملك البرتغال، أن متصرين قشتاليين كثيرين لاجئين في البرتغال كانوا يذهبون إلى شمال إفريقيا من خلال المواقع ليعودوا لدينهم القديم، صدق على عقوبة الإعدام ومصادرة الأموال لمن يقدم على فعل هذا الشيء^(١٢). كانت مدينة فاس هي مركز الجنب لأولئك اليهود. إن وصف مارمول الذي عاش في فاس في الأربعينيات من القرن السادس عشر، يضعنا تماماً في الحي اليهودي في فاس:

«[فى الحى الثالث بفاس الجديدة ...] يوجد الآن الحى اليهودى، الذى كان يقع قبل ذلك فى فاس القديمة؛ ولأن المسلمين كانوا ينهبون أملاك اليهود عندما كان الملك يحتضر، لذا نقل الملك بوسعيد الحى اليهودى إلى هناك بشرط أن يدفعوا له الضريبة مضاعفة. فى هذا الحى يوجد ميدان كبير به محلات كثيرة ومعابد وبيوت مشغولة جيداً، ويعيش اليهود كما لو كانوا فى مدينة؛ ويصل عددهم إلى أكثر من عشرة آلاف أسرة، أربعة أو خمسة فى كل بيت، والجزء الأكبر منهم هم الذين طُردوا من إسبانيا فى زمن الملكين الكاثوليكيين (فرناندو وإيسابيل). من بين هؤلاء يوجد بعض الأغنياء، ولهم شيخ بمثابة حاكم، يقضى بينهم ويوزع الضرائب التى يدفعونها للملك. وحتى لا يكون اليهود متضايقين جداً، فإن الحاكم المعين يستأجر من الملك العقوبات والغرامات، ويقوم بإحصاء الضرائب عما يبيعونه وعن الأعمال التى يقوم بها الموظفون، لأنهم يدفعون ضريبة عن كل شيء.

إن اليهود فى إفريقيا مذمومين جداً من المسلمين، وأينما ذهبوا يبصقون فى وجوههم ويضربونهم، ولا يسمحون لهم بلبس أحذية، إذا لم يكونوا من بين المقربين للملك أو للقادة؛ كل الآخرين يحتذون نعالاً من الحلفاء، ويتوجب عليهم الدخول من باب الملك خفاً، ويجب أن يضعوا على رؤوسهم طواقى سوداء، وفيها أو فى القلائس قطعة قماش ملونة مخيطة كعلامة، ونفس الشيء فى ملابسهم، لكى يكونوا معروفين ومختلفين عن المسلمين. إذا كان أحدهم ثرياً، وعلم بذلك الملك، فإنه يُصادر منه أمواله، وفى أغلب الأحيان يأمر بقتله. لكنهم متغلغلون جداً ويعرفون التجارة جيداً، حتى أن معظمهم يديرون ثروات الملك وقواده؛ لأن الفرسان المسلمين، كما قلت لا يجيدون الربح ولا يفهمون فى هذه الأمور مثل اليهود، وكل واحد منهم يحاول أن يكون لديه من اليهود من يُدير له الثروة، ولهذا يفتنى اليهود كثيراً.

بجوار قصر الملك توجد الدار التى يُسمونها دار السكة، حيث تُسك العملة، وفى داخلها يقطن المدير جنباً إلى جنب مع جميع الموظفين الذين يختصون بنقشها،

وبالقرب من هناك توجد ورشة الفضة والدمغة التى بها الخاتم وصورة العُمَلات وتُحدد الأعيرة بالقيراط على الفضة والذهب، لأنه ليس من الممكن شغل أيًا من هذه المعادن فى فاس دون أن تكون مختومة بالدمغة أولاً، وحينما تكون مختومة يمكنهم أن يحولوها إلى عملة بالوزن.

إن غالبية اليهود من صنّاع الذهب لهم محلاتهم ويعملون فى فاس الجديدة، ويبيعون ما يشغلونه فى فاس القديمة، فى موقع محدد لهم بجوار محال العطارة، لأنه ليس من الممكن سك ذهب أو فضة فى فاس القديمة، ولا يهتم المسلمون كثيراً بهذه المهنة؛ وإذا كان هناك بعض الصائغين، فإنهم يقومون فقط بعمل مشغولات بسيطة، مثل الخواتم والأقراط وخرز من الفضة للبدييات ولأناس آخرين من الجبال»^(١٣).

بعد ذلك، عندما يتحدث مارمول عن فاس القديمة، يضيف:

«يوجد فى هذه المدينة دار كبيرة جداً يسمونها ترسانة، حيث اعتاد المسيحيون الأسرى أن يعملوا ... لكن منذ وقت قليل وحتى الآن أعطى عبدالله الشريف هذه الدار لليهود، حيث يمتلكون محلات المشغولات الذهبية والفضية»^(١٤).

كان حى اليهود محاطاً بسور، ونظراً لضيق المكان، كانت البيوت بها أدوار عديدة، وكانت الشوارع ضيقة ومتعرجة. وكان باب حى اليهود، الذى لا يزال حتى اليوم معروفاً بباب الملاح، يطل على الشارع الرئيسى لهذا الحى، والذى كان يشقه (ولازال يشقه حتى هذا اليوم) من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى. كان الشارع التجارى به المحال الصغيرة الخاصة باليهود. على يسار هذا الشارع كانت توجد البيوت الفاخرة لليهود الأغنياء التى كانت مجاورة لحديقة القصر الملكى، وبجوارها كان يقع المدفن اليهودى الذى يصفه خيرونيمو دى ميندوتا بـ«مكان مميز جداً» والذى لا يزال حتى اليوم واحداً من الأماكن الأكثر جمالاً وجاذبية فى مدينة فاس. فى المنطقة السفلى كان يوجد الحى الأكثر ازدحاماً وبؤساً، حى

الصنّاع. كان حتى اليهود بالإضافة إلى ذلك هو المكان الذي كان يجذب كل الذين لا ينتمون إلى المجتمع المسلم. كالمسافرين المسيحيين والسفراء والعملاء التجاريين والأسرى. في ملاح فاس على وجه الخصوص كان يقطن البرتغاليون الذين أسروا في معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ والذين ظلوا فيها خلال الوقت الذي تم فيه الاتفاق على فديّاتهم. خيرونيمو دي ميندوثا الذي كان أيضا أسيرا، بصف كمية الأسرى البرتغاليين الذين انتهى بهم المطاف في الملاح، وكيف أن هؤلاء كانوا الأفضل حظاً من كل الأسرى حيث أنهم عوملوا معاملة طيبة من قبل اليهود الذين «كانوا يكون ألف مرة نفيعهم من إسبانيا». يشرح أيضا أن اليهود لم تكن لديهم سلطة ولا وسائل لممارسة القوة على الأسرى، وأنه بالنسبة لهؤلاء الأسرى كان التفاهم مع اليهود عزاء كبيراً «لأنهم بصفة عامة كانوا يتحدّثون القشتالية»^(١٥). كان كونت فيميوسو أسيراً في الملاح، ويبدو أنه كان في وضع متميز، فاستضاف في منزله الراهب فيثنتي دي فونسيكا، وكان الاثنان يقيمان جدلاً دينياً مع يهود فاس. حسب مندوثا، كان يحضر إلى الاجتماعات ٢٠ أو ٣٠ حاخاماً، وكانوا يناقشون ويستمعون باعتدال كثير وب عقلانية، وكنتيجة لذلك أصبح بعضهم مسيحيين^(١٦). يكتب الراهب برناردو دي كروث عن الأسرى النبلاء فيقول: «كانوا يعيشون ببذخ وكانوا يُعاملون كما لو كانوا سادة الأرض، وبالإضافة إلى أن كل واحد منهم كانت له في بيوت اليهود حجرات خاصة رائعة بأسرة فاخرة وسجاد، كانوا ينفقون ببذخ على لبس الحرير الفاخر وعلى الأكل، وكانت لهم نفقات كبيرة كما لو كانوا يعيشون في البرتغال». من أجل هذه النفقات توجب عليهم طلب قروض من اليهود، أو كانوا يعطونهم مستندات لكي يذهبوا لصرفها في البرتغال^(١٧).

تخصص يهود فاس في مهنة يحرّمها أو يحتقرها المسلمون، والربا من بين مهن النوع الأول (كما في العالم المسيحي) وكان شغل المعائن من بين مهن النوع الثاني. لم يكن اليهود تجار ذهب وصائغين ويقومون بضرب العملة فقط، لكنهم

كانوا أيضا حدادين وصانعي أسلحة وصانعي قباطين وأقمشة بها خيوط من الذهب والفضة.

وصلت فاس إلى عصرها الأكثر ازدهاراً سياسياً واقتصادياً في أواسط القرن السادس عشر وبذلك كانت مركز جذب ليهود كثيرين متخصصين في التجارة، أو الضمانات أو الإدارة. وفي أواخر القرن السادس عشر كان اليهود من نوى الأصل الإسباني متواجدين بقوة في التجارة الخارجية والإدارة والدبلوماسية المغربية.

بالإضافة إلى ذلك، كانت فاس مركزاً ثقافياً وفكرياً غاية في الأهمية للمسلمين واليهود على حد سواء. على مدى القرن السادس عشر تحولت فاس ليس فقط إلى مكان عودة لليهودية بالنسبة لمن تحولوا إلى المسيحية في إسبانيا والبرتغال على حد سواء؛ بل على وجه الخصوص تحولت إلى مكان تُكتسب منه أو تُسترد فيه الثقافة اليهودية^(١٨). بين عامي ١٥١٦ و ١٥٢٤ قام صمويل إسحق بطباعة كتب باللغة العبرية؛ كان قد تعلم تقنيات الطباعة في لشبونة، التي أحضر منها الماكينات الضرورية. استمر وجود هذه المطبعة لفترة قصيرة، ربما بسبب حظر الورق الذي فرضه الإسبان على المغرب^(١٩). بدءاً من عام ١٥٢٤ اضطر الباحثون في فاس إلى طبع كتبهم في إيطاليا، أو سالوني أو اسطنبول. ولم تُعد المطبعة العبرية إلى الظهور في فاس حتى أوائل القرن العشرين، وفقط في عام ١٨٦٥ بدأت تُطبع كتب باللغة العربية في هذه المدينة.

مصادر محكمة التفتيش ذاتها تتناول أمثلة عديدة ليهود ذهبوا إلى فاس بهدف تعلم اليهودية^(٢٠). ومن المعروف أن أحد اليهود من كانارياس، واسمه روى لوبيث، أرسل عام ١٥٣٠ اثنين من إخوته إلى فاس للدراسة. في فاس أقاموا في المعبد وتعلموا تورا النبي موسى^(٢١). كانت الجماعة اليهودية تمتد الدارسين المحتاجين بالمسكن والغذاء والملبس. مثال آخر هو حالة خوان روبليس، الذي حوكم غيابياً من قبل محكمة تفتيش طليطلة ما بين عامي ١٥٣٢-١٥٣٥^(٢٢). هذا

الشاب، الذى كان يتعلم مهنة صناعة الزجاج، ذهب إلى فاس برفقة معلمه فرانثيسكو إيدوبرو. بعد أن وصلوا إلى هناك، انفصل عن صاحب العمل، وتحول إلى اليهودية واختتن وتعلم اللغة العبرية ليعرف جيدًا تعاليمها، واتخذ اسم أبراهام أجير، وتزوج من يهودية^(٢٣). هناك حالات مشابهة موجودة في أرشيف محكمة التفتيش البرتغالية بكمية أكبر بكثير مما في محكمة التفتيش الإسبانية، وهذا دليل واضح على أن هروب مسيحيين برتغاليين جدد إلى فاس بغرض العودة لدينهم كان أمراً شائعاً^(٢٤).

تبدو المستويات الفكرية عالية في الحى اليهودى في تلك السنوات من منتصف القرن السادس عشر. كان نيكولاس كلينارد، وهو عالم في الإنسانيات قد أتى إلى فاس بهدف أن يتمكن من تصوير المسلمين، وانبهر بمستوى الثقافة التى وجدها في الملاح، حيث كان يقيم هناك، وزيادة على ذلك وجد وظيفة لكى يدرس لليهود اللغة العربية الفصحى واللغة اللاتينية واليونانية^(٢٥). خلال إقامته في الملاح عقد صداقة مع طبيب يهودى ومع عالم فلك.

كل ذلك سوف يتدهور في أوائل القرن التالى: أحد الأسباب التى أشار إليها خاكوب بن سور لاستمرار إعفاء الدارسين من الضرائب، هى أن عدد الطلاب كان يتناقص بسرعة. إسحاق بن سور، الذى كانت له مدرسة خاصة في بيته، مات مقتولاً في مدرسته عام ١٦٠٣ عندما كان يعكف على الدراسة^(٢٦). كانت الظروف تتغير إلى الأسوأ.

إن اتخاذ أحمد المنصور مراكش عاصمة له، وتخصيصه جهوداً كبيرة لتوسيع هذه المدينة منذ لحظة توليه العرش (١٥٧٨)، لاشك كان له أثر كبير في اضمحلال فاس. إن أنطونيو دى سالدانها، وهو شريف برتغالى أسير في معركة القصر الكبير وعاش في مراكش حتى تم إفتداؤه بعد سنتين من موت السلطان، يصف بكثير من التفصيل الجهود التى قام بها أحمد المنصور لتجميل عاصمته ولكى تكتسب أهمية اقتصادية^(٢٧). أراد المنصور في الواقع بناء عاصمة تكون

المركز السياسى والاقتصادى للدولة، وأن تتمتع بكل الشعارات الممثلة لتلك السلطة. وقد قَدَّم المثل والنصيحة لقواده فشجعهم كلهم على إنشاء مساكن رانعة وتزويدها ببساتين وحدائق جميلة. من أجل ذلك قام بشق قنوات مائية على نطاق واسع. قام أيضا بجهود كبيرة لجذب التجار الأجانب فقدم لهم كل أنواع التأمينات الاقتصادية، وأماكن الإقامة والحماية، فأنشأ «منازل ذات أسوار لحماية التجار، متينة ومحصنة بأسوار مزودة بأماكن حراسة ينام فيها الحرس المسلمون»: «فى الشوارع المخصصة للمحلات كانت تباع كل البضائع الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والإسبانية بأسعار أرخص منها فى البلاد التى صُنعت فيها ... لقد وصلت مدينة مراكش حينئذ إلى مرتبة عظيمة جدا لم تكن أبدا قد وصلت إليها من قبل ولن تصل إليها بعد ذلك». «ولتأمين هذه المشروعات العظيمة والتجارة، كتب إلى ملوك إنجلترا وفلاندرس وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإلى دوق مدينا سيدونيا، وطلب منهم كل ما كان يروقه، وطلب منهم حرفيين من الطراز الأول فى كل الفنون. وقد أرسلوا هم إليه ما طلبه؛ فجاء الصنّاع المهرة ليكونوا إلى جانب الشريف ...»^(٢٨).

أحضر من فاس أكثر من ألفى أسير، كان معظمهم من أسرى المعركة البرتغاليين، وبنى لهم أيضا منازل ومستشفى «وليس هناك شك أن كثيرين لا يتذكرون أرض المسيحيين ولو كان لديهم تأكيد أن حياة الشريف سوف تمتد، ما ود أحد منهم العودة إلى أراضيه لأنهم لن يستطيعوا العيش بهذا الترف ولا على حسب هواهم... لأن جميعهم كانوا يعيشون كما يريدون دون أن يأتى أحد ليتدخل فى شئونهم»^(٢٩). سالدانها يشعر بإعجاب واضح بالسلطان ويخبرنا أن هذا السلطان، لإدراكه أن ازدهار الممالك يعتمد على أن تكون قادرة على تصنيع منتجاتها الخاصة وتصديرها، أنشأ كل أنواع الورش والمصانع فى مراكش: بعضها لصهر قطع المدافع وتصنيع البارود، وأخرى للبنادق والسيوف ودروع للخيول، ومصانع للخزف والقيشاني. وأنشأ أيضا صيدليات حيث تقطر السوائل وتصنع الأدوية، «وكل هذه الورش كان يديرها معلمون إنجليز ممتازون، وهولنديون وفرنسيون،

اما العمال فكانوا صبية أسروا فى معركة القصر الكبير وعيّنهم الشريف فى منزله الخاص». أصبح الحى اليهودى القديم، الملاح بمراكش، أيضا مكتظا بالسكان. هناك كان يُقيم نبلاء برتغاليون مثل سالدانها نفسه، أو مسافرون ومبعوثون أجانب، مثل أنطونى شيرلى، وكانوا يعيشون حياة فى غاية الترف والبذخ^(٣٠). كان السلطان مولعا بالأشياء الفاخرة وخاصة الجواهر والأحجار الكريمة.

أحضر أحمد المنصور أيضا العديد من الغرناطيين والموريسكيين من الهاربين إلى المغرب نتيجة لحرب البشرات (١٥٧٠-١٥٧٢) ومنحهم أراضى فى غوطة المدينة، حيث زرعوا أشجار فواكه، وأشجار زيتون ونخيل، «زرعوا الحقول، وكانت لهم بساتين ... أخدموا بها حنينهم لأرضهم»^(٣١). أقاموا فى حى بجوار القسبة اسمه رياض الزيتون، كانوا يسمونه، حسبما يذكر مارمول، أورخيبا الجديدة^(٣٢).

شرع أحمد المنصور فى بناء «أعظم قصر يمكن تخيله» لنفسه، القصر الشهير باسم «بديع مراكشى»، الذى يصفه سالدانها بتفصيل مُسهب، وكذلك مبان أخرى رائعة، رغبة منه فى مباهاة العواصم الأوروبية وفيليبى الثانى على وجه الخصوص: «لم يتوقف الشريف عن تجميل مراكش، ولأنها كانت قد وصلت إلى درجة من العظمة لم تحصل عليها أبدا من قبل مع أحد، وبثقيته أخبار من الإسكوريال تفيد أن فيليبى الثانى كان قد وصل إلى درجة الكمال، أراد أن يبدأ فى تشييد مسجد يمكن أن يُبارى كل الأعمال الرائعة المعروفة حتى عهده»، فوضع اللبنة الأولى لمسجد رياض الزيتون، وهو أثرٌ قد اختفى اليوم مثل قصر بديع^(٣٣).

عمل على رفع قيمة العملات الذهبية والفضية واتخذ تدابير ضد خروج العملة من المملكة. قام بإنشاء عدد كبير من مصانع تكرير السكر فى مملكة Sus لأن القصب كان ينمو جيدا فى ذلك الإقليم. عند وفاته فى عام ١٦٠٣، كان هناك ثمانية عشر مصنعا لتكرير السكر فى كل واحد منها كان يعمل ألفا رجل كانوا ينقلون الحطب للنيران فى أكثر من مائتى عربة^(٣٤). فى إدارة وتشغيل هذه

المصانع؛ كان يشارك عدد كبير من اليهود من أصل برتغالي^(٣٥) من هنا يأتي السكر الذي سوف يتاجر به صمويل باياتشى خلال مرحلة كبيرة من حياته.

على الرغم من أن الشريف كان قد قرر عدم تصدير مواد أولية، فإنه كان يغض النظر عن النحاس. «ولأن في هذه الأقاليم كان هناك نحاس كثير كان الملك مانويل أنطونيو يزود به كل أسطوله، فالإنجليز (وكان الشريف يتظاهر بأنه لا يعلم) كانوا يشحنون كميات كبيرة من شواطئ Sus القديمة، وكانوا يحققون مكاسب كبيرة من ذلك لأنهم في المقابل كانوا يحضرون إلى تلك السلاسل الجبلية كل أنواع الأسلحة والبنادق والسيوف وأسنة الرماح. والشريف الذي لم يكن يجهل شيئاً من هذا، كان يقول إنه من العدل أن يغض الطرف عما كان يحملة الإنجليز، حيث أنهم كانوا يحضرون في المقابل تلك الكميات من الأسلحة. بهذا النحاس كان المسلمون يصنعون غلايات كبيرة وقوالب السكر الذي كان أفضل من سكر جزيرة ماديرا»^(٣٦).

نحو هذه المدينة المزدهمة والتي كانت في حالة غليان، تلك المدينة المليئة بالأنشطة الاقتصادية والتجارية حيث يوجد قصر السلطان الذي كان يصدد القيام بنشاط دبلوماسي مكثف في تلك السنوات، انجذب عدد كبير من العائلات اليهودية. كانت مراکش، بموت أحمد المنصور وبعد تقسيم المملكة على أيدي أبنائه، عاصمة مولاي زيدان وبالتالي المدينة التي كان يأتي إليها باياتشى من هولندا عن طريق ميناء صافى القريب.

البرتغال، إسبانيا، المغرب

لم يكن هناك فقط يهود إسبان كثيرون قد هاجروا منذ أواخر القرن الخامس عشر إلى ما كانت تسمى حينئذ «مملكة فاس»؛ بل كان هناك أيضاً برتغاليون كثيرون. إن فلنستعرض بإيجاز ظروف البرتغال التي تفسر هذه الهجرة؛ في عام ١٤٩٧ أصدر الملك مانويل الأول مرسوماً يقضى بالتنصير الإجباري لكل رعاياه

من اليهود جاعلاً بديل المنفى شبه مستحيل. بالإضافة إلى ذلك، حظر على المسيحيين الجدد مغادرة أراضي التاج البرتغالي.

كان أغلب المسيحيين البرتغاليين الجدد مطرودين من قشتالة ولهم روابط عائلية مع متتصرين إسبان.

وضع الملك مانويل في حسابه عدم صدق تنصر اليهود، ولذلك حظر عليهم ليس فقط الخروج من الأرض البرتغالية بل والحصول على كمبيالات أيضاً، خشية أن يستطيعوا هكذا تحويل ثرواتهم إلى الخارج ثم الهرب. في عام ١٥٠٧ رفع هذا الحظر وسُمح للمسيحيين الجدد بالمشاركة في الأنشطة التجارية للإمبراطورية والتحرك في أراضيها^(٣٧). لهذا، فالتوسع البرتغالي وهجرة المتتصرين اليهود كانت حركات متزامنة. استغل كثير من اليهود البرتغاليين الذين تنصروا عملهم بالتجارة للإقامة في البرازيل أو في بلاد الهند الشرقية. وقد أقام يهود من أصل إسباني في أراضٍ مسلمة بشمال إفريقيا، خاصة في مصر، ولعبوا دوراً مهماً في التجارة البرتغالية في المحيط الهندي^(٣٨). هناك يهود آخرون سيستخدمون حدود المغرب (طنجة، سبتة، مازاغان، أرثيلا، اثيمور) للذهاب إلى بلاد إسلامية وليستطيعوا هكذا العودة إلى اليهودية. لقد أصبح الهروب على وجه خاص كثيفاً بدءاً من إنشاء محكمة التفتيش في البرتغال في عام ١٥٣٦ تحت حكم الملك خوان الثالث، الذي ألغى - بالإضافة إلى ذلك - الامتيازات التي كان مانويل الأول قد منحها لليهود في عام ١٥٠٧. بدأت محكمة التفتيش البرتغالية عملها بنشاط كبير وترتب على ذلك، خلال السنين عامًا التالية أكبر خسارة بالنسبة للمتتصرين اليهود^(٣٩).

فيما يخص المواقع البرتغالية في المغرب، أرسى الملك مانويل في موقع أرثيلا سياسة التعميد الإجباري، غير أن الحاجة للحصول على جماعات يهودية في المواقع المغربية نظراً لدورها الذي لا غنى عنه بالنسبة للعلاقات مع الشعوب المسلمة المحيطة دفع وسمح بوجود أحياء يهودية على الحدود توجّب على سكانها وضع علامة مميزة على ملابسهم^(٤٠). يُضاف إلى هؤلاء عددٌ غير قليل من المتتصرين الجدد.

باستياو دى بارغاس، وهو شخص برتغالى كان فى المغرب^(٢١)، كتب رسالة شهيرة إلى الملك خوان الثالث من فاس فى يونيو من عام ١٥٤٢، يُطلق فيها صيحة تحذير فى هذا الصدد. يذكر كيف أن مسيحيين جدد كثيرين يأتون من المواقع للتجارة فى فاس حيث يبقون ويعودون إلى اليهودية ويطلب أن تُتخذ إجراءات معينة، مثل ألا يسمح لهم بالخروج من المواقع، وأن يتاجروا فيها بدلاً من الدخول إلى الأراضى المغربية. وفوق كل ذلك، ينصح بالآلا يسمح لهم بالسفر عن طريق البر بين موقع وآخر، لكن عن طريق البحر فقط، لأنهم فى البر يهربون ويلجأون إلى فاس أو إلى تطوان^(٢٢). هذه التدابير لم تُتخذ أبداً. كان الوضع مشابهاً فى المواقع الإسبانية، حيث كانت توجد أيضاً أحياء يهودية.

فيما يتعلق بإسبانيا، فى أوائل فترة حكم فيليبي الثالث تحسن وضع اليهود المتنصرين، وعلى عكس أبيه، كان العاهل الجديد ووزراؤه مستعدين لقبول أمور من خلال التعويض المادى. فى عام ١٦٠١ حصل مسيحيو البرتغال الجدد على إذن بالهجرة مع وعد بأن الحظر لن يتجدد أبداً. الامتياز تم شراؤه بمبلغ كبير من المال. وفى ظل الوعد بمبالغ جديدة، فإن التاج لم يتجاهل فقط شكاوى الكنيسة البرتغالية، لكن زيادة على ذلك توسط لدى البابا الذى منح عفواً محدوداً يغفر للمسيحيين الجدد الجرائم التى كانت تُنظر أمام محكمة التفتيش، وهو عفو نشرته محاكم البرتغال الثلاثة فى عام ١٦٠٥. فى ملفات محاكم التفتيش يُسجل نقص واضح لمحاكمات اليهود السريين: الشغل الشاغل فى تلك السنوات الذى وصل لدرجة الهوس، والذى أتى بقرار الطرد من ١٦٠٩ – ١٦١٤، كان هو المشكلة الموريسكية.

هذه هى السنوات التى وصلت فيها عائلة باياتشى إلى إسبانيا والتى عرضوا فيها تنصرهم. إنها سنوات كانت تبدو فيها السياسة نحو اليهود المتنصرين أكثر تسامحاً.

فى البرتغال تفجرت قلاقل فى لشبونة وفى كويمبرا بسبب الغضب الشعبى ضد هذه الإجراءات، تمت هجرة المسيحيين الجدد إلى إسبانيا على نطاق واسع^(٤٣). ومع ذلك فإن أسباب مجئ المتنصرين البرتغاليين إلى إسبانيا لا يمكن أن تقتصر على الأسباب الدينية والخاصة بمحاكم التفتيش. ترجع الهجرة أيضا منذ عام ١٥٨٠ إلى دواعى اقتصادية. كانت هناك حالة اقتصادية متردية فى البرتغال، حيث كان تعداد السكان قد زاد بما يفوق الموارد، وكان ذلك يدفع الهجرة نحو قشتالة، التى كانت فى أوج ازدهارها، والتى كانت تقدم فرصا كبيرة وعديدة لأصحاب الطموح.

وفى عصر فيليبي الرابع، أثناء فترة دوق أوليفاريس، سيتحسن وضع وتأثير المتنصرين اليهود بشكل ملحوظ. أشيع أنه سيسمح من جديد بعودة اليهود إلى إسبانيا، أى، بالوجود القانونى لليهود، مثلما كان على وشك الحدوث فى إنجلترا، على سبيل المثال. يبدو أنهم علاوة على ذلك كانوا يعودون من المشرق. أحد مراسلى الأب بيريرا كتب إليه فى عام ١٦٣٤: «من المعلوم أن اليهود يدخلون إلى إسبانيا من المؤكد أنهم يدخلون ويخرجون للتحديث مع الملك وتقديم مذكرات إليه، واليوم رأيت واحدا، يضع غترة بيضاء، على باب حجرة الملك، وقد أحزننى ذلك»^(٤٤). و ماتياس دى نوفوا، مساعد الملك فيليبي الرابع، كتب فى ذلك الحين: «سمعتهم يقولون إن يهود وهران والمقيمين داخل إفريقيا لديهم هنا مدافعون عنهم لكى يقبلوهم فى ضواحي مدريد ويعطوهم وطنا وأرضا يعيشون فيها على حريتهم وعلى دينهم هم وكل الآخرين الذين يوبون السكن معهم، وسوف يسجلون أنفسهم ويدفعون ملايين كثيرة من أجل الإنز. من الذى يشك فى أنه لن يتبقى أحد منهم فى مملكة البرتغال ولا فى الأجزاء الأخرى التى لا تسكن هنا»^(٤٥).

بمعنى أنه، لو بدا لنا واضحا، مع بُعد القرون، أن وضع المتنصرين (لا نقول وضع اليهود الذين كانوا يخططون للعودة) كان فى مأزق، فإن هذا الوضع لم يكن واضحا فى أوائل القرن السابع عشر. إن توافد أعداد كبيرة من المتنصرين

البرتغاليين إلى إسبانيا قد تُرس دراسة متأنية وقبل أن يبدأ قمع محكمة التفتيش في إسبانيا ضد «البرتغاليين». إن السنوات الأولى من القرن السابع عشر شهدت تحسناً واضحاً كان قد بدأ يتضح منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر.

لا يبدو لنا كافياً إثبات أنه في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، أصبح الوضع الاقتصادي لليهود المتصرين في إسبانيا أقل سوءاً، وزيادة على ذلك بدا أنه كان يتحسن. نحتاج أن نعرف من أية ظروف جاء يهود فاس الأصليين وماذا كان يحدث هناك لكي يشعر يهود فاس بأنهم مدفوعون لترك البلد بحثاً عما كان يُعتبر — في أفضل الأحوال — مغامرة غير محسوبة وخطيرة في وسط عدائي.

منذ أواسط القرن السادس عشر كانت تحكم المغرب أسرة السعديين، وهي أسرة أسست شرعيتها لمزاولة السلطة على حقيقة (أو ادعاء) أنهم منحدرين من نسل النبي محمد؛ وأنهم بالتالي من الأشراف. هذه الأسرة لجأت في أوقات كثيرة إلى عقد تحالفات مع التاج الإسباني، وخاصة مع فيليبي الثاني، لمواجهة التدخل التركي؛ كانت الإمبراطورية العثمانية قد وسعت حدودها حتى الجزائر، وكان في نيّتها ضم المغرب، وهو الشيء الذي كان يخشاه كثيرون السعديون والإسبان على حد سواء^(٤٦).

وصلت أسرة السعديين إلى عهدها الأكثر ازدهاراً مع فترة حكم السلطان أحمد المنصور (١٥٧٨-١٦٠٣). صعد هذا السلطان إلى العرش إثر معركة القصر الكبير التي أدت إلى هزيمة هائلة للجيش البرتغالي بقيادة الملك سيبياستيان.

كان للبرتغال أيضاً خطة للتدخل في المغرب بدأت بغزو سبتة في عام ١٤١٥ واستمرت بغزو أو إنشاء سلسلة من الموانئ على الشاطئ الأطلنطي المغربي، من سبتة وطنجة حتى سانتا كروث دو كابو دي غوي (أغادير حالياً) وصافي، هذان الميناءان الأخيران تم غزوهما بين عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٨. إنها الموانئ التي يطلق عليها «حنود أو مدن بحر علم Alem mar»، والتي كانت

البرتغال تستخدمها للتزود بالقمح الذى كان يُزرع فى تلك الدولة وكموانئ تتوقف فيها السفن البرتغالية وهى فى طريقها نحو بلاد الهند الشرقية. إن وجود هذه المواقع فى أيادى مسيحية (كانت إسبانيا تحتل مليلة منذ عام ١٤٩٧) كان يؤدي إلى شعور كبير بالضيق فى المغرب بالإضافة إلى منع تجارتها البحرية. ولأسباب، من ضمنها هذا الضيق، غزا أحمد المنصور فى عام ١٥٩١ الجزء الغربى من السودان، أى، بلاد جنوب الصحراء، حيث كان يُستخرج الذهب وحيث تتطلق الطرق التجارية التى كانت لها أهميتها منذ العصور الوسطى.

توفى أحمد المنصور فى أواخر عام ١٦٠٣ ضحية لوباء الطاعون الذى خرب البلد، وبموته دخل أبناؤه فى صراع على الخلافة.

نودى بمولاي زيدان ملكاً فى فاس وبأبى فارس ملكاً فى مراكش. هذا الأخير أرسل ابنه برفقة أخيه مولاي الشيخ المأمون لىسمى مولاي الشيخ فى الوثائق الإسبانية لهذه الفترة { على رأس جيش إلى فاس، وقد بحث مولاي زيدان، المهزوم، عن ملجأ ومساعدة فى أراض تركية؛ لكن الوحدة لم تتحقق لأن مولاي الشيخ نصب نفسه سلطاناً فى فاس. نتيجة لذلك؛ فإن الوثائق الإسبانية تلقبه دائماً بـ «ملك فاس».

أرسل مولاي الشيخ بدوره ابنه عبدالله لغزو مراكش، وقد غزا المدينة ونهب ثروات سكانها. مع ذلك، عاد مولاي زيدان بمساعدة تركية وغزا فاس ومراكش معاً. لجأ مولاي الشيخ إلى إسبانيا وفاوض على المساعدة الإسبانية لاسترداد عرشه مقابل التنازل عن العرائش.

كان ميناء العرائش واحداً من الموانئ القليلة التى ظلت فى أيدي المغاربة، وكان مصدر قلق دائم بالنسبة للإسبان الذين قاموا بمحاولات متكررة طوال فترة حكم فيليبي الثانى من أجل الحصول على تنازل عنه دون هدم التحالف مع المغرب الذى كان يمثل بالنسبة لهم سداً أمام الزحف التركى. بالإضافة إلى ذلك، كانت العرائش قد تحولت إلى ملجأ للقراصنة المغاربة والموريسكيين، بل والإنجليز

والهولنديين كذلك، مع ما يترتب على ذلك من خطر على سواحل جنوب إسبانيا وعلى الأخص طريق بلاد العالم الجديد. اتفق مولاي الشيخ على تسليم العرائش إلى فيليبي الثالث مقابل مبلغ من المال (٢٠٠٠ ر. ٢٠٠٠ دوقية) و ٦٠٠٠٠ بندقية لاسترجاع نفوذه. وقد دخلت قوات ماركيز سان جيرمان المدينة في عام ١٦١٠ وأخلتها من السكان الأصليين.

بمساعدة إسبانية استرد مولاي الشيخ فاس وشمال البلاد، بينما كان مولاي زيدان يحكم الجنوب من مراكش. لم يكن أي من الاثنين يسيطر على كل أرضه. مولاي الشيخ الذي كانت فاس ضده، اضطر بالإضافة إلى ذلك أن يترك المدينة للذهاب لمحاربة حاكم تطوان أحمد النقشيش. غير أنه قتل بعد ذلك بعدة شهور، في أكتوبر من عام ١٦١٣، على يد «أبو الليف» Abu Llif، وهو ابن أخ له كان حليفا لأبي فارس المهزوم. على الرغم من أن مولاي زيدان لم يستطع أن يُعيد توحيد كل الأرض، فإن القوى الأوروبية اعترفت به كملك شرعي مغربي.

لا يعني تسليم العرائش القضاء على القرصنة في المحيط الأطلنطي، وإنما انتقال عمليات القرصنة إلى أماكن أقرب للجنوب، مثل المعمورة La Mamora ورباط سلا. قام مولاي زيدان بتقوية المعمورة لإلحاق الضرر بالأوروبيين الذين كانوا حلفاء أخيه. وهكذا فإن الهوس الإسباني بمدينة العرائش سينتقل أيضا إلى المعمورة. أول محاولة للقضاء على هذه الأرض قام بها ماركيز بيلافرانكا في عام ١٦١٠ عندما أغرق عدة مراكب محملة بالأحجار في مصب نهر سيبو Sebú، في ميناء المعمورة.

إن عام تسليم العرائش بصادف عام طرد الموريسكيين من إسبانيا، وقد هاجر هؤلاء ليقوموا في بلاد عديدة من المغرب العربي. في المغرب انضمت فرق من الجيش لصالح الأخوين المتنافسين، وقد تعاظمت فوق ذلك تلك القرصنة التي كثيرا ما كان يخشاها الإسبان. إن تشوق الموريسكيين للتأر، وصعوبة استيعابهم في بلد غريب (حيث أن المغرب كانت بالنسبة لهم غريبة جدا، وفي غاية التفكك

الداخلي) قد نتج عنه التفاقم الملحوظ لأعمال القرصنة ضد إسبانيا. إن أفضل مثال على ذلك هو القوة التي اكتسبتها القرصنة حول مصب نهر بو رقرق Bu Regreg، حيث أن مدن رباط سلا Salé-Rabat، التي يكاد يقطنها مورييسكيون فقط، كونت جمهورية قرصانية مستقلة عملياً عن سلاطين فاس ومراكش.

في أواخر القرن السادس عشر ازداد في أوروبا عدد الأماكن التي كانت تضمن حرية العبادات، وتشجع علاوة على ذلك على إقامة طوائف يهودية. بدءاً من عام ١٥٨٠، مع اتحاد التاجين (إسبانيا والبرتغال)، وفدت مجموعة مهمة جداً من اليهود المنتصرين البرتغاليين إلى الأراضي الإسبانية في فلاندرس، ولذلك أخذت تزداد هناك المجموعات المهمة من اليهود ذات الأصل الإسباني التي كانت في هولندا. عندما انضمت هولندا إلى اتحاد أوترشت La Unión de Utrecht (١٥٧٩) الذي كان يمنع بين أشياء أخرى الاضطهاد لأسباب دينية، بدأ المنتصرون البرتغاليون يقيمون في أمستردام^(٤٧).

إن استقرار يهود أيبيريين في أمستردام تصادف مع تجارب مماثلة في مدن أخرى: استقبلت ميديل بوج Middel burg، وهامبورج Ham burg، ولندن وروين Rouen، مجموعات برتغالية صغيرة بين عامي ١٥٨٥ و ١٦١٠. إن ميديل بوج، التي كان لها موقع استراتيجي على مدخل ميناء أمبيريس Ambers، قد ازدهرت إثر إغلاق هذا الميناء (١٥٨٥)، وهو إغلاق أفاد هامبورج بوجه خاص، فحصلت كميناء محايد على منافع كبيرة في الحرب بين إسبانيا والأقاليم المتحدة Las provincias Unidas^(٤٨).

في عام ١٥٩٣ قرر دوق توسكانا تحويل ليفورنو Livorno (Liorna) إلى واحد من الموانئ الرئيسية للبحر المتوسط؛ ولهذا الهدف أصدر وثيقة، عُرفت باسم لا ليفورنينا «La Livornina» كانت قراراتها موجهة بوضوح لليهود السفرديم، وكانت مفيدة جداً بالنسبة لهم. اتجهت الوثيقة على وجه خاص لليهود «الشرقيين» (أي يهود اسطنبول أوسالونيك) واليهود «الغربيين»، يهود البرتغال أو المغرب

العربي. احتوت وثيقة ليفورنو على نفس القرارات الهادفة للتشجيع على استقرار اليهود الإسبان والتي اشتملت عليها وثيقة فينسيا المساوية لها في عام ١٥٨٩، لكن مع وجود امتيازات إضافية مثل الحرية المطلقة في اختيار المهنة وسلسلة من الضمانات المالية^(٤٩). كلا الامتيازين لم تنص عليهما وثيقة فينسيا ولا وثيقة أمستردام (حيث لم يكن لليهود حرية اختيار المهنة).

بمقتضى هذه الظروف، فإن الروابط بين اليهود البرتغاليين غطت، كما سنرى، المسافات بين اليهود في لشبونة ومدريد، في أمستردام والمغرب، وفي المدن الإيطالية والمستعمرات البرتغالية... وبوجه خاص، فإن الشباك التي حبكها اليهود الإسبان، سواء كانوا برتغاليين أم لا، كانت عوامل أساسية في علاقات المغرب مع العالم الخارجى طوال القرن السابع عشر. تجار يهود هولنديون مثل دافيد ميندس ودافيد فارو، وكلاهما «برتغالي»، قاما بنشاط مهم في المغرب^(٥٠).

إن عام ١٦٠٨ شهد بداية زيادة النشاط الهولندى في المغرب، وهى عملية لعب فيها اليهود من كلا الجانبين دوراً مهماً جداً. لقد تحولت هولندا أثناء العقود الأولى من القرن السابع عشر إلى المورد الأساسى للأسلحة والصناعات إلى المغرب بالإضافة إلى كونها الحليف الرئيسى لهذا البلد فى مواجهاته مع إسبانيا. كان كل ذلك سبباً لقلق كبير للتاج الإشباني، خاصة عندما نضع فى الحسبان أنه كان يوافق اشتداد عمليات القرصنة على سواحل إسبانيا والبرتغال وصقلية^(٥١).

حاشية السلطان ورجال البلاط والتجار

من ناحية أخرى، كان اليهود يحتكرون تقريباً التجارة الخارجية للمغرب^(٥٢)، وكثيراً ما كانوا يجمعون بين الأعمال الدبلوماسية والتجارة، وكانوا يستخدمون فى تجارتهم اتصالاتهم مع اليهود الإسبان المقيمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية وهولندا وفى أراضى الإمبراطورية العثمانية. كانوا يزودون إسبانيا والبرتغال بالقمح المغربى، وكانوا يتاجرون أيضاً فى السكر ويشتررون أسلحة من

دول شمال أوروبا البروتستانتية التي لم يكن يسرى عليها الحظر البابوي على بيع أسلحة للمسلمين. هذا النشاط التجاري الأخير، الخاص بشراء الأسلحة، جعلهم أشخاصا ذوي شأن بشكل غير عادي في عيون السلطات السياسية المغربية.

جلب اليهود المهاجرون إلى المغرب اللغة القشتالية وحافظوا عليها في هذا البلد، وجلبوا كذلك سلسلة من المعارف. ولا يتعلق الأمر فقط بالكتب التي أحضرها المطرودون من إسبانيا، كما يؤكد شاهد في محضر لمحكمة التفتيش، لكن أيضا بالمعارف التي اكتسبتها عائلات كانت قد لعبت بشكل تقليدي أدوار موظفين وخدم في البلاط القشتالي والأراغوني ككتبة عموميين وموظفين بالخرانة والضرائب وعملاء تجاريين... إلخ. ولهذا كان كل هؤلاء يعرفون عادات القصور الأوروبية، وكانت لهم دراية بالإدارة والحسابات وبالعلاقات التجارية والدبلوماسية. وقد استثمروا هذه المعارف أيضا في المغرب، وكن نتيجة لذلك ستتحول اللغة القشتالية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى اللغة المستخدمة للاتصال الدبلوماسي مع هذا البلد^(٥٣).

بالإضافة إلى ذلك، فإنه منذ أواخر القرن السابق ازداد النشاط الدبلوماسي للمغرب مع أوروبا بشكل هائل إثر معركة القصر الكبير في عام ١٥٧٨، فقد اكتسبت المغرب بانتصارها عظمة جديدة في عيون الدول الأوروبية التي بدأت في إرسال بعثات سياسية وتجارية إلى السلطان أحمد المنصور. تحولت المغرب إلى قطعة ذات أهمية فريدة في ألعاب التحالف ضد أو مع القوى الكبيرة التي بدأ اضمحلالها: نتحدث هنا عن التاج الإسباني على وجه الخصوص، وعن الإمبراطورية العثمانية أيضا^(٥٤). في كل هذا النشاط الدبلوماسي سوف يكون لليهود دور بارز جدا كعملاء ومترجمين.

كما فعل بنو مرين وبنو وطاس من قبل، استمر السعديون الذين انتزعوا السلطة منهم في تعيين اليهود في وظائف بارزة في القصر. في معرض حديثه عن القصر الملكي وعن الأشخاص الذين لهم حق الدخول إليه، يوضح مارمول: «ولا

يستطيع أى مسلم الدخول فى القصر، حيث توجد النساء، إلا الطواشى، لكن يدخل كل المسيحيين الأسرى واليهود لتقديم الخدمات الضرورية للبيت الملكى»^(٥٥) هناك إذن ثلاثة مستويات من الأشخاص موجودون على هامش المجتمع؛ وبالتالي ليست لديهم إمكانية الحصول على مناصب ولا القدرة على ممارسة السلطة التى تخول لهم الدخول إلى البيت الملكى فى حالة انتمائهم إلى طبقة أو مجموعة من مجتمع الأغلبية.

فى أواخر القرن السادس عشر كان لأحمد المنصور مستشارٌ يدير له الأمور المالية يُدعى يعقوب روتى Ja'aqob Ruti^(٥٦) أو الشيخ يعقوب روتى Jeque o Jaco Rute فى الوثائق الإسبانية حيث يظهر بهذا الاسم فى معظم الوثائق التى تشير إلى المغرب فى أرشيف سيمانكس العام^(٥٧). كان ينتمى إلى عائلة من فاس ذات نفوذ. كانت هذه العائلة قد أمدت الوطاسيين بعملاء ومترجمين شفوئين. جده، يعقوب روتى، الذى كان مترجماً شفوياً للسلطان أحمد الوطاسى، يُذكر بكثرة أيضاً فى الوثائق البرتغالية، حيث كانت له علاقة وثيقة مع باستياو دى بارغاس Bastião de Vargas، الذى كان عميلاً فى المغرب للملك خوان الثالث ملك البرتغال. أرسل بارغاس عدداً هائلاً ومفصلاً من الرسائل إلى القصر البرتغالى يخبر فيها عن كل التعاملات التى قام روتى بتسهيلها؛ فقد كان يعرف البرتغالية جيداً^(٥٨). بالإضافة إلى عمله كمترجم، تخصص روتى بشكل تجارى فى اقتداء الأسرى، وحصل من ذلك على مكاسب كبيرة^(٥٩). كانت لروتى أعمال تجارية فى المدن الساحلية مثل أزمو Azemor والعرائش Larache والمعمورة Mamora وأرسيلة Arzila حيث كان عملاؤه يديرون الصفقات مع الحكام المحليين البرتغاليين. فى طنجة Tánger وفى أرسيلة كان أخو يعقوب نفسه ويُدعى موسى، هو الذى يعمل كوكيل له. يبدو أن يعقوب كان يخبر أخاه بانتظام عن كل ما كان يحدث فى بلاط فاس، وهذا بدوره كان يخبر البرتغاليين^(٦٠). وكان بارغاس، كما قلنا، مثابراً ومدققاً على وجه خاص فى عمله^(٦١)، كان يقدر روتى ويؤكد مراراً أن أعماله الطيبة كانت لصالح

البرتغال. تولى يعقوب روتى - الذى كانت لديه سفنه الخاصة - حمل القمح المغربى إلى هذا البلد بين عامى ١٥٣٩-١٥٤٠ وخلال هذا السفر أقام اتصالات مع يهود متصرين جدد فى البرتغال. يشير بارغاس باستمرار إلى يهود برتغاليين تخصصوا فى تجارة القمح مع المغرب ويشكو من أن كثيرين يستغلون السفر ليتاجروا فى بضائع متنوعة، فى الأسلحة على وجه الخصوص^(٦٢).

من بين عائلات أخرى، نجد أن بنى زاميرو أو زاميرو Ben Zamiro o Zamerro، عائلة من صافى Safi، متخصصين فى هذه التجارة. وقد عمل إبراهيم بن زاميررو، وهو كبير الحاخامات بهذه المدينة، وسيطاً فى عام ١٥٢٦ بين برتغاليين ومغاربة لعمل اتفاقيات صلح بعد حصار المغاربة للمدينة التى كانت لاتزال حينئذ برتغالية. وقد قبض على ابن أخيه سالومون Salomón، الذى كان يتوسط أيضاً بين برتغاليين ومغاربة، وسُجن فى قانن فى عام ١٥٥٦ عندما كان متجهاً من لشبونة إلى المغرب ومعه خطابات إلى السلطان المغربى من خوان الثالث^(٦٣). فى نفس الوقت كان ابن أخ آخر له وهو يهودا بن زاميررو Yehuda ben Zamerro، حاخاماً فى فاس. وفى أوائل القرن السابع عشر كان إسحاق بن زاميررو Isaac ben Zamerro حاخاماً فى تطوان وكان دافيد بن زاميررو David ben Zamerro نقيباً لمجتمع فاس^(٦٤) بينما سافر موسى بن زاميررو Moysen ben Zamerro إلى إسبانيا ليتحول إلى الكاثوليكية فى الإسكوريال عام ١٥٨٩^(٦٥). بمعنى أن الأشخاص الذين كانوا يعملون كوسطاء أو لمصلحة البرتغاليين والإسبان، إلى حد أنهم أقدموا على التنصر، كثيراً ما كانوا ينتمون إلى عائلات يهودية لها دور دينى ودور ريادى مهم فى مجتمعاتها.

فى المنازعات البرتغالية - المغربية حول المواقع، تدخل أشخاص يهود عدة مرات وعند توقيع اتفاقيات الصلح. فى أزمو Azemor على سبيل المثال توسط يهودى يدعى أبراهام Abraham فى اتفاقيات الصلح التى أبرمت مع البرتغال^(٦٦). وعندما هوجمت أزمو من قبل دوق براغانزا Braganza، عندما

أخلى المسلمون المدينة من السكان، كان يهودي إسباني هو الذى أخبر الدوق بهذا الفعل فى الوقت الذى طلب حماية لنفسه وللجماعة اليهودية بالموقع. كان هذا اليهودى يدعى يعقوب أديبى Jacob Adibe: ويقول مارمول، إنه عندما احتل ملك البرتغال أزمو، كان لليهود بهذه المدينة أربعمئة منزل^(٦٧).

إن حالة يعقوب روتى توضح جيداً النفوذ السياسى الذى تمتع به اليهود الذين كانوا يتاجرون فى الغلال والأسلحة؛ فقد كان يعقوب لا غنى عنه لبنى وطاس والبرتغاليين وكان نقيباً لجماعة فاس، وهو منصب حافظ عليه أسلافه^(٦٨)، الذين بالإضافة إلى ذلك، كما قلنا، ظلوا يتولون مناصب فى القصر حتى عصر أحمد المنصور.

هناك عائلة يهودية أخرى من فاس لها علاقة وثيقة بعائلة روتى وهم آل سينانس Los Senanes الذين كانت لهم مع عائلة روتى أدوارٌ مشابهة ومكملة. كان مناحم سينانس Menahem Senanes، أمين خزانة جماعة فاس، مخبراً وأمين سر أبى حسون الوطاسى Wattasi—Abu Hassun al نحو عام ١٥٤٠، بالإضافة إلى كونه سكرتيراً ومبعوثاً شخصياً للسلطان^(٦٩). بصفته هذه كانت له علاقات مع البرتغاليين من خلال ألفونسو دى نورونها Alfonso de Noronha حاكم طنجة^(٧٠). غالبية هذه العائلات الفاسية كان لها فرع مقيم فى تطوان، التى سافرت إليها عائلات كثيرة منها. كان أبراهام سينانس الحاخام الأكبر لتطوان فى أوائل القرن السابع عشر^(٧١).

كان سالومون بارينتى أيضاً وسيطاً مع الإسبان فى اتفاقيات العرائش، وبعد أن احتل الإسبان المدينة استقرت العائلة كلها فى العرائش على الرغم من أنهم أصروا على عدم السكن فى الحى اليهودى^(٧٢). كان سالومون شخصاً قريباً من ألفونسو دى نورونها، وكان يتاجر فى المجوهرات على وجه الخصوص، بين طنجة وتطوان. كان يقدم خدمات للتاج الإسبانى يحصل فى مقابلها على راتب قدره أحد عشر ريالاً يومياً، وثلاثة مكابيل من القمح شهرياً. بالإضافة إلى ذلك كان

يعرف «أن يقد توقيع مولاي الشيخ مثل مولاي نفسه»^(٧٣). كان بارينتى يسافر باستمرار إلى مدريد ليرى دوق مدينا سيدونيا في سانلوكار Sanlúcar وقد تدخل بفاعلية في عام ١٦١٩ في الاتصالات التي جرت بين موريسكي سلا وإسبانيا مهمًا لتسليمهم الموقع^(٧٤).

هناك وسيط آخر مهم بين المغرب وإسبانيا هو يعقوب كانسينو Jacob Cansino، كانت عائلته التي قدمت من إشبيلية قد استقرت في وهران في عام ١٥١٢. كان كانسينو قد أوفده الإسبان إلى القصر المغربي ولعب دورًا مهمًا في العلاقات الإسبانية المغربية نحو عام ١٥٥٠^(٧٥). ابنه إسحاق، مترجم للملك من اللغة العربية في وهران، دُعي إلى القصر بمدريد حيث قضى عدة أشهر في عام ١٥٨٠، في الوقت الذي تولى فيه فيليبي الثاني، بالاشتراك مع البرتغال، مسئولية سبتة وطنجة. وقد مكث حاييم بن إسحاق - الذي كان أيضًا مترجمًا من اللغة العربية -، بأمر ملكي سبعة شهور في سانلوكار دي باراميدا في عام ١٦٠٨ إلى جوار دوق مدينا سيدونيا، الذي كان مكلفًا حينئذ باتفاقيات حول العرائش والمعمورة^(٧٦).

وكما قلنا سابقًا، فإنه عند موت أحمد المنصور (١٦٠٣) أشعل أبناؤه الذين تنازعوا على الخلافة حربًا أهلية طويلة وضارية. أثلقت هذه الحرب بشكل هائل الوضع الداخلي للمغرب، اقتصاديًا واجتماعيًا على حد سواء. كانت سنوات رهيبية لكل السكان وقاسية بوجه خاص بالنسبة للأقلية اليهودية. وقد كتب ساول بن دافيد سيريرو Saul ben David Serero، وهو مؤرخ يهودي معاصر لتلك الفترة، كتب من فاس يقول: «منذ حوالي ثلاث سنوات ونصف [١٦٠٣-١٦٠٦] ونحن فريسة للجوع ولمصائب أخرى كثيرة... حوالي ثمانمائة شخص ماتوا جوعًا في فاس. أطفال فاس منفوخون مثل القرب ويبدون ضعفاء، تعرضوا للذل، يبحثون في أكوام القمامة ليلتقطوا شيئًا مثل عظام الدجاج. أكثر من ستمائة [يهودي] خاطروا بحياتهم. الطرق لم تعد آمنة، الاتصالات انقطعت، من يبقى في المدينة يموت من

الجوع، ومن يخرج منها يسقط ضحية لطعنة سكين. كل واحد يبتلع غيره حيًا. بنو إسرائيل وصلوا إلى حالة من الفقر الشديد...وبالإضافة إلى هذه المأساة لايزال يتوجب علينا أن نقاسى النتائج المشنومة للحروب...»^(٧٧).

واحدة من هذه النتائج المشنومة هي أن المدعين كانوا يُعصرون أحياء المدينة بالضرائب الإجبارية لكي يستطيعوا الاستمرار في تمويل حروبهم. لقد كان وضع يهود فاس إنز رهينًا. وإذا كنا هنا نهتم فقط بمواطنين ظلوا على اليهودية على الرغم من كل ذلك، أو تحولوا إلى المسيحية، فإنه يجب الأخذ في الاعتبار، كما يقول سيريرو Serero، أن حالات التحول إلى الإسلام كانت كثيرة جدا. ولكن هذه قضية أخرى^(٧٨).

هناك مشكلة أخرى تُضاف إلى ماسبق وهي أن عائلات كثيرة بارزة من يهود فاس ساندت مولاي زيدان، الذي صعد إلى العرش بمجرد موت أبيه. عندما انتزع شقيقه، مولاي الشيخ، مدينة فاس ومعظم شمال المغرب (وهو ما حدث في عام ١٦١٠ بمساعدة إسبانية ناجحة في مقابل التنازل عن العرائش)، أصبح بقاء هذه العائلات اليهودية في المدينة أمرا مستحيلا. انتقل جانب كبير منها إلى مراكش، المدينة التي ستكون عاصمة مولاي زيدان، حيث تعاضم بشكل هائل دور وحجم الحى اليهودى الذى كان موجودا هناك.

من ناحية أخرى، كانت هناك ظروف مادية واضحة حثت اليهود الذين كانوا قريبين من كلا المتنافسين على العرش، على أن يفضلوا المنفى إذا هُزم مرشحهم أو قُتل. فيما يتعلق بفاس، يبدو أن الوضع وصل إلى الحضيض بعد موت مولاي الشيخ في عام ١٦١٣: بدأت أحزاب متنافسة تتقاتل في داخل المدينة، ازداد قطع الطرق بشكل مطلق، وكل من استطاع مغادرة المدينة غادرها. لعدة أشهر، لم تكن الصلاة تُقام في مسجد القرويين Qarawiyyin، وهو الجامع الشهير الذى كان مركزا ثقافيا ودينيا، وكان معلما حقيقيا خلال قرون لكل دول المغرب العربى.

فى بداية فترة حكم مولاي زيدان يُذكر اسم يهوديين كمسؤولين عن الخزانة: ابراهيم بن وايش وخودا ليفى، اللذين كانا تاجرين للسلطان. كان دورهما مهما أيضا فى إبرام صفقات مع هولندا: فى عام ١٦١٧ اتتمنهم مولاي زيدان على شحنة كبيرة من بضائع مختلفة، من بينها سكر وجلود، كان عليهما بيعها فى ميڈلبورج Middleburg. ذهب معهم أشخاص يهود آخرين من أتباع مولاي زيدان: مويسيس ليفى وبنيامين كوهين، اللذان يصفهما مولاي زيدان فى خطاب إلى ماوريثيو دي ناساؤ بـ «خدامنا اليهود»^(٧٩). كان ابراهيم بن وايش قبل ذلك جليسا خاصا لأبى فارس، وهو ابن آخر من أبناء أحمد المنصور وحليف فى الصراع على العرش لأخيه من أمه مولاي الشيخ^(٨٠). منذ عام ١٦٠٨ يبدو ابراهيم كما لو كان له تأثير على زيدان. إن العميل الهولندى فى المغرب، كوى Coy، يشكو فى هذا التاريخ إلى الولايات العامة من أن ابراهيم يتآمر ضده لأنه، كوى، لم يكن يسمح له بالحصول على مكاسب كثيرة كما كان يريد ابراهيم ولأنه كان يخشى منافسته. كان كوى يحاول أن يكسب صداقته بتقديم هدايا له. وقد اشتكى تجار مسيحيون آخرون أيضا من ابراهيم وقالوا إنه يحاول أن يحتكر تجارة البلد لمصلحته ومصلحة عائلته. كانت لهم سلسلة من المنازعات مع باول فان ليبيلو Paul Van ippeloo، ممثل تجار أمستردام، الذى تشاجر بدوره مع صمويل بايانشى. سوف نعود للحديث عن ذلك.

يامين بن ريموك Yamin ben Remmokh هو يهودى آخر استخدمه مولاي زيدان فى مفاوضاته مع هولندا وفى عقد صفقات تجارية مع هولندا وإنجلترا على حد سواء. سافر الى هولندا عام ١٦١٥ لبيع شحنة من السكر^(٨١) وسافر إليها مرة أخرى بين عامى ١٦٢٤ و١٦٢٨. كانت إحدى وظائفه فى هذه السفريات تكمن فى التأكد من أن الهولنديين لا يبيعون أسلحة لأولئك الذين كانوا يتمردون فى المغرب ضد مولاي زيدان^(٨٢). وطبقا لوثائق ترجع لعامى ١٦٢٣ و١٦٢٤، كان خودا ليفى Juda Levi وكيلا لأراضى الملك فى

صافى^(٨٣). كانت رسائل التجار الإنجليز والهولنديين الذين حاولوا خلال تلك الأعوام الاستقرار في المغرب تشكو دائما من الاحتكار اليهودي للتجارة المغربية ومن الصعوبات التي يجدونها في التعامل مع هؤلاء اليهود، الذين لا يرغبون بوضوح في أن يكون لهم منافسين. لكن ينبغي التفكير في أن كثيرا من هذه المعلومات والشكاوى مبالغ فيها، إن رغبة هؤلاء التجار في الحصول على مساندة حكومات بلادهم حملتهم على تضخيم الصعوبات التي يتوجب عليهم مواجهتها في المغرب.

وكان لمولاي الشيخ، شقيق وخصم مولاي زيدان يهودي مهمون أيضا يحيطون به. في المفاوضات الأولى التي عقدها مع ملك إسبانيا حول التنازل عن العرائش يبرز رجل يهودي يدعى خيبري Gibre، ينتمي إلى عائلة مهمة من تطوان^(٨٤). بعد ذلك يتدخل يهودي آخر أكثر مهارة وعدو للسابق، ويدعى خودا سينافى Joda Sinafé ويهدم كل ما تفاوض عليه خيبري، وفوق كل ذلك يقوم بتقديم تنازلات مفرطة. هذا يجعل مولاي الشيخ يستاء فيأمر بسجنه في عام ١٦٠٦^(٨٥). كان ناتان بنترني Natan Benterny هو اليهودي الأساسي المقرب للملك والذي كان يتمتع بثقته. إن كتب التاريخ والوثائق على حد سواء تلقبه بـ «يهودي الملك». تكرر الوثائق بإلحاح الحديث عن الود والصدقة الطيبة التي كان يكتفها له الملك، حيث كان قد ترعرع في بيته، وكيف كان وسيطا لا غنى عنه للتعامل مع الملك. قام ناتان بسفريات متكررة إلى إسبانيا للتفاوض بشأن العرائش^(٨٦)، ورافق مولاي الشيخ خلال إقامته في كارمونا Carmona. الوثائق تسميه إما أوليت ناتان Ulet Natán، وإما ناتان بنترني. يذكر في أكثر من مناسبة أنه جاء من ليورنا Liorna أو ليفورنو Livorno، لكن في معظم الأحيان يُذكر فقط أنه «يهودي من فاس». يبدو أنه كان يؤدي عمله دائما بحماس شديد في خدمة ملكه، وعلاوة على ذلك على حساب ممتلكاته.

يتحدث خوان لويس دي روخاس Juan Luis de rojas عنه مرارا وتكرارا في كتابه، وفي إحدى المرات يقول ما يلي^(٨٧): «من الصواب أن نعرف من هو هذا المدعو ناتان الذي يعد اليوم شيخاً لكل اليهود. تربى منذ أن كان طفلاً في بيت مولاي الشيخ مع أبنائه، كَبُرَ بينهم وهو يخدم في المهن التي يستخدم فيها الملوك اليهود: لغات ووساطات وأشياء أخرى لم يكن الملوك يأتمنون عليها مسلميهم. احتل ناتان موقعاً قريباً من مولاي الشيخ بتقديمه خدمات سرية ومشبوهة، ورافقه وتبعه، وتلقى دائماً من الملك عطايا كثيرة، وأصبح له نفوذ أكثر من آخرين كبار. جاء يسدي خدماته له في إسبانيا، وهناك كان لسانه السري وبيده تم التعاقد على كل الصفقات، وعلى الرغم من أن خوانيتين مورتارا Juanetin Mortara كان هو الذي أبرمها إلا أنه لم يكن ذا ثقة بالنسبة لهم بقدر ما كان ناتان أوليت. وقد أعاره الوزراء اهتماماً وقدموا له عطايا بعضها مالية والأخرى مساعدة في المصاريف ووعود بدفع خمسين إسكودو في الشهر وصلت إلى مائة، ومسكن يعيش فيه لمدة سنتين وتركه على دينه اليهودي وقائمة أخرى مُسَهبة من وسائل الراحة لأنه - كيهودي حقيقي - كان يعرف كيف يحصل بالإلحاح على المكسب. ولأنه كان يذهب ويجي مرات كثيرة إلى إسبانيا، كان يُحضر ما كانوا يعطونه له هناك ويوظفه في بلاد البربر من بذور وأقمشة قطنية ويبيع جيذاً بضاعته...» هذه الفقرة مهمة وذات دلالة على العلاقات التي استطاع أن يقيمها المرتدون واليهود على حد سواء مع سيدهم المسلم، حيث كوتوا دائرة من العلاقات الشخصية والودية في صيغ عائلية وعلاوة على ذلك جنسية^(٨٨).

كان اليهودي البرتغالي المتخلي عن دينه سيباستياو بابيث دي فيغا Sebastião Paez de Vega مقرباً جداً من مولاي الشيخ، وكان يتمتع أيضاً بعطفه وثقته الشخصية، وقد أسلم واتخذ اسم سليمان باشا وحصل على منصب رفيع في جيش السلطان^(٨٩).

كان ناتان أيضا تاجرا، وكان يستغل سفرياته الدبلوماسية لنقل بضائع كان يستثمر فيها المال الذي كان يعطيه له الإسبان: وقد قدم له مركز سان جيرمان Marqués de San Germán بوجه خاص عطايا من أجل استرضائه، ويبدو أنه أوفى دائما بكلمته مع الإسبان، لكنه ظل مخلصا لسيدته. إنها إذن حالة من الولاء المزدوج محققة بالكامل؛ حيث أنه استطاع أن يجعل كلا الجانبين اللذين كان يقدم لهما خدمات لا يدخلان في نزاع.

بعد موت مولاي الشيخ، بدأ أوليت ناتان مساعي للإقامة في إسبانيا، متعللاً أولاً بأنه «قام بسفريات كثيرة ذات خطورة كبيرة للتفاوض مع مولاي الشيخ ولم يحصل على أجره». وفي فبراير من عام ١٦١١ يطلب إذنًا «ليستطيع المجيء إلى هنا ليتفرغ للعبادة»^(٩٠). وكما يشرح روخاس، لم يحصل فقط على هذا الإذن، بل حصل أيضا على مائة إسكودو في الشهر وحصل كذلك على إذن بالعيش لمدة عامين في اليهودية قبل أن يتتصر. لاشك أن أوليت ناتان كان يريد أن يظل مستترا عن محكمة التفتيش وأن تكون له فترة سماح مدتها سنتان قبل قبول دين يتطلب امتثالا شكليا كاملاً.

بالنسبة لعائلة خيرى، قام أبراهام خيرى بعدة سفريات إلى البرتغال لإنجاز مهام خاصة بافتداء الأسرى، وانتهى به المطاف بالإقامة في طنجة حيث تحول أيضا إلى المسيحية^(٩١).

نقدم هذه التفصيلات لكي نبين أنه بالإضافة إلى مولاي زيدان، فإن مختلف المطالبين بالعرش كان لديهم أيضا العديد من اليهود يعملون في خدمتهم، هؤلاء رأوا أنفسهم بالطبع في وضع صعب جدا عندما هُزم أو مات المرشح الذي كانوا قد عملوا لصالحه. وقد أدى ذلك إلى محاولات متعددة للإقامة في شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد تَوَجَّح كثير من تلك المحاولات بالنجاح.

إن الحرب الداخلية في المغرب والصراعات بين الطوائف المتعددة للتحكم في السلطة، لم تقتصر فقط على الصراعات بين أبناء وأحفاد أحمد المنصور، لكن

تدخلت أيضا شخصيات دينية، شيوخ جماعات دينية تُسمى «المرابطون» في الوثائق الإسبانية المعاصرة لتلك الفترة، أو شخصيات صوفية مثل ابن أبي مَحَلَّى Ibn Abi Mahalli، كل واحد منهم يرأس حركته الخاصة. كان محمد العياشى واحدا من الذين كانوا أكثر نفوذاً، وأصبح هو الحاكم الفعلى للنصف الشمالى للبلد فى الثلاثينيات. كان عنده أيضا يهود بارزون يعملون فى خدمته: كوهين Cohén، يهودى «برتغالى» كان يعيش فى سالى، وكان له شقيق يُدعى جوزيف، كان يعيش فى هولندا، ونجح بعد مفاوضات أن يجعل الحكومة المركزية تفرج عن شحنات من البارود للعياشى. وقد اشتغل كل من بنيامين كوهين وهارون كيريدو بالعلاقات بين الأراضى التى يحكمها العياشى وهولندا^(٩٢).

إن ذكر يهود كثيرين يشغلون مراكز بارزة لا يجب أن يؤدى إلى تكوين صورة خاطئة؛ فلكونهم يهودا كانوا ينتمون لمجموعة يمكن تحديد هويتها ثقافيا بسهولة كشريحة اجتماعية منفصلة ومستبعدة من إمكانية الحصول على مناصب رفيعة وغير قادرين على الحصول على معية وطاعة؛ وبالتالي؛ فإن السلطة الخطيرة التى تمنحها هذه المراكز ظلت محايدة وجعلتهم بوجه خاص ذوى قيمة فى لحظة التنافس الداخلى والصراعات على السلطة. كان وضعهم يخضع فحسب لعلاقتهم الشخصية والفضل الذى يقدمه لهم مرشح للعرش أو حاكم محدد، ولهذا كان لزاما عليهم مغادرة البلد فى حال اختفاء أو ضياع سلطة الشخص الذى توقف أمرهم عليه.

من ناحية أخرى، فإن القادة العسكريين على الحدود الإسبانية - البرتغالية، مثل ألونسو دى نورونها من طنجة، والعملاء الإسبان الموجهين إلى المغرب (بوجه خاص بالتاسار بولو Baltasar Polo وخوانيتين مورتار) قد استخدموا يهودا كسعاة بريد وكمبلغين وذكروهم فى «تقارير عن بلاد البربر» إما تحت مُسمى «يهودى معروف لي» أو «يهودى جدير بالثقة»، وإما بأسمائهم وألقابهم. ويُعد من الشائع أن يستغل هؤلاء اليهود الخدمات التى يقدمونها ويطلبون تراخيص من أجل

المجئ إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ومن أجل أن يتحولوا إلى المسيحية. يجب الإلحاح على الوضع الرهيب الذي اجتازته المغرب في الربع الأول من القرن السابع عشر؛ فقد خربها الطاعون وتعرضت لحروب أهلية مدمرة ومستمرة.

تتضح إذن الظروف المادية التي دفعت أعدادا كبيرة من اليهود وبخاصة أولئك الذين كانوا مقربين لواحد أو لآخر من المتنافسين على العرش، على أن يفضلوا أحيانا البحث عن المنفى بعد أن فشل أو مات مرشحهم.

الخروج عبر الحدود ونحو شبه الجزيرة الأيبيرية كان طريقا سعى إليه كثير من الموريسكيين المطرودين حديثا^(٩٣) وعدد كبير من اليهود لنقل «غير معروفين»، ليس فقط الذين ينتمون إلى عائلات مهمة أو ذات صلات جيدة. لدينا حالات موثقة بشكل مفصل لبعض هؤلاء الأشخاص، مثل خوان لودوفيكو روبريغيث، وهو يهودي من تطوان، تقدم بخطط للاستيلاء على سالي والمعمورة في عام ١٦١٤، وفي مقابل هذه الخدمات كان يريد إذنا للمجئ إلى إسبانيا مع كل أفراد عائلته ليقيموا جميعهم وليتحولوا إلى المسيحية^(٩٤). إنها خطة استراتيجية مماثلة إذن لما اتبعه باياتشي في بداية مشواره.

لكن لا يجب أن نضع في الاعتبار فقط أن الظروف في المغرب في تلك السنوات كانت قاسية جدا. فبغض النظر عن تلك الظروف، تظهر الوثائق الأرشيفية عددا كبيرا لأشخاص عبروا الحدود بين عوالم تبدو لنا الآن منفصلة كثيرا جدا. كانت الحدود في القرن السابع عشر - على الرغم من أنها محددة بوضوح -، قابلة للاختراق من كل الاتجاهات، خاصة بالنسبة للأشخاص الذين كان لهم هويات متعددة. أي المنتمين إلى مجموعات مثل اليهود أو الموريسكيين أو المرتدين الذين كانت لهم ملامح ثقافية تحدد شخصياتهم وتوحدتهم جزئيا مع سكان شبه الجزيرة الأيبيرية. إن العمل في تقديم خدمات بريدية أو كمبلغ أو كجاسوس كثيرا ما كان الخطوة الأولى للإقامة في إسبانيا أو في البرتغال. لكن آخرين لم يلجأوا إلا إلى التنصر والتماس العفو الملكي. على سبيل المثال (وهناك أمثلة

أخرى كثيرة) حالة فرانثيسكو دي روبليس لورينثو Francisco de Robles Lorenzo، وخوان باوتيستا دي ثياس Juan Bautista de Zayas، «يهوديان في الأصل من مدينة فاس» وفرانثيسكو دي جيلبالبا Francisco de Guelbalba، مسلم في الأصل وأمه مسيحية، مولود في القصر الكبير: في مايو من عام ١٦٠٩ يسافرون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ويطلبون التعميد من أسقف مالقة. وبعد أن تنصروا كتبوا إلى الملك يطلبون «منحهم فرصة في لشبونة أو في أي مكان يخدمون فيه جلالته، ليعملوا فيما تأمرون به، وأنهم سيعملون كمسيحيين مخلصين جدا وطيبين»^(٩٥) ليس من قبيل المبالغة أن نعتقد أنهم ربما كانوا يهودا «برتغاليين» مقيمين، مثل كثيرين آخرين، في فاس حيث عادوا إلى اليهودية، وأنهم الآن يرغبون في العودة إلى لشبونة أو على الأقل إلى شبه الجزيرة. داخل العائلة الواحدة كان من الممكن أن تظهر اختيارات مختلفة، وتحولات دينية صادقة، مثل حالة «رجل هولندي يدعى أندريس أنطونيو Andres antonio، علم وهو في فلاندرس أن شقيقا له يسمى برناردو أنطونيو أصبح يهوديا، قرر المجئ إلى المغرب حيث كان يقيم، للبحث عنه، وبعد أن وصل أخذ يبحث عنه في الفنادق وفي محلات اليهود ...» وقد وجدته. الأخ الضائع اسمه الآن، أوباديا إسرائيل Obadia Ysrael، متزوج من سمحا Simha، يهودية أيضا. ويتناقص الأخوان في موضوعات دينية، ولأن أندريس بطلت حجته فقد قرر البحث عن «راهب معلم عقيدة»، لكن الراهب لم ينجح في إعادة أوباديا إلى المسيحية^(٩٦).

نجد أيضا حالات لمسلمين يأتون طواعية إلى المواقع الإسبانية يطلبون التنصر والسفر إلى شبه الجزيرة الأيبيرية^(٩٧). وتعد محاضر محكمة التفتيش التي أشرنا إليها في الفصل السابق دليلاً على تلك الظاهرة.

إن الحالات أكثر شيوعاً بكثير مما يمكن أن يُعتقد ومما تم إظهاره، وهذا دليل على مدى اتساع وتبدل الولاءات، أو من الأفضل أن نقول إنها تبين كيف أن التنصر كان أسلوباً مستخدماً بكثرة للتكيف مع الواقع الاجتماعي الذي كان الناس

يتواجدون فيه وللإبحار وسط الظروف التي كُتِبَ عليهم أن يعيشوا فيها. إن التحول
لدين آخر يتحول إلى نوع من «جواز مرور» للأشخاص الذين كانت تجبرهم
الظروف على العيش، فعليًا على الحافة.

سيران متناقضتان: ميلتشور باث دي أثيبيدو Melchor Vaz de Aceivedo وإسحاق الموسينو Isaac Almosnino

نعود للاستعانة بمصادر محكمة التفتيش لإكمال المعلومات التي حصلنا
عليها من الحكايات التاريخية والوثائق الدبلوماسية والتجارية. من أجل ذلك اخترنا
القضايا الخاصة بشخصين يمكن أن تساعدنا سيرتهما على وضع وفهم أفضل
لسيرة صمويل بايانشي.

القضية الأولى، من حيث التسلسل التاريخي، هي قضية يهودي -
متنصر برتغالي اسمه ميلتشور أوبيلتشور باث دي أثيبيدو، الذي حاكمته محكمة
تفتيش لشبونة في عام ١٥٦١^(٩٠). كان أثيبيدو خياطًا في أرسيلة وناظر أملاك في
هذا الموقع وفي طنجة حتى عام ١٥٤٦. عمل بعد ذلك في خدمة ملكي فرنسا
فرانسيسكو الأول Francisco I وإنريكي الثاني Enrique II.

لدينا أخبار عن نشاطه في عام ١٥٥٦ الصالح إنريكي الثاني. في هذا العام،
عاد اليهودي سالومون بنتاميرو الذي تحدثنا عنه من قبل، إلى المغرب قادما من
البرتغال التي كان قد أوفد إليها من قبل السلطان مولاي محمد بهدف التوصل إلى
اتفاق تحالف مع خوان الثالث لمواجهة التهديد التركي. أُلقي القبض عليه في قádiz
حيث اقتسم زنزانه في السجن مع باث دي أثيبيدو، الذي كان قد قبض عليه مع
مجموعة من الفرنسيين كانت قد أثارت الشكوك. يُخبر بنتاميرو خوان الثالث أن
باث أثيبيدو كان في طريقه لمقابلة شريف المغرب موفدا من قبل ملك فرنسا
«للعمل ضد مصالح الإمبراطور كارلوس الخامس ولكي يتمكن من إحضار سفن
ومراكب إلى موانئها [موانئ المغرب]». كان باث أثيبيدو يحمل معه رسائل معتمدة

للحصول على مساعدة فى موانئ البرتغال وقشتالة بحجة أنه كان يسعى للقبض على قرصان. لكنها كانت عبارة عن حيلة إذ أن الشريف «لا بد أنه فرح كثيرا بالتحالف مع ملك فرنسا للفائدة التى تعود على ممالكه عندما تكون مزودة بالبضائع والأسلحة الدفاعية».

سارع خوان الثالث بتحذير خوانا ملكة قشتالة من أجل ألا يتركوا باث دى أثيبيدو يخرج من السجن، وقد ظل فيه فيما يبدو سنتين. فى حوالى عام ١٥٦٠ حاول أنطونيو دى بوربون — الذى أصبح ملكاً لنابارا بزواجه من جان دى البريه Jeanne d'Albret — أن يحصل من فيليب الثانى على نابارا الواقعة على الجانب الآخر من جبال البرانس مقابل إعطاء الملك الإسباني موقعاً فى إفريقياء، كان أنطونيو دى بوربون بدوره يسعى للحصول عليه. فى ذلك العام أرسل الملك إلى ميلتشور باث دى أثيبيدو يأمره بلقاء الشريف ليعرض عليه خمسمائة رجلاً مسلحاً ومجموعة حرس من ثلاثين جندياً مسلحين بالحراب وعشر فرسان وذخائر ومواد حربية يستطيع بها الشريف أن يدافع عن نفسه ضد الأتراك، فى مقابل أن يسلمه الشريف موقع القصر الصغير الذى كان قبل ذلك موقعاً برتغالياً^(٩٩). أخطر سفير فيليبى الثانى فى قصر فرنسا العاهل بهذه الأنشطة التى يقوم بها باث دى أثيبيدو لصالح سيد نابارا.

فى نفس الوقت، أى فى عام ١٥٦٠، أخبر ألبارو دى كاربالو Álvaro de Carvalho، قائد مازاجان، الملكة كاتالينا أن ميلتشورباث، قائد لسفينتين أو أربعة سفن يسافر على متنها خمسمائة رجل، كان قد وصل إلى أغادير. من هناك سافر إلى فاس لمقابلة الشريف. يبدو أن تلك المفاوضات كانت غير مجدية لأن فيليبى الثانى لم يقبل عرض أنطونيو دى بوربون.

فى عام ١٥٦١ كتب السفير الإنجليزى فى القصر الفرنسى إلى سكرتير الدولة الخاص به فى لندن يقول إن «شخصاً يدعى كابتن ميلتشور»، أى باث دى أثيبيدو، وهو رجل يبلغ من العمر ستين عاماً وخبير جداً فى الاتفاقات مع بلاد

البربر التي عاش فيها اثني عشر عاما، ومشهور في فنون الإبحار، وكان يعمل في خدمة فرنسا وملك نابارا، غير راضٍ عن راتبه، الذي لا يكفي لرعاية أسرته، وأنه يحاول تقديم خدماته للإنجليز. قدم نفسه بوجه خاص كمتخصص وعارف بكل أسرار التجارة مع المغرب، وقال إنه يمكن شراء ذهب ونحاس ذي جودة ممتازة وصمغ عربي وشمع وجلود وسكر وخيول. يعرف أنثيبيدو الأسعار والبضائع القيمة التي تقدم في المقابل: قصدير ونصول للسيوف ورماح ومجاديف... أي، مواد ضرورية من أجل الحرب كان محظورا على الكاثوليكين إمداد المسلمين بها بمقتضى مرسوم بابوي. في عام ١٥٦١ كان باث دي أنثيبيدو في لندن، وعلى الرغم من أنه لم يستطع كسب ثقة التجار ولا السلطان، إلا أنه في شهر سبتمبر من نفس العام وصل إلى العرائش على متن سفينة إنجليزية ممتلئة بالأسلحة الهجومية والدفاعية. يؤكد السفير البرتغالي أن أنثيبيدو بالإضافة لذلك كان يحمل في هذه السفينة صندوقا مملوءا بالكتب العبرية من أجل يهود شمال إفريقيا^(١٠٠).

لم تتجح الأمور مع لندن بشكل كافٍ، وعاد باث دي أنثيبيدو، الذي لم يقطع أبدا صلاته مع البرتغال، إلى لشبونة وعرض خدماته في القصر. تدخل حينئذ محكمة التفتيش.

أول بلاغ يتلقاه باث دي أنثيبيدو أمام محكمة التفتيش بتهمة بأنه بروتستانتي. عندما كان المبلغ دومنغو بايس أسيرا في الحي اليهودي في فاس، تعرّف على بلتشيور باث، وهو برتغالي من أرسيله، كان يحمل أسلحة للشريف من ملك نابارا. حسبما ذكر المبلغ، كان أنثيبيدو لوثريا، وأنه كان قد أعلن أمام الأسرى أنه «كان يعترف في قلبه». مع ذلك يشهد رجال من طنجة أن أنثيبيدو كان قد عاد لليهودية. ويشهد برناردو رودريغيس Bernardo Rodrigues، مؤرخ أرسيلة، على العكس من ذلك، بأنه كان صديقا للمتهم في هذا الموقع، وأنه كان كاثوليكيًا مخلصا. من خلال الشهادات، ترسم صورة رجل كان يمارس شعائر اليهودية في طنجة وفاس، وكان كاثوليكيًا مخلصا في البرتغال ولوثريا في فرنسا وإنجلترا.

على الرغم من خطورة جرائم المتهم، والمثبتة جيدًا، حُكم على أثيبيدو بعقوبة رحيمة بشكل يدعو للدهشة: التوبة عن ذنب صغير، والتعهد بأن يبعد عن نفسه كل بدعة والقبول بأن يكون متعلمًا بشكل جيد في الأمور الضرورية من أجل خلاصه. لقد كانت المعارف العملية لبيلنتشيور باث قيمة أكثر من اللازم بحيث أن القصر البرتغالي لم يسمح بأن يتعفن المتهم في سجون محكمة التفتيش. إن كون باث دى أثيبيدو يحوز موارد ومعارف مفيدة جدًا لدرجة أنه انتشل من بين أيادي محكمة التفتيش، يعنى الكثير عن القيمة التي كان يمكن أن تمثلها المعرفة الجيدة للتجارة مع المغرب، والقدرة على التفاوض على موقع، والحصول على تصريح بالدخول لقصر السلطان، والمعرفة بالإبحار والقدرة على التدخل في حرب القرصنة. كلها أسحلة ذات حدين، يمكن امتلاكها للصالح أو للضد وتضع باث دى أثيبيدو في نفس المستوى الذي سيكون فيه بعد ذلك بسنوات صمويل باياتشى.

الحالة التالية التي اخترناها هي الخاصة بإسحاق الموسنينو Isaac Almosnino الذي كان في القطب المعاكس؛ أى أنه عبارة عن شخص بعيد عن مهام الوسيط بين عوالم يلعب فيها أدوارًا مختلفة أو يبدى استجابات دينية مختلفة. يبدو لنا أن التعرف على ما كانت عليه حياة يهودى إسباني من فاس من عائلة محترمة ومولود في الثلث الأخير من القرن السادس عشر يُعد أمرًا مفيدًا للغاية.

ما نعرفه عنه مُستمد من ملف قضية ضخمة محفوظة في أرشيفات محكمة تفتيش لشبونة^(١٠٠) يبدأ بالأخوين إسحاق وأبراهام الموسنينو: في فبراير من عام ١٦١٨، كانت سفينة قادمة من جوا Goa، قد أحضرت إلى لشبونة شخصين حاكمتهما محكمة التفتيش في تلك المدينة، وكانا قد قُبض عليهما في الهند قبل ذلك بعام. هذان الشخصان يُدعيان إسحاق وأبراهام الموسنينو، وهما شقيقان يؤكدان أنهما يهوديان في الأصل وتاجران من مدينة فاس، ولم يكونا قد تحولا أبدًا إلى المسيحية.

فى جوا، وفى منزل السفير الفارسى فى الهند كان قد قُبض على رجل إنجليزى يُدعى روبرت شيرلى^(١٠٢)، كان فى السابق سفيراً لبلاد الفرس فى إسبانيا وهو شخصية معروفة جيداً. روبرت شيرلى، ذلك المغامر الإنجليزى الشهير، كان قد ذهب إلى بلاد فارس بصحبة شقيقه أنطونى Anthony. عندما أوفد الأخير من قبل الشاه عباس إلى موسكو فى مهمة دبلوماسية فى عام ١٥٩٩، بقى روبرت فى بلاد فارس كرهينة. خدم لعدة سنوات فى الجيش الفارسى وسعى لكسب ثقة الشاه، الذى أوفده فى النهاية سفيراً إلى إسبانيا فى عام ١٦١٠، وبعد ذلك إلى إنجلترا، التى عاد منها إلى بلاد فارس فى عام ١٦١٣. فى إسبانيا أثار شكوكاً هائلة حيث كان يشتبه فى أنه كان عبارة عن جاسوس يعمل فى الواقع من أجل إنجلترا. فى تلك الأثناء، كان أخوه أنطونى قد أوفد من قبل رودولفو الثانى ملك ألمانيا فى مهمة دبلوماسية وتجارية إلى المغرب، التى وصل إليها فى عام ١٦٠٥. كان روبرت شخصية مثبونة جداً؛ فقد كان يلبس على الطريقة الفارسية، وكان متزوجاً من امرأة شركسية كاثوليكية تُدعى تريزا أماثونيتيس، كانت قد تحولت إلى المسيحية. فى القصر الإشبانى، بالطبع كان ذلك أمراً شائعاً.

بعد أن أصبحا فى جوا، كان إسحاق الذى كان أكبر الشقيقين سنّاً وطبيباً وتاجراً، هو أول من اعتقل لأن مسيحيين عجوزين من أوبورتو أكدا أنه كان عبارة عن مانويل لوبيس، الذى كان طبيباً ومسيحياً جديداً جاء من إسبانيا، وكان قد مارس مهنة الطب فى أوبورتو لسنوات وعاش كمسيحى وهرب من هذه المدينة عندما كانت له مشاكل مع محكمة التفتيش. كان عندهما أخبار بأن مانويل لوبيس هذا كان قد هرب مع أخيه الأصغر سنّاً إلى فلانديس، وبعد أن أمضى هناك بعض الوقت، ذهب إلى القسطنطينية. يتطابق الموسنينو مع لوبيس من حيث السن والخصائص الجسمانية (لحية شقراء، أنف كبير، قامة متوسطة... إلخ) وهو طبيب ويتحدث البرتغالية بشكل جيد والقشتالية بإتقان. كان قد ذهب إلى القسطنطينية

كتاجر، ومن هناك ذهب إلى بلاد فارس حيث أقام علاقة مع روبرت شيرلي، وقرر أن يصحبه في رحلة عبر مضيق هرمز حتى الهند.

في أدلائه بأقواله للمرة الأولى، يقول إسحاق الموسنينو إنه يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، وأنه يهودى المولد والوظيفة، وابن وحفيد ليهود لم يتصرفوا أبدًا (يهودى «منذ النبی إبراهيم حتى الآن»)، من الذين طردوا من إسبانيا في عام ١٤٩٢، مولود، مثل آبائه وأجداده، في مدينة فاس في المغرب. في هذه المدينة تعلم الطب ومارسه كوظيفة خلال سنوات كثيرة في فاس وفي مراكش، لكنه أبدًا لم يزاوِل الطب خارج إفريقيا. خرج من المغرب لأن الظروف، بسبب الحرب الأهلية، صارت قاسية جدا (عائلة الموسنينو كانت مناصرة لمولاي زيدان، الذى هزمه أخوه في عام ١٦١١) وقرر أن يكون تاجرا، فالتجارة كانت وظيفة أبيه. أبوه، مع ذلك، لم يخرج أبدًا من إفريقيا بينما هو كان يتاجر مع مارسيليا، ومع إيطاليا (أراضى دوق فلورنثيا) والمشرق، وخاصة القسطنطينية.

يفضح الموسنينو بدوره الذين اتهموه ويقول إنهم كانوا يكونون له ضغينة لكونه صاحب مكانة عليا لدى السفير الفارسى ولكونه منافسا في مواد التجارة. يصر على نقله إلى لشبونة لأنه يؤكد أنه إذا لم يُنقل، فلن يكون لديه إمكانيات الدفاع ولا إثبات شخصيته.

نُقلَ الشقيقان إلى لشبونة حيث وصلا إليها بعد سنة من إلقاء القبض عليهما في جوا، ويشكل ملف قضيتهما — ربطتان سميكتان محفوظتان فى أرشيف لا تورى دو تومبو وتمتدان حتى عام ١٦٢١ — وثيقة استثنائية حيث أنها لا تتعلق بمتنصرين ولا بمتهودين، بل بيهوديين لم يكونا أبدا شيئا آخر ولم يكن لهما اتصال مسبق بشبه الجزيرة الأيبيرية التى نشأت فيها عائلتهما.

ينحدر آل الموسنينو من عائلة مشهورة في فاس، العديد من أعضائها معروفون. على سبيل المثال؛ جدهم كان طبيبا للسلطان مولاي عبدالله. وعائلة

الموسنينو مسجلة في شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الطرد عام ١٤٩٢، وهناك فروع أخرى من نفس العائلة حققت شهرة في سالونيك.

أثناء الإدلاء بالأقوال في هذه المحاكمة، سُئِلَ الشخصان عن عائلتهما ووظائف مختلف أعضائهما؛ واللغات التي يعرفانها، وكيف تعلماهما، وأى نوع من الدراسات قاموا بها منذ أن كانا طفلين في فاس. كانا يذهبان إلى مدرسة المعبد مع أعمامهما وجيرانهما الأكثر قربا. جعلوهما يصفان الشارع الذي كانا يعيشان فيه في فاس ومن كانوا جيرانهما، وأيضا تعاملهما مع غير اليهود من المدينة، وخاصة مع الأسرى البرتغاليين.

استدعى قضاة محكمة التفتيش سلسلة طويلة من الشهود للإدلاء بشهادتهم: هم في معظمهم من يهود فاس الذين تحولوا إلى المسيحية ويعيشون الآن في البرتغال. يذكر آل الموسنينو أيضا سلسلة من يهود فاس وتطوان، من بينهم عائلتهم التي يمكن أن يثبتوا أنهم منها؛ تطلب محكمة التفتيش مساعدة أسقفية سبتة، ويُنقل هؤلاء اليهود للإدلاء بأقوالهم. حررت هذه الإقرارات بالإسبانية ووقعت بالإسبانية أو العبرية، عدا إقرارات نساء العائلة، اللاتي وقعن بالعربية. في المحاكمة تُرفق بالإضافة إلى ذلك ثلاثة خطابات باللغة الألمنيادية، أى مكتوبة باللغة الإسبانية لكن بحروف عبرية، قام بكتابتها حمو وزوج أخت إسحاق الموسنينو، وأُرسلت الخطابات إلى إسحاق على السجن في لشبونة.

من هذه القصة الغريبة يهمنا هنا بالتحديد بعض النقاط التي يشدد عليها قضاة محكمة التفتيش. كان القضاة مهتمين بشكل خاص بالمظاهر المتعددة لحياة المدعى عليهم. في المقام الأول، يريدون أن يعرفوا الدراسات التي قام بها إسحاق وكيف أتمها. يسألونه في أية مدرسة درس الطب، إذا ما كان درسه في كويمبرا Coímbra أو في سلمنكا Salamanca، ويُجيب هو بأنه تعلم الطب في فاس. قضاة محكمة التفتيش يسألونه كيف يمكن أن يكون طبيبا إذا لم يكن قد درس في أي من هذين المكانين، ويسألونه ما إذا كان يعرف اللاتينية. إسحاق يمدنا حينئذ بمعلومات

رابعة عن ماهية التعليم في فاس ليهودى من عائلة محترمة. تعلم القراءة والكتابة في المدرسة اليهودية بالمدينة، مع صبية آخرين: يصرح بأنه لا يعرف اللغة اللاتينية، وأنه يعرف العبرية والعربية والقشتالية والكلمانية ((الآرامية))، وشيئاً من الإيطالية ويفهم بعض الكلمات من اللغة الفرنسية التى يتحدثون بها فى مارسيليا لأنه ذهب إلى هناك للتجارة، ويقول إنه يعرف اللغة البرتغالية جيداً لوجود برتغاليين كثيرين فى المغرب ولأنه كانت له تعاملات مع أسرى من معركة الملك سيباستيان وتعاملات مع الحدود البرتغالية فى إفريقيا عندما كان يذهب إليها. على وجه الخصوص تعرف على ابن كونت فيمبوسو Conde de Vimioso، الذى كان يعيش فى الملاح. الموسنينو يفتخر بانتمائه لعائلة مهمة ومميزة ويؤكد أن «كل رجال عائلته الذين كانوا فى فاس كانوا إما حاخامات أو كانوا معروذين فى بلدهم وبين أبناء جيلهم».

كان قضاة محكمة التفتيش لديهم اهتمام كبير بمعرفة كيف تعلم هذه اللغات، ويشرح إسحاق أنه فى فاس نشأ على الحديث باللغة القشتالية والعربية مثل كل اليهود الذين ينحدرون من إسبانيا، وأنه تعلم العبرية والكلمانية أثناء دراسته فى المدرسة كما تُدرس اللاتينية هنا. يطلب قضاة محكمة التفتيش تفاصيل أكثر عن الآداب التى درسها فى فاس، وعلى يد من من المعلمين ورفقة من من الأشخاص. ليس من المعروف إذا كان ذلك لفضول شخصى أو لاهتمام «أنثربولوجى» أو انتظاراً لأن يذكر اسم شخص يهودى من أصل برتغالى. إذا كان المقصود هو الافتراض الأخير، فلا جدوى منه، لأن الموسنينو لا يُبلغ أبداً عن أحد ولا يحاول استمالة أعضاء محكمة التفتيش. الانطباع الذى تعطيه الأسئلة هو أن إسحاق سبب لأعضاء محكمة التفتيش حيرة لأنه قريب جداً (حيث أنه بالفعل ممكن اعتباره برتغالياً) وفى نفس الوقت بعيد جداً ومختلف جداً، وفى النهاية «غريب» جداً، وهذه الحيرة تثير فيهم أيضاً فضولاً. يريدون أن يعرفوا، ويحددوا كيف يعيش عندما يكون الإنسان مثل إسحاق.

أعضاء محكمة التفتيش يريدون أن يعرفوا إذا كان قد عرف في فاس شخصا برتغاليًا عاد إلى اليهودية، ويجيب الموسنينو على ذلك بالنفي. يسألونه أيضًا ما إذا كان قد عرف يهودًا تحولوا إلى المسيحية، ويذكر عدة متصرين من طنجة في أزمنة السيد ألفونسو دي نورونها، مثل الإخوة كاموندو، أبراهام خيبري، مويسن بن ثاميرو. وأن كل هؤلاء المذكورين يعرفونه جيدًا.

في وقت لاحق من المحاكمة يحضرون سالومون بن ثاميرو ليندلي بأقواله، وكان قد تنصّر في لشبونة وعرف باسم مانويل دي نورونها. لم يعد مويسن يظهر في المحاكمة، ومع ذلك لدينا أخبار عنه من مصادر أخرى: في عام ١٥٨٩ تحول إلى المسيحية في الإسكوريال تحت اسم بابلو دي سانتا ماريا^(١٠٣).

حسبما يحكى الموسنينو، كان الأخوان كامودو أو كاموندو— وهما يهوديان اسمهما يعقوب وسالومون — يسكنان في نفس شارع بالحي اليهودي في فاس، وعلى مسافة صغيرة منهما عائلة خيبري. يذكر الموسنينو أيضًا أنه متصاهر مع عائلة بارينتي، وأنه زوّج ابنته لأحد أفراد هذه العائلة.

أي أنه إذا كنا قد كرسنا الاهتمام لكل أولئك الأفراد أو العائلات التي تعيش على الحدود، والتي تُعد هويتها حدودية بالتحديد، ومشاعر انتمائها مبهمة جدًا، فإن عائلة الموسنينو تمثل نواة المجتمع اليهودي الذي ظل كما هو وعلى هامش شبه الجزيرة الأيبيرية.

درسنا حياتهم وسلسلة نسبهم في تحليل قمنا به في مؤلف آخر، يبين استراتيجيات المقاومة لمجتمع. تتمثل هذه الاستراتيجية في الحفاظ الصلدا على عقيدة دينية وسمات ثقافية، ومن خلال أساليب شائعة مثل الزواج النظامي بين أولاد الأعمام وفي سن مبكرة جدًا، وهذا أمرٌ ظاهرٌ بوضوح في سلسلة نسب عائلة الموسنينو، حيث انتقلت المعارف والتخصصات المهنية داخل العائلة نفسها. كل ذلك متطابق مع ما نعرفه عن مجتمعات يهودية بحرأوسطية من نفس القرن^(١٠٤).

إنه مجتمع كان يفضل في حالة الضرورة الانجذاب نحو الشرق عن أن ينحرف في التلوث الواضح والمخاطرة التي كان يفرضها الغرب الكاثوليكي.

بالنسبة للتعليم الذي يتلقاه يهودى من فاس معاصر لباياتشى، فإن بيانات منهجه تتكامل وتتأكد، في نوع آخر من المصادر. الحكايات التاريخية العبرية للطائفة تشير إلى أن التعليم الرسمي لطفل يبدأ نحو سن الرابعة. كان التعليم يتم، كما كان الحال أيضا عند المسلمين، عن طريق حفظ نصوص (في المقام الأول، التوراة) التي كانت مشروحة باللغة العربية، وكان التلاميذ يتعلمون أيضا كتابة هذه اللغة^(١٠٥).

بمعنى أن يهود فاس الذين كانوا يحضرون إلى مدرسة المعبد كانت لديهم معرفة باللغة العربية المكتوبة، بالإضافة إلى اللغة الأصلية التي يتحدثون بها. لا نعلم شيئا عما إذا كانوا يتعلمون أو كيف يتعلمون كتابة اللغة الإسبانية التي تستلزم أبجدية مختلفة.

في محاكمة الأخوين الموسنينو، اللذين أعلنت براءتهما وأعيدا إلى المغرب حيث لا تزال العائلة موجودة حتى اليوم يجئ ذكر عائلات أساسية من بين يهود فاس الإسبان في ذلك الوقت: روتى، ثاميرو، كاموندو، خيرى، بارينتى، سينانس... إلخ. لم يأت ذكر عائلة باياتشى. وهذا دليل آخر يدعم ما تشير إليه الوثائق القشتالية التي رأيناها، والسبب أن الباياتشيين لم يكونوا عائلة أساسية؛ بل أناس «من الدرجة الثانية» وليست لديهم ثروة. وهناك، تفسير آخر وهو أنه فى أوانى القرن، ومثل عائلات أخرى كثيرة من فاس، كان الباياتشيون قد انتقلوا للعيش فى تطوان. الوثائق الإسبانية تطلق اسم فاس ليس فقط على المدينة لكن على «المملكة»، أى على كل المنطقة الشمالية من المغرب الحالى. لكن على الرغم من ذلك نعتقد أن عائلة باياتشى لم تكن تنتمى إلى مجموعة العائلات البارزة فى فاس. من المهم أن نضع فى الاعتبار مستواها الاجتماعى، حيث أن كونهم بعيدين فى الأساس عن دوائر السلطة السياسية والاقتصادية، فإن دخولهم لنفس هذه الدوائر

نرمهم إستراتيجيات أكثر مخاطرة، وأفعال أكثر شدة. إن المستوى الاجتماعي
تفرد داخل أفتية يحدد درجة انقذرة على الدفاع عن النفس فى مواجهة الأحداث
ومواجهة الأغلبية.

موريكيون أيضاً: أحمد الحجرى وسيد الدوغالى

بدءاً من أواخر القرن السادس عشر قام أسعديون أيضاً بتوظيف العديد من
الموريكيين فى خدمتهم، كمترجمين وكعملاء موفدين فى مهام فى الخارج^(١٠٦).
إن هجرة العائلات المهمة كانت قد بدأت منذ حرب غرناطة فى الثالث
الآخر من القرن السابق.

إن أبرز مثال لهؤلاء الموريكيين الذين استخدمهم القصر المغربى هو
أحمد بن قاسم الأندلسى، المعروف بالحجرى، وهو واحد من الشخصيات الأكثر
تأثيراً فى التاريخ المورىكى فى هذه الأزمنة الدرامية التى قُدر لها أن تصل إلى
ذروتها بالطرد الحاسد. ومن المفروض أن الحجرى قد وُلد عام ١٥٦٩ أو ١٥٧٠
فى إسبانيا، ربما فى إكستريمادورا، رغم أنه عاش أيضاً فى إشبيلية وفى مدريد.
اشترك فى موضوع الرق أنمكتشف فى برج توربيانا فى غرناطة وفى الكتب
الرصاصية فى ساكرومونتى. هذا الانكشاف المزعوم لوثائق قديمة كان فى الواقع
تزييفاً قام به موريكيون متدربون؛ تدل الكتب المزيفة على أنه كان فى غرناطة
عربى فى أزمنة الحواريين، وأن هؤلاء كانوا قد تنصروا على يد سانتياغو
وتلاميذه. كان الهدف الواضح من التزوير هو تجنب الطرد الذى كان يُرى وشيكاً
عن طريق إبطال مفهوم «المسيحى الجديد»، حيث أن الموريكيين استطاعوا أن
يكونوا «مسيحيين قنماء»، وأبناء بلد أصليين أكثر من أى شخص آخر^(١٠٧).

بعد أن نجح الحجرى فى أن يصبح عند الناس مسيحياً قديماً، أبحر من ميناء
سانتا ماريا فى قادش مستقلاً سفينة متجهة إلى موقع مازاغان البرتغالى. نجح أيضاً
فى الهروب من هذا الموقع وذهب إلى مراكش، حيث استقبله السلطان أحمد

المنصور في عام ١٥٩٩. هناك تزوج وأسس أسرة. في عام ١٦٠٨، عندما استقر مولاي زيدان في مراكش، عينه سكرتيرا ومترجما للسلطان ولعب دورا مهما في الحياة الثقافية للمدينة. بعد ذلك بوقت قليل حدث طرد الموريسكيين، ورحلت مجموعة منهم إلى المنفى على متن أربع سفن فرنسية، تعرضت للسرقة والنهب من قبل الطاقم. عندما وصلوا إلى المغرب قَدَّم هؤلاء الموريسكيون شكوى لمولاي زيدان الذي قرر، من أجل المطالبة بحقوقهم أمام السلطات الفرنسية، إيفاد أحمد بن قاسم إلى أوروبا حيث زار فرنسا وهولندا. كان أحمد بن قاسم رجلا ذا ثقافة واسعة، فقد أقام علاقات وهو في هولندا مع المستعربين الأوائل في ليدين ومع الأمير ماوريشيو، وكذلك مع جماعة اليهود الإسبان والبرتغاليين الذين كان يشاركهم لغتهم، وأقام معهم جدلا دينيا. كان باياتشي موجودا حينئذ في هولندا، لكن للأسف ليست لدينا أخبار عن أى لقاء أو اتصال كان الحبرى بلاشك سيشير إليه في كتابه، حيث أنه ألف كتابا غاية في الأهمية عن سفره إلى أوروبا تناول فيه بالتفصيل الدقيق هذه التجارب^(١٠٨).

لكن هناك شخصيات أخرى أقل أهمية من حيث المهام، وبخاصة، مهام المترجم مثل سيدى عبدالله دودار، وهو موريسكى «أندلسى مولود فى غرناطة» يتحدث الإسبانية جيدا وشيئا من الإيطالية، يرافق في عام ١٦٠٠ السفارة المغربية إلى إنجلترا بصفته مترجما شفويا^(١٠٩). كان لأحمد المنصور مترجم شفوى أندلسى آخر هو عبدالرحمن الكتانى، الذى نجده من جديد فى مراكش، فى عام ١٦٠٩، كمترجم لمولاي زيدان^(١١٠). مع ذلك فإنه فى مهام بإسبانيا، اضطرت السلاطين المغاربة إلى استخدام يهود وليس موريسكيين، حيث اشتد الحظر على أن يطأ هؤلاء الموريسكيين شبه الجزيرة الأيبيرية بعد الطرد من عام ١٦٠٩—١٤٠٠. تكررت أيضا أوامر تمنع دخولهم إلى طنجة وسبتة والعرانث^(١١١). مثال: عندما مات مولاي الشيخ لأسباب غامضة يبدو أنها تتعلق بصداقة سالومون بارينتى مع ألونسو دى نورونا، آلت ثروته وأغراضه الشخصية إلى طنجة. قام ابنه مولاي عبدالله بمساع عديدة لاستردادها، ومن بين تلك المساعي، إرسال قواده إلى سان

لوكار للتفاوض مع دوق مدينا سيدونيا. من بين القادة كان هناك موريسكيون: أمر الدوق باعتقالهم ونفيهم^(١١٢). لكن سوف يكون هناك سفراء موريسكيون عديدون في إنجلترا وهولندا: في الفصول القادمة سوف نرى أحمد بن عبدالله الماروني ويوسف بيسكاينو.

لعب الموريسكيون المهاجرون إلى المغرب، قبل وبعد الطرد في عام ١٦٠٩-١٦١٤، أدواراً مهمة في كل أنواع الحروب، إما في جيوش السلاطين، وإما في القرصنة، التي كانت تساعد بالإضافة إلى ذلك في النقل السري لموريسكيين من شبه الجزيرة الأيبيرية إلى المغرب. تشكل سيرة سيد بن فرج الدوكالي مثلاً جيداً عن سير هذه المجموعة من الناس. ولد سيد بن فرج في مملكة غرناطة وهاجر إلى المغرب في تاريخ سابق على حرب البشيرات ١٥٧٠-١٥٧١. استقر به المقام في تطوان حيث مارس أعمال القرصنة، ونحو عام ١٥٦٣ عهد إليه السلطان بتجنيد وحدة مدفعية من الجيش مكونة من موريسكيين. منحهم السلطان أراضي في غوطة مراكش ليعيشوا منها. يبدو أنهم كانوا حوالى ألفى رجل وصاروا يكونون نوعاً من وحدة خاصة، بقيادة الدوكالي الذي شارك بشكل بارز في حملات عديدة للسلطان.

استمر الدوكالي يشارك في عمليات القرصنة: في عام ١٥٧١ كان لديه فى سلا سبعة سفن جاهزة ومستعدة لمهاجمة جزر الكنارى، قاد بها احتلال شهير ونهب لمدينة الرصيف Arrecife فى لانثاروتى. ظلت السيادة المطلقة على الجزيرة للدوكالي ورجاله خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر من نفس ذلك العام. فى عام ١٥٧٣ انهب الدوكالي مدينة لاس كويباس دى المنصورة فى إقليم غرناطة، وأخذ كل سكانها أسرى إلى المغرب.

بالإضافة إلى ذلك، ظل الدوكالي وجنوده الموريسكيون (المصادر العربية تطلق عليهم اسم أندلسيون وهو الاسم الأعم) يشاركون من أجل السلطان فى عمليات ضد قبائل متمردة كانت ترفض دفع الضرائب، وكذلك فى الاستعدادات

لمعركة القصر الكبير. ولأن السلطان لم يكن يعرف أين سينزل الملك سيبياستيان، أرسل السلطان عبد الملك فرقا إلى أماكن مختلفة من الساحل، وأوفد الدوكالى، الذى كان حينئذ برتبة «باشا» إلى سوس لحماية قائد ساحل أجير. مات عبد الملك، كما قلنا، فى المعركة، وكانت المغامرة الأخيرة والطموحة لهذا الموريسكى هى محاولة القيام بانقلاب عسكرى ضد خليفته، أحمد المنصور، والتى أعدم بسببها فى عام ١٥٧٩^(١١٣). فى الفصول التالية سوف نرى صمويل على علاقة وثيقة بموريسكيين مثل الدوكالى، فى الجيش وفى حرب القرصنة.

وأخيرا، كان فى القصر والجيش السعدى مجموعة ثالثة منشأها شبه الجزيرة الأيبيرية كبيرة العدد ومهمة من حيث التأثير والنفوذ، وهى المجموعة المكونة من المرتدين عن النصرانية والذين عادوا إلى الإسلام. إذا كان تأثيرهم فى الجيش وفى القصر شديد التميز أحيانا، فإن وضعهم كان غير مستقر مثل وضع اليهود. فقد كانت ثرواتهم تتكون بنفس السرعة التى كانت تتفكك بها وتبعا لهوى أصحاب النفوذ.

كان المرتدون من المسيحية إلى الإسلام والموريسكيون واليهود الإسبان هم السبب الذى جعل دول شمال أوروبا، وخاصة إنجلترا وهولندا، تضطر إلى أن تكون اتصالاتها الدبلوماسية مع المغرب ومراسلاتها مع هذا البلد دائما باللغة الإسبانية. إن خبرة المعاملات مع المغرب جعلت إنجلترا وهولندا تتصلان بيهود، وتقرر أن إحضار بعضا منهم للعمل فى خدمتهما. وكما فعل البرتغاليون من قبلهم، استعان الإنجليز ب مترجمين ووسطاء يهود فى تعاملاتهم مع الشرق منذ بدايات شركة شرق الهند. وعلى سبيل المثال، فى عام ١٦٠١ كانت هناك سفينة إنجليزية تابعة لهذه الشركة، فى طريقها إلى الهند، وكانت تحمل على متنها يهوديا أحضره الإنجليز من المغرب. قائد حملة فرنسية مشابهة يدعى فرانسوا بيرارد، تقابل معهم مصادفة فى سورات على الساحل الغربى للهند، ويشير فى يوميات سفره إلى أن هذا اليهودى كان يعرف العربية والإسبانية والبرتغالية، وكان قادرا على التفاهم مع

أصحابها الأصليين^(١١٤). لعب أبراهام نابارو Abraham Navarro نفس الدور، ولنفس الشركة في أواخر القرن^(١١٥).

في المجموعة الموريسكية المنفية إلى المغرب يمكن أيضا ملاحظة نفس التنوع في الانتماءات الدينية الممتزجة والاختلاط المتغير بين عناصر ثقافية مختلفة. من المدهش أن نُثبت إلى أي درجة، في هذا القرن الذي أولت فيه دولتنا شبه الجزيرة الأيبيرية ظهريهما إلى البحر المتوسط وإلى مواجهتهما مع الإسلام، ظلت المغرب وشبه الجزيرة الأيبيرية متداخلتين بعمق. كانت الجبهة شديدة التداخل وشديدة التغير، بحيث لا تكاد تبقى على حال؛ بل هي عبارة عن منطقة شاسعة من مد البحر تتعاقب فيها المياه في حركات بطيئة ومستمرة صعودًا وهبوطًا. إنها منطقة ليست رمالها دوماً تحت الماء ولا هي جافة كلية.

في الفترة التي قمنا بدراستها رأينا حركة مزدوجة. في المقام الأول وبدءًا من أواخر القرن الخامس عشر، هجرة ليهود إسبان إلى المغرب، وتشخيص معين لهذه الأرض كأرض مضادة للإسبان والبرتغاليين. هذا التشخيص يظل تقريبًا بلا ثغرات حتى أواخر القرن السادس عشر، كما تُثبت الاحتفالات اليهودية إزاء هزيمة الملك سيباستيان. في المغرب، مع ذلك، يحتفظون بسمات ثقافية واضحة خاصة بسكان شبه الجزيرة الأيبيرية وبوجه خاص جدا اللغة. وجدت القشتالية في المقام الأول لكن البرتغالية ستتواجد أيضًا حسبما تزداد على مدى القرن السادس عشر هجرة مسيحيين برتغاليين جدد من أصل يهودي إلى المغرب، ويتواجد برتغاليون، بوجه عام، في المغرب العربي. تبدو اللغة إذن أساسية في هذه الهوية الثقافية، لدرجة أن الاتصال المكتوب في داخل الجماعة اليهودية يبدو أنه يتم عبر الأخمياذية - العبرية والإسبانية وليس من خلال العبرية والعربية كما يحدث في الجماعات اليهودية في باقي العالم العربي المسلم. فلا يجب أن ننسى أن اليهود المغاربة، ومن بينهم اليهود من أصل إسباني، كانوا بالإضافة إلى ذلك متحدثين بالعربية.

الحالات التي عرضناها تبين إلى أي حد كانت العناصر الثقافية المختلطة، تتعايش وتتناوب في أسرة بعينها، وفي فرد بعينه وكيف كانت الهويات المتعددة منسجمة.

الحركة الثانية تحدث بعد ذلك بقرن، بدءًا من العقد الأول من القرن السابع عشر في اتجاه معاكس: يهود مغاربة يهاجرون، بعد تحولهم مسبقًا، إلى المسيحية، إلى إسبانيا والبرتغال، ولديهم معارف باللغتين العربية والعبرية أكبر بكثير في هذه الحالة الأخيرة، من معرفة اليهود الذين يمارسون شعائهم سرًا الذين بقوا في شبه الجزيرة الأيبيرية. إن هذا أمر واضح أكدنا على أهميته عدة مرات، حيث أن اليهود في السر الذين يعيشون في شبه الجزيرة الأيبيرية لم يكن بمقدورهم تلقي تعليم في مدارس يهودية. وجدير بالذكر أن المنحدرين من اليهود الأكثر تمسكًا بدينهم، أي هؤلاء الذين فضلوا الطرد على التتصر، اختاروا، بعد ثلاثة أو أربعة أجيال، التحول إلى المسيحية بهدف العودة إلى بلد لم يُولدوا فيه.

في هذه الحركة المزدوجة لم يكونوا وحدهم؛ فهناك مجموعات أخرى قليلة العدد منشؤها شبه الجزيرة الأيبيرية مثل الموريسكيين والمسيحيين الذين أسلموا، اتبعوا مسارًا مماثلًا وفي نفس الفترات التاريخية.

هوامش الفصل الثاني

- 1 في الالتماس الذي قدمه الأخوان باياتشي في الثامن عشر من شهر إبريل من عام ١٦٠٨ من أجل الحصول على تصريح بالسفر إلى هولندا، يُقال بوضوح شديد أنهما كانا

“van natiende professie der Hebreewen, geborente Fees in Barbarije ...”
أي: مولودان في فاس ببلاد البربر.
SIHM. Pays-Bas, I, pp. 273-275.

انظر التذييل.

- 2 Diego de Torres, Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos. Fez y Tarudante, Sevilla, 1586. Ed. M. García Arenal, Madrid. 1980. pp. 192-194.
- 3 J. de Mendoça. Jornada de Africa, Lisboa, 1607. Lib. II. cap. XV.
- 4 Nicolaas Claevnaerts (Nicolás de Clenard)

عاش في الحي اليهودي في فاس خلال عام ١٥٤١،

Véase R. Le Tourneau. “Notes sur les lettres latines de Nicholas de Clenard relatant son séjour dans le royaume de Fes (1540-1541)”. Hespáris, XIX (1934), pp. 45-63; P.S. van Koningsveld. “Mijn Kharúf: Over de Arabische leermeester van Nicolaas Cleynaerts”. Sharqiyyat 9/2 (1997), pp. 139-161, passim.

- 5 Historia de los Reyes Católicos, en Crónicas de los Reyes de Castilla. III. (BAF.LXX) Madrid, 1953. p. 601a. Véase también Chebet Yebudá (La vara de judá de Salomón ben Verga. Trad. F. Cantera. Granada. 1927. pp. 53 y ss.

- 6 J.Genot-Bismuth, "Le mythe de l'Orient dans l'eschatologie des juifs d'Espagne á l'époque des conversions forcées et de l'expulsion", Annales E.S.C. 45, n.º4 (1990), pp. 819-838 y D. B. Rudeman, "Hope against hope: Jewish and Christian Messianic expectations in the Late Middle Ages", Exilio y Diáspora. Homenaje al Prof.H. Beinart, Madrid-Jerusalén, 1991, pp. 185-202.
- 7 Véase H. Ben Sasson, "Exilio y redención a ojos de la generación de exiliados de Sefarad"(en hebreo), Yitzhak Baer Jubilee Volume. Jerusalén. 1961, pp. 216-227.

يوجد عند سابا وصف عام لموقف اليهود المبعدين نحو المسلمين في
تعارض مع موقفهم نحو المسيحيين.
- 8 Un comentario a la Torab, Zeror Hamor, Venecia, 1522. Véase especialmente fol. 47, apud j. Genot, Bismuth, art cit., p. 820.
- 9 Laredo, " Les 'Purim' de Tánger", Hespéris, XXXV (1948) pp. 193-203. F. Cantera, "El 'Purim' del Rey Don Sebastián", Sefarad V (1945), pp. 219-225.

من أجل معالجة أكثر استفاضة لكل هذه القضية، انظر :
- L. Valensi Fables de la Mémoire La glorieuse bataille des Trois Rois, París, 1992, cap. IV.
- 10 F. Cantera (trad.). El Libro de la Cabala de Abraham ben Salomón de Torrutid. Salamanca, 1928, pp. 42-43.

يتناول برنالدنيث أيضًا خبر الحريق، ويصف حالات البؤس التي تعرض لها المهاجرون إلى المغرب وكيف أنهم بين عامي ١٩٤٣، ١٩٤٦ لم يتوقفوا عن العودة إلى إسبانيا. "كل اليهود الذين عبروا إلى مملكة فاس وعادوا إلى هنا كانوا يأتون عرايا وحفاة وممتلئين بالقمل، وموتى من الجوع ومعرضين للخطر بشكل سيئ جدا، بحيث أن رؤيتهم كانت تثير الألم....".

- 11 Y.D. Sémach, "Une chronique juive de Fès: le Yahas Fes de Ribbi Abner Hassafaty, Hespéris, XIX (1934), pp. 79-94, p.92
- 12 J.A. Tavim. Judeos em Marrocos. P.75
- 13 Luis del Mármol, Descripción general de Africa, Málaga, 1599, f.91r. y v.
- 14 Mármol, op. Cit.,II, 92r.
- 15 Mendoça, op. Cit., fol. 11v.
- 16 Mendoça, op. Cit., fol. 11r.
- 17 Bernardo da Cruz, Chronica de El Rei D., Sebastião, Lisboa 1837,p.371.
- 18 Cf. H. Beinart, "Fas, merkaz le giur we la sibat anusim la-yahadut"
(فاس، مركز هجرة وعودة لاعتناق اليهودية)، حيث تُدرس بعض مصادر محاكم التفتيش المذكورة هنا.
- 19 T.F. Glick. "Moriscos and Marranos as Agents of Technological Diffusion", History of Technology, 17 (1995), pp. 113-125, p.119 Véase Joseph Tedghi, "Books. Manuscripts and Hebrew

Printing in Fez" (en hebreo) pe'amim, LII, pp.47-74

يقدم شرحًا موجزًا لتسعة كتب مطبوعة في فاس في تلك السنوات. في مكتبة
ساسون اللندنية يحتفظ بثلاثة نماذج من كتب مطبوعة في فاس باللغة
العبرية في عام ١٥٢١.

- 20 خولن نونييث، ترزى من طليطلة، ذهب إلى فاس مع المطرودين ثم عاد
بعد ذلك إلى طليطلة. تمت محاكمته بين عامي (١٥٢١، ١٥٢٣). في
محاكمة بدرو سيرانو ألقى بالتصريح رجل يهودي كان قد ذهب مع أبويه
إلى فاس وظل هناك لمدة ست عشرة سنة، وعاد بعد ذلك إلى إسبانيا
وتنصر.

يتحدث عن مدعى عليه "كان يريد العبور إلى بلاد البربر ... وحسم الأمر
بذهابه مع مسلمين إلى أراضيها ... والاحتفاظ [هناك] بدين اليهود".

- 21 L. wolf. The Jews in the Canary Islands. Londres, 1926. P. 90.

- 22 AHN, Inquisición, Leg. 176, n.º 11,

- 23 "[...] وموجود في الحي اليهودي في فاس ويضع شارة يهودي على
القلنسوة وختته حاخام اليهود ... وتعلم العبرية ليعرف الدين بشكل أفضل
مع اليهود الآخرين، كان مبتهجا جدا ومسرورا جدا لأنه عاد يهوديًا ... كان
بصدد القراءة وكان يصلي في معبد اليهود وكان يضع وهو في المعبد
أحزمة يسمونها Tafelis، ... كان يضع شريطًا ضيقًا من الجلد كضمادة
للجبهة كانت تتدلى من خلف ظهره حتى خصره وهناك كانت تُربط، وكان
يحتفظ بها في القرن الزجاجي ... الفعل "meldar" يعني "يقرأ" و"يصلي".

- 24 J.A. tavim, Judeus em Marrocos. Pp. 108 y ss.

- 25 N. Clenardus, Correspondence, trad. A. Roersch. 3 vols.

- Bruselas, 1941, vol.III. 73, carta de 21 de agosto de 1541.
- 26 Véase J.S. Gerber, *Jewish Society in Fez*. P. 78.
- 27 *Crónica de Almancor sultão de Marrocos (1578-1603)*. Ed. A. Días Farinha. Lisboa, 1997, pp.70 y ss.
- الحكاية لا يُعرف مؤلفها، لكن ناشرها ينسبها إلى سالدانها.
- 28 Op. Cit., p. 85
- 29 Op. Cit., p. 82.
- 30 Op. Cit., pp. 402 y ss.
- 31 Al-fishtali, *Manabil al/safa*, p.42.
- 32 Mármol, *Descripción*, II, f.33. Jerónimo de Mendoza. *Jornada de Africa*, f.125.
- 33 Saldanha, op., cit., p.183.
- 34 Saldanha, op., cit., p. 84
- 35 في محضر محكمة التفتيش الخاص بت بيتيتي لورينثو (18- ... AN/ TT, 20) يأتي ذكر لستة يهود برتغاليين يعملون في مصانع تكرير السكر في سوس. انظر أيضًا:
- Saldanha, op., cit., p. 78.
- 36 Op., cit., p.86.
- 37 J.C. Boyajian, "The New Christians Reconsidered: Evidence from Lisbon's Portuguese Bankers,1497-1647", *Studia Rosenthaliana* XIII,2 (1979), pp.129-156

- 38 José Alberto Rodrigues da Silva Tavim, "Os judeus e a expansão portuguesa na Índia durante o século XVI. O exemplo de Isaac do Cairo". *Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian*, 33 (1994), pp.137-260.
- 39 عن كل هذه القضية نُحيل القارئ إلى:
A.J. Saraiva, inquisição e cristãos-moro Oporto, 1969.
- 40 María José Ferro Tavaros, "Judeus de sinal em Portugal no século XVI", *Culture História e Filosofia*, V (1986), pp.339-363.
- 41 عن باستياو دي بارجاس يمكن الرجوع إلى:
R. Ricard, "Bastião de Vargas, agent de Jean III de Portugal au Maroc". *Al-Andalus*, X (1945), pp.53-77 y "Datos complementarios sobre Bastião de Vargas. agente de Juan III de Portugal den la corte de Fez", id., pp.383-386.
- 42 **SIHM. Portugal. IV, pp.55 y ss.**
- 43 **A. Dominguez Ortiz. La clase social de los conversos en Castilla en la Edad Moderna, Madrid, 1955, pp.87. y Kaplan. From Spanish court to Italian Ghetto: Isaac Cardoso, a study in Seventeenth Century Christianity to Judaism. The Story of Isaac Orohio de Castro, Oxford 1989, Cap.I, "From Portugal to Spain"; Y. H. Yersushalmi Marranism and Jewish Apologetics, Londres, 1971, pp.8 y ss.**

- 44 Apud Dominguez Ortiz, op. Cit., p.114.
- 45 Apud Dominguez Ortiz, op. Cit., p.114, nota 21.
- 46 بالنسبة لهذه القضية وللصفحات التالية أنظر:
- M. Garcia y M. de Bunos. Los españoles y el norte de Africa, siglos XV – XVIII, Madrid. 1992.
- 47 J. Contreras. "Cristianos de España y judíos de Amsterdam: emigración, familia y negocios en J. Lechner y H, den Boer (eds. España y Holanda Ponencias Leídas durante el Quinto Coloquio Hispano-holandés de Historiadores. Amesterdam. 1955, pp.187-213
- 48 D.M.Swetschinski, "Kinship and commerce: the foundations of Portuguese Jewish life in Seventeenth Century Holland", Studia Rosenthaliana, XV, I (1981) pp.52-74
- 49 عن وثيقتي فينيثيا وليفورنو، انظر:
- B. Ravid, "The first Charter of the Jewish Merchants of Venice, 1589", AJS Review, I (1976), pp. 187-222.
- 50 SIHM, Pays-Bas, V, pp.31-33 etc. عن عائلة منيديس، انظر
- H.P. Salomón, "Mendes. Benveniste, de Luna, Micas, Nasci: the state of the art", The Jewish Quarterly Review, LXXXVIII (1998), pp. 135-211.
- 51 J.Israel, Empires and Entrepots. The Dutch, the Spanish monarechy and the Jewish 1585-1713. Londres, 1990e idem, "A

- conflict of Empires: Spain and the Netherland, 1618-1648", Past and Present, 76 (1977), pp. 34-74.
- 52 Véase J.S. Gerber, Jewish society in Fez. 1450-1700, Leiden, 1980, cap. XV "Jews in commerce", pp. 159 y ss.
- 53 انظر على سبيل المثال:
- SIHM. Angleterre. II, doc. XXXVIII, p. 117,
- الذى يُدلى فيه سير كريستوفر باركينز بنصائح حول البروتوكول الذى ينبغي مراعاته فى البلاط المغربى ويقول إنه يجب على السفير الإنجليزى أن يخاطب السلطان بكلمة "إمبراطور" (خطأ، بالإسبانية) وإلى ابنه بكلمة "سمو".
- 54 عن فترة حُكم أحمد المنصور، انظر:
- D. Yahya, Morocco in the Sixteenth Century Problems and patterns in African foreign policy, Londres, 1981.
- 55 Mármol, op. cit., II, fol. 100v.
- 56 SIHM, Angleterre, II, p. 11, nota 2.
- 57 انظر على سبيل المثال المراسلات بين "الشيخ روت" وبالتاسار بولو فى عام ١٥٩٥
- AGS, Estado, Leg. 492, passim.
- 58 SIHM, Portugal, II, passim.
- 59 Gozalbes, Los Moriscos en Marruccos, Granada, 1992, p. 103.
- 60 Por ejemplo, SIHM, Portugal, III, docs. XIX, XXI.

- 61 R. Ricard, "Notice sur Bastião de Vargas, agent de Jean III au Portugal", SIHM Portugal, III, pp.176-190.
- 62 SIHM, Portugal, III, p.20.
- 63 SIHM, Portugal, V, pp.50,52-54.
- 64 Laredo, op., cit. P.552.
- 65 "Baptême d'un Juif de Fès a l'Escorial (1589)", Hespéris (1937), p. 136.
- 66 Mármol, op. Cit., II, 54r.
- 67 Mármol, op. Cit., II, 55v.
- 68 Gerber, Jewish Society in Fez, pp.94 y ss.
- 69 SIHM. Espagne, I, p.246: Portugal. II, pp. 562, 583.
- 70 SIHM, Portugal. IV. P.239.
- 71 A. Laredo. Les mœurs des Juifs du Maroc. Madrid, 1978. Senanes, pp. 906 y ss. Pariente, pp.980 y ss. Rute, pp. 375 y ss. Ben Zemiro, pp. 550 y ss.
- 72 J. Israel, "The Jews of Spanish North Africa. 1600-1669", Jewish Historical Society of England Transactions, vol. XXVI, (1979), pp. 71-72.
- 73 ADM. Leg. 2409, diciembre de 1614.
- 74 ADM. Leg. 2411, diciembre de 1619.

- 75 Véase Jacob Cansino, "Relación de los servicios de Jacob Cansino y los de su padre" publicado como introducción a la edición de Extremos y Grandezas de Constanemopla compuesto por Rabi Moysen Almosnino, Madrid, 1638.
- 76 انظر على سبيل المثال. ADM. Leg. 2407 خطاب من الملك إلى الدوق، بتاريخ ٧ ديسمبر ١٦١٢.
- 77 G. Vajda, "Un recueil de textes historiques judéo-marocaines, Hespéris", XXXV (1978), p.326.
- 78 M. Garcia-Arenal. "Les bildiyyin de Fes: un groupe de neo-musulmans d'origine juive". Studia Islamica, LXVI (1987), pp.113-144.
- 79 SIHM. Angleterre,II, p.501, Pays Bas,III, p.14.
- 80 SIHM,Angleterre,II, pp.233-، "تاجر الملك (أبو فارس)", 363
- 81 SIHM,Angleterre,II,p.490.
- 82 SIHM, Pays Bas,III, p.532 y IV passim.
- 83 SIHM,Angleterre,II, pp.233-263,441, 468, Pays-Bas,I, pp.341, 441, 445, 500, 297-300, Pays-Bas,III, pp.283,286, 288,525.
- 84 Gozalbes, op, cit., p.131.
- 85 AGS, Guerra y Marina. Leg. 662.
- 86 يطلب خوانيتين مورتارا إنز مرور من أجل AgS, Estado, Leg. 493.

ناتان بينتيرنى، خادم مولاى الشيخ ومقرب جدا منه. يطلب إذن المرور له ولأسرته على حد سواء لكى يستطيعوا المرور سواء إلى إسبانيا أو إلى أى ثغر من ثغورها. يعتقد خوانيتين أن هذا اليهودى مهم جدا وأنه لا يمكن التفكير فى عمل صفقة مع مولاى الشيخ إلا بواسطته.

- 87 Rojas, op. cit., fol. 67v.
- 88 J.de Mendoça es muy explícito al respecto. Véase su Jornada de Africa, fol.153v. Véase también Joelyne Dakhli, "Réinscriptions linagères et redéfinitions sexuelles des convertis dans les cours maghrébines (XVIe-XIXe siècles)" (en prensa).
- 89 F.R. Mediano, "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazar-quivir" (en prensa).
- 90 AGS, Estado, leg. 494.
- 91 Véase Mendoca, Jornada de Africa, lib.I cap.III y lib.II cap. V.
- 92 SIHM,Pays-Bas,IV,pp.352 y ss., 355, 482 y ss. 513 y ss. Etc.
- 93 يتحدث خوان لويس دى روخاس باستفاضة عن هذه المشكلة، وحتى عن الحالات التى كان الموريسكيون مستعدين فيها للعودة بصفقتهم عبيد، op, cit.,fols.60-61
- 94 AGS, Estado, Leg.495.
- 95 AGS, Guerra y Marina, Leg. 660, año 1606.
- 96 British Museum. Add. 10.719
- 97 AGS, guerra y Marina. Leg 645, 1505.

خوان ألونسو دي موسكوسو، مسلم المولد، أصله من سلاسل جبال مليلة،
يمر حاملاً أسلحةً وممتطيًا حصاناً

AGS, Guerra y Marina. Leg. 670, año 1607:

خوان اينريكيث، تنصر في مليلة، يأتي إلى إسبانيا مع أسرته وأبنائه
العشرة.

98 Arquivo Nacional de Torre do Tombo (AN/TT) Inquisição, n.
"4356 publicado por J.A.Tavim en Os judeus na expansão
Portuguesa em Marrocos ... pp.569-572"

99 SIHM, France,I, pp.178-181.

100 SIHM,Angleterre,I, pp. 48-49.

101 AN/TT. Inquisição. Leg. 5393. Véase M. García Arenal. "Los
judios de Fez a través del proceso inquisitorial de los Almosnino
(1621)"(en prensa).

Véase E. Denison Ross. Sir Anthony Sherley and his Persian
Adventure. Londres, 1933,

مع أن الكتاب مُنْصَبٌ على شقيقه، إلا أنه يُقَدِّم أخباراً كثيرة عن روبرت.

103 وثائق التعميد بالإسكوريال، المؤرخة في الثالث من إبريل من عام ١٥٨٩
تقدم "رجلاً يبلغ من العمر أربعين سنة، يهودي المولد، أصله من فاس وكان
يُدعى في اليهودية موسى بن ثاميرُو ويدعى في العماد بابلو دي سانتا ماريا
..."

"Baptême d'un Juif de Fes a l'Escorial (1589)", Hespéris. XXIV
(1937), p.136.

- 104 The Autobiography of a Seventeenth Century Venetian Rabbi, Leon Modernase y trad. M. Cohen, Princeton, 1989, pp. 14-15.
- 105 Apud J. Gerber, Jewish Society in Fez... pp.78-80.
- 106 Véase por ejemplo G.A. wiegers, "Learned Moriscos and Arabic studies in the Netherlands, 1609-1624", en J. Lüdtke (ed.), Romania Arabica. Festschrift für Reinhold kontzizum 70. Geburtstag, Tubinga, 1996, pp. 405-417.
- 107 كانت هذه القضية الغاية في الأهمية موضوع دراسات عديدة. يمكن الرجوع إلى التلخيص العام لهذه القضية عند Julio Caro Baroja, Las falsificaciones de la historia (en relación con la de España), Madrid, 1991, cap.III.
- 108 Al-Hayarí, Kitab nasiral-din'ala l-qawm al-kafirin. Historical study critical edición and annotated translation, por P.S. van Koningsveld. Q. al-Samarrai y G.A. wie Wiegers, Madrid.1997.
- 109 SIHM,Angleterre,II,pp.166-203.
- 110 SIHM,Angleterre,II,pp. 214-215: Pays-Bas. I, p.644.
- 111 AND, Leg. 2409, Carta del Rey a los gobernadores de las plazas, 9 mayo 1613.
- 112 كل الموضوع، بما فيه وصف ممتلكات مولاي الشيخ التي كانت تشتمل بالفعل على أحجار كريمة كثيرة، موجود في الربطة رقم ٢٤ بأرشيف مدينا سيدونيا. في الخامس والعشرين من سبتمبر ١٦١٤ كتب الملك إلى الدوق " فيما يتعلق بقيادة مولاي عبدالله الذين جاءوا من أجل المطالبة بثروة

أبيه وأقرُّ لكم كونكم مكْتَبُ للموريسكيين الذين جاءوا مع أولئك القادة،
وسوف يكفى نفيتهم وإخراجهم من هذه الممالك".

- 113 M. Garcia Arenal, "Vidas ejemplares. Sa'id ibn Faray al-Dugali (m. 987/157*) un granadino en Maruecos" en M. Garcia Arenal y M.J. Viguera (eds.), Relaciones de la Península Ibérica con el Magreb, madrid, 1988, pp.453-486.
- 114 B. Lionel Abrahams, "A Jew in the Service of the East India Company in 1601", the Jewish Quarterly Review.IX (1897), pp.173-175.
- 115 W.J.Fischel, "Abraham Navarro, Jewish interpreter and diplomat in the service of the English East India Company(1682-1692)", Proceedings of the American Academy for Jewish Research, XXV (1956), pp.39-62.

الفصل الثالث

بين هولندا والمغرب

فى أواخر القرن السادس عشر حدثت فى أوروبا كارثة دينية وسياسية كبيرة سببت انهيار الثقافة الأوروبية. إن إدراك الكاثوليك والبروتستانت أن نتيجة حروبهم هى تعادل الطرفين، دون وجود غالب واضح، قد ولد، بدءًا من عام ١٥٧٠، واقعا ثقافيا وسياسيا مختلفا جذريا بالإضافة إلى أزمة روحية وفكرية طويلة أحدثت شككا عميقا، عبارة عن إلحاد تقريبا. هذه الأزمة، بالإضافة إلى أنماط جديدة للعمل السياسية واقتصادية، هى التى تسمح، حسب خ. إسرائيل، بظهور الجماعات اليهودية فى أوروبا وبدورها الجديد^(١).

كما قلنا سابقا، عندما أصبحت هولندا تشكل جزءا من اتحاد أوترخت فى عام ١٥٧٩، ضمنت حرية الاعتقاد فى أراضيها، طالما أن شعائر هذا الدين تمارس فى السر: كانت الشعائر الدينية للكنيسة الرسمية هى فقط التى تمارس علنا. لقد استمرت المدن متمسكة بإخلاص بتقاليد المصاداة لليهودية واستمر منع دخول اليهود إليها^(٢). وبالتالي، فإن الأعضاء الأوائل لـ «الأمة البرتغالية» اليهودية الذين استقروا فى مدينة أمستردام أقاموا تلك الجماعة بصفتهم مسيحيين.

من أين ولماذا أتى هؤلاء المهاجرون؟ إحدى نتائج إقامة طرق تجارية مع العالم الجديد ومع الشرق، فى أواخر القرن الخامس عشر، كان ظهور ونمو مدينة أمبيريس. أتاح لها موقعها الجغرافى وظروفها السياسية أن تصبح العاصمة التجارية لشمال أوروبا. احتفظ كارلوس الخامس بالامتيازات القديمة للمدينة، وضمن رؤساء بلديات مدينة أمبيريس الأمن لرأس المال وضرائب منخفضة وحقوق مدنية للتجار الأجانب الذين شكلوا فيها جاليات حقيقية.

إحدى هذه الجاليات كانت مكونة من يهود منتصرين برتغاليين، «أناس من الأمة» أو من «الأمة البرتغالية» كما تقول الوثائق المنتمية لتلك الفترة. كانوا ينعمون في أمبيريس بالأمن التجارى وبالتحرر من رقابة محكمة التفتيش بينما كانوا مسيحيين صُوريًا.

فى عام ١٥٦٥ أسس فيليبى الثانى محكمة التفتيش فى الأراضى التابعة له فى فلاندرس، وهجر عدد من التجار المدينة وكان ذلك لصالح هامبورج ولندن أو لا روتشيل La Rochelle. مع ذلك، لم يبدأ انهيار المدينة حقيقة إلا بعد أن حدث تمرد هولندا ضد التاج الإسبانى. لقد سبب ذلك التمرد المذابح التى ارتكبتها الإسبان فى عام ١٥٧٦ وأدى إلى اتحاد أمبيريس مع جمهورية السبع أقاليم المتحدة فى عام ١٥٧٧. سبب سقوط أمبيريس فى أيدى الإسبان عام ١٥٨٥ موجة هجرة هائلة لاتباع لوثر وكالفينو نحو أقاليم الشمال المتحدة. مع هؤلاء اللاجئين وصل أعضاء مما كان يعرف فى أمبيريس بـ «أمة برتغالية». الحصار الذى فرضته الجمهورية الجديدة فى أمبيريس عام ١٥٩٥ انتهى بتفكيك تجمع رجال الأعمال البرتغاليين فى هذه المدينة. استقروا لبعض الوقت فى هامبورج. لكن عندما بدأت أمستردام تلعب دورًا بارزًا فى التجارة الدولية، خاصة بعد توقيع الهدنة بين إسبانيا وهولندا عام ١٦٠٩، اختار تجار المهجر من اليهود المنتصرين هذه المدينة كمركز رئيسى لهم، وتخصصوا فى التجارة مع شبه الجزيرة الأيبيرية ومع الشمال الشرقى البرازيلى، وطوروا سريعًا فروعًا كثيرة لتجارة ما وراء البحار والصناعة، وعلى وجه الخصوص شغل الأحجار الكريمة. إن هدنة الاثنى عشر عامًا (١٦٠٩ - ١٦٢١) فتحت فترة لازدهار غير عادى للتجارة الهولندية. إن استمرار حصار أمبيريس خلال تلك السنوات أتاح لهولندا فى ظل إنعدام ضوابط فعالة من جانب المملكة الإسبانية، أن تقوم بدور الوسيط بين الشمال والجنوب وأن تشارك فى تدفقات الفضة الأمريكية. كان الغش والتهريب الواسع النطاق يُمارسان أيضًا باستمرار، فى مرات كثيرة، بالاشتراك مع تجار برتغاليين، خاصة فى دخول العملة المزيفة وتوريد الفضة إلى فرنسا^(٣).

فى ظل ظروف اقتصادية وتجارية مربحة جدا، انضم إلى المهاجرين قليلى العدد من اليهود البرتغاليين القادمين من أمبيريس والذين استقروا فى أمستردام فى عام ١٥٩٣، انضم إليهم يهود مستترون من إسبانيا والبرتغال بالإضافة إلى يهود إسبان من جماعات إيطالية ومن المشرق ومن شمال إفريقيا. هؤلاء السنين كانوا معروفين فى شبه الجزيرة الأيبيرية «كمسيحيين جدد» عادوا فى أمستردام إلى دين أجدادهم وتحولوا هكذا إلى «يهود جدد»^(٤).

بدأت اليهودية فى أمستردام، كما فى باقى أوروبا الغربية، بحزن شديد ومضى بعض الوقت قبل أن يحصل اليهود على اعتراف قانونى. كانت الأعوام من ١٦٠٩ إلى ١٦٢١، التى استمرت خلالها الهدنة مع إسبانيا، ذات نمو ملحوظ بالنسبة للجماعة اليهودية الإسبانية-برتغالية فى أمستردام، والتى أصبحت أنشطتها التجارية ذات أهمية أساسية بالنسبة للمدينة. لم يعد وجودهم، بالتالى، مثار شك.

نحو عام ١٦٠٣ منحت السلطات البلدية فيما يبدو النواة الصغيرة من التجار الأيبيريين إمكانية ممارسة عقيدتهم اليهودية بشرط أن يقيموا الطقوس الدينية فى السر. بدأت الجمعية الدينية الأولى (بيت يعقوب) فى ممارسة عملها فى عام ١٦٠٣ فى منزل رجل برتغالى يدعى يعقوب تيرادو Jacob Tirado. الجمعية الثانية، جماعة نيفى سالوم Neve Salom، يرجع تاريخها تقريباً إلى ما بين عام ١٦٠٨ و ١٦١٠^(٥). يبدو أن بعض الأعضاء الأكثر التزاماً فى هذه الجماعة (من بينهم إسحاق فرانكو Ysaac Franco) طلبوا إذنًا، نحو عام ١٦١٢، لإنشاء معبد يهودى علنى فى أمستردام. انفجر احتجاج شعبى غاضب، وقررت سلطات المدينة إيقاف العمل. تحت ضغط كالفينو صدرت فى أمستردام سلسلة من القيود: لم يكن فى مقدور اليهود العمل فى كل المهن، ولا الزواج من مسيحيين، ولا الجدل علناً مع هؤلاء حول موضوعات دينية، ولا تحويل مسيحيين إلى اليهودية، ولا حتى بناء واستخدام معابد يهودية^(٦). مع ذلك، يبدو من المحتمل أن المبنى، القريب من المكان الذى توجد فيه اليوم كنيسة موثيس Mozes فى أيرون Aäron، استخدم

كمعبد من قبل جماعة نيفى سالوم بعد عام ١٦١٢^(٧). هذا المعبد المتواضع الذى لا يكاد يعترف أحد أنه المعبد، معبد لا يمكن مقارنته ولا الخلط بينه وبين المعبد الكبير، المسمى «اينوجا» الذى شيد فى عام ١٦٧٥ والذى لا يزال من الممكن اليوم زيارته فى المدينة. هذه الجماعات التى أنشأها الذين بقوا خلال أجيال بعيدين عن الممارسة العلنية لليهودية، كانت فى حاجة لجذب حاخامات وخبراء فى الشريعة اليهودية من أوساط نمت فيها هذه الشريعة بصورة طبيعية. فى هذا الاتجاه كانت فينيسيا Venecia هى نقطة الصلة الرئيسية، وكذلك فاس لكن بدرجة أقل، والإمبراطورية العثمانية بوجه عام^(٨). كان أول حاخام لجماعة نيفى سالوم على ما يبدو، هو خودا فيجا، الذى قديم من أراض تابعة للإمبراطورية العثمانية. بين عامى ١٦١٦ و١٦٢٢ كان حاخام الجماعة هو إسحاق أوزيل من فاس^(٩). حتى عام ١٦١٤ تعيّن على الجماعات اليهودية فى أمستردام دفن موتاهم فى جرويت، بالقرب من الكمار Alkmaar. طالبوا مرتين دون أن ينجحوا بمكان لدفن موتاهم فى أمستردام، وأجيب طلبهم فى عام ١٦١٤ بمنحهم أرضاً لذلك بالقرب من المدينة، فى القرية التى تسمى أوبركيرك آن دي أمستيل. هناك دفن صمويل باياتشى عام ١٦١٦.

منذ بداية القرن السابع عشر كانت الجماعة البرتغالية فى أمستردام تتطور بأسلوب يجعلها تؤسس لنفسها فى كل مرة حدوداً عنصرية أكثر وضوحاً. لكن قبل عام ١٦١٤ لم تكن بعد عبارة عن جماعة برتغالية تقوم هويتها فحسب على روابط نسب ولغة مشتركة وجانب ثقافى. إن أهم مظهر لهذا النهج التدريجى الذى سيؤدى إلى وضع أهداف برتغالية واضحة للجماعة كان إنشاء جمعية تجهيز اليتيمات والعرائس الفقيرات. كان هدف هذه الجمعية التى لا تزال موجودة هو مساعدة اليتيمات والعرائس الفقيرات فى جميع مناطق أوروبا حيث يتركز أناس من الأمة البرتغالية^(١٠). خلال القرن السابع عشر كانت العلاقات الداخلية بين اليهود البرتغاليين فى أمستردام تصبح كل مرة أكثر توطيداً وتماسكاً، كما يظهر بوضوح تكوين شبكاتهم التجارية وأسلوبهم فى عقد الزيجات^(١١).

طبقا لبوديان Bodian، فإن الجماعة البرتغالية كانت تُضمُّ يهودًا ينتمون للتراث القديم، أي أعضاء من جماعات ذات أصل إسباني أو برتغالي استقروا منذ أكثر من قرن في أماكن متفرقة من حوض البحر الأبيض المتوسط، أي العالم الذي كانت تنتمي إليه عائلة باياتشي^(١٢).

في تلك الفترة أيضا كان هناك موريسكيون كثيرون يتوافدون على أمستردام. ففي كتابات مؤرخ متعاطف جدا مع إسبانيا، مثل فرانس فان دوسيلدورب (١٥٦٦—١٦١٥)، نجد فقرة مهمة جدا عن قدومهم في ١٦٠٩—١٦١٠: «بعضهم [الموريسكيون..] توجهوا في الحال إلى أمستردام، المدينة التي منحوا فيها مكانا للاجتماع [معبد يهودي]. حضر هناك أبرز ملحدى تلك الجماعة، بعد أن اختتتوا. إلى هذه الدرجة [طبقا لما يقول دوسيلدورب] كان المذهب الكالفيني متفقا مع الإسلام»^(١٣). ومع أن فان دوسيلدورب ليست له سمعة طيبة بالنسبة لمصادقيته كمؤرخ، إلا أن هناك دليل آخر يُدعم ما يقوله هنا عن وصول موريسكيين إلى أمستردام^(١٤). علاوة على ذلك، كانت هناك حالات لموريسكيين في أمستردام أرادوا التحول إلى اليهودية: لورينثو إسكوديرو، موسيقى وممثل كوميدى من أندلوثيا، من أصل موريسكى واضح، استقر في أمستردام في أواسط القرن السابع عشر وأبدى رغبته في التحول إلى اليهودية، غير أن زعماء الجماعة رفضوا بشدة تحويله وقبوله كعضو^(١٥). في عام ١٦٠٩ أرسل دوق مدينا سيدونيا تحذيرا إلى القصر حول معاملات كان الموريسكيون يقيمونها مع الهولنديين وكيف أن كثيرين كانوا يهربون إلى هولندا^(١٦).

سان خوان دى لوث مرة أخرى

كانت هناك اتصالات مستمرة بين البرتغاليين في سان خوان دى لوث، حيث تركنا عائلة باياتشي في عام ١٦٠٧، وبين البرتغاليين في أمستردام^(١٧). كانت سان خوان دى لوث مرحلة وقع عليها اختيار كثيرين من الذين هربوا من شبه الجزيرة الأيبيرية، من اليهود والموريسكيين على حد سواء^(١٨).

هذا الموضوع، مثل موانئ فرنسية أخرى على المحيط الأطلنطي، كان يشكل جزءاً من الشبكات التجارية الهولندية التي كانوا يستخدمونها إزاء استحالة مجئ الهولنديين إلى الموانئ الإسبانية للتجارة الإسبانية من خلال العائلات الكبيرة لتجار يهود - متصرين. هؤلاء كانوا يحملون أصوافاً وأجواخاً قشتالية جيدة إلى جنوب فرنسا، حيث كانوا يستبدلونهم ببضائع يتسلمونها هناك من سفن هولندية. وقد أتاح ازدهار هذه الأنشطة بداية ما سوف يصبح تدعيماً قوية للجماعات اليهودية البرتغالية في الجنوب الغربي الفرنسي^(١٩). فتح طرد الموريسكيين الذي تقرر عام ١٦٠٩، مجالاً جديداً لهذه التجارة وللتجارة غير الشرعية. لقد خول أمر الطرد للموريسكيين بيع ممتلكاتهم، فيما عدا الأصول، وكان بمقدورهم أخذ ثرواتهم معهم نقوداً لكن ليس فضةً أو ذهباً أو مجوهرات أو كمبيالات. إزاء هذه التدابير القاسية، حاول البعض منهم إخراج ثرواتهم ونقودهم ومعادنهم النفيسة إلى الخارج متجنبين نقاط رقابة الموظفين الملكيين. إن خروج الموريسكيين المطرودين من قشتالة نحو فرنسا جعل من التجار البرتغاليين، الذين لهم خبرة في التجارة غير الشرعية ولهم شبكات تجارية ممتازة على جانبي جبال البرانس - جعل منهم العملاء المناسبين لهذه المهمة^(٢٠).

يحتفظ أرشيف سيمانكاس بوثائق كثيرة تثبت، بالإضافة إلى ذلك، كيف أن يهوداً وموريسكيين في هذه المنطقة كانوا يتعاونون فيما بينهم من أجل الحصول على صكوك ملكية لإخراج نقود من إسبانيا^(٢١). بين فبراير ويونيو من عام ١٦١٢ كتب شخصٌ يدعى لورينثو سواريث Lorenzo Suarez إلى الملك من سان خوان دي لوث ليخبره عن تحركات الموريسكيين في جنوب فرنسا^(٢٢).

يقول:

« إن موريسكيين كثيرين عانوا عن طريق البحر إلى ميناء سان خوان دي لوث ذاك، يَحْمِلُ بعضهم وثائق مزورة أعطاهم لهم شخصٌ يُدعى

فرانثيسكو الغوردو، وهو موريسكى من سكان
الماغرو، بسعر ثلاثمائة ريال وقام بتزوير توقيع
الكونت سالثار وتوقيع سكرتيره وآخرين لعلمهم
بقلة تدقيق المحاكم العادية معهم وبخاصة المحاكم
التابعة لأماكن السادة وبعضهم (عادوا) من أجل
البقاء فى إسبانيا وآخرون من أجل إخراج المال
الذى تركوه فيها مخبأ ومحفوظاً حيث كانوا
يعيشون، وبعضهم تم التبليغ عنهم والإخطار
بالمكان الذى سيسكنون فيه وقُبض عليهم
وعُوقبوا».

«إنَّ المال الذى أخذه بعض البرتغاليين كانوا
يسلمونه إلى مارتين ساباتو دى أولاثابال، من سكان
إيرون، فى بيت له خارج المدينة ومنه يُخرج
ساباتو المال ويحمله مع ابن عم له وأبنائه إلى
خارج المملكة ويسلمه إلى أنطونيو مينديث كاردوسو
وفرانثيسكو نونييث وهما شخصان مرشحان من
قبل البرتغاليين من أجل تسليم المال والذهب
والجواهر التى كانوا يخرجونها من المملكة سرّاً
ويؤخذ على السلطة القضائية فى ذلك الميناء قلة
صرامتها فى الأمور الخاصة بخدمة جلالته، ولهذا
السبب فإن كمية كبيرة من العملة من ثروات
الموريسكيين والبرتغاليين على حد سواء تخرج من
المملكة ويأخذونها إلى تركيا، التى هى مصدر
الأضرار التى تلحق بنا».

«إن الطريقة التي يتبعونها في مراسلاتهم هي إرسال الخطابات إلى سان خوان دي لوث إلى شخص يدعى فابيان ماروتو وهو موريسكي وكان من سكان أبيلا ومن هناك يقوم بتوجيهها إلى ... خيرونيمو إنريكيث في بايونا، الذين يعملون كوكلاء عن أعضاء هذه الأمة.

وكان خيرونيمو إنريكيث يقوم بإرسالها إلى فينيسيا إلى يهوديين اسمهما أبراهان ثاكوتو Habrahan Çacuto وأبراهان موغنيون Abrahan Mugnion الوكيلان في تلك المدينة لهذه المراسلات ومن هناك يوجهانها إلى تونس والقسطنطينية وبالتالي تأتي الردود، وكانا يرسلان خطابات إلى الذين بقوا في هذه الممالك كي يخبروهم بكل ما يحدث وما يستجد من أمور وهذا يؤدي إلى إلحاق الضرر».

إنَّ الطُّرُق من سان خوان دي لوث كان يمكنها أن تؤدي إلى فينيسيا وتونس واسطنبول. مع ذلك ؛ ففي حالة عائلة باياتشي، كانت المرحلة التالية هي أمستردام حيث ظهروا في عام ١٦٠٨. وصلت عائلة باياتشي إنن إلى أمستردام في اللحظة التي بدأت تتكون فيها الجمعيات اليهودية الأولى في المدينة.

مع ذلك، فطبقاً لما يقول هيرشبرج Hirschberg، كان أفراد عائلة باياتشي موجودين في أمستردام قبل ذلك بسنوات. يقول إنه في عام ١٥٩٦ نجد صمويل وجوزيف بصفتهم تاجرين في المدينة حيث يأتي ذكرهما في قائمة المشاركين البرتغاليين الأوائل الذين اجتمعوا في بيت صمويل حيث احتفل بأول احتفال علني

بيوم كيپور عام ١٥٩٦. كان المصدر الأساسي لـ هيرشبرج هو كتاب «التاريخ العالمي اليهودي» للشاعر والكاتب دانييل ليفي دي بارئوس، وهو قليل المصداقية كمصدر تاريخي، هذا الكتاب يذكر صمويل وجوزيف بين رؤوس الجماعة في عام ١٥٩٧ (الموافق بالتقويم العبري ٥٣٥٧) ويقول إنهم كانوا يجتمعون للصلاة في بيت صمويل. هذا الخبر يوجد أيضا في كتاب «انتصار الحكومة الشعبية اليهودية» لبارئوس^(٢٣) حيث يتضمن قائمة الستة عشر شخصا يهوديا ومن بينهم «صمويل باياتشي بالاستحقاق الذي يُحسب له لتردد الناس على بيته من أجل الصلاة». لكن هذه الأخبار ليست أكيدة، كما أثبت عديد من الباحثين^(٢٤). إن أكثر ما يمكن قوله هو أنه ربما شارك أفراد عائلة باياتشي في تأسيس الجماعة الثانية، نيفي عالوم، نحو عام ١٦١٠^(٢٥)، لكن ليست لدينا دلائل تثبت هذا التأكيد.

يؤكد تصريح أدلى به أمام مَوْتَق العقود وليم بينينك Willem Benninck في الحادي والعشرين من يونيو عام ١٦١٧ أن صمويل وجوزيف كانا قد وصلا إلى هولندا منذ حوالي عشر سنوات. في هذا السجل التوثيقي يصرح دوارتي فرنانديث وتجار برتغاليون آخرون من أمستردام بناءً على طلب من جوزيف باياتشي أن الأخوين صمويل وجوزيف باياتشي كانا قد وصلا منذ عشر سنوات إلى أمستردام ومعهم كمية كبيرة من المال. بعد ذلك بشهور قليلة، حُسِبَ ما أدلى به المُقَرَّون، استأجرا سفينة محملة بالبضائع رحل فيها صمويل متجهاً إلى المغرب. ليحضر زوجتيهما وأبنائهما وعائلتهما وممتلكاتهما. بعد أن نزل صمويل في تطوان، وصلوا إلى صافي حيث هُوجمت السفينة من قبل بعض القراصنة الذين استولوا على كل الممتلكات، التي كان من بينها ذهب وعمير وأدوات للاستخدام المنزلي. لذلك وصلوا إلى أمستردام بدون أي متاع شخصي، ومنذ ذلك الحين كرّس صمويل نفسه فحسب لخدمة السلطان المغربي، يُسَلِّح ويستأجر سفناً لخدمته، دون أن يتفرغ أبداً لعقد صفقات شخصية^(٢٦). إنها وثيقة مهمة جدا سوف نرجع إليها فيما بعد حيث أنها تُفهم من سياق الأحداث اللاحقة.

لاشك، في رأينا، أن الباياتشيين قد وصلوا أمستردام لأول مرة في عام ١٦٠٨ وليس عن طريق الصدفة؛ بل مُستغلين اتصالهم — لا نعرف كيف ولا متى حدث — مع دوارتي فرنانديس أو فرنانديث، وهو يهودي برتغالي من المدينة. يبدأ صمويل بالتوجه إلى الولايات العامة (جهاز الحكومة الهولندية)، يلتبس منها جواز مرور متجنبًا بتعقل الحديث عن سنوات إقامته في إسبانيا؛ يقدم نفسه كيهودي يرغب في ترك المغرب بسبب انعدام الأمن نظرًا للحروب الداخلية، ويريد أن يستقر في هولندا. الوثيقة، المؤرخة في ٨ من أبريل عام ١٦٠٨، تلتبس جواز المرور لكلا الأخوين، وهما يهوديان من فاس في بلاد البربر^(٢٧). الوثيقة لا تقول شيئًا، بالطبع، عن إقامتهما في إسبانيا ولا عن محاولتهما مع الإسبان. تمنحه الولايات جواز المرور. بعد ذلك بقليل ودون أن نعرف لماذا — ربما لأن الولايات أخبرت عن إقامته في إسبانيا — يسحبون منه جواز المرور ويعود صمويل إلى المغرب لكن وهو مستعد لأن يستخدم المعارف والاتصالات التي أجراها في هولندا.

طبقًا لما تشير إليه بعض المصادر، ربما وهو في طريقه بين لاهاي والمغرب سعى إلى تحقيق شيء في إيطاليا، حيث توجد دلائل في الوثائق على أن جوزيف توجه إلى حيث دوق توسكانا بينما عاد صمويل إلى المغرب^(٢٨). على أية حال، كان صمويل في المغرب في خريف عام ١٦٠٨.

يغلب على الظن أن تطوان كانت، في تلك السنوات، مقر إقامة الأخوين باياتشي. يقول العميل الهولندي في المغرب، كوي Coy، في خطاب إلى الولايات العامة مؤرخ في ١٦٠٨ إن صمويل باياتشي قبل أيام قليلة كان قد وصل من هولندا إلى ميناء صافي وتوجه إلى تطوان ليأخذ زوجته وأبناءه حيث كانوا يفكرون في الرحيل عنها إلى أمستردام. إنه في هذا الصدد يتفق مع المستند الوثائقي الذي أشرنا إليه سابقًا. لكنه خلال مرور صمويل بتطوان أجرى اتصالات مع حاكم المدينة، المقدم أحمد النفيسيس الذي كان قد أعلن قبل ذلك بشهور

استقلاله عن مولاي الشيخ، وكان يحاول عمل اتصالات مع مولاي زيدان^(٣٩). لهذا الغرض، كلف صمويل باياتشي بمهمة بالقرب من قصر مولاي زيدان، في مراكش^(٣٠). بالإضافة إلى المهمة التي كلفه بها النقيس al-Naqsis، استغل صمويل مقابلته مع السلطان ليمدح أمامه هولندا، معطيا إياه فكرة عن عظمتها وازدهارها وكذلك عن الاتصالات الجيدة التي أجراها هو، باياتشي، هناك وكم كانت تقدر له^(٣١)، لدرجة أن الشريف أرسله إلى هولندا كعميل له وكلفه بتسليم خطاب إلى أمير أورانجي. وهكذا كتب مولاي زيدان إلى ماوريتيو دي ناساو Mauricio de Nassau، في الأول من أكتوبر من عام ١٦٠٨: «معروف جيداً، على الرغم من الاختلاف في الدين، ما تجلبه السفارات إلى عظمة الإمبراطوريات... حادم بيتنا الكريم، الذي يدير بحماس مصالحنا... الذي صمويل باياتشي، سوف يصل عندكم إن شاء الله...»^(٣٢) إن الحيلة التي كان قد حاولها في إسبانيا دون جدوى قد أثمرت الآن.

بعد ذلك بقليل وصل الأخوان باياتشي وعائلتهما إلى هولندا. إن نشاط صمويل من حيث كونه عميلاً لمولاي زيدان يبدأ من فبراير من عام ١٦٠٩ حينما يلتبس من الولايات ثلاث سفن حربية لنقل قوات وأسلحة إلى المغرب؛ أرسلت الولايات سفينتين بقيادة وولفرت هيرمانسز، رحل صمويل في هذه السفينة، مع بضاعة تخص تجار من أمستردام مع التزام بإحضار المال نقداً مقابلها عند العودة^(٣٣). عند عودته في أغسطس من نفس العام، برفقة السفير حمو بن بشير Hammu ben Bashir، سيجد صمويل نفسه متورطاً في أولى قضاياها ومحاكماته الكثيرة لعدم تسليمه المبلغ الذي تعهد به وإقراره بإفلاسه.

خوسويه وموسى

بأسلوب مشابه، يصل خوسويه باياتشي (ابن جوزيف) في يوليو من عام ١٦٠٩ في بروكسل إلى منزل مركز غوادا ليستي، السفير الإسباني في فلانديس،

ويقول إنَّ عنده أخبارًا كثيرة يريد أن يزود بها جلالة الملك. يقول إنه كان فى مدريد عام ١٦٠٧ وأنه أراد أن يتحول إلى المسيحية، لكن أباه وعمه منعاه من ذلك وأخرجاه بالقوة من ميناء بايونا حيث رحلوا بحرًا حتى أمستردام، وعندما بدت لهم البلد طيبة قرروا الاستقرار فيها وترك فاس، وبهدف تحقيق هذا الانتقال عادوا، إلى تطوان فى المغرب: يخبره عن خطط المقدم النقيس للاستيلاء على سبتة ولمهاجمة العرائش مع مولاى زيدان ليسترضيه وليظهر له صدق نواياه، يذلى بأسماء يهود متصرين يعيشون فى إسبانيا والبرتغال وهولندا، وهم يهود فى السر، ويؤكد أنه يستطيع أن يشير إلى كثيرين آخرين إذا قرر الإسبان التعاقد على خدماته^(٣٤).

ليس غريبًا أن يقوم المتصرون أو الذين كانوا يريدون التصالح مع الكنيسة الكاثوليكية بالإبلاغ عن بنى جنسهم كدليل على حسن نواياهم. الحالة الأكثر بروزًا هى حالة هكتور ميندس بربابو، الذى زوّد محكمة تفتيش لشبونة بأسماء ١١٩ متهودًا برتغاليًا كانوا يعيشون فى هولندا^(٣٥). على نحو خاص يتحدث خوسويه باياتشى عن دوارتى فرنانديث، وهو تاجر مستقر فى هولندا، يبدو أنه كان قد ساعد فى استقرار العائلة. ستعود هذه الشخصية للظهور فى الوثائق مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بصمويل ويُبْلَغ عنه أيضًا شخص آخر بتهمة باتباع اليهودية^(٣٦). لا يشير ابن جوزيف باياتشى فى هذا الخطاب إلى سبب خروجه من إسبانيا (المشاكل مع محكمة التفتيش) ويحضر، هو وأخوه، كمن أخرجوا بالقوة على يد أبيهما وعمهما اللذين كانا يريدان تجنب تنصيرهما، بينما رأينا أن هذا الأب والعم كانا قد حاولا استخدام هذا التنصر للبقاء فى إسبانيا. ليست هذه هى الوثيقة الوحيدة التى لدينا التى يعلن فيها أعضاء من العائلة انفصالهم عنها، بينما فى الحقيقة كانوا دائمًا متحدين. فى هذه الحالة يبدو أن أبناء باياتشى كانوا يسعون لأن يُسمح لهم من جديد بالذهاب إلى إسبانيا، حيث تريد العائلة أن يكون لها شخص هناك، على حساب أن يظهروا كمنفصلين ومرفوضين من قبل الأب والعم، وهو ما يجب أن يعطى، فى

نظر المحكمة الإسبانية، دليلاً على الصدق وصحة التنصر. أى أنهم فى الوقت الذى يحاولون فيه أن يكونوا عملاء للمغرب فى هولندا، مازالوا يحاولون العودة إلى إسبانيا، أو على الأقل الاحتفاظ بركيزة، جزء من العائلة، فيها. هناك أكثر من ذلك، فمن القراءة المتأنية للرسالة يمكن الاستدلال على أن خوسويه كان يعمل حسب ما يُمليه عليه صمويل، حيث أنه يُصير على أن «من المناسب جداً بذل جهد حتى يأتى عمه إلى إسبانيا ويكشف عن اتفاقات سرية كبيرة»، مشيراً إلى المعاهدة التى تقوم هولندا بعقدتها مع مولاي زيدان، «إن عمه اتفق مع ولايات هولندا أنه كلما كان الملك المسلم فى حاجة إلى استغاثة من الأسطول من أجل مواجهته إسبانيا يمدونه بعدد مائة سفينة حربية، مع كل ما هو ضرورى». وأخيراً، «لكى يمكن التفاوض بشكل أفضل على قدوم عمه صمويل باياتشى إلى إسبانيا، من المناسب الإعلان عن أنه ذاهب إلى لاروتشيل حيث له تجار يعرفهم من وقت أن كان فى فاس». ربّما يُفسّر هذا التصرف تعقيب السفير الفرنسى فى مدريد حينما ينهى كلامه عن سفر الأخوين باياتشى إلى هولندا، «الذين بعد أن سافرا إلى هولندا، ذهب أحدهم من هناك إلى ملك مراكش مع ما اتفق عليه، وذهب الآخر إلى الدوق الذى أرسل من هناك أحد أبنائه الذى يمكنه أن ينهى ما تفاوضوا عليه مع سادة الولايات»، ويضيف، «إنهم يخدعون هؤلاء وأولئك من أجل الحصول على مكسب»^(٣٧).

بالنسبة لتحويل ابنى جوزيف باياتشى إلى المسيحية، فإن تحول خوسويه لا ينبغي أن يكون تحولاً صادقاً. على الأقل لم يعد إلى الحديث أبداً، طوال مسيرته، عن وضعه كمسيحي، وفى عام ١٦٤٠ كان وكيلاً لأراضى ملك المغرب فى صافى، حيث عاش فيها حتى مماته فى عام ١٦٥٦. نفس الشيء بالنسبة لموسى، الذى كان له باستمرار دور نشط جداً بجانب عمه صمويل، وفيما بعد، ك مترجم لمولاي زيدان. على العكس، فقد تعين على الابن الأكبر لجوزيف، إسحاق، التحول فيما بعد إلى البروتستانتية. سوف نعرض لذلك فى الفصل السادس. إن التنصر،

سواء احتفظ به أم لا، يبدو أنه يُشكّل جزءًا من خطط عائلة باياتشى للعيش بسين الحدود ووضع أعضاء عديدين فى نقاط مختلفة على كلا الجانبين منها. ويحاولون أيضًا عمل اتصالات فى مدن أوروبية عديدة.

فى نفس هذا الخريف من عام ١٦٠٩ الذى يتصل فيه خوسويه بمساركيز غواداليستى، كان موسى، وهو أيضًا ابن لجوزيف، موجودًا فى باريس. حصل على مقابلة مع الملك متعللاً بأنه قد خدّم الفرنسيين فى فلانديس وجاء ليحصل على مكافأة. يكتب ديكارت من مدريد فيقول أن شخصًا كان قد تحدث مع موسى فى باريس، حكى له بالإضافة إلى هذا أن أباه وعمه كانا قد سافرا إلى هولندا للتفاوض مع مجلس الدولة، ومن هناك عادا إلى جوار ملك المغرب. طبقًا لخطاب ديكارت، بعد أن عاد موسى إلى هولندا «هرب من أجل المجيء إلى هنا وكشف التفاوض» أى أنه كان قد هرب من أجل الذهاب إلى مدريد وكشف أمر التفاوض بين هولندا والمغرب. وبالتالي، هو نفس الشيء الذى كان خوسيه يعرض القيام به مع مركز غواداليستى. كان هذا التفاوض يلزم هولندا بأن تزود ملك المغرب بمائة سفينة حربية للذهاب إلى إسبانيا، حيث كانت ستحدث ثورة كبيرة^(٣٨). إنها اللحظة التى يبدأ فيها طرد الموريسكيين، وكان موريسكيو فالنسيا قد ثاروا. نحن نعرف أن هولندا لم تلتزم أبدًا بشيء كهذا، لكن إذا كان موسى باياتشى قد حكى فى مدريد ما يقوله ديكارت، فإنه بلا شك لابد أن يكون قد سبّب انطباعًا معينًا. فيما يبدو أن باياتشى ذكر فى مدريد أنه جاء دون أن يعلم أقاربه فى هولندا، لكن ديكارت لا يعرف إذا كان يمكنه تصديقه: «أنا لا أعلم هل كان الاثنان الآخران [من عائلة باياتشى] اللذان يقول هو إنهما بقيا هناك [فى هولندا] يجهلان أمر سفره كما يؤكد هو، أو أنهما يشاركانه محاولة الاستفادة من كل النواحي كما هو معتاد فيهما».

رأيًا، إذن، أنه بعد أن استقرت عائلة باياتشى فى هولندا، أجرى خوسويه وموسى على حدٍ سواء اتصالات مع إسبانيا وفرنسا على الترتيب قائلين أنهما

يفعلان ذلك فى الخفاء دون علم أبيهما جوزيف وعمهما صمويل. وكما بدا لديكارت، فإن الأمر يبدو لنا نحن أيضا صعب التصديق: إن خطة صمويل فى تحركات نجلى أخيه واضحة. كلاهما يتطوعان للإعلان عن الاتفاقيات بين المغرب وهولندا، ويعرض خوسويه بوضوح خدمات عمه على الرغم من أنه فى بداية تصريحه يقدم نفسه على أنه يعمل من خلف ظهريهما. إن الخداع والحركة وتوزيع أدوار العائلة إلى جوانب عديدة من الحدود الدينية والسياسية، يشكل جزءا من خطط بقاء كل المجموعة.

على أية حال، فمن الثابت أنه، فى نفس الوقت، لم يكن صمويل فى عداد القيادات الأكثر بروزا للجماعة اليهودية فى أمستردام فحسب، بل كان يعتبر شخصا شديد التدين، لم يكن هناك شك أبدا فى إيمانه. يتردد كثيرا أن الباياتشين ربما كانوا متصلين بإنشاء الجماعة الثانية المسماة نيفى سالوم، على الرغم من عدم وجود دليل موثق على أن ذلك كان هكذا. مع ذلك فإن المعطيات التالية تؤكد اندراجهم وعائلتهم، فى هذه المرحلة الأولى، داخل الجماعة اليهودية للمدينة.

إن أقدم سجل للوفيات للجماعات اليهودية فى أمستردام، El libro de Beth Haim do Kabal Kados de Bet Yahacob، يذكر اسم صمويل فى مناسبات عديدة، على سبيل المثال عندما يتحدث عن موقع مقبرته، وأيضا عند الإشارة إلى وصية الدفن الخاصة بأعضاء الجماعة حيث يسمونه حاخام، وهو ما يُبين أن جماعة نيفى سالوم، التى كان ينتمى إليها بلا شك، كانت تعترف له بمستوى إرشاد ديني^(٣٩). إن قيام الجماعة بشراء «نسخة من قوانين الشريعة» ربما يشير أيضا إلى ارتباط ديني بين باياتشى وهذه الجمعية الدينية^(٤٠). نحن نعرف العلاقة بين صمويل باياتشى ودوارتى فرنانديث، الذى يُعتقد أنه ساعده منذ بداية وصوله، ونعرف أيضا ارتباطه بالحاخام إسحاق أوثيل إلفاسى؛ إلا أن هذا الحاخام لن يصل إلى أمستردام حتى عام ١٦١٥^(٤١).

لكن على الرغم من أن ذلك بعيدٌ عن كل شك، لا يبدو أبدًا أن صمويل اندمج بالكامل في كل شبكات الجماعة البرتغالية في أمستردام. على مدى حياته كلها، لا يبدو أبدًا أن صمويل باياتشى عقد صفقات مع برتغاليين، وإنما مع تجار وبحارة هولنديين، وقد حصل على قروض ائتمان أيضًا من هولنديين وليس من أعضاء من «الأمة». عندما يتعين عليه استدعاء طبيب لأبنائه، يلجأ إلى جراحين هولنديين وليس إلى أعضاء من الجماعة اليهودية^(٤٢). لا شك أن العامل الذي سبب بعدًا، هذه المرة جسرًا بحثًا، بين البرتغاليين في أمستردام وصمويل هو أنه منذ عام ١٦١١ أجبرت الولايات العامة صمويل (وليس جوزيف، الذي عاش طفلة حياته في أمستردام)^(٤٣) على أن يقيم في لاهاي، حيث كان يوجد مقر الولايات العامة، حيث أن المكان الذي كان يقيم فيه العملاء الأجانب كان قريبًا من الولايات العامة. وكانت الولايات العامة تدفع إيجار مسكنه^(٤٤).

لم تكن توجد بعد في لاهاي جماعة يهودية: إن مكان إقامة صمويل وسفرياته المستمرة على حد سواء يجب وضعهما في الحسبان عند النظر إلى اندراجه في الحياة اليهودية في أمستردام.

وهناك نقطة مهمة أخرى للأخذ في الاعتبار حول حدود اندماج عائلة باياتشى في الجماعة البرتغالية وهي أنه لم يتزوج أى عضو من العائلة من أية يهودية من جماعات أمستردام^(٤٥). وأكثر من ذلك، كانت كاتيرينا أو كاتالينا لوبيث، ابنة خيرونيمو لوبيث، مخطوبة لإسحاق باياتشى، لكن بعد ذلك فُسخت الخطبة وتزوجت كاتيرينا من أبرام الفاريم. طلب إسحاق باياتشى تعويضًا عن المهر الذي كان قد دفعه لخطيبته^(٤٦).

وأخيرًا، هناك حكاية أخرى ذات مغزى وسنوليها اهتمامًا خاصًا وهي الخاصة بموضوع البلاغ الذي قدمه إسحاق باياتشى أمام السلطات الإسبانية في بروكسل ضد إنريكي غارثيس، تاجر من أمبيريس. أكد إسحاق في أمبيريس أنه على الرغم من أن غارثيس عمّد، كان يمارس اليهودية، ووسع دائرة بلاغه فتحدث

عن برتغاليين آخرين فى أمستردام عادوا إلى دين أجدادهم. صرح بأنه رأى سيمون دى ميركادو فى مقر المعبد اليهودى فى بيت غينيس لوبس، وشهرته إلياس خاكوب تيرادو، ذلك التيرادو الذى كان مؤسس أول معبد يهودى فى أمستردام.

هذا البلاغ لا يمكن أن يضع عائلة باياتشى فى علاقات طيبة جدا مع الجماعة البرتغالية، حيث أفتيد سيمون دى ميركادو، أحد أعضائها البارزين، ليحاكم فى أمبيريس، فى محاكمة أدلى فيها إسحاق نفسه بشهادته^(٤٧).

هذا البلاغ جاء انتقاما من فشل دعوى قضائية أقامها إسحاق ضد غارثيس ولم تحسم لصالحه.

قضية إسحاق

فى يوليو من عام ١٦١٠ يتقدم إسحاق باياتشى «يهودى من فاس» فى بروكسيل بشكوى ضد إنريكي غارثيث أو غارثيس، تاجر برتغالى من أوبورتو فى البرتغال، يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما ومقيم فى مدينة أمبيريس، وهو صهر وابن أخ لدوارتى فرنانديث^(٤٨). كان غارثيس، الذى كان أحد أجداد الفيلسوف باروتش إيسبينوثا، قد استقر فى أمستردام حوالى عام ١٦٠٥، لكنه ظل مبتعدا حتى نهاية حياته عن الحياة الجماعية اليهودية بحيث أنه تعين عليه أن يُختن بعد موته فى عام ١٦١٩ من أجل الحصول على تصريح بدفنه فى مدفن أودير كيرك أن دى أمستيل^(٤٩). طبقا لشهادة إسحاق، كان غارثيس على اتصال فى أمستردام بسفير بلاد البربر وبصمويل وجوزيف باياتشى، وقام هؤلاء بتسليمه مجموعة من المصوغات من أجل أن يبيعها فى أمبيريس. ينفى غارثيس الآن أى معرفة له بهذه البضائع، وهى: أربعة أرطال من العمتر فى شكل أحجار تزين من أربعين إلى ستين أوقية، وكمية من الياقوت^(٥٠)، يصل عدد القطع الكبرى منها إلى أربعين والصغرى حتى عشرين؛ وكمية من الذهب المكسور وذهب من بلاد البربر، وجواهر ماسية مع ريش للزينة وخواتم وكمية من ماسات مفككة بدون ترصيع يبلغ عيار القطع الصغرى منها من ثلاثة إلى أربعة قاراريط.

رأينا صمويل، من المعلومات الأولية التي تلقيناها عنه، يعمل في تجارة المصوغات، ونفس الشيء سيفعله ورثته من بعده. إن بيع المصوغات والماسات في القصور الأوروبية وفي القصور المسلمة كان نشاطاً يهودياً مميزاً، إن استيراد الماس الخام من الهند، وصقله وتلميعه كان يتم على نفقة التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون أيضاً في المرجان والكهرمان والياقوت. كانت أمبيريس مركزاً غاية في الأهمية لبيع وشراء الأحجار الكريمة.

في البداية ينكر إنريكي غارثيس أى علم له بهذا الأمر، لكن إسحاق يشير إلى خطابات كتبها إلى عمه صمويل، باسم مستعار هو مانويل ديث بدلاً من صمويل باياتشى^(٥١)، وبأسماء وبيانات مشفرة، وأيضاً خطابات إلى دوارتى فرنانديث يتحدث فيها عن اليواقيت.

يجرى حينئذٍ في بروكسيل تحقيق في القضية، حيث يحضر خوان منديث إنريكيث، زوج أخت وابن عم غارثيس، الذى يعمل كممثل عنه وكفيل له. يتهم إسحاق، خوان منديث بأنه يسبّه وأنه حينما قابله فى الشارع فى بروكسيل، «فى شارع عمومى ومفتوح». «قال له وهذده بهذه الطريقة» وهو يشده من ذراعه: «ياخائن، أنت كلب يهودى وحقير، يجب على أن أقتلك وأن أسدد لك ستين طعنة بيدى، إنك خائن»^(٥٢). يطالب إسحاق بالعدالة وبتعويضه. يقول أيضاً إن تاجرًا برتغاليًا آخر يدعى كريستوبال بينتو، أخبره أن إنريكي غارثيس أخطر بالشكوى وبأنهم سوف يفتشون بيته، مما أعطاه الوقت لإخراج كل الأشياء التى كانت تدينه، «ولم يترك شيئاً من تلك الثروة فى بيته، وهذه حقيقة، وكذلك الكتب والأوراق». يقول إسحاق إن غارثيس خائن لربه ولملكه، حيث أنه كان يعمل مع ملك بلاد البربر الذى يكن عداً كبيراً لملك إسبانيا، والكنيسة الكاثوليكية، مع أنه يُعرف عنه أنه مسيحى. يقول إنه بالنسبة للبرتغاليين «لا يجب النظر إليهم كجيران وكاثوليكيين حيث أنهم ليسوا كذلك إلا من أجل المصلحة والفائدة التى يحصلون عليها من هنا، وبعد ذلك يذهبون إلى هولندا حيث يمارسون كلهم ديناً آخر مع كل أبناء وطنهم أو

يدخلون فى الأماكن المخصصة لليهود فى فينيسيا، وهؤلاء هم الذين يسبون الدين . أكثر منا نحن يهود الموطن لأننا لا نعرف إلا عن ديننا ... وهم، الذين ولدوا فى الديانة المسيحية هم الذين يلعنون المسيحية كما يريدون وأكثر ... أتوسل لسموكم لكى تدافعوا عن النصرانية التى يتظاهر بها هؤلاء البرتغاليون». يؤكد أن غارثيس متزوج من امرأة (ابنة دوارتى فرنانديث) ولدت فى لشبونة وعمدت بعد بلوغها ثمانية أيام وبعد ذلك ذهبت مع أبويها إلى فينيسيا حيث اتخذوا جميعهم مهناً وأسماء يهودية. يتهم إسحاق أيضاً راهباً يدعى مارتين دل إسبيريتو سانتو، كعدو يسئبه، ويقول إنه سوف يظهر خطابات لعم لهذا الراهب، تثبت أنه كان لمدة ثلاثين عاماً رئيساً إقليمياً لرهبانية لاميسيريكورديا فى لشبونة «والىوم هو يهودى مجاهر ومتميز فى أمستردام، والرّب يعلم ما يخفيه كل واحد».

يقول خوان مينديث إنريكيث، الذى كان يتولى حماية ابن عمه، إن غارثيس ليس خائناً ولا عدواً لصاحب الجلالة الكاثوليكي «حيث أنهم كانوا أعداء للهمجيين والكافرين وخاصة لأنهم فقدوا ويفقدون كل يوم بضائع بنسب قراصنتهم»، وأن «أولئك اليهود والكفرة الهمجيين ما كانوا ليأتمنوا على صفقة ذات أهمية كبيرة، رجلاً كاثوليكياً ومسيحياً مثل إنريكي غارثيس».

تطلب السلطات شهادة العديد من التجار البرتغاليين، الذين لا يعرفون أن غارثيس كانت لديه مصنوعات للبيع، ولا أنه كانت لديه التعاملات التى يتهم بها. يتعرفون على إسحاق «ابن أحد البرابرة الذين يُدعَوْنَ فى أمستردام بالأتشيون». لا يبدو أن هناك تعاطفاً كبيراً متبادلاً بين هؤلاء اليهود البرابرة، يهود الموطن، وهؤلاء اليهود المنتصرين البرتغاليين. يُضيفون أن إسحاق «رجلٌ أو غلامٌ سيئ الإعداد جداً، غير مطيع لأبيه الذى أودعه السجن بسبب ذلك بضعة أشهر هنا، والآن خرج من السجن منذ فترة قليلة ويأتى ليثير فى الواقع هذه القضية ضد أبيه وعمه».

أحدث موضوع الخطابات مع ذلك أثره، واضطر إنريكي غارثيس للاعتراف بأنه عندما كان في أمستردام حضر لرؤية سفير بلاد البربر مع كثيرين آخرين ذهبوا بدافع الفضول (السفير المغربي وموكبه يشكلان بلا شك مشهداً غير مألوف)، وأنه عندما كان هناك، دعاه الباياتشيون للعشاء على مائدة السفير. أمضى الليلة في نفس الفندق، وفي اليوم التالي أخذ طريقه من أمستردام إلى لاهاي بصحبة صمويل. وعندما افترقا وعده أن يكتب إليه يخبره بسلامة وصوله إلى أمبيريس. هكذا فعل ذلك، من باب المجاملة، هو أمر لا يُعدّ جرماً على الرغم من أن المجاملة توجه إلى يهودى وبربرى. يبدو قليلاً جداً عندما يسألونه عن السبب الذى جعله يتوجه إلى صمويل باياتشى وكأنه مانويل دياث، وجعله يستخدم كلمات مشفرة، وكذلك فى خطاب كان يقول فيه إنه فى خدمة السفير وخدمة أبيه وسيدته دوارتى فرنانديث. ويُفسر ذلك بأنه لكونه يهودياً فى الأصل لم يُرد أن يُعرف عنه أنه كانت له علاقات مع يهود الموطن. بالنسبة لليواقيت؛ فقد أعطاهما له دوارتى فرنانديث لكى يبيعهما فى أمبيريس، ولأنه لم يحصل فى مقابلها على المبلغ الذى كان يريده فرنانديث، أعادها له. صحيح أن زوجته، بسبب خوفها، قامت بإخراج كتبه من البيت، [يقوم هو بتقديمها، لكن أوائل شهرى يونيو ويوليو لم تكن قد مرّت بعد بسلام].

تشغل المحاكمة ملفاً ضخماً، باللغتين القشتالية والبرتغالية، ويبدو أن السلطات حكمت برفض الاتهامات التى قدمها إسحاق باياتشى^(٥٣). من الصعب، بالنسبة لنا أيضاً، النظر فى موضوع شديد التعقيد. لاشك أن إنريكي غارثيس كان على اتصال بصمويل باياتشى، ومن المحتمل جداً أنه كُلف بأن يبيع له مصوغات فى أمبيريس. يقول هينين Henin أيضاً إن باياتشى، فى تلك الرحلة، كان يحمل ماسات ويواقيت للبيع. إن ما ليس سهلاً تبينه هو ما إذا كان إسحاق قدم الشكوى بناءً على طلبات من عمه أو على العكس؛ كما يقول التجار البرتغاليون، لأنه كان غاضباً منه ومن أبيه وأراد أن يفسد لهم الصفقات. يقول إسحاق فى شكواه «لقد هجرت والدائى وليس لى من ألجأ إليه سوى صاحب السمو الرفيع»، لكن هذه هى

الحيلة التي كان قد استخدمها شقيقاه خوسويه وموسى. لا نعرف إذا كانت خطة من أجل الحصول على مساعدة السلطات الإسبانية في فلانديس وما إذا كان يفعلها بناءً على طلبات من أبيه ومن عمه من أجل الدفاع عن مصالح هؤلاء أمام إنريكي غارثيس الذي كان قد استولى حقيقةً على البضائع. في تعارض مع هذا الافتراض، الذي يبدو لنا من حيث المبدأ أنه الأكثر احتمالاً، لدينا الواقعة التي أدلى فيها إنريكي غارثيس عام ١٦١٧ بشهادة لصالح صمويل بايانشي في وثيقة شرعية أكد فيها عديد من التجار أن صمويل كان قد فقد ثروته على أيدي قراصنة عندما جاء إلى هولندا لأول مرة.

على أية حال، لقد بذل إسحاق جهداً كبيراً في هذه القضية، وعندما لم تحكم المحكمة لصالحه، أبلغ — كيهودي — عن عديد من التجار البرتغاليين الذين رأهم يمارسون اليهودية في أمستردام. لكننا نعرف أيضاً أن لقاء إنريكي غارثيس مع آل بايانشي لم يكن مصادفة ولم يذهب ليراهم «بدافع الفضول» كما يشير هو في القضية. إن آل غارثيس كانوا أبناء شقيق دوارتي فرنانديث وبصفتهم هذه كانوا منذ لحظة وصولهم على اتصال بصمويل. وعليه فإن وثيقة محكمة التفتيش المحفوظة في لشبونة والمتعلقة بابن شقيق آخر لفرنانديث يُدعى باولو غارثيس Paulo Garcés، شقيق إنريكي، تعد وثيقة كاشفة.

باولو غارثيس، الذي يقول إنه يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً وأصله من أوبورتو، مثّل طوعاً أمام محكمة تفتيش لشبونة في أبريل من عام ١٦٢٠ بهدف التصالح مع الكنيسة الكاثوليكية وإعادة قبوله في كنفها. قال إنه كان في فلانديس وأضاء الرب طريقه وإنه قرر أن يتتصر ويعود إلى البرتغال، وهو ما فعله، فقد استقل سفينة من قادش، ومنها ذهب إلى إشبيلية، ومن هناك إلى لشبونة ليتمثل أمام محكمة التفتيش. هناك يحكى قصة حياته ويخضع للاستجواب: ولّد في أوبورتو، وعندما بلغ من العمر ستة سنوات أرسلته أمه مع رجلٍ هولندي إلى أمستردام لكي يتربى في اليهودية في بيت خاله دوارتي فرنانديث. بعد فترة قليلة من وصوله قام

الحاخام جوزيف باردو ليبانتيسكو أى «ليبانتينو» بإجراء الختان له فى الكنيس المسمى بيت يعقوب وأسماء أبراهام غارثيس. بعد ذلك ألحقه بالدراسة فى مكتب الحاخام جوزيف كوين (خطأ كتابى فى اسم كوهين)، تركى الجنسية، الذى تولى تثقيفه فى دين موسى باللغة الإسبانية، وعلمه العبرية. وعلى سبيل المثال، فقد تعلم مزامير داود عن طريق الحفظ بالعبرية والإسبانية. فى أمستردام تعلم — بالإضافة إلى ذلك — قراءة وكتابة اللغة البرتغالية واللغة الهولندية، وهى اللغة التى أتقنها سريعاً. عندما وصل السفير باياتشى من بلاد البربر، قام خاله دوارتى فرنانديث بوضعه بجانبه لمساعدته فى اللغة الهولندية. بالإضافة إلى ذلك «منذ تسع أو عشر سنوات»، أى، نحو عام ١٦١٠ وعندما كان باولو غلاماً يبلغ من العمر اثنى عشرة عاماً، أرسله خاله دوارتى فرنانديث إلى بلاد البربر مع سفير السلطان (الذى يسميه غارثيس جوزيف باياتشى، لكن من خلال التواريخ وما يحكيه عن المهمة يجب أن يكون صمويل)، ومكث معه حوالى شهرين أو ثلاثة فى موغادور وصافى وأغادير أو سانتا كروث، ومن هناك عاد مع باياتشى نفسه وفى نفس السفينة إلى هولندا: «لقد ذهب مع السفير المذكور من أجل أن يترجم الخطابات الهولندية إلى اللغة الإسبانية أو البرتغالية، كما فعل فى الواقع أمام مولاي زيدان، وأن الخطابات المذكورة كانت تتعلق باتفاقيات سلام وتجارة كانت ولايات فلاندرس قد أبرمتها مع السلطان». فى السفينة التى سافرا فيها حملاً معهما كميات كبيرة من البنادق والذخائر والبارود وأحضرا عند عودتهما مالا فى صورة ذهب. عندما رأى مولاي زيدان أن غارثيس كان فتى متيقظاً ومفيد جداً، عرض عليه البقاء فى قصره، لكنه لم يقبل أبداً. يروى أن نتخيل باياتشى برفقة هذا الغلام الفطن، طفل تقريباً، مترجمه الشخصى للغة الهولندية. بالإضافة إلى ذلك، ينبغى أن يكون ذلك قد حدث فى نفس الفترة التى كان إسحاق يشكو فيها إنريكي غارثيس فى بروكسيل وقال هذا الأخير إنه لم يكن له اتصال مع آل باياتشى.

سأله أعضاء محكمة التفتيش، بالطبع، ما إذا كان يعرف اللاتينية، وهو أمر كان يهمهم كثيرًا، رأيناهم أيضًا يسألونه في الحال عن آل الموسنينو، ويكرر هو «إنه لا يعرف اللاتينية، لكنه يتحدث الهولندية جيدًا ويتحدث بشكل أفضل بالمناسبة اللغة البرتغالية وأنه يعرف أيضًا أن يقرأ ويكتب البرتغالية وأنه تعلمها في فلاندرس في مكتب خاله دوارتي فرنانديث، وأنه يعرف أيضًا أن يتحدث الفرنسية والإنجليزية» ويسرد المرات التي كان فيها بغرض إنجاز أعمال في لندن وفي هامبورج. يصف أيضًا بالتفصيل كيف ومتى كان يصلي في الكنيس عندما كان صبيًا وماذا كان يرتدى من أجل ذلك، وأي مناسبات صوم كان يحافظ عليها، وماذا كان يأكل، وأي أعياد كان يحافظ عليها، إلخ. لكنه بوجه خاص، يدلي بأسماء تسعين يهوديًا برتغاليًا من أمستردام بأسمائهم وأسماء زوجاتهم وأبنائهم، وعلاقات القرابة بينهم ووظائفهم. وهي أسماء معروفة جيدًا: أوسوريو، الباريت ميو، إيستيبينس، غوميس دي أكوستا، مونتالتو... صفحات وصفحات من الوثيقة التابعة لمحكمة التفتيش. يتحدث عن أخيه الأكبر لويس غارثيس، المتزوج من غراثيا إنريكيس. لا نستطيع أن نوضح إن كان هذا هو نفس الشخص المدعو إنريكيس غارثيس، الخاص بقضية إسحاق، الذي كان متزوجًا من فتاة من عائلة أنريكس، أو أن الأمر يتعلق بشقيقتين مختلفتين.

إنها ليست بالوثيقة التي تختلف إلى حد كبير عن الوثيقة التي تتناول اتصال خوسويه بمركز غواداليمتي، وهي الوثيقة التي تكلمنا عنها في العنوان السابق. وكما حدث فيما يتعلق بقضية إسحاق، هنا أيضًا يستحيل علينا التمييز بين الخداع والنية السليمة. كذلك ليس من السهل معرفة - في حالة أن تكون خطة بحتة موجهة للمنفعة الشخصية أو العائلية (وهو الافتراض الذي نميل إليه) - إلى أي درجة كانت تضر جماعة أمستردام بالبلاغات. ربما احتاج دوارتي فرنانديث إلى عميل في لشبونة، ورغم كل ذلك، ماذا يمكن أن يعود بالضرر على يهود أمستردام هؤلاء أن محكمة التفتيش البرتغالية، التي هم بعيدون عن سيطرتها، تعرف أسماءهم؟ ربّما، - كما نظن - أن البلاغ كان أقل من حيث التأثير، و«الخيانة» أقل خطورة

مما تبدو لنا الآن. على أية حال، لاشك أنها كانت مُدبّرة ومدرّسة بعناية على الرغم من أنها تفلت منا الآن. إنها تحركات معقدة أكثر من اللازم ومتعرجة، حركات تتلوى في شكل حلزوني كثير الزخارف، وكان ذلك بهدف أن لا نستطيع تمييز ما هو الموجود حقيقةً في الخلف.

لكن على الرغم من العلاقة بدوارتي فرنانديث وبأبناء أخته غارثيس (أو ربما بالتحديد بسبب هذه العلاقة^(٢)) لا يبدو من حيث المبدأ أن الباياتشيين من حيث أنهم «يهود برابرة» استطاعوا بسهولة أن يتعايشوا مع اليهود المتصرين البرتغاليين، الذين كانت لهم شبكات قرابة وتجارة وثيقة جداً. كانت هناك شكوك واختلافات متعددة يمكن أن تنشأ بينهم. لا صمويل ولا ورثته كانوا أعضاء في العائلات الكبيرة لتجار وأصحاب أعمال «الأمة».

في أوائل عام ١٦٠٩ يشير خطاب - موجه من مولاي زيدان إلى الولايات العامة - إلى صمويل باياتشي على أنه «خادمنا وعمالنا»^(٥٥)، نفس هذا الخطاب يصف حمو بن بشير بكلمة «سفير»^(٥٦)، وباياتشي هو مترجمه الشفوي؛ في خطاب بتاريخ ٧ أكتوبر ١٦٠٩ يُعلن رالف وينوود Ralph Winwood؛ عميل إنجلترا في هولندا، عن وصول السفير المغربي، حمو بن بشير، بصحبة «مترجم، يُدعى جيو، يتعامل باللغة الإسبانية»^(٥٧). كلاهما كانا مكلفين بإبرام اتفاق تجاري مع هولندا وهو اتفاق وقع في أواخر عام ١٦٠٩^(٥٨). إن حرية التجارة والتعاون العسكري ضد إسبانيا، الذي كان يندرج فيه الموريسكيون كجانب مستفيد^(٥٩) كانت هي النقاط الرئيسية. يظهر توقيع باياتشي في هذا الاتفاق بجوار توقيع أحمد بن عبدالله، السفير الجديد الذي جاء ليحل محل ابن بشير.

ترأس البعثة السعدية الثانية إلى هولندا القائد أحمد بن عبدالله الحايثي الماروني، الذي تسميه الوثائق الإسبانية أحمد الحايثيا بيسكايانو: كان بلاشك مسيحياً أسلم ومن أصل إسباني، من المحتمل أنه كان من مارون، في كانتابريا^(٦٠). وصلت البعثة إلى هولندا في يونيو من عام ١٦١٠ ورحلت، بعد أن وقعت معاهدة صداقة

وتعاون متبادل، في يناير من عام ١٦١١. رُبما حدث ذلك في هذه الرحلة التي سافر فيها باولو غارثيس. يبدو أن باياتشي كان قد لعب دوراً مهماً جداً في هذه البعثة الثانية على الرغم من أن الوثائق توضح أن القائد كان هو السفير وأن باياتشي كان عميلاً ومترجماً للسلطان^(٦١).

لاشك أنه في بعثة يونيو هذه من عام ١٦١٠ حدث أن ذهب إنريكي غارثيس لزيارة كل من السفير وباياتشي. بعد توقيع اتفاق عام ١٦١٠ تلقى صمويل، بقرار من الولايات العامة، سلسلة ذهبية وميدالية من الذهب وستمائة فلورين. كذلك تلقى موسى، ابن جوزيف، الذي كان يعمل مترجماً للبعثة، ميدالية ذهبية. ربما نستطيع أن نكون فكرة متعلقة بأهميته عن طريق الاختلاف بين الهدايا: كانت الميدالية التي منحت لصمويل تزن ١٧ أوقية والتي منحت للسفير ٤١ أوقية^(٦٢). بعد ذلك مباشرة حصل صمويل على إذن بالرحيل إلى المغرب مع أحمد بن عبدالله من أجل أن يُصدق مولاي زيدان على الاتفاقية. أثناء غيابه، الذي استغرق عاماً، عمل أخوه جوزيف كنائب عنه، وهو ما كان يتعين عليه أن يفعل في كل مرة يكون فيها صمويل على سفر.

يُدلى خورخي دي هينين Jorge de Henin، الجاسوس الإسباني في قصر مولاي زيدان في تلك السنوات، بمعلومات مهمة جداً عن وصول السفير المغربي إلى هولندا وعن صمويل باياتشي «خادم للولايات ولمولاي زيدان»، «الذي كان يتولى أمر المراسلات بين الولايات ومولاي زيدان»^(٦٣) كان صمويل قد كُلف في هولندا ببيع ماسات ويواقيت للسلطان (هل تكون تلك القطع خاصة بالنزاع القضائي مع إنريكي غارثيس؟)، وإحضار مال وأسلحة. صمويل باياتشي، «بصحبة موريسكيين من المبعدين من إسبانيا، قالوا إنه بثمانية سفن وبألفي جندي مسلحين بالبنادق — سيقومون هم بالبحث عنهم في سواحلهم — يمكن تنظيم غارات على ساحل مالقة حيث أنه من المؤكد أنهم سوف يمسون بأسرى كثيرين وبثروة»^(٦٤) يجب على مولاي زيدان أن يجعل الهولنديين يعطونه السفن و، في المقابل، يقوم

الموريسكيون وباياتشى بتسليمه رُبع الغنيمة التى يستولون عليها. يبدو للسلطان أنها فكرة جيدة، لكن خورخى دى هينين، الذى له اتصال بالسلطانة أم زيدان، يستطيع أن يجعلها تثنى ابنها عن ارتكاب مثل هذه المغامرة^(٦٥). لكنها تعد أول بادرة على أن باياتشى - إلى جانب بيع المصوغات، والقيام على أمر المراسلات الدبلوماسية والتجسس - قرر أن يعمل فى مجال القرصنة. مهمّ جدا أيضا هذا التحالف بين أعضاء الأقليات ذات الديانات المختلفة (وهو تحالف نادرا ما حدث أثناء وجودهم فى إسبانيا) كانت توحدهم مصالح مشتركة، بالإضافة إلى كراهية لاشك فيها تجاه إسبانيا التى كان بوسعهم الاستفادة منها. الوثائق المحفوظة والمتعلقة بالغنائم وافتداء الأسرى، التى وقعت فى تطوان فى هذه العقود الأولى من القرن السابع عشر، تبين نفس هذا التعاون بين موريسكيين ويهود^(٦٦).

ليس هذا هو الخبر الوحيد عن اتصالات لموريسكيين بمولاي زيدان. فى نفس تلك التواريخ، فى أبريل من عام ١٦١١، يصل إلى كابريرا دى كوردوبا خبر «أن بعض الموريسكيين كانوا قد عبروا إلى إفريقيا مع مجموعة من الموريسكيين وتوجهوا إلى الملك مولاي زيدان يُعرضون عليه ٦٠.٠٠٠ رجل مسلح فى إسبانيا ومالا كثيرا وأنه كان موجود هناك سفراء آخرين من الجزر عرضوا عليه السفن التى يريدونها حتى لو كان ذلك من أجل عمل جسر وعبور مضيق جبل طارق»، لكن «مولاي زيدان سخر من بعثة الموريسكيين»^(٦٧).

أنشطة تجارية ودبلوماسية ١٦١١ - ١٦١٤

تبدأ الآن أروع سنوات صمويل التى يقوم فيها بنشاط تجارى ودبلوماسى وعسكرى مكثف. فى مجال التجارة تخصص فى التعامل مع المغرب بالتعاون مع شركائه الهولنديين الذين كان من بينهم تجار بارزون مثل جان جانز دى جونجى وسيمون ويليمسز نوومس. يُثبت خطاب احتجاج من الولايات العامة أنه من الناحية العملية، كان صمويل يتمتع باحتكار التجارة المغربية مع هولندا^(٦٨). كانت هذه

التجارة تتألف أساسًا من صادرات السكر المغربي لأوروبا ومن حمل مؤن وعتاد حربي إلى المغرب.

خلال السنوات اللاحقة مباشرة على تعيينه عميلًا في هولندا، قام باياتشى بنشاط مكثف جدا. إن المجلدين السميكين من مصنف المجموعة الوثائقية «المصادر غير المنشورة عن تاريخ المراكش (SIHM)» المخصصة لهولندا، ممثلان بوثائق متعلقة بعائلة باياتشى وتدل على قدراتهم التجارية والدبلوماسية على حد سواء.

خلال تلك السنوات قام صمويل بعمل خمس سفريات على الأقل إلى المغرب، في أعوام ١٦٠٩، ١٦١١، ١٦١٠، ١٦١٢-١٣، ١٦١٤-١٥، وقام أيضًا في عام ١٦١١ بالسفر إلى بليماوس، لأسباب تجارية^(٦٩). كان جوزيف هو نائب صمويل حينما يكون الأخير مسافرًا، لكن جوزيف وموسى على حد سواء قاما بعدة سفريات إلى إنجلترا، وبسفريات عديدة داخل هولندا: كانا يتحركان بين لاهاي وأمستردام، ويذهبان إلى روتردام وإلى فليسبنجى وبشكل خاص ومستغر، إلى ميدلبورج، حيث حاولا أيضًا أن يحصلوا على إعفاء من رسوم الدخل على البضائع المستوردة، حيث أنهما كانا «سفيرين»^(٧٠).

تولى صمويل أيضًا إجراء اتصالات دبلوماسية مع إنجلترا. سافر مع السفير المغربي ومع العميل الإنجليزي جون هاريسون إلى إنجلترا من أجل تسليم خطاب من مولاي زيدان إلى جاكوبو الأول Jacobo I، في عام ١٦١١^(٧١). خلال هذا السفر كسب صمويل ثقة وصداقة هاريسون. لكن الشريف لم يف بالتزاماته مع الإنجليز. حينما أسير بعض ركاب سفينة غارقة ممن يحملون الجنسية الإنجليزية، وكانت الأمواج قد قذفت بهم إلى الساحل المغربي، كلف جون هاريسون مرة أخرى بالسفر في مهمة إلى القصر المراكشي، وبمقتضى علاقته الطيبة بصمويل، قرر أن يبدأ رحلته بالذهاب إلى لاهاي بحثًا عنه. هناك تعيّن عليه أن ينتظر باياتشى خلال ما يقرب من ثمانية أشهر قبل أن يستقل معه السفينة في شهر أبريل

من عام ١٦١٤. وصلا إلى صافى فى أواخر شهر مايو، بينما كان موضوع المعمورة على أشده، وهو ما سوف نعرض له فى الفصل التالى.

كان لهاريسون دوراً مهماً وعلاقة وطيدة مع المغرب، وهو البلد الذى سافر إليه ثمانية مرات بين عامى ١٦١٠ و ١٦٣٢، فى مرتين منها كان بصحبة صمويل. من خلال صمويل أقام هاريسون اتصالاً وثيقاً مع يهود (يقول إنه كان يدرس العبرية فى صافى مع شخص يُدعى «رابى شيميون») ومع موريسكيين، إلى حد أنه، وهو فى المغرب، كتب فى عام ١٦١٠ مقالاً ذا جدل دينى ضد اليهودية قام بنشره بعد ذلك، فى أمستردام، فى عام ١٦١٢^(٧٢). كانت له أيضاً علاقات وثيقة جداً مع موريسكيين فى تطوان وفى سالى على حد سواء. كان يشعر بتعاطف كبير نحوهم إلى حد أنه تحول إلى عميل ومتحدث باسم هذه المجموعة. ربما أثاروا فيه، كما فى حالة اليهود، حميته التبشيرية حيث تخصص وهو فى تطوان فى أن يشرح للموريسكيين علوّ قدر البروتستانتية على الكاثوليكية. حاول دون جدوى أن يجعل ملك إنجلترا يوقع معاهدة مع الجمهورية الموريسكية فى سالى، غير أن تشارلز الأول رفض أن يعتبرهم كحكومة مستقلة؛ بل اعتبرهم كمجموعة من القراصنة متمردين على ملكهم.

عندما نشبت الحرب بين إسبانيا وإنجلترا فى عام ١٦٢٥، وكانت إنجلترا تعدّ حملة ضد قádiz، عرض هاريسون أن يجهز جيشاً من الموريسكيين الذين سيتعاونون مع إنجلترا. قبل تشارلز الأول الفكرة وقام هاريسون بعمل رحلة أخرى إلى تطوان حيث أُستقبل الاقتراح استقبالاً طيباً جداً حتى أن الموريسكيين عرضوا، علاوة على ذلك، أن يحاربوا ضد سواحلهم هم. فشلت كل هذه الخطط مع الهزيمة الإنجليزية فى شهر نوفمبر من نفس عام ١٦٢٥، بيد أن هاريسون كتب «تقريراً» مُسهباً يصف فيه بالتفصيل عمله مع الموريسكيين^(٧٣).

خلال هذه السنوات من ١٦٠٩ إلى ١٦١٤ كان للباياتشين نزاعات قضائية متعددة مع أفراد وطواقم السفن الهولنديين. أحياناً يتهمهم البحارة بعدم دفع رواتبهم،

وفي مرات أخرى يطالبون بتعويضات^(٧٤). في بعض المناسبات يكون الباياتشيون هم الذين يشكون أفراد أطلقهم بسبب التمرد، أو لأنهم استولوا على جزء من شحنة السكر التي جلبوها من المغرب^(٧٥).

لا يكف الباياتشيون عن اللجوء إلى الولايات العامة من أجل الحصول على إعفاء من الضرائب، لكي يفرجوا عن شحنات لهم كانت قد أحتجزت في ميدلبورج^(٧٦)، أو لتقديم احتجاجات إذا تعرض أحد أفراد العائلة لمعاملة سيئة، كما في حالة موسى في هلسنكي، عندما ذهب ليسترد شحنات من السكر^(٧٧). يعلن صمويل نفسه «شخصية عامة وسفيراً لصاحب الجلالة الإمبراطورية في هولندا»، ويحمي نفسه أمام استدعاءات وشكاوى عديدة^(٧٨).

صمويل وجوزيف على حد سواء يطلبان ويحصلان على تصاريح من أجل إرسال عتاد حربي إلى المغرب^(٧٩). يطلبان أيضاً بلا توقف قروضاً ودفعات مالية من الولايات العامة ومن إمارة البحر في روتردام من أجل استئجار وتجهيز سفن، ومن أجل تسجيل أطقم. هذه المؤسسة الأخيرة أقرضت صمويل وجوزيف حتى ٢٠,٠٠٠ فلورين، بمساندة شخصية من الأمير ماوريتيوس دي أورانج، الذي كان يحمي صمويل علانية وكان يعمل كوسيط، عندما يكون ذلك ضرورياً، بين صمويل والولايات^(٨٠). كانت السفن والأطقم مصدراً دائماً للمشكلات والنزاعات القضائية؛ أطول القضايا وأكثرها تكلفة يبدو أنها كانت مع شخص فرنسي يدعى جان لو كومت الذي اعترض سفينة لصمويل واستولى على البضاعة بحجة أنها كانت عبارة عن عتاد حربي^(٨١). تعين علي مولاي زيدان أن يدفع مئة أجنل استرداد البضاعة وبعث بشكوى إلى الولايات العامة. في عام ١٦١٢ كان جاكوب جانس يتولى قيادة السفينة التي وضعتها الولايات العامة تحت تصرف باياتشي. هذه السفينة استولى عليها الإسبان وأنفق جانس، وبعد ذلك أرملته، على دعوى طويلة ضد باياتشي لتحديد من الذي يدفع الخسائر والتعويضات.

كل هذه الوثائق الوفيرة تقدم صمويل كقائد للعائلة، يستند بصفة أساسية على أخيه جوزيف وابن أخيه موسى، ويبدل نشاطاً تجارياً غير عادي، سواء من حيث الكثافة أو من حيث المخاطر التي تكتنفه، ويتولى الدعاوى القضائية المستمرة، والمجازفة بالرهانات الخطيرة الاقتصادية والشخصية على حد سواء، حيث أن صمويل كان يسافر كثيراً على هذه السفن المخصصة لنشاط مربح جداً وملئ بالأخطار. كان السفر بالسفن قاسياً بقدر ما كان خطيراً، والطريق من أمستردام إلى المغرب، الذي لم يكن يُقطع في أقل من خمسين يوماً، كان مليئاً بالقرصنة من مختلف الجنسيات وكذلك بسفن من أساطيل لدول شتى في حالة حرب. هكذا لم يكن ذلك عملاً سهلاً ولا مربحاً. إن صمويل يبدو كممثل تقليدي لعصر التجارة، رجل يراهن بقوة حتى بما لا يملك، ولا يدع فرصة تمر، يسافر أو يحطم الشرعية، ولا يتراجع أمام أي نزاع قضائي. إن التجارة الشرعية، والتهريب، والقرصنة تتحول إلى أنشطة من الصعب تحديدها. وفي نفس الوقت كان يعمل من أجل مصالح مولاى زيدان.

أحد الأعمال الأولى لصمويل بباياتشى لصالح السلطان كان، كما قلنا، طلبه من الولايات العامة بأن تزوده بثلاث سفن حربية لنقل جنود زيدان إلى تطوان لمساعدة حاكم هذه المدينة، النقيسين، حليف زيدان، في حربه ضد شقيق زيدان، مولاى الشيخ، الذي كان ينافسه على العرش^(٨٢).

في شهر يوليو من عام ١٦١٠ طلب أحمد بن عبدالله وصمويل بباياتشى من جديد، باسم مولاى زيدان، تصنيع أربعة سفن حربية^(٨٣). أعطت الولايات الترخيص في ٢٧ من ديسمبر من عام ١٦١٠: تم إرسال ثلاثة سفن بقيادة الرائد ريسبرجن والنقيب رويست وكوبندراير، لتكون في خدمة سلطان المغرب^(٨٤). السفينتان اللتان كانتا تُقلان على متنها أحمد بن عبدالله وبباياتشى، وصلتا إلى الميناء في الثالث والعشرين من شهر مايو التالي، وفقاً لما يحكيه خورخي دي هينين: « في تلك الأيام وصل إلى ميناء صافى القائد هاميتى بيسكاينو الذى أوفده

مولاي زيدان سفيراً في هولندا، وقد أحضر ثلاثة سفن حربية كان قد اشترها في هولندا لخدمة مولاي زيدان. جاء برفقته مارتين رايسبيرجين سفيراً عن الولايات وقائداً أعلى لتلك السفن، وجاء أيضاً صمويل باياتشى، الذى كان يتولى هذه المراسلات بين مولاي زيدان والولايات. أحضروا ألف رمح وألف سيف وستمائة بندقية وهدية من الأسلحة من طرف الكونت ماوريثيو، وبعد أن قدم مارتين دى رايسبيرجين الرسالة، أمره مولاي زيدان أن يقوم برحلة بسفنه إلى ساحل إسبانيا للبحث عن غنيمة كبيرة من السفن الإسبانية، وبعد ذلك صرفه وبرفقته صمويل باياتشى. خُيل إلى مولاي زيدان أنه سيكون في وقت وجيز صاحب سفن كثيرة وأن العالم سيكون ضئيلاً أمام فتوحاته. إلى هذا الحد ملأوا رأيه بالأوهام. أمر بعد ذلك بإعلان الحرب ضد الإسبان»^(٨٥). يتابع هينين ما حدث بعد ذلك، بهذه الكلمات «في تلك الأيام وصل مارتين دى رايسبيرجين إلى ميناء صافي بسفن مولاي زيدان، غنموا سفينتين فرنسيتين وهما شيء قليل الأهمية، ذهبوا من صافي إلى موغادور لتهينة السفن، جاءت سفن إسبانيا وقذفت بها إلى القاع، مارتين رايسبيرجين فقط فرّ هارباً عائداً إلى سانتا كروث ومن هناك ذهب إلى هولندا. الذين كانوا على متن السفن نجوا برا وجاءوا إلى المغرب، أخذ مولاي زيدان الفرنسيين أسرى وأرسل الهولنديين إلى سالى، نزلوا إلى سفينة كانت لمولاي زيدان هناك وذهبوا إلى أراضيه»^(٨٦).

تقرير هينين تؤكد وثائق سيمانكاس: بين الغنائم التى تم تحصيلها في هذه المعركة عثر الإسبان على وثائق مهمة باللغة العربية والهولندية موقعة من قبل باياتشى والسفير تُثبت أن الهدف الأساسى لهذه القافلة كان مهاجمة سفن إسبانية^(٨٧). من الواضح أن السلطات الهولندية كانت مستعدة للقفز على البند المعمول به في هدنة الاتنى عشر عاماً الذى كان يشترط على الهولنديين ألا يهاجموا سفناً إسبانية أو أنهم تجنبوا الهدنة بوضع سفنهم في خدمة المغاربة. لم يفكر التاج الإسباني أن يبقى مكتوف الذراعين في انتظاراً إن ينشئ الهولنديون.

أسطولاً للمغاربة، كما أصبح واضحاً من خطاب ت. رودنبورتش T. Rodenburch إلى الولايات العامة بتاريخ ٢٩ من أبريل من عام ١٦١١^(٨٨). في نفس الوقت وجد صمويل نفسه متورطاً في موضوع بضائع استولى عليها قراصنة مغاربة من سفن مسيحية كان زيدان يعتبرها كملك له. اشترى صمويل المراكب وأخذها إلى هولندا، لكنها صودرت هناك. كان هناك نزاع قضائي نشأ واستغرق زمناً طويلاً لكنه انتهى برضا كل الأطراف^(٨٩).

إن هذين المثالين يبينان المجالات الأساسية لعائلة باياتشي كممثلين للمغرب. إن السفراء والعملاء الدائمين على حد سواء تعودوا أن ينشغلوا بالموضوعات التجارية وكانوا يضمنون بصفة شخصية مديونيات عاهلهم. كان الأمير ماوريتيو دي ناستاو صديقاً شخصياً لصمويل، وسأله عندما حاول تجار هولنديون أن يتدخلوا في تجارة بلده مع المغرب.

ابن أبي محلي

لم يكن ضحايا الوضع في داخل المغرب (المجاعات، التفكك الداخلي، الحروب الأهلية المستمرة) من اليهود فقط. نتيجة لهذا الوضع كان هناك حركة دينية نشأت على الحدود مع الصحراء جنوب شرقي البلد.

نحو عام ١٦١٠ كانت هناك شخصية دينية عبارة عن زاهد أو مصلح متزمت يدعى ابن أبي محلي، تمرد مع مجموعة من مؤيديه الذين كانوا واثقين من أنه كان المهدي المنتظر، ذلك الذي سوف يأتي في آخر الزمان ليعيد مملكة العدل على الأرض والنقاء الأصلي للإسلام الضائع بسبب الحرب والفساد^(٩٠). فتح ابن أبي محلي مدينة سيلماسا Siyilmasa وطرد حاكم مولاي زيدان، وتزايد أتباعه، فشرع في الزحف على مراكش. أصبح وضع السلطان مزعزعا حتى أنه اضطر للتخلي عن عاصمته، ولجأ إلى ميناء صافي، ربما كان يفكر في الهروب من صافي إلى هولندا^(٩١). في شهر فبراير من عام ١٦١٢ كتب السلطان نفسه خطاباً

إلى صمويل باياتشى يطلب منه أن يأتى فى أسرع وقت ممكن لمساعدته ومعه سفينتان وألف رجل^(٩٢). دخل ابن أبى مَحَلَّى مراكش فى العشرين من شهر مايو من عام ١٦١٢ وأعلن نفسه سلطاناً. وقد اعترفت به كل المنطقة الجنوبية من المغرب كسلطان.

أصبح موقف مولاي زيدان ميئوساً منه. بدأ حلفاؤه، وبشكل خاص هولندا، يشكون فى أمر انتصاره على ابن أبى مَحَلَّى أو فى قدرته على استرداد السلطة، وبالتالي بدأوا يظهرون تحفظاً فى تعاملاتهم مع السلطان وفى عروضهم للمساعدة^(٩٣).

بدت هذه الشكوك وقد غدتها تقارير، فى صالح ابن أبى مَحَلَّى بدرجة كبيرة، لتاجر هولندى يُدعى باول فان ليبيلو Paul Van Lippeloo^(٩٤).

هذا الشخص المدعو باول فان ليبيلو، الذى كان يُمثّل فى المغرب مصالح تجار أمستردام، كانت له فى الماضى نزاعات مع كل من براهم بن وايز Brahim ben Ways ومع خودا ليفى Juda Levy، وهما عفايلان يهوديان وتاجران للسلطان^(٩٥). بسبب هذه النزاعات وبسبب قضايا تجارية ألقى القبض عليه فى أمستردام فى عام ١٦٠٩ بناءً على طلب حمو بن بشير وصمويل باياتشى^(٩٦). سواءً لهذا السبب أو لغيره، كان فان ليبيلو يُكنّ دائماً العداء لباياتشى.

فى شهر يوليو من عام ١٦١٢ ذهب فان ليبيلو، برفقة تجار مسيحيين آخرين، ليلتقوا مع «الملك الجديد». من الواضح أنهم أصبحوا كلهم متأثرين جداً بشخصية ابن أبى مَحَلَّى وكذلك بوعوده بأنه لن يُغَيَّر أبداً يهوداً فى مناصب رفيعة، بل إنه سوف يتخذ تدابير ضدهم، وكتب فان ليبيلو إلى الولايات يوصى بإقامة علاقات معه ويتكهن بأنه سيكون هو من يستحوذ فى النهاية على السلطة فى المغرب بشكل حاسم.

هناك نص إنجليزي مؤرخ في شهر سبتمبر من عام ١٦١٢ ذو مضمون مشابه، يقدم تقريراً مشابهاً جداً لتقرير فان ليبيلو، وهو تقرير كتبه تاجر إنجليزي يحتمل أنه كان ضمن فريق التجار المسيحيين الذي ذهب لرؤية العاهل الجديد^(٩٧).

في نوع من حملة دعائية مضادة، كتب موسى باياتشي في الحال، باللغة الهولندية، «القصة الحقيقية لما حدث في بلاد البربر» كان هدف المكتوب الذي طُبِع في روتردام في عام ١٦١٤^(٩٨)، هو الدفاع عن قانونية وشرعية مولاي زيدان ووجوب استمرار تقديم الدعم له من قبل الولايات العامة. يقدم ابن أبي مَحَلّي كرجل ثرثار بلا تردد يستغل سذاجة الغوغاء ويقول إن احتمال قدرته على البقاء في السلطة معدوماً.

من الضروري أن نضع في ذهننا هذا المكتوب لأنه دليل على ولاء الباياتشين لمولاي زيدان، وعلى أنهم كانوا ملتزمين بطاعته، وهو أمر يجب علينا أن نأخذه في الاعتبار عندما نعرض لموضوع المعمورة، لاحقاً.

في شهر نوفمبر من عام ١٦١٣ استطاع المؤيدون لمولاي زيدان ترأسهم شخصية دينية أخرى، سيدي يحيى، قتل ابن أبي مَحَلّي خلال معركة. قام مولاي زيدان في الحال بإدخال باول فان ليبيلو في السجن بتهمة الخيانة ولأنه كان مؤيداً لابن أبي مَحَلّي^(٩٩). يشرح السلطان للولايات أن فان ليبيلو مسجون لأنه خرج عن دوره كتاجر ولأنه أقحم نفسه «في أمور لخدمة القديس الملعون»^(١٠٠). كان يعلم، عن طريق الباياتشين لاشك، بأمر التقارير التي أرسلها التاجر إلى هولندا عن ابن أبي مَحَلّي. من جانبه اتهم فان ليبيلو، باياتشي في خطاب إلى الولايات بأنه كان المسبب لمأساته^(١٠١).

موضوع كاستيلان وكتب السلطان

وضعت انتصارات ابن أبي مَحَلّي، مولاي زيدان في وضع صعب، لدرجة أنه اضطر إلى التخلي عن صافى واللجوء إلى سوس في الجنوب. لذلك، ففي شهر

يونيو من عام ١٦١٢، استأجر من أجل نقل أملاكه الثمينة سفينة القبطان البروفينسالى جان فيليب دى كاستيلان، الذى جاء إلى المغرب حاملاً خطابات من لويس الثالث عشر ملك فرنسا ومن دوق جويز. كان بدرجة قنصل^(١٠٢)؛ لكنه توصل إلى تأسيس معاهدة تحالف مع مولاي زيدان تضمنت أيضاً الأتراك. لاشك أنه بهذه الطريقة تجاوز نطاق اختصاصاته، لكن من المحتمل أنه اعتمد على نجاحه لى يبرر فيما بعد ما فعله أمام الملك. (نرى أن هذا كان سلوكاً لا يقتصر على بياتشى). بمقتضى معاهدة التحالف هذه، أفرج مولاي زيدان عن كل الأسرى الفرنسيين الذين كانوا فى بلاده والتمس مساعدة الفرنسي فى وضع أملاكه الشخصية بأمان.

عهد مولاي زيدان، إنز، بأملكه إلى كاستيلان، الذى كان يجب عليه أن يحملها بحراً ويلتقى بالسلطان، الذى سافر برّاً، فى سانتا كروث دى كابو دى جوى (أغادير). لكن كاستيلان، بدلاً من أن يتوجه إلى الجنوب، سلك طريق فرنسا ومعه أملاك السلطان؛ لم يصل بعيداً جداً. فى محاذاة ميناء سلا تقابل مع سفن بدرو دى لارا، نائب القائد الأعلى فاخاردو الذى أسر سفينة كاستيلان وأخذ الغنيمة إلى إسبانيا.

كان الجزء الأكبر من هذه الغنيمة يشتمل على المكتبة الخاصة بالسلطان، وهى عبارة عن أربعة آلاف كتاب قام بجمعها أبوه السلطان أحمد المنصور. كانت الكتب تتناول الطب والفلسفة والنحو والقانون والسياسة وجزء كبير منها كان مكتوباً بخط جميل ومزخرفاً بالألوان الساطعة. فى شهر مارس من عام ١٦١٤ اطلب خوان دى بيرالتا، رئيس دير الإسكوريال أن يعيره الكتب على سبيل الوديعة لمكتبة الدير، وبعد أن استشار فيليبى الثالث القسيس الذى يعترف أمامه عما إذا كانت هذه الكتب تشكل اعتداءً ضد الدين، وهبها إلى مكتبة الإسكوريال. لازالت محفوظة هناك حتى يومنا هذا، وتشكل فى الوقت الحالى واحدة من أهم مجموعات المخطوطات العربية فى أوروبا كلها، حتى على الرغم من أن حريقاً أتى على جزء كبير من مكتبة الإسكوريال فى عام ١٦٧١^(١٠٤).

هذا الاعتداء من جانب كاستيلان سبب استياءً شديداً لمولاي زيدان، الذي حمل ملك فرنسا مسؤولية ما حدث، وأفسد ذلك العلاقات فرنسا مع المغرب لزمّن طويل.

بالنسبة لمولاي زيدان كانت كُتُبُه تُهْمُه كثيراً جداً، وبذل كل جهد ممكن، حتى مماته، من أجل استعادتها. من أجل ذلك لجأ، في المقام الأول، إلى حليفه الأوروبي الرئيسي، هولندا، وفيما بعد سيلجأ إلى إنجلترا من خلال جون هاريسون^(١٠٥).

في أغسطس من عام ١٦١٢ مثّل أمام جمعية الولايات العامة القائد أحمد الغزالي برفقة طواشي للسلطان، وصمويل وموسى باياتشي. قُدم الغزالي خطاباً من السلطان^(١٠٦) يشرح ما حدث ويطلب مساعدة ومساندة للسفير الغزالي أمام فرنسا؛ كان السلطان يريد أن تعطى الولايات للقائد خطابات توصية وأن تضع سفير هولندا في باريس تحت تصرفه^(١٠٧). هكذا فعلت الولايات، التي أوصلت فرانسوا فان إيرسين، سفيرها في فرنسا، بالاعتناء بالمغربي^(١٠٨)، وكتبت إلى لويس الثالث عشر، وجعلت موسى باياتشي يرافق الغزالي كمرّجم^(١٠٩).

بعد ذلك بعام، في أغسطس من عام ١٦١٣، عاد الغزالي إلى المغرب. كانت مهمته قد فشلت: ممتلكات السلطان لم تكن في حوزة فرنسا ولم يقبل الملك أن يدفع أية تعويضات. طلب السلطان عودة سفيره^(١١٠) وكتبت الولايات العامة إلى ماريا دي ميديثيس ترحبها أن تتشفع عند ملك إسبانيا من أجل إعادة أملاك مولاي زيدان^(١١١). بدأت سلسلة طويلة من الجهود الدبلوماسية مع إسبانيا والتي سوف تمتد طوال كل القرن السابع عشر والثامن عشر. كانت للكتب قيمة رمزية هائلة بالنسبة إلى المغرب وبالنسبة لإسبانيا على حد سواء، ولذلك فشلت دائماً المحاولات الدبلوماسية من أجل استردادها. كانت للكتب أهمية أكبر من الأسرى الذين تم اقتداؤهم والذين تم تبادلهم، أكبر من المواقع التي تم فتحها أو التي استسلمت، أكبر من الحقوق التجارية...^(١١٢). كما سوف نرى لاحقاً، يشدد باياتشي، في

المفاوضات التي يشرع فيها مع إسبانيا في نهاية حياته، على هذه القيمة والأهمية الرمزية بالنسبة للمغرب لكتبتها الأسيرة.

لكن في عام ١٦١٢ كان الموضوع، من وجهة النظر الدبلوماسية ومن وجهة نظر القانون البحري، حرجاً بما فيه الكفاية. صرحت إسبانيا بأن الغنيمة التي استولى عليها فاخاردو شرعية لسببين: لأنها كانت عبارة عن شحنة مسروقة، ولأن هذه الشحنة المسروقة كانت تنتمي إلى ملك كان في موقف اشتباك حربي مع إسبانيا. تعارض فرنسا بأن كاستيلان ارتكب فقط خيانة ثقة بالنسبة للسلطان المغربي، وأنه لم يكن بأي حال قرصاناً، وأن سفينته كانت تنتمي لأمة كانت في حالة سلم مع إسبانيا. لكن الموقف بالنسبة لفرنسا كان مُحيراً، لأنها لم تكن تريد أن تقدم كاستيلان كقرصان ولا حتى كسفير (ليس قنصلاً) وقّع معاهدة تحالف مع مولاي زيدان^(١١٣).

تفاوض مولاي زيدان أيضاً بشكل مباشر مع إسبانيا، وعرض مبلغ مائة ألف دوقية في مقابل الكتب، وهو اقتراح أيّده رهبان الثالوث في مازاغان حيث أن المبلغ كان سيسمح لهم بافتداء عدد كبير من الأسرى. لكن مجلس الدولة اتخذ قراراً يشترط في مقابل إعادة الكتب الإفراج عن العدد الكلي للأسرى الإسبان في المغرب، وهو شرط وجده زيدان مفرطاً وغير مقبول. لم يحسم الموضوع وأضمر الشريف منذ ذلك الحين استياءً شديداً للفرنسيين وللإسبان، علاوة على ذلك جعل الأسرى من هاتين الجنسيّتين يعانون من الاضطهادات. أعدم الراهب الفرنسيكاني خوان دي براندو في مراكش ورفع إلى مستوى شهيد من قبل الأسرى المسيحيين: كل ذلك يزيد من قيمة الكتب في نظر الإسبان. وقد سئل سفير تركي، سُميخ له بفحص الكتب في الإسكوريال، «كم كانت تساوي، قال إنها تساوي عدد لا نهائي من الدوكادوس»^(١١٤).

هوامش الفصل الثالث

- 1 J. Israel, la judería europea en la época del mercantilismo 1550-1750, Madrid. 1992 "Introducción".
- 2 En términos de kaplan, Judíos nuevos en Amsterdam, "Introducción".
- 3 Israel, la judería europea en la era del mercantilismo, op. cit.
- 4 En términos de Y.Kaplan, Judíos nuevos en Amsterdam, Madrid, 1996, p.13.
- 5 تختلف الآراء حول أسباب تأسيس طائفة ثانية. حسب كابلان "De joden in de republiek", p.130، كانت الأسباب على الأخص ديموجرافية، نظراً لازدياد عدد السكان اليهود. أما بوديان، فيؤكد على أنه كانت هناك أسباب دينية واختلافات في الشعائر بين الأشكناز والسفرديم. Hebreus of the Portuguese Nation, p.46.
- Véase O.Vlessing, "New light on the History of the Earliest History of the Amsterdam Portuguese Jews", Dutch Jewish History (J.Michman ed) III (1993) pp.34-75 pp.48-49.
- 6 Véase A.J. Huussen, "The legal Position of Sephardi Jews in Holland, circa 1600", p.27.
- 7 انظر اتفاقية عام ١٦١٢ المنشورة في Studia Rosenthaliana, 5 (1971). pp.240-242 والإشارات المذكورة هناك. انظر أيضاً M.Bodian, Hebreus of the Portuguese Nation, p.59.

- 8 Kaplan, "De joden in de Republiek", p.144.
- 9 Sobre él, véase más abajo, p.94.
- 10 Bodian, *Hebrews of the Portuguese Nation*, pp.47-48.
- 11 Véase Kaplan, *Judíos nuevos de Amsterdam*, *passim*.
- 12 Bodian, *op. cit.*, pp.147-148.
- 13 R.Fruin, "uittreksel uit Francisci Dusseldorpii Annales", *Werken uitgegeven door het historisch genootschap gevestigd te Utrecht*, 3.^a serie, no. 1, La Haya, 1893, pp.387-388: "Aliquot eorum continuo Amstelredamum appulerunt: quibus concessa fait ibidem synagoga, in quam ex praecipuis istius civitatis hereticis nonnulli, circum elso inguine, nomen dederunt. Usque adeo calvinismo et turcismo convenit", cf Zwarts, "De eerste rabbijnen", p.203n.
- 14 De Groot, *The Ottoman Empire*, pp.11,300,n.20; Heeringa, *Bronnen tot de Schiedenis van den Levantschen bandel*, I, pp.206 y ss.
- 15 Y.Kaplan, *Judíos nuevos en Amsterdam*, p.67.
ربما حظر التحول إلى اليهودية (انظر ما سبق) يُفسر جزئيًا هذا الرفض.
- 16 ADM, Leg. 2408.
- 17 G.Nahon, "Les rapports des communautés judéo-portugaises avec celle d'Amsterdam au XVII^e siècle" *Studia Rosenthaliana*,

X(2), (1976) , pp.37-78, p.39

18 Véase W.Webster, "Hebraizantes portugueses en San Juan de Luz en 1619", Boletín de la Real Academia de la Historia, 15 (1889), pp.347-360.

19 Israel, la judería española en la era del mercantilismo, pp.73 y ss.

20 خوان نونييث سارايباء، مقال ملكى كبير مستقبلاً، وبرتغاليون آخرون، اتهموا من قبل تاجر فرنسى بإخراج ثروة الموريسكيين من منطقة الماجو ودائمييل.

AHN, Inq. Leg. 171, apud. Bernardo López Belinchón. La minoría Judía conversa en Castilla en el siglo XVII. El caso de Fernando Montesinos, p.39.

21 AGS, Estado, Leg.627. Véase Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque, espccialmente pp.184-187.

22 AGS. Estado. Leg. 629.

23 Apud Pieterse, Daniel Levi de Barrios, p. 53.

24 Zwarts, "De eerste rabbijnen", p.200. Véase SIHM, Pays-Bas,I,P.273.

25 هناك كتاب من ثلاثة أجزاء لجماعة سالوم نُشِرَ فى: "Libro del Sedur" عام ١٦١٢، انظر:

A.K. Offenberg. Offenberg, "Spanish and Portuguese Sephardi Books published in the Northen Netherlands before Menasseh

- Ben Israel (1584-1627)", Dutch Jewish History(J.Miclman,ed.) vol. III, Assen, Maastricht, 1993, pp.82-83; Bodian, Hebrews of the Portugues Nation, pp. 46-47.
- 26 E. M.Koen, "Notarial Records relating to the Portuguese Jews in Amsterdam up to 1639", *Studia Rosenthaliana*, X1, I (1977), p. 95, n.º 1184.
- 27 SIHM, Pays-Bas,I,pp.273-275. Véase Apéndice.
- 28 خطاب من ديكارت إلى بوزينو، SIHM, France, II, pp.475-476. Véase Apéndice
- 29 Véase H. Bouzineb y G. A. Wiegers. "Tetuán y la expulsión de los moriscos", *titwân jilâl al qarnayn 16 wa 17*, Tetuán, 1996, pp. 73-108.
- 30 خطاب من كوي إلى الولايات العامة' ٦ أكتوبر ١٦٠٨، SIHM, Pays-Bas, I, p.302.
- 31 SIHM, France, I, p.299.
- 32 SIHM, Angleterre, III, p.606.
- 33 التجار هم: جان جانيسز، كاريل دي جونج وسيمون ويليمسز، نومن وشركاؤه.
- Véase doc. Notarial nr. 368, publicado en *Studia Rosenthaliana* V, I, (1971) p.112.
- 34 AGS, Estado, Leg. 2291.

- 35 Véase C. Roth, "The Strange Case of Hector Mendes Bravo". Hebrew Union College Annual, 18 (1944), pp.221-245.
- 36 Héctor Mendes Bravo (apud Roth, op., cit., p.237)
- يذكر، في عام ١٦١٧، دوارتي فرنانديث، يهودي برتغالي من أمستردام، له ابن في لشبونة، وآخر يُدعى دوارتي فرنانديث بيغا، تاجر من أمبيريس. عن الشخص الأول الذي يحمل هذا الاسم، انظر
- E.M. Koen, "Duarte Fernandes, Koopman van de Portugese Natie", Studia Rosenthaliana 2 (1968), pp.178-193.
- 37 "أخوان يهوديان [صمويل وجوزيف باياتشي]... ذهابا إلى سادة الولايات ... يخدعان هؤلاء وأولئك من أجل أن يحصلوا بمكرهما على ما يستطيعانه من مال". خطاب من ديكارت إلى بوزيو، ١٢ أكتوبر ١٦٠٩،
- SIHM, France, II, p.475. Véase Apéndice.
- 38 Carta de Descartes a Puisieux, 25 octubre de 1609, SIHM, France, III, pp.478-479.
- 39 - Ed.W.C. Pieterse, Assen, 1970, pp.26-27, 31,65,101,130.
- 40 Doc. n.1000. Studia Rosenthaliana, X2 (1976) p.221, Véase Apéndice.
- 41 كان إسحاق أوزييل قد تزوج من بيثا بيذا في اسطمبول، مع أنه كان حاخاما إلا أنه لم يكن كذلك برتغاليا ولم يتزوج ببرتغالية. توفي في عام ١٦٢٢.
- Véase Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, p.48;
Pieterse, Daniel Levi de Barrios, p.63; Zwart "De Eerste

Rabbijnen". pp.233-235, apéndice XXV

: "ومولود في مدينة فاس..." مقبرته موجودة في أوديركيرك،

Véase L.Alvares Vega, Het Beth Haim Van Oderkerk aan de Amstel, Amsterdam, 1994, p.28.

- 42 في الثالث عشر من شهر إبريل من عام ١٦١٣ الدكتور بيتر ويتيندايل والجراحان جوان كوارتيلاك وهيرمان بورسيمان، والصيدلي ديرك فيردويس، جميعهم مقيمون في لاهاي، يطلبون دفع حسابات علاج ابني صمويل باياتشي، إسحاق ويعقوب كارلوس. تطلب الولايات من باياتشي دفع ديونه.

(Resolución de los Estados Geneales, 13 de abril de 1613), Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks, 1610-1760,I, (1613-1616).

- 43 SIHM, Pays-Bas,I, p.462.

- 44 SIHM, Pays-Bas,II, pp.166, 214, 688.

في الرابع من شهر يونيو من عام ١٦١٥ تدفع الولايات لـ جاكوب ويليمسز، من فوربورج، مبلغ ثلاثمائة وخمسين فلورين عن إيجار نصف عام.

- 45 تزوج خوسويه، ابن جوزيف، من يهودية من روتردام (لا يُعرف ما إذا كانت برتغالية، مع أن ذلك هو الأكثر احتمالاً)، دُفنت في أوديركيرك، طبقاً لـ
Livro de bet Haim, p. 137.

- 46 Not. Arch, n.º 1682, y n.º 781. Studia Rosenthaliana, XIV,1 (1980), p.91 y XVIII, I (1984), p.160.

- 47 E.R. Samuel, "Portuguese Jews in Jacobean London", Transactions of the Jewish Historical Society of England, XVIII (1958), p.175. Amberes, 10 de octubre de 1610.

" يقول ويؤكد إسحاق بايانشي الحاضر هنا أنه رآه [يقصد سيمون ميركادو] وجلس معه في منزل خيمس لوبيس والذي يدعى أيضًا باسم آخر هو جاكوب تيرادو، حيث يجتمع كل اليهود البرتغاليون للصلاة ..."،

ibidem, pp. 209-210.

- 48 Archives Generales du Royaume, Bruselas, Office Fiscale de Brabant, Portefeuilles, W 131, n.º 924 A y B.

- 49 Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, p.33 y referencias.

- 50 اليواقيت البالايسية أو البالاتشية تأتي من إقليم في وسط آسيا، اسمه بالاخسان ومنه استمدت اليواقيت اسمها، وبخلاف اليواقيت الشرقية، فإن لونها أحمر وردى مع نقاط زرقاء وكثيرًا ما يكون بها صبغة لبنية عامة.

- 51 استخدام يهود أمستردام لأسماء يهودية داخل المعابد ولأسماء مسيحية في الحياة الدنيوية في أوائل القرن السابع عشر نوقش في الاستجابات،

Véase Zimmels, Die Marranen, pp. 55 y 155.

- 52 انظر التذييل الوثائقي

- 53 انظر التذييل الوثائقي

- 54 AN/TT, Inquisição Lisboa, n.º 3292.

- 55 SIHM, Pays-Bas, I, p.311.

- 56 عن هذه المهمة انظر:

- SIHM, Pays-Bas,I, pp.357-499, France, II, pp. 485, 486, 490-91.
- 57 SIHM, Angleterre,II, pp. 426-427
- الكلمة الانجليزية "Trucheman" معناها "مترجم".
- 58 SIHM, Pays-Bas,I, p. 577.
- 59 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 369-70, nota 3.
- 60 عن هذه الشخصية انظر:
- G.A. Wiegers, "The Andalusí Heritage in the Maghrib: the polemical work of Muhammad Alguazir (d. 1610)" Orientations, IV (1997) pp.107-132.
- 61 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 519-522.
- 62 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 591-593.
- 63 Véase J. de Henin, Descripción de los reinos de Marruecos (1603-1613), Memorial de Jorge de Henin, BNM, Mss 17645, p.121.
- ت. بيريث دي غوثمان نشر توثا طبعة من هذا النص في العاصمة المغربية الرباط في عام ١٩٩٧، غير أن إشارتنا تنتمي إلى mss.
- 64 Henin, op. cit., p.121
- 65 Henin, op. cit., pp. 107-108, 333.
- 66 Véase G. Gozalbes Busto, Los moriscos en Marruecos, Granada, 1992, en especial cap. V. "La convivencia judeo-morisca en el

exilio”.

- 67 Cabrera de Córdoba, op.cit., f. 367.
- 68 SIHM, Pays-Bas,I, p.353.
- 69 SIHM, Pays-Bas,I, p.690.
- 70 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 75 y 115.
- 71 SIHM, Pays-Bas,I, p. 623.
- 72 John Harrison, The "Messiah already come or profes of Christianitie... to convince Jewes, written in Barbarie in the year 1610, Amsterdam, 1619.
- 73 SIHM, Angleterre,III, Relación de John Harrison, pp.27 y ss.
- 74 SIHM, Pays-Bas,II, pp.8 y ss.
- 75 SIHM, Pays-Bas,II, p.15.
- 76 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 12, 75.
- 77 SIHM, Pays-Bas,II, p.41, marzo de 1612.
- 78 SIHM, Pays-Bas,II, p.85.
- 79 SIHM, Pays-Bas,II, pp.141 y ss.
- 80 SIHM, Pays-Bas,II, pp.201 y 269.

انظر التذييل. رسالة خطية من صمويل باياتشى إلى الأمير ماوريتيو دى

ناساؤ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٦١٤ (colección M.H.Gans, fol.11a) أغلب وثائق هذا المصنف اشترتها م.هـ. غانز بمناسبة معرض أقيم فى لندن، أنظر:

Catalogue of an exhibition Anglo-Jewish Art and History in Commemoration of the Tercentenary of the Restment of the Jews in the Britich Isles, held at the Victoria and Albert Museum London January- 29 February 1956, Londres, 1956 p.17, no. 54: Samuel Palache, a Jewish vateer. Bound volume of twentey MS papers relating to the exploits and arrest of Samuel Palache, the Ambassador of Morocco at The Hague. Lent by Messrs H. mann and C. Abramsky.

- 81 SIHM, Pays-Bas,II, p.172.
- 82 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 299 y 309.
- 83 SIHM, Pays-Bas, I, pp. 526-527.
- 84 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 545-546.
- 85 Henin, BNM. Mss. 17645, pp. 171-172.
- 86 Ibidem, p. 185.
- 87 AGS. Estado, Leg. 495. Véase Apéndice.
- 88 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 624-627,

انظر رسالة من مولاي زيدان بتاريخ ٢٨ من سبتمبر ١٦١١

SIHM, Pays-Bas,I, p. 673.

- 89 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 393-452.
- 90 انظر على سبيل المثال
A. Kaddouri, "Ibn Abi Mahalli: á propos de l'itineraire porcho-social d'un mahdi", en A. Kaddouri (ed.), Mahdisme: crise et changement dans l'histoire du Maroc, Rabat, 1994, pp.119-125.
- 91 SIHM, Pays-Bas,II, p.21.
- 92 SIHM, Pays-Bas,II, p. 23.
- 93 SIHM, Pays-Bas,II, pp.182 y 186. انظر على سبيل المثال
- 94 SIHM, Pays-Bas,II, pp.117 y ss. انظر :
- 95 أشرنا إلى هؤلاء اليهود فى الفصل الأول. عن النزاعات بسبب المنافسات التجارية انظر:
SIHM, Pays-Bas,I, pp.381 y 500.
- 96 SIHM, Pays-Bas,1, p.384.
- 97 SIHM, Angleterre,II,pp. 469 y ss.
- 98 Mose Palatse. Een waerachtige beschrijvinghe vant ghene datter geschiet is int lant van Barbarien, Rotterdam, 1614, trad. francesa y original holandés en SIHM, Pays-Bas,II, pp. 440-445.
- 99 SIHM, Pays-Bas,II, p.215.
- 100 SIHM, Pays-Bas,II, p. 391

- 101 SIHM, Pays-Bas,II, p. 245.
- 102 SIHM, Pays-Bas,II, p.22, n.7.
- 103 انظر رسالة من مولاي زيدان إلى صمويل باياتشى، بتاريخ الثالث عشر من شهر فبراير من عام ١٦١٢، SIHM, Pays-Bas,II, pp.20 y ss.، صمويل قابل كاستيلان في صافى قبل سفر باياتشى إلى هولندا، SIHM, Pays-Bas,II, p.23.
- 104 Véase Braulio Justel, La Real Biblioteca de El Escorial y sus manuscritos árabes, Madrid, 1978.
- 105 SIHM, Angleterre,III,p.67.
- 106 Véase dicha carta en SIHM, Pays-Bas,II, p.106.
- 107 SIHM, Pays-Bas,II, p.131.
- 108 SIHM, Pays-Bas,II, p.138.
- 109 فى أغسطس من عام ١٦١٢ كتبت الولايات إلى لويس الثالث عشر " Prions atant، مولاي، بتواضع شديد، فإنه ليشرف جلالكم أن تمنحوا السادة المذكورين، القائد والطواشى وموسى باياتشى، مقابلة كريمة وأن تلبوا لهم ذلك الطلب الذى سوف يكون مناسباً" SIHM, Pays-Bas,II, p.139.
- 110 SIHM, Pays-Bas,II, p.192
- 111 SIHM, Pays-Bas,II, p.262.
- 112 Véase M. Marín, "The captive word a note on Arabic Manuscripts in Spain", Al-Masaa, 8 (1995), pp. 155-169.

113 في خطاب مؤرخ في شهر يونيو من عام ١٦١٥، بصر لويس الثالث عشر
أمام الولايات العامة على أنه لم يُعهد أبدًا إلى كاستيلان بإجراء رسمي في
المغرب "إنه لم يكن أبدًا سفيرنا، ولم يُعهد إليه بصفة أخرى سوى الرحيل".
SIHM, Pays-Bas,II, p.573.

114 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 592-593.

الفصل الرابع

القرصنة والمعبورة ومحضر لندن

أشرنا فيما سبق إلى صعوبة عمل حدود واضحة (صعوبة استنفاد منها باياتشى) بين التجارة الشرعية والتهرب والقرصنة. من الواضح أن صمويل كان يحطم هذه الحدود وينزلق باطراد نحو هذا النشاط الأخير. لكن نظراً للأحداث التي ستقع مباشرة، ينبغي أن نأخذ في الاعتبار اختلافاً مهماً، رغم أنه ليس أيضاً شديد الوضوح دائماً، بين قرصان حكومي وقرصان خاص: كان القرصان الحكومي يُبحر في سفينة تتبع ملكيته الخاصة، مؤجرة ومسلحة بترخيص من حكومة كان يعمل في خدمتها، وكانت تضع الشروط والأهداف المحددة. كان يُبحر تحت علم هذه الدولة التي تولت حمايته ومنحته «رخصة قرصنة حكومية»، وكان يلتزم بقوانين وبقواعد قرصانية. كانت القرصنة هي مورد تلك الدول، مثل المغرب، التي لا تستطيع من فرط ضعفها الحصول على أسطول عادي أو التي كانت ظروفها السياسية — وبشكل خاص، وضعها التابع لدول أكثر قوة — تمنعها من الحصول على أسطول تجاري. أما القرصنة الخاصة؛ فهي سفينة مخصصة لأعمال التلصص البحري، بدون علم ولا قانون، لم يكن عملها يعرف الكبح ولا القواعد ولا هدف آخر سوى ربح أصحابها. كان القرصان الخاص يعمل ضد كل الذي يقابله، بينما كان القرصان الحكومي يعمل فقط ضد سفن الدول التي كانت الحكومة التي حررت له «رخصة قرصنة حكومية» في حالة حرب معها أو لم يكن يوجد معها معاهدة.

يبدأ فصل جديد في حياة صمويل باياتشى بقرار اتخذته الولايات العامة في شهر أكتوبر من عام ١٦١٣.

قررت هذه الولايات، بتوصية من ماوريثيو^(١) (خطابه مفقود)، إعطاء إذن لباياتشي من أجل إعداد سفينة في هولندا بهدف القيام برحلة إلى بلاد البربر^(٢). نصّح ماوريثيو الولايات العامة بإقراضه خمسة آلاف فلورين، نصف هذا المبلغ نقدًا والنصف الآخر في شكل أسلحة. اشترطت الولايات أن يقدم قائمة بأعضاء الطاقم ؛ وكما سوف نرى فيما بعد، كان هذا الاحتراس يرجع إلى أنه كان يُعرف أو يُخشى من أن يكون الجزء الأكبر من هؤلاء الأعضاء معروفًا بتخصّصه في القرصنة^(٣). ولأن الشتاء كان على وشك المجيء، تعيّن تأجيل السفر حتى ربيع العام التالي^(٤).

في شهر مارس من عام ١٦١٤ أعلنت الولايات من خلال خطاب لسكرتيرها كورنيليس إيرسينس، أنها سمحت لباياتشي، عميل زيدان في هولندا، بتسجيل طاقم لسفينة حربية ويخت^(٥)، أعدهما باياتشي في روتردام^(٦). في تلك السنوات كان باياتشي يُشكّل جزءًا من شركة لأصحاب سفن هولنديين كانت تملك وتُجهّز السفن الخاصة بها^(٧).

كانت الرحلة ذات أهداف هجومية واضحة، حيث أن السفينة المقصودة كانت سفينة حربية من أصل إنجليزي اسمها «جورج بونافينتورا»^(٨)، بالإضافة إلى يخت دُشن علنًا، «بقرع الطبل». كان باياتشي هو مالك السفينة، وكان يتصرف مثل «جنرال». القبطانان كانا جان جانسز سلوب أو سلوبي^(٩)، من هوورن، قبطان للسفينة الرئيسية، وجيربرانت جانسز، قبطان لليخت^(١٠).

إذا كان الهدف الرسمي لتلك الرحلة من الناحية النظرية هو المساعدة في الكفاح ضد القراصنة في الساحل المغربي، فإن الهدف الحقيقي كان يكمن في الإعداد لاحتلال المعمورة^(١١).

كانت المعمورة ميناء صغيرًا على الساحل الأطلنطي المغربي في مصب نهر سيبو، حيث توجد اليوم مهدية، بالقرب من قنيطرة Kenitra. بعد أن احتلّ

الإسبان العرائش فى عام ١٦١٠، بدأ القراصنة من مختلف الجنسيات (قراصنة يعملون لحسابهم الخاص وليسوا قراصنة حكوميين)، وبشكل خاص الهولنديون والإنجليز، الذين تم إخلأؤهم من هذا الميناء، بدأوا يلجأون أكثر قليلاً إلى الجنوب، إلى المعمورة على وجه التحديد. ذلك يعنى أن احتلال العرائش لم يحل شيئاً كبيراً وأن الإسبان بالتالى كانوا فى حاجة لاحتلال هذا المرسى والذي كان الهولنديون بدورهم يتطلعون للاستحواذ عليه قبل أعدائهم. يبدو أن باياتشى أفهم ماوريتيو دى ناساؤ أنه سوف يحصل على التنازل عن المعمورة لصالح هولندا.

خرجت سفينة باياتشى من روتردام برخصة وتوكيل مكتوب من الولايات فى شهر أبريل من عام ١٦١٤^(١٢). سافر صمويل، كما قلنا، برفقة السفير الإنجليزى جون هاريسون. كان الوحيدون الذين لم يكونوا مسيحيين على ظهر السفينة هم باياتشى والخدم الذين كانوا يُعدّون «اللحم» الخاص به؛ لاشك أن باياتشى كان يأكل «كوشير» وبالتالى كان يطلب لحماً مذبوحاً بطقوس حسب القواعد اليهودية. طبقاً لتصريحات لاحقة للطاقم، عندما كانوا لا يجدون سفناً إسبانية فى سواحل إسبانيا كان المعتاد هو السفر مباشرةً إلى صافى حيث كانوا يبقون ثلاثة أسابيع. لكن فى هذه المرة، بالقرب من سواحل إسبانيا، حدث شيء ما، فقد انفصل اليخت عن السفينة الكبيرة للجنرال بسبب سوء الطقس أو بشكل متعمد^(١٣). اليخت، الذى ذهب بطاقم «مؤلف فى معظمه من قراصنة قدامى، وهو أمر كان يعلمه جيداً الجنرال [باياتشى]»^(١٤) غنم أولاً سفينة فرنسية وبعد ذلك سفينة هولندية، الوينثوننت، فى المناطق المحيطة برأس ساحل سان بيثنتى. بعد ذلك استولوا على سفينة من لوبيك تسمى الأوتر. سلح القراصنة الوينثوننت وهذه السفينة بقطع من المدفعية، وأغرقوا اليخت. تركوا طواقم السفن محبوسين فى السفينة الفرنسية، وتوجهوا بالسفينتين اللتين حصلوا عليهما نحو المضيق^(١٥). كانت تلك غارة بكل معنى الكلمة.

بعد أن وصل باياتشى إلى صافى، سافر إلى مراكش. لا نعرف ماذا سوف يحدث خلال اللقاء مع زيدان. لكن كورنيليوس كليسين، أحد أفراد الطاقم، يشهد أنه بمناسبة هذا اللقاء، حصل باياتشى من جديد على تفويض من زيدان من أجل أن «يؤذى ويحارب الإسبان وأعداءه الآخرين الذين كان فى حالة حرب معهم»^(١٦)، أى أنه، حصل على «رخصة قرصنة حكومية». مع ذلك، لم تكن القرصنة هى الهدف الوحيد من الرحلة. كان ماوريتيو فى حاجة إلى باياتشى للإعداد لاحتلال المعمورة.

الاستيلاء على المعمورة

نَعْلَمُ أن صمويل ظل مهتمًا منذ عام ١٦١٠ بموضوع المعمورة^(١٧)، التى كانت الأطماع الإسبانية فيها واضحة وكانت تقلق مولاي زيدان وهولندا على حد سواء. كان صمويل مكلفًا فى لاهاي بإجراء محادثات من أجل عمل مشترك بهدف صرف النوايا الإسبانية عن الموقع. هذا العمل المشترك كان يتحرك فى اتجاهين، فى المقام الأول، طرد القرصنة المسيحيين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يلجأون هناك، وفى المقام الثانى تحصين الموقع بهدف أن يستطيع مقاومة الهجمات الإسبانية^(١٨).

كانت المفاوضات بشأن تحصينات المعمورة – والتى كانت المغرب تلتزم من أجلها مهندسين ومساعدة مادية – تمضى ببطء. كان مولاي زيدان يطلب مواد بناء ومهندسين هولنديين بالإضافة إلى سفن حربية ليقاتل بها الإسبان^(١٩) لكن هولندا لم تكن ترغب فى تجهيز وتمويل أسطولاً مغربيًا بكل معنى الكلمة^(٢٠).

فى غضون ذلك، يظل جوزيف وصمويل كلاهما منكبين على مشاريع تجارية، بوجه خاص توريد السكر إلى هولندا^(٢١) ومواد حربية إلى المغرب. فى أغسطس من عام ١٦١٢ رُخِّصَ لجوزيف باياتشى أن يُصَدَّرَ إلى المغرب من هولندا ذخائر حربية وبارود وبنادق^(٢٢). أنواع البضاعة التى تصفها الوثائق هى

«بارود وأسلحة وذخيرة وحبال السفينة وعدتها وخيش وقطران وأوانٍ وأطواق
نجاه»^(٢٣).

اعتقد الهولنديون، ثقةً منهم في تقارير باياتشى^(٢٤)، أن بوسعهم احتلال
المعمورة بعد إخلاتها من القراصنة وظنوا أنهم في مقابل تحصين ساحلها، سيكون
بمقدورهم التمتع بحق الانتفاع بالميناء. في أبريل من عام ١٦١٤ رحلت سفينتان
حربيّتان هولنديّتان بقيادة القائد الأعلى جان إفرتسين في اتجاه المعمورة، لطرد
القراصنة المستقرين هناك، والذين كانوا - طبقاً لـ أوروثكو - «فرنسيين وإنجليز
وهولنديين... مختلطين مع أتراك ومسلمين»^(٢٥).

تعيّن على باياتشى، الذى كان قد رحل بسفينتيه قبل ذلك بأيام، أن يساعده
وبساعده فى العمل^(٢٦). كانت مهمة إفرتسين هى طرد القراصنة ودخول المعمورة
وبناء حصن تتولى هولندا حمايته وإمداده^(٢٧).

وصل إفرتسين إلى الساحل المغربى فى يونيو من عام ١٦١٤، وفى المنطقة
المحيطة بميناء سالى انتظر بلا جدوى تعليمات مولاي زيدان واجتماعه مع
صمويل باياتشى. لكن صمويل، الذى ربما أعطى لنفسه اختصاصات أو قدم
امتيازات للهولنديين أكثر بكثير مما كان يريده السلطان، استقبل استقبالاً سيئاً جداً
عند عودته إلى المغرب وأجبر على العودة إلى السفينة.

يعزى باياتشى سبب نكبه إلى أن باول فان ليبيلو كان قد استبقه وتدخل فى
مهمته. فى رسالة مؤرخة فى شهر يونيو من عام ١٦١٤ بعثها صمويل إلى شقيقه
جوزيف لكى يقوم بتقديمها إلى الولايات، يشكو من أن فان ليبيلو تدخل فى الأمر
وأنه يحاول أن يصبح وسيطاً بين السلطان والولايات. ويطلب بأن تؤكد الولايات
بأنه هو الوحيد المفوض للتعامل مع السلطان^(٢٨).

استغل إفرتسين وجود السفير الإنجليزى، جون هاريسون، فى صافى، من
أجل أن يعمل وسيطاً بينه وبين القراصنة الإنجليز ويقنعهم بأن يرحلوا ويبحثوا عن

ملجأ آخر، وهو الأمر الذى فعله هاريسون مستعيناً بالعلاقات الجيدة الموجودة بين هولندا وإنجلترا، «أعزأتى المواطنين والقادة والمحاربون الإنجليز فى المعمورة»، وبحضتهم على «البحث عن وضع أفضل وأكثر نبلاً»^(٢٩). بعد حل مشكلة القراصنة الإنجليز، لم يكن إفرتسين ينتظر سوى تعليمات مولاي زيدان، لكن السلطان كان فى الجنوب يقاتل ضد المتمرّد سيدى يحيى بن عبد الله (تلك الشخصية الدينية التى كانت قد شاركت إلى جانب السلطان فى القتال ضد ابن أبى مَحَلّى ليتمرد بدوره بعد ذلك) وترك إفرتسين بلا أخبار ولا تعليمات.

كان الإسبان على دراية بالمناورات الهولندية. كانوا يعلمون أن الهولنديين أقاموا حصناً فى أقصى الجنوب فى ساحل إفريقيّا، فى المينا *la mina*، وهو ما كان يُعدّ مخالفة لما هو منصوص عليه فى شروط الهدنة. ومن أجل هدمه، أمر الملك دوق ميدينا سيدونيا بأن يرسل لويس فاخاردو على رأس الأسطول^(٣٠). بينما كان فاخاردو يُبحر تقريباً بمحاذاة المعمورة لحق به ساعى يريد يحذره من أن الهولنديين كانوا على أبواب هذا الموقع ويأمره بالتدخل. استولى لويس فاخاردو على المعمورة، بلا قتال تقريباً وعلى مرأى من إفرتسين، فى أغسطس من عام ١٦١٤^(٣١).

هاريسون وإفرتسين وجان ليفينس، الذين كانوا فى المغرب فى هذه الشهور، علموا أن صمويل وقع فى مصيبة مع مولاي زيدان. اتهموه بأنه لعب دوراً مُلتبساً فى كل ما يتعلق بالمعمورة. فى شهر يوليو من ذلك العام كتب تاجر هولندى لدى مروره بقادش إلى الولايات العامة يحذرها من أن الإسبان كانوا يعرفون حرقاً الخطة الهولندية الخاصة بالمعمورة وكل خطط مولاي زيدان^(٣٢). يؤكد إفرتسين : «بالنسبة لباياتشى، فإنه فقد كل ثقة واحترام الملك وليس له الآن أية صفة. لو أنه مكث يوماً آخر فى البلد، لأمر الملك بقطع رأسه»^(٣٣).

يعلن هاريسون أن باياتشى طلب منه خطابات توصية لإنجلترا باسمه واسم شقيقه. طبقاً لهاريسون، لن يعود باياتشى إلى المغرب ولا إلى هولندا، طالما لم

يُجبر على ذلك، نظراً لسلوكه حيال كلا البلدين^(٣٤). يتناول جان ليفينس، في يومياته، الصخب الذي كان يجرى حول باياتشى ويقول إنه لو لم يكن قد أُبحر، كان السلطان سيعتقله^(٣٥). من ناحية أخرى، يبرر باياتشى فشل المهمة بإلقاء الذنب على باول فان ليبيلو، الذي كان قد ارتكب أعمالاً طائشة^(٣٦).

هذا هو ما يُعرف استناداً إلى الوثائق المحفوظة في هولندا، لكن في نفس الوقت، وبشكل يدعو إلى الدهشة، كان باياتشى يعمل كوسيط بين دوق مديناسيدونيا ومولاي زيدان بخصوص المعمورة. ومنذ صيف عام ١٦١٠ كان الدوق يَعْلَم «من مصدر مؤكد» أنَّ الهولنديين كانوا يخططون لإنشاء حصن في هذا المكان^(٣٧). كان صمويل هو المكلف بأن ينقل للسلطان العرض الإسباني بمبادلة مازاجان بالمعمورة «بشكل ودي» وفي مقابل مساعدة عسكرية^(٣٨). في المراسلات بين الملك ودوق مديناسيدونيا في هذا الصدد، يشير الملك إلى باياتشى على أنه «كاتم السر في هذه المفاوضات السرية» والذي كان قد قال له أيضاً إنَّ مولاي زيدان كان يعرض المعمورة على الأمير ماوريتيو، وعلى أنه «اليهودي التابع لزيدان»^(٣٩).

من المحتمل أنَّ مولاي زيدان، إزاء صعوبة موقفه والشك الذي يكتنف المساعدة الهولندية، قرر أنَّ يُجرب الإسبان لمساعدته في استرداد عرشه الضائع تقريباً الذي كان عرضة للخطر منذ أن استولى ابن أبي مُحَلَّى على مراكش. ذكرنا أنَّ مولاي الشيخ، حليف إسبانيا، كان قد توفى في أكتوبر من عام ١٦١٣، وأنه في نفس ذلك العام استولى مولاي زيدان على فاس. أصبح الإسبان بدون مساندة في المغرب، ويكتب الملك إلى الدوق يعبر له عن قلقه وضرورة عمل شيء من أجل «إخضاع» مولاي زيدان^(٤٠). لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت مبادرة التفاوض مع الإسبان جاءت من مولاي زيدان أو من صمويل باياتشى أو جاءت من الإسبان أنفسهم، مع أن كل شيء يبدو أنه يشير إلى أن الإسبان كانوا أصحاب المبادرة. الذي نعرفه فعلاً هو أنَّ صمويل كان على علاقة خلال هذه السنوات بدوق مديناسيدونيا وأنه عرض عليه المعمورة في مقابل مساعدة عسكرية. كان الملك

والدوق يتبادلان المراسلات: «إذا تغلب زيدان سيكون من الأفضل قبول صداقته والنظر إلى ما تسفر عنه مفاوضات مبادلة مازاجان بالمعمورة التي أشرتم إليها، حيث أن ذلك الميناء يُعد ذا أهمية معروفة، وإذا كان من اللازم وجود حصن هناك فإنه من الأفضل أن يُوجد هذا الحصن بشكل ودي. ويمكن النظر أيضًا في العرض الذي قدمه اليهودي باياتشي»^(٤١). لم يكن الملك يثق كثيرًا في باياتشي وأشار على الدوق أن يُشرك في الموضوع ماركيز بياريال. يبدو أن هذا الخطاب يُشير إلى أن باياتشي كان يُعرض شيئًا أكثر، أو مختلفًا، عما كان يعرضه مولاي زيدان. يبدو أن كل شيء يوحى من جديد هنا بأن باياتشي كان يتجاوز اختصاصاته ويعمل لحسابه. ربما جنح لذلك بسبب الموقف المزعزع لمولاي زيدان، الذي كان، وربما كان لا يزال، على وشك أن يفقد العرش، وربما بسبب أن اتصالات باياتشي مع السلطات الإسبانية كانت لها استمرارية أكثر مما نعرف. أو لأنه فقط كان يعرض المعمورة على من كان يدفع أكثر، إما هولندا وإما إسبانيا.

اعتبر فيليبى الثالث، أن باياتشي كان عميلًا مزدوجًا، وأمر الدوق أن يبحث عن يهود آخرين ليعملوا كأمناء سير ووسطاء^(٤٢). كان دوق مديناسيدونيا، الذي كان يتكتم كل تعاملاته مع باياتشي في تلك السنوات، مطلعًا بشكل مطلق على المفاوضات الهولندية وعلى شراء مولاي زيدان لسفن هولندية، إلخ^(٤٣). كل ذلك يُفسر بشكل أكثر وضوحًا غضب مولاي زيدان وسخطه على باياتشي منذ ذلك الحين: بعد أن عرّض وفوض على المعمورة مع مُزايدين متناقضين، انتهى بأن خسرها دون أن يحصل في مقابلها على أية فائدة. ويُفسر ذلك أيضًا الدراية الجيدة للإسبان بكل تعاملات المغرب مع الهولنديين.

ملف قضية في لندن

لنَعُدْ الآن إلى المظهر الآخر لسفر باياتشي الأخير إلى المغرب: القرصنة. بعد ثلاثة أو أربعة أشهر بعد أن سافر من ميناء صاقي وبعد أن أغضب

سيّده مولاي زيدان، كسب باياتشى غنيمة ثمينة عندما اغتنم سفينتين: سفينة شراعية برتغالية صغيرة وسفينة إسبانية، كانتا أتيتين من سانتو دومينغو مُحملتين بالسكر، والجلود، إلخ.. بالقرب من لاس أثوريس. أنزل القراصنة طاقمى هاتين السفينتين فى جزيرة سانتا ماريّا (أثوريس)، واستولوا على الحمولة. أثناء الهجوم، قتل باياتشى وطاقمه مواطنًا برتغاليًا^(٤٤).

حصل باياتشى، بالإضافة إلى ذلك، على غنيمة أخرى: السفينة المسماة بينيلوبى، وهى ملك للتاجر اللندنى ريتشارد هال. فى الثالث والعشرين من سبتمبر من عام ١٦١٤ يشتكى دومينيكوس بوينس، تاجر فى لندن، باسم هال، أمام الولايات العامة من أن السفينة المذكورة هُوجِمت عندما كانت آتية من هولندا وكانت تتواجد أمام سواحل بلاد البربر من قبل سفينتين بقيادة صمويل باياتشى. وتقرر الولايات الرد بأن سفينتى باياتشى هما فى خدمة بلاد البربر، وأنه بالتالى لا تقع عليهما أية مسئولية^(٤٥).

كان المعتاد فى تلك الظروف، أى، بعد الحصول على غنائم تحت علم مغربى، هو بيع الغنيمة فى المغرب، فى سلا على الأفضل^(٤٦)، لتجنب انتهاك رسمى للهدنة مع إسبانيا. كانت العلاقات التجارية مع سلا يسعى إليها يهود كثيرون من أمستردام، لاشك لأنه منذ عام ١٦١٠ كانت سلا مأهولة بالموريسكيين المطرودين من إكستريمادورا (خاصة من أورانثوس) وبالإضافة إلى ذلك كان لها مستوطناتها اليهودية الخاصة بهامن أصل إسباني أيضًا^(٤٧). إنها حالة أخرى من الحالات التى ينمو فيها تواطؤ وتعاون طيب بين مجموعات عديدة ليهود من أصل إسباني وموريسكيين. لكن فى هذه المرة قطع الأسطول الإشباني الطريق^(٤٨). لهذا، ولأن باياتشى كان يعتبر أنه من الأفضل أن يبقى بعيدًا عن مولاي زيدان، توجه نحو هولندا، حيث وصل ومعه السفن التى غنمها. ولسوء حظه، بسبب مرض الطاقم وسوء الطقس^(٤٩) اضطرت السفينة التى كان باياتشى يسافر على متنها إلى اللجوء إلى بليماوس. رست سفينة أخرى فى فيرى (نيوزيلاندا)، بالقرب من

ميدلبورج: من هناك يكتب قبطان السفينة إلى جوزيف باياتشى يطلب منه مالا لإصلاح فتحات التسريب التي كانت فى جسم السفينة والأشربة المحطمة ولإطعام الطاقم، الذى كان منهكاً^(٥٠). تعيّن إفراغ البضائع حتى لا تتلفها المياه وصادرتها سلطات إمارة بحر نيوزيلاندا، التى باعت جزءاً منها لسد احتياجات الطاقم^(٥١).

أدى توجه باياتشى إلى هولندا إلى مشاكل قانونية وجد نفسه متورطاً فيها بعد ذلك. عندما علم مالكا السفينتين المغتتمتين، وهما مواطنان تابعان للتاج الإسباني واسمهما هيرونيمو فرنانديس بريثو وأنطونيو بينتو، عندما علما أن الغنائم حُملت إلى هولندا، قدّما شكوى أمام السلطات الإسبانية. فى الرابع من نوفمبر، أخطر قادة الجيش الولايات العامة أن إسبينولا طالب باحتجاز هذه الغنائم حتى يتمكن المالكان من الدفاع عن حقوقهما^(٥٢). كتبت الولايات العامة إلى فريتيما سكرتير ماركيز إسبينولا مستخدمة التبرير المعتاد وهو: مع أن القبطان (سلوب) هولندى - إلا أنه يعمل فى خدمة مولاى زيدان. مع ذلك قالوا إنهم اتخذوا إجراءات. نعرف أنهم بالفعل بحثوا عن حل^(٥٣) حتى أنهم استشاروا الرجل الشهير هوغو غروتوس، كما سنرى لاحقاً.

الاعتقال

كان باياتشى قد وصل إلى إنجلترا وفى سفينته فتحات تسريب أيضاً واضطُرَّ للبقاء هناك فى انتظار أن يُصلحوا جسم سفينته. فى غضون ذلك، وبعد أن تم رصد وجوده فى بليماوس، استطاع سفير إسبانيا فى إنجلترا، دون ديبغو دى أكونيا، كونت غوندومار، أن يجعل السلطات الإنجليزية تصدر أمراً باعتقاله. أُلقي القبض على صمويل باياتشى فى دارتماوس حيث كانت سفينته قد جنحت بعد خروجها من بليماوس، هاربة مذعورة بسبب الأخبار المتعلقة بالإجراءات التى شرع فيها السفير الإسباني^(٥٤).

ديبغو سارميننتو دى أكونيا، كونت غوندومار، سفير إسبانيا فى إنجلترا (الدولة التى عقدت معها إسبانيا معاهدة سلام فى عام ١٦٠٤)، أرسل طلبه الخاص

باعتقال باياتشى إلى المجلس الملكى لإنجلترا بتاريخ ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦١٤.^(٥٥) يقول فيه إن باياتشى هو «رعيّة الملك الإسباني وارتدّ عن دين المسيح مُخلّصنا ليصير يهوديًا، أصبح قرصانا وانضم إلى المسلمين، ولديه الآن سفينتان غنيمة تخصان رعايا الملك العظيم جدا»؛ وأنه فيما يخص اغتنام السفينتين الإسبانيّتين فقد حاولوا أن يقبضوا عليه فى بليماوس وأن يأخذوه على متن السفينة، لكنه رشا أناسا كثيرين واستطاع أن يجعلهم يتركونه يهرب.

فى خطاب بتاريخ ٤ نوفمبر ١٦١٤، يعلن جون شامبيرليه^(٥٦) عن القبض على باياتشى ويشير إليه كـ «قرصان» يهودى أحضر ثلاث غنائم من السفن الإسبانية إلى بليماوس^(٥٧)، فى الواقع، كما رأينا، استولى باياتشى على غنيمتين فقط، أرسلهما إلى هولندا قبل وصوله مضطراً إلى بليماوس. يستطرد شامبيرليه: «أرسله ملك المغرب واستعمل سفناً هولندية... لكن بالتأكيد سيُحرر من ذلك لأنه يحاول الحصول على ترخيص من يد الملك لى يذهب ويجيب، على الرغم من أنه لم يصدقّه إلى أن قدم دليلاً»^(٥٨). سوف نرى فيما بعد أن تفاؤل شامبيرليه كان مبرراً. لكن، بالتالى، فى أكتوبر من عام ١٦١٤، كان باياتشى فى السجن يطلب يائساً مساعدة من الهولنديين من خلال أخيه جوزيف ومن خلال نويل دى كارون، السفير الهولندى فى إنجلترا. كتب نويل دى كارون إلى الولايات قائلًا «السيد باياتشى المذكور لا يتوقف عن طلبى فى كل وقت» نظراً لطول اعتقاله وشقاء سجنه الذى يجعل حياته وحياة البحارة الستة المسجونين معه شاقة بشكلٍ غير عادى^(٥٩).

يخبر صمويل باياتشى عن اعتقاله فى خطاب مكتوب بالإسبانية فى دارتماوس فى الثانى من نوفمبر ١٦١٤ وموجه إلى الولايات العامة، التى يطلب منها حماية ومساندة متعللاً بأن الإسبان يريدون أن يقضوا على التفاهم الطيب بين هولندا والمغرب، وأن يعرفوا كل اتفاقاتهم. هناك نوع من التهديد تخفيه الكلمات فكأنه يقول : إما أن تحمونى، أو إذا بقيت فى أيادى الإسبان فسوف تكون أسراركم فى خطر. يشتكى بمرارة من الإسبان، ويتزرع بوضعه كعميل دبلوماسى «لا

تتفدوا رغبات سفير إسبانيا، فإننى أيضا وزير مفوض لمليكى [أى، سفيراً مثل أكونيا] وعقدت تحالفاً مع جمهورية كثيرة الحكمة والنبل [الولايات]. يبين أن من بين الذين قبضوا عليه هناك «رجل إيطالى يعاملنى على طريقة محكمة التفتيش؛ هو استولى على كل أوراقى، حيث توجد نسخ وخطابات صاحب الرفعة [ماوريتيو] والملك سيدى [زيدان]، لأن كل رغبته هى معرفة ما يجرى فى هذه النواحي»^(٦٠).

قبضوا، بالإضافة لذلك، على ستة هولنديين من طاقمه. مسألة حجز الأوراق أكدها ما قاله جوزيف فى لاهاي، والذي يصر أيضا على أن تفاصيل المعاهدات بين هولندا والمغرب معرضة لخطر الوقوع فى أيدي الأعداء، أى، الإسبان^(٦١).

طبقاً للاتهام الرسمى الإشباني، فإن باياتشى متهم بـ «القرصنة، والاعتداء والاستيلاء على غنيمة فى البحر تخص رعايا صاحب الجلالة [ملك إسبانيا]»^(٦٢).

الدفاع

طبقاً لصمويل، الذى ساندته شقيقه جوزيف من لاهاي^(٦٣)، فإن القبض، عليه كان غير قانونى. ليس هناك ما يؤاخذ عليه فهو لا يفعل إلا ممارسة «الحرب المشروعة» ضد دولة كان سيده، مولاي زيدان، فى حالة حرب معها. إنه سفير لملك المغرب، ويتحرك باذن مرور من ملك إنجلترا، ذلك الإذن الذى - كما رأينا عند تناول موضوع ابن أبى مَحَلَّى - كان قد طلبه على سبيل الحيلة من جون هاريسون^(٦٤).

فى خطابها إلى الملك جاكوب، تلتبس الولايات العامة فى نوفمبر من عام ١٦١٤ الإفراج عن صمويل وإعادة أوراقه^(٦٥). يحصل باياتشى أيضاً على وساطة ماوريتيو دى ناستاو نفسه، الذى يكتب بصفة شخصية إلى الملك جاكوب فى الحادى عشر من ديسمبر ١٦١٤^(٦٦).

يتناول الخطاب، المكتوب باللغة الفرنسية «الاتهامات المشنومة التى قدمها سفير ملك إسبانيا»، بينما فى الحقيقة «المذكور باياتشى لم يفعل سوى تنفيذ أوامر

ملك بلاد البربر، سيده، الذي عقد معه سادة الولايات العامة معاهدة سلام وتحالف»
ويطالب بالإفراج عنه.

بفضل تدخلات ماوريتيو ونويل دي كارون، سفير الولايات العامة في لندن، الذي حصل على مساندة بعض أبرز المحامين في إنجلترا^(٦٧)، يتلقى صمويل معاملة ممتازة ويُفرج عنه إفراجاً مؤقتاً تحت رقابة السير وليم كرافن Sir William Craven، فارس ونائب عن مدينة لندن، على الرغم من احتجاجات السفير الإسباني^(٦٨). كما رُدَّت إلى صمويل أوراقه^(٦٩).

في شهر ديسمبر يرفع باياتشي رسالةً إلى ماوريتيو، يشكره على أفضاله^(٧٠). في أواخر ديسمبر يحيل مجلس شورى الملك القضية إلى محكمة إمارة البحر (Court of the admiralty)^(٧١)، لكن أمر الإفراج عن باياتشي الذي صدر في هذه اللحظة ألغى بعد ذلك بعدة أيام. طبقاً لـ كارون، فإن السبب الذي يجعل كل شيء يسير بشكل بطيء وغامض للغاية، بتقديم وتأخير، يرجع إلى تدخلات دي أكونيا، الذي له مصلحة شخصية في الموضوع، والذي استطاع علاوة على ذلك، الحصول على مقابلة مع الملك جاكوب من أجل أن يتحدث عن موضوع باياتشي. استطاع أكونيا تأخير تسليم خطابات الإفراج، وحاول أن يتم القبض على صمويل من جديد في إطار قضية مدنية. وعندما كان أكونيا على وشك القبض على باياتشي بقوة السلاح لحظة خروج باياتشي طليقاً من منزل سير وليم كرافن، تدخل كارون واستطاع أن يجعل باياتشي يبقى في حرية تحت رقابة وضمان كرافن نفسه^(٧٢). تدخل أكونيا هذا يفسر إلغاء أمر الإفراج، غير أن تدخل كارون وكرافن يهدفان، على حد قول الأول، إلى حماية باياتشي من مكائد أكونيا، الذي، حسب كارون، يريد أن يرى باياتشي مشنوقاً.

أعضاء مجلس شورى الملك، والذين كان لكارون لقاء معهم يخبرونه بأن السفير الإسباني يتذرع بأن شقيق أو خليفة ملك المغرب (ينبغي أن يكون الشخص المقصود هو مولاى الشيخ، الذي توفي في أكتوبر ١٦١٣، لكن أكونيا يبدو أنه لا

يعلم) متحالف مع إسبانيا ومشمول بحمايتها. وهذا معناه أن : ملك المغرب ليس ملكاً مطلقاً، لكنه تابع لملك إسبانيا، وأن كلا البلدين لا يمكنهما أن يكونا في حرب كاملة. إذا لم تكن هناك «حرب كاملة»، فليس من الممكن التحدث عن قرصنة حكومية ؛ بل عن قرصنة خاصة.

في المحاكمة التي عقدت، دافع كارون عن باياتشى بخطاب استغرق أكثر من ساعة، بدون أية مقاطعة. كان دفاعه يركز على مفهوم مصلحة الدولة وعلى أهمية الحفاظ على العلاقات الدولية. على الرغم من أن الجميع متفقون، كما يقول، على أنه عبارة عن يهودى وبربرى، وأنه بصفته هذه فهو لا يستحق معاملة أفضل من كلب، وأنه، كارون، لن يدافع عنه أبداً كمواطن بسبب دينه «غير الصحيح» إلا أنه مع ذلك سفير لملك مطلق، وبصفته هذه يسافر بجواز سفر قانونى وبتوكيل حقيقى وصالح لمحاربة الإسبان. ولهذا يجب احترامه بسبب مصلحة الدولة، كما فعلت الملكة إيسابيل، التي كانت توقّر ملك المغرب وعاملت سفيره باحترام عندما وصل إلى قصرها، على الرغم من أنه كان يهودياً وبربرياً مثل باياتشى. أحرز خطاب كارون الممل نجاحاً واضحاً ودعم الإرادة الإنجليزية فى إيجاد حل سياسى.

مع ذلك، كان صمويل فى لندن فى يناير من عام ١٦١٥ عندما كتب إلى الولايات يطلب منها ألا توزع الغنيمة الخاصة بالسفينتين الإسبانيتين على المستحقين القانونيين، حتى يصل هو مع البحارة الذين كانوا مسجونين معه فى لندن^(٣٣). فى العشرين من يناير من عام ١٦١٥ يقرر المجلس الاستشارى أن القضية لن تفصل فيها محكمة إمارة البحر بل محكمة تضم اللورد كبير قضاة إنجلترا^(٣٤).

فى غضون ذلك، يقدم ديبغو سارميننتو دى أكونيا طلبه أمام أمير البحر ج. دون J. Dun^(٣٥) ويفقد باياتشى صبره. فى خطاب بتاريخ ٢٠ فبراير من عام ١٦١٥ يكتب إلى الولايات: «وهكذا إن شاء الحظ أن، أكون فى أياديكم بعد أن هربت من الإسبان، وليس لدى ملاذ آخر سوى الرب وسموكم الرفيع»^(٣٦).

في ١٣ مارس ١٦١٥ يكتب السفير الهولندي في إنجلترا، فويل دي كارون^(٨٧)، خطاباً إلى رالف وينوود، عميل إنجلترا في هولندا، يطلب فيه أن يصدر المجلس في النهاية حكماً في القضية التي لا تزال معلقة^(٨٨). يلفت الانتباه إلى أهمية باياتشي بالنسبة لمصالح الدولة الهولندية وفي مواد معينة لا تشمل تأجيل^(٨٩). أيضاً موسى باياتشي يتدخل في لاهاي في القضية، مبرهنًا على صحة التوكيل الذي أعطاه له مولاي زيدان، وهو الأمر الذي لا يقبله الإسبان. طبقاً لموسى فإن الثغرة Tughra أو علامة السلطان (التوقيع بصحة التوكيل) صحيحة، وهكذا توقيع علامة السكرتير الفرنسي، ويطلب من الولايات أن تؤكد على هذه الحقيقة^(٩٠).

ولأسف فإن الوثيقة الأصلية المثار بشأنها الجدل فقدت. ما نملكه فعلاً هو نسخة لتوكيل من زيدان، موجود في مجموعة غانس القديمة. غير أن هذا التوكيل لا يمكن أن يكون هو التوكيل الذي أعطاه زيدان في حوالي شهر يونيو من عام ١٦١٤، لأنه مؤرخ في اليوم الأخير من جمادى من عام ١٠٢١ هـ، الذي يوافق شهر يوليو من عام ١٦١١^(٩١). هذه يعني، أنه مع كل الاحتمالات فإن هذا هو التوكيل الذي أعطى لبيايتشي قبل خروجه مع أحمد بن عبدالله والأسطول الصغير لـ ريغيسبرغن من أجل السفر القصير إلى سواحل إسبانيا، والذي يُعد أول تجربة له كقرصان في خدمة زيدان. في خطاب بتاريخ ١٦ من مارس تشهد الولايات العامة بأن الوثيقة المذكورة صحيحة، وأن كل القادة الذين زاروا لاهاي تعاملوا مع باياتشي بصفته سفيراً^(٩٢).

الحكم

أخيراً أصدر المجلس الاستشاري في العاشر من شهر مارس حكماً في القضية الجنائية^(٩٣) يُعلن أن باياتشي غير مذنب فيما نسب إليه من اتهامات، وأحال القضية إلى المحكمة المدنية. أثناء أو بعد انعقاد الجلسة، جعل قاضي محكمة إمارة البحر، ج. نون جعل باياتشي يجلس بجواره، وهو الأمر الذي أثار غضب أكونيا، الذي يشتكى من أن الناس في إنجلترا يفضلون اليهود والبربر على المسيحيين.

مع ذلك، فإن غياب اللورد كبير القضاة وصاحب الجلالة سوف يؤخران صدور قرار نهائي. يأتي هذا القرار أخيرًا في أبريل عندما يعود الملك وينجح كارون في تحديد جلسة شخصية معه. عندما يصل إلى القصر يفرح لأنه استطاع أن يثبت أنه بينما يتحدث هو مع الملك، يتعين على أكونيا أن يقنع بالتحديث مع أعضاء من المجلس.

الغطرسة والتكبر والشراسة التي تفاخر بها أكونيا في موضوع باياتشى، هي الموضوعات التي يروق لكارون الاستفاضة فيها في خطباته. يقول كارون لجاكوب إنه بما أن الإسبان يعتبرون «رجال الدين»، أى، البروتستانت، لا أفضل ولا أسوأ من اليهود أو الأتراك وأنهم كانوا يقومون بحرقهم هم أيضًا (في إشارة إلى محكمة التفتيش)، وبما أن الإسبان كانوا على وشك إكمال طرد واستئصال يهود وأتراك، «نحن [الهولنديون والإنجليز] ينبغي علينا أن ندافع عن أنفسنا ضدهم». المسعى الأخير لأكونيا هو اشتراط ألا يستطيع باياتشى الذهاب إلا عندما يدفع كفالة مقدارها ثلاثين ألف جنيه استرليني، وهو رقم مبالغ فيه جعل باياتشى وكارون مكتئبين.

حسب كارون، كان أكونيا يأمل في أن أحداً في إنجلترا لن يكون مستعداً لدفع مبلغاً مالياً كبيراً. لكن كارون، بمساندة بعض التجار الهولنديين الأغنياء البارزين في بورصة لندن، دفع المبلغ وأصبح باياتشى حراً وذهب إلى هولندا بأسرع وقت. استغرق الموضوع منذ أكتوبر عام ١٦١٤ حتى أبريل من عام ١٦١٥.

القضية المدنية، مع ذلك، ظلت مُعلقة وعيّن باياتشى أحد خدامه كوكيل له في إنجلترا^(٨٤). يشكو ديبغو دي أكونيا بمرارة من العداء الذي وجده وكيف أن طلب الإسبان للعدالة يُنظر إليه على أنه جريمة^(٨٥).

يبدو أن الحكاية لم تُعجبه كثيراً؛ فقد طلب نقله كسفير إلى فرنسا عندما أفرج عن باياتشى. في أرشيف سيمانكاس^(٨٦) تُحفظ المراسلات والمضابط التي

كان أكونيا يرسلها إلى القصر، حيث لا يأتي أى ذكر لموضوع باياتشى، ولا أيضا فى مجلدات خطابه التى نُشِرت^(٨٧). يروق لأكونيا أن يعطى صورة عظيمة عن نفسه، عن نجاحاته الدبلوماسية وفى القصر الملكى الإنجليزى على حد سواء، ومع أنه يُسجّل عدة أعمال له حول قراصنة إنجليز وهولنديين، وهو الموضوع الذى يبدو أنه خصص له جزءا كبيرا — من طاقاته، يعرض دائما لأحداث تاريخية يكون له فيها دور المنتصر. فى نفس تلك السنوات نجده ملتزما، وبعمل يتصف بالتصميم والمثابرة بالقرب من جاكوب مشابه جدا، بموضوع والتر ريليف، الذى يحتل مكانا فسيحا فى مراسلاته المنشورة^(٨٨). ربما لم يبد له، بالمقارنة، موضوع باياتشى جديرا بالإشارة، باعتبار أنه قد أخفق فيه. قضية باياتشى ضد أكونيا كانت مستمرة حتى بعد موت صمويل فى فبراير من عام ١٦١٦، أى القضية التى يطالب باياتشى من خلالها أن، يدفع أكونيا تكاليف المحاكمة بما أنه خسر القضية. فى السادس من يونيو من عام ١٦١٦ اتقرر الولايات أن تكتب إلى السفير كارون الذى يتعين عليه أن يطالب بأن تعقد قضية باياتشى ضد أكونيا أمام ملك إنجلترا^(٨٩).

مرة أخرى فى هولندا: مشاكل مالية وصحية

عاد صمويل مع ذلك إلى هولندا مكسورا ومحطما، فأثناء غيابه بسبب القبض عليه فى إنجلترا ظهرت شكاوى عن أعمال غير قانونية له والتى وصلت إلى علم الولايات؛ خطاب إمارة بحر روتردام الذى يحتج على أن صمويل باياتشى كان قد اغتتم السفينة الهولندية، وينثونت، فى المنطقة المحيطة برأس ساحل سان بيسينتى^(٩٠)، والشكاوى الخاصة بالسفن الإنجليزية (التي بقت بشكل واضح بلا نتائج)، لكن الشكاوى الأكثر خطورة كانت تلك المتعلقة بالسفن الإسبانية^(٩١). أثناء حبسه فى لندن، كانت إمارة بحر روتردام تُقيم ثمن الغنائم التى اغتتمها باياتشى من الإسبان^(٩٢). يتضمن هذا التقييم السفينة الأولى التى وصلت إلى فيرى والسفينة الأخرى بقيادة القبطان جان سلوبى، التى وصلت من بليماوس إلى روتردام فى

الحادي والعشرين من أكتوبر من عام ١٦١٤^(٩٣). بعد عودته، يعارضن باياتشى - الذى يُسمى الآن «سفيرا» - تقسيم الغنائم: فى رأيه، الغنائم كلها تنتمى إلى ملك المغرب، الذى أعطاه رخصة قرصنة ضد الإسبان^(٩٤)، تقرر الولايات العامة تقسيم الغنيمة وإعطاء الربع إلى كل من بينتو وبريتو صاحبي السفينتين الأصليين. الثلاثة أرباع الأخرى سوف تُقسم بين زيدان وباياتشى وسلوبى والطاقم^(٩٥).

لن هذه المحاكمة الطويلة سببت ألماً شديداً لباياتشى بالإضافة إلى أنه خرج منها مدمراً اقتصادياً. القضايا التى وضعه فيها طاقمه الخاص به بسبب دفع الرواتب وتوزيع الغنيمة كانت قد بدأت بينما كان لا يزال حبيساً أو محتجزاً فى إنجلترا. والآن وقد كان مديوناً، وسبب مشاكل للولايات العامة بعد أن كسب عداً سيدة مولاي زيدان، فهم صمويل أنه يتوجب عليه أن يوجه نظره إلى مكان آخر ويبحث عن مكان جديد حيث يفتح طريقاً. إن بيع الجزء الذى كان يخصه من الغنيمة لم يكن كافياً لسداد ديونه.

هوامش الفصل الرابع

- 1 قرار الولايات العامة رقم ٨٠٣ الصادر في ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦١٣،
Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks 1610-1670.II.
(1613-1616); SIHM, Pays-Bas,II. p.201.
- 2 قرار الولايات العامة الصادر في ١٧ أكتوبر من عام ١٦١٣
(SIHM, Pays-Bas,II. p.202, Cf. idem: 30 de novembre 1613, en
SIHM, Pays-Bas,II, p.209).
- 3 تعيّن على القبطانين المرشّحين، جان سلوب وغير برانت جانسنز، أن يُقسّما
على ألاّ يُسببا ضرراً للولايات ولا لرعاياها. - (SIHM.Pays
Bas.II.pp.205 - 206) تابع الضابطان عملهما بعد ذلك بقليل
SIHM, Pays-Bas,II. pp.209-210
- 4 SIHM, Pays-Bas,II. pp.207-208.
- 5 Sic SIHM, Pays-Bas,II. p.423 كان اليخت يُستخدم لحمل المونّ،
cf.SIHM. Pays-Bas,II, p. 279.
- 6 رسالة بتاريخ ٣ مارس ١٦١٤ كتبها كورنيليس إيرسينس (١٥٤٥-١٦٢٧)،
كاتب الولايات العامة في الفترة من عام ١٥٨٤ إلى عام ١٦٢٣،
Véase sobre él: Van del Aa. s.v. Colección Gans,doc.2
- 7 Amsterdam, Archivo Municipal, Notarial Records, n.º 2323.
Not. Arch.199 fs. 202-205v (1617) Studia Rosenthaliana, XVIII
(1984), p. 161.
- 8 خول نبأياثشي شراء سفن في إنجلترا لقيام بأعمال القرصنة لصالح مولاي زيدان،

cf. Joseph Pallache a los Estados Generales, 29 de noviembre de 1614, SIHM Pays-Bas, II, p.423.

- 9 Colección Gans, doc.9 SIHM, Pays-Bas, II, p.203.
- 10 SIHM, Pays-Bas, II, p.425.
- 11 SIHM, Pays-Bas, II, pp. 272-274.
- 12 Cf. Requête de Joseph Pallache aux Etats Généraux, 29 de noviembre de 1614. SIHM, Pays-Bas, II, p.423. Colección Gans, docs.2 y 10.
- 13 خطاب من إمارة بحر روتردام إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢١ من نوفمبر من عام ١٦١٤،
SIHM, Pays-Bas, II, pp.410-415
- 14 "Twelcke doch meest voor date hen met zeeroven hadden geneert, daarvan de Porschreven generaal oock genoechsaem is gewaerschout".
- 15 تُوحى هذه الأحداث بأنه كان قد وقع تمرد، مع ذلك قام القبطان غيربرانت جانسز، قائد البخت، في الأول من شهر يوليو من عام ١٦١٥ بتقديم طلب إلى الولايات يتعلق بهذه الرحلة.
- 16 "إيذاء ومحاربة الإسبان وأعدائه الآخرين الذين كان في حالة حرب معهم"،
Cf. Colección Gans, doc. 10 y doc.9,
انظر التذييل، رسالة من جوزيف باياتشى إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢٩ إبريل من عام ١٦١٥، SIHM, Pays-Bas, II, p.423 رسالة من صمويل

باياتشى إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢٩ من إبريل من عام ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, p.546.

17 تقع المعمورة على بُعد عشرين كيلومتر شمال سلا

Al-Mamûra: s.v.al –Mahdiyya en EI², art. E. Levi-Provençal.

18 SIHM, Pays-Bas,I, pp.624 y ss. II, pp.3 y ss.

19 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 43 y ss.

20 SIHM, Pays-Bas,II, pp.46 y ss.

21 SIHM. Pays-Bas,II, pp.75 y ss.

22 SIHM, Pays-Bas,II, p.141.

23 Agustín Orozco. Discurso historial de la presa que del puerto de la Mamora hizo la armada real de España en el año 1614. Madrid, 1615, Biblioteca de Autores Españoles. vol. 36, p.216.

24 انظر مذكّرة باياتشى المؤرخة في العشرين من يناير من عام ١٦١٢،

En SIMH, Pays-Bas,II, pp.3-4,

أعيد نشرها وبشكل مفصّل في السابع والعشرين من مارس من عام ١٦١٤،
idem, pp. 256-258.

25 Orozco, op, cit, p.211.

26 SIHM, Pays-Bas,II, p.282.

27 SIHM, Pays-Bas,II, p.288.

28 SIHM, Pays-Bas,II, pp.305 y 311.

- 29 SIHM, Pays-Bas.II, p.320
- 30 في شهر مارس من عام ١٦١٣ يُخبر الدوق الملك عن السفن التي يسعى مولاي زيدان لأن يعطوها له في هولندا وعن الحصن الذي يشيده الهولنديون في الميناء. في السابع من يناير من عام ١٦١٤ يأمر الملك بإرسال فاخارنو. ADM. Leg. 2409
- 31 عندما دخل الإسبان المعمورة وجنوا في مينائها سبع عشرة سفينة لقراصنة، علاوة على سفينة (تُستخدم لنقل الغلال) تكفي لحمل أكثر من ثلاثمائة طن، وخمسمائة قرصان من مختلف الجنسيات، op.cit. p.216. Véase Orozco, Discurso historial
- 32 SIHM, Pays-Bas.II, p.317
- 33 SIHM, Pays-Bas.II, p.339.
- 34 SIHM, Pays-Bas.II, p.328.
- 35 SIHM, Pays-Bas.II, p.354.
- 36 SIHM, Pays-Bas.II, pp. 311-12 y 339.
- 37 رسالة من الدوق إلى الملك بتاريخ ١١ سبتمبر عام ١٦١٠ ADM, Leg. 2408.
- 38 رسائل من شهر مارس إلى شهر إبريل من عام ١٦١٤ ADM, leg. 2409.
- 39 ADM, Leg. 2409, abril de 1614.
- 40 رسالة من الملك إلى الدوق بتاريخ ٢٠ من أغسطس من عام ١٦١٣ ADM,
- 41 رسالة من الملك إلى الدوق بتاريخ ٢ مارس من عام ١٦١٤. ADM. Leg.2409

- 42 Álvarez de Toledo, Alonso Pérez de Cuzmán.... vol.II, P.96.
- 43 انظر على سبيل المثال رسالة دوق ميدينا سيدونيا إلى الملك في
١٥ مارس ١٦١٤
- AGS, Estado, Leg. 495.
- 44 Colección Gans, doc. 9c; SIHM, Pays-Bas, II, p.378
- 45 Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks, 1610-1670, II,
(1613-1616), no.826. هذا القرار غير مدرج في SIHM. لا نفهم كيف
يمكن تفسير أن الأمر يتعلق بعدة سفن، بعد انفصال اليخت والسفينة.
- 46 احتجاج بايانشي في ريكيت في ٢٨ من إبريل من عام ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas, II, pp. 540-542.
- 47 Cf. D. M. Swetchinski, The Portuguese Jewish Merchants of
Seventeenth Century Amsterdam: A Social Profile. Ph.D.
Thesis, Brandeis University, 1979, pp. 117-118, 173-174.
- 48 SIHM, Pays-Bas, II, p.547: "Ende is geschiet, dat wy twee
buyten genomen hebbende en conden in de havenen van
Barbarien nyet arriveren deur belet van de armade van
Spaignen, die op de custe was".
- 49 خطاب من الولايات العامة إلى ملك إنجلترا. Colección Gans, doc.10,
- 50 SIHM, Pays-Bas, II, p.373.
- 51 SIHM, Pays-Bas, II, p.382.
- 52 Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks 1610-1670, II

(1613-1616), 4 novembre de 1614 (n.º 913b).

- 53 SIHM, Pays-Bas,II, p.533, Resolución de 22 de abril de 1615.
- 54 رسالة من صمويل باياتشى إلى الولايات العامة صادرة من دارتماوس،
بتاريخ ٢ نوفمبر من عام ١٦١٤، SIHM, Pays-Bas,II, pp. 407-409
- 55 SIHM, Pays-Bas,II, p.395.
- 56 رسالة الولايات العامة إلى ملك إنجلترا في الثاني والعشرين من نوفمبر من
عام ١٦١٤، Colección Gans,doc.20.
- 57 رسالة من جون تشامبيرلين إلى دولي كارليتون، في ٤ نوفمبر من عام
١٦١٤.
- SIHM, Angleterre, II, p. 477.
- 58 "He [Pallache] was set out by the King of Morocco, and useth
Hollanders ships and for the most part theyre mariners. But yt is
like he shall passe yt over well enough, for he pretendeth to have
leave and licence under the king`s hand for his free egresse and
regresse, which he was not beleaved till he made proof of yt".
- 59 SIHM, Angleterre,II,p.489
- 60 SIHM, Pays-Bas,II, pp.407-409.
- 61 SIHM, Pays-Bas,II, p.422.
- 62 "Piracie, spoyle and outrage at Sea upon the subiects of the

- King", Colección Gans, doc.3, 20 de marzo de 1615. El mismo documento ha sido publicado por Albrahams, "Two Jews..." pp.356-357.
- 63 CF. Joseph Pallache, التماس إلى الولايات العامة، ٢٩ نوفمبر ١٦١٤،
SIHM, Pays-Bas, II, pp.420-424.
- 64 حصل باياتشى على إذن المرور بوساطة من جون هاريسون فى عام ١٦١٢. رسالة من هاريسون إلى الولايات العامة، صافى، ١٢ من سبتمبر من عام ١٦١٤،
SIHM, Pays-Bas, II, pp. 326-327.
- 65 رسالة من الولايات العامة إلى جاكوب الأول، ٢٩ من نوفمبر من عام ١٦١٤،
SIHM, Pays-Bas, II, pp. 425-428, Colección Gans, doc.10.
- 66 رسالة من ماوريتيو إلى جاكوب الأول، ١١ من ديسمبر من عام ١٦١٤
SIHM, Angleterre, II, pp. 486 – 487.
- 67 رسالة من كارون إلى الولايات العامة، ٤-٥ من إبريل من عام ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas, II, pp. 521-529.
- 68 رسالة من صمويل باياتشى إلى الولايات العامة، أواخر نوفمبر من عام ١٦١٤،
SIHM, Pays-Bas, pp. 429-430.
- 69 رسالة من جوزيف باياتشى إلى الولايات العامة، ٤ من ديسمبر من عام ١٦١٤،

- SIHM, Pays-Bas,II, pp.433-434.
- 70 مخطوطة هذه الرسالة موجودة في مصنف غانز، وثيقة رقم ١١. انظر التذييل
- 71 Abrahams, "Two Jews...", p.355. Acts of the Privy Council. 2 de enero de 1615, 23 de diciembre de 1614.
- 72 رسالة من كارون إلى الولايات العامة في ٨ يناير ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas,II, pp. 446 y ss.
- 73 رسالة من صمويل باياتشى إلى الولايات العامة، ٢٦ من يناير من عام ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas, p.471.
- 74 Abrahams, "Two Jews", p.356.
- 75 El 8 de febrero de 1615, colección Gans,doc. nº 14.
- 76 SIHM, Pays-Bas,II, p.473.
- 77 عن هذه الشخصية المهمة التي توفيت في عام ١٦٢٤، انظر
SIHM. Pays-Bas,I, p. 249.
- 78 Véase sobre Winwood, Dictionary of National Biography, s.v. Protestante hirviente, en 1613 y principios de 1614,
كان وينوود عميلاً لإنجلترا في لاهاي على الرغم من أنه كان يذهب ويجيء من إنجلترا. في ٢٩ مارس من عام ١٦١٤ عُيِّن "سكرتير دولة".
- 79 SIHM, Angleterre,II,pp. 488-489

- 80 رسالة من موسى باياتشى إلى الولايات، فى ١٣ مارس ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas,II, pp. 500-502.
- 81 Publicado en Gans, Memorboek, p.34.
- 82 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 504-505.
- 83 واحد وعشرين من مارس من عام ١٦١٥ "أسلوب جديد، أى طبقاً للتقويم
الخوليانو"، Colección Gans,doc. n°3، صيغة أخرى من هذه الوثيقة
منشورة فى، Abrahams "Two Jews.." pp.356-357
- 84 رسالة من كارون إلى الولايات العامة، فى ٩ إبريل من عام ١٦١٥،
SIHM, Pays-Bas,II, pp. 530-532.
- 85 SIHM, Pays-Bas,II, p.531.
- 86 AGS, Estado, Libro 366, años 1613-14.
- 87 Correspondencia oficial de Don Diego Sarmiento de Acuña,
Conde de Gondomar. Documentos Inéditos para la historia de
España. Vols. I-IV, Madrid,1936-45.
- 88 Correspondencia oficial...vol.I.
- 89 Resoluciones 1615,n.° 389, SIHM, Pays-Bas,II, p.682.
- 90 رسالة من إمارة بحر روتردام إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢١ من نوفمبر
من عام ١٦١٤، SIHM, Pays-Bas,II, pp.410-415
- 91 Mendes de Costa, Catálogo Amsterdam, VII, n.° 555, 274-276.

Hugo de Groot Tracten ende questien (7111-C-3.f. 275-277)

تقرير هيرتسبرج، الذي كان قد ذكر منه هوغو غروتس أن صمويل حاول في عام ١٦٠٤ إنقاذ شحنة هولندية كانت قد أختُصبت من سفينة من قبل برتغاليين، هو تقرير خاطئ.

92 SIHM, Pays-Bas,II, p.513.

93 SIHM, Pays-Bas,II, pp.398-402, carta del almirantazgo de Rotterdam a los Estados, el 29 de octubre de 1614.

94 Resolución de 28 de abril de 1615, SIHM, Pays-Bas,II, pp. 540-542.

95 Resolución de 30 de abril de 1615. SIHM, Pays-Bas,II, pp. 548-550.

الفصل الخامس

المحاولات الأخيرة: إسطنبول ومدينتي

الاتصالات مع الإمبراطورية العثمانية

فى النصف الثانى من العقد الذى يبدأ عام ١٦١٠ قرر العثمانيون زيادة علاقاتهم مع المغرب^(١). كان خليل باشا، وهو شخصية رفيعة الشأن فى القصر العثمانى^(٢)، يأمل أن يكون الهولنديون وسيطاً طيباً من أجل إقامة روابط صداقة كانت غائبة حتى ذلك الوقت. كانت الاتصالات المباشرة صعبة، ليس فقط بسبب عدم الثقة التى كان يشعر بها المغاربة إزاء تدخل عثمانى محتمل، بل بسبب سلسلة كاملة من المشاكل البشرية كانت تتعلق بالإبحار فى البحر المتوسط وعلى وجه الخصوص الصعوبات حول مضيق جبل طارق.

مستغلاً هذه الفرصة وبهدف إقامة علاقات مباشرة مع تركيا، أوفد جوزيف باياتشى ابنه موسى إلى إسطنبول فى أوائل عام ١٦١٤، عندما كان جوزيف لا يزال يعمل بوضوح كعميل لمولاي زيدان. لم يحقق نجاحاً كبيراً^(٣).

بعد ذلك بشهور قليلة سنحت لصمويل، الذى كان قد وقع فى محنة مع مولاي زيدان، فرصة لتحسين العلاقات مع الأتراك: كانت سيدة تركية من عائلة مهمة قد وقعت فى أسر الفرنسيين. حررها باياتشى الذى كانت أسرة السيدة قد وكلته بافتدائها، وأحضرها باياتشى إلى هولندا حيث اعتنى بها الأمير ماوريتيو بشكل مباشر وأرسلت عائدةً لبيتها مع كل الضمانات^(٤). يبدو أنها عانت بصحبة فتاتين فرنسيتين كانتا فى خدمتها، سببت إحداهما مشكلةً صغيرة لأنها بعد أن وصلت إلى تركيا هربت وبحيث عن ملجأ فى بيت السفير الفرنسى. الأخرى، على العكس، أرادت أن تتحول إلى الإسلام. يقول كورنيليس هاغاليس Cornelis hagalis، السفير الهولندى فى إسطنبول، إن صمويل باياتشى كان يزعم أن كلتا الفتاتين كانتا

بصفة هدية من صمويل إلى خليل باشا وأنها كانتا تحملان رسائل من باياتشى هدفها أن يضمن لهما، لموسى ولّه، مدخلا إلى الدوائر العثمانية الرفيعة^(٥).

أصبحت أسرة السيدة ممثلة جدا للهولنديين. يؤكد هاغا أن موسى بدأ حينئذ يشيع أقاويل عن أن الهولنديين، في شخص هاغا، كانوا محبطين بسبب الضعف الذى عثر به عن هذا الامتياز وأنه، أى هاغا، بعد أن انصرف، كان يخطط لقتل أحد أعضاء هذه الأسرة^(٦).

بث أيضا إشاعة عن أن هاغا لم يعد يتمتع بمساندة الولايات العامة^(٧)، وأن الهولنديين كانوا يُعيقون الاتصالات بين الأتراك والمغاربة عندما منعوا الباياتشيين من السفر إلى إسطنبول. وكان الباياتشيون بالطبع يحملون هدايا ثمينة عهد بها إليهم السلطان العثماني^(٨).

أصرّت الولايات على أن جوزيف باياتشى، الذى كان عميلاً لمولاي زيدان فى لاهاي منذ أن وقع صمويل فى محنة مع زيدان، صرح أمام سيده أن الولايات لم تضع أبدا عقبات^(٩)، وقدم جوزيف تصريحاً كتابياً فى هذا الصدد. طبقاً لجوزيف فإن شكوك هاغا سببها أنه فسر بشكل سيئ خطاباً من صمويل كان يتحدث عن مشروع سفارة يقودها أحمد بن عبدالله وتحمل هدايا ثمينة، وأن هذا السفير، وليس باياتشى، هو الذى اعترضته السفن الإسبانية. كان جوزيف يطلب بالتالى أن يُترجم خطاب صمويل بشكل صحيح بهدف أن يبقى واضحاً أن أخاه صمويل لم يكن يقصد أى إضرار بالمصالح الهولندية^(١٠). من جانبه، يعتبر هاغا بالطبع أن خطة الباياتشيين تهدف إلى نقل كل العائلة إلى إسطنبول والاستحواذ على التحكم فى العلاقات بين الهولنديين والأتراك من ناحية، والمغاربة والإسبان من ناحية أخرى، دون التخلي بسبب ذلك عن أنشطتهم التجارية^(١١). ومن أجل الحصول على هذا الهدف كان من الضروري أن يختفى هاغا من الساحة.

فعل هاغا بالطبع كل ما أمكنه من أجل إفشال خطط أفراد عائلة باياتشى الذين لم يستطيعوا أبداً أن يلعبوا الدور الذى كانوا يقصدونه فى العلاقات الهولندية.

– التركية – المغربية. كل ذلك سبب تباعدا بين خليل باشا وهاغا وتلفا مؤقتا للعلاقات العثمانية مع هولندا، وخلق كذلك مناخا جديدا من البرودة بين العثمانيين والمغرب. ولم يأت كذلك بأى خير على صمويل باياتشى، الذى كان يتحول إلى مصدر للنزاعات بالنسبة لهولندا.

المفاوضات النهائية مع الإسبان

لا يجب أن يدهشنا الآن أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه باياتشى مُكَبَّأ على كل هذا الموضوع مع إسطنبول، نجده قد فتح فصلا جديدا، كان هو الأخير، فى علاقاته مع إسبانيا. الاتصالات، التى تُعَيَّن أن تؤدي إلى نوع من معاهدة أو تعاقد أبرم فى نوفمبر من عام ١٦١٥، بدأت فى أغسطس من عام ١٦١٥ من خلال راهب تابع لرهبانية لاميرثيد يُدعى غريغوريو Gregorio من فالنسيا، وبشكل خاص بوساطة دوارتى فرنانديث، وهو يهودى برتغالى ورد ذكره قبل ذلك، ويصفه دوق غواداليسى guadaleste، سفير إسبانيا فى فلانديس، بأنه «شخص ذو عقل راجح تستمع إليه الولايات». دوارتى فرنانديث كان هو الذى أقام أول اتصال مع غريغوريو الفاليسى وأكد له أنهما معا سيكونان قادرين على «تحويل [باياتشى] للخدمة الملكية لجلالتكم»^(١٢). كان دوارتى فرنانديث يعمل فى خدمة الإسبان قبل ذلك ببعض الوقت، منذ عام ١٦١٤ أو بداية عام ١٦١٥.

أثناء تلك المفاوضات مع مركز غواداليسى طُلِبَت نصيحة عدَّة أشخاص ممن يمكن أن يكون لهم رأى فى هذا الصدد، ومن بينهم ديبغو سارمينتو، كونت غوندومار، السفير الذى كان له دور مهم جدا فى قضية لندن. غوندومار، الذى كان قد حارب كثيرا ضد باياتشى وسبب سجنه ومحاكمته، يؤيد الآن بشكل قاطع تجنيد باياتشى لى يعمل لصالح التاج الإشباني. مع أنه كان يبدو بالنسبة لغوندومار أن الخصومة مع باياتشى كانت قد صارت مسألة شخصية. من الواضح كذلك أنه، سواء كان بسبب اعتباره خصما ذا أهمية (إستمالته خيرا من معاداته) أو بسبب تقدير الفرص التى يمكن الحصول عليها من القدرة الازدواجية لباياتشى، فإن

غوندومار يعتبر إبرام اتفاق معه حركة سياسية طيبة. لم يُعد يُنظر في الاعتبار عما إذا كان يهوديًا أو بربريًا، أو مواطنًا ارتدَّ عن دينه ولا يمكن الوثوق به. حصل صمويل على وضع يجعله خطيرًا أو ذا قيمة حسب المكان الذي يوضع فيه وحسب الشخص الذي لديه فرصة استخدامه.

تقدمت المفاوضات بسرعة ونشاط وفي نوفمبر من عام ١٦١٥ أسس كلا الجانبين اثني عشر بندًا اتفقا عليها^(١٣). توجد تراجم عديدة لهذه البنود تُفسَّر على هوى المشاركين. وفي إحدى هذه الوثائق المشار إليها لا تُفصل فقط البنود، بل يُكتب في الهوامش النتائج الممكنة المناسبة لإسبانيا والمترتبة على كل بند منها. مؤلف هذه التفسيرات الهامشية هو مركز غواداليستي نفسه^(١٤).

يلتزم صمويل باياتشي بأن ينقل للتاج معلومات قيمة وجديرة بالتصديق لكنه سوف يفعل ذلك فقط من خلال شخصين: دوارتي فرنانديث وموسى باياتشي (البند رقم ١). بهذه الطريقة يرغب باياتشي في أن يؤكد أنه سوف يحصل على مستحقاته بانتظام حيث أنه لم يحصل على مقابل نظير خدماته السابقة («السنوات الماضية») بعد أن ثبت باياتشي بشكل مقنع فائدته وأهمية معلوماته سوف يُمنح جواز سفر وتوكيلاً. سوف يسدد له المبلغ المستحق له عن أعمال نفذها في الماضي، وبالإضافة إلى ذلك سوف يخصص له مبلغ ٢٠٠ إسكودو شهريًا طالما استمر في إرسال المعلومات المفيدة إلى التاج (البند رقم ٢). على وجه خاص سوف يجعل التاج الإسباني على دراية ومطلعًا على كل الأسرار الهولندية وعلى المخاطر التي يمكن أن تحدث لإسبانيا من المناورات السياسية لذلك البلد. في ملاحظة هامشية يُفصل أنه من أجل هذا سوف يستخدم المعلومات التي يزوده بها «أرثين» (لاشك أنه كورنيليس إيرسينس) سكرتير الولايات العامة. في نفس الوقت، سوف يقدم معلومات عن علاقات فرنسا وإنجلترا بالمغرب وبالإمبراطورية التركية (البند رقم ٤). وأكثر من ذلك (البند رقم ٥)، سوف يخدم صاحب الجلالة بأن يجعل ملك

المغرب يتوقف عن كل نشاط تجارى مع فرنسا وهولندا وإنجلترا، بحيث يبقى مضيق جبل طارق فى مأمن وتحت سيطرة قاصرة على إسبانيا. الملاحظة الهامشية توضح أن هذا البند هو أحد أهم البنود. سوف يقيم أيضا اتصالاً مباشراً مع الأتراك من خلال سليم باشا، الذى - كما تشرح الملاحظة الهامشية - يرتبط معه باياتشى بعلاقات صداقة شخصية (البند رقم ٦). كل ذلك سوف يفعله بولاء غير مشروط وإخلاص كلى نحو ملك إسبانيا وتحت غطاء كونه «سفير المغرب» (البند رقم ٧). القواعد العامة التى سوف يعمل على أساسها باياتشى هى: بدون نتائج ليس هناك مال، فقط إذا كانت خدماته مفيدة سوف يدفع له أجره. التفاصيل الضرورية سوف تناقش شفاهة مع غريغوريو دى فالنسيا (البند رقم ٨). ينبغى على ملك إسبانيا أن يستوفى ويفشىل المفاوضات الجارية بين المغرب وفرنسا حول مكتبة مولاي زيدان، لأسباب سوف تناقش «شفاهة» مع غريغوريو دى فالنسيا نفسه. يصر على أن ذلك مهم جدا «من أجل مقصدنا»^(١٥) (البند رقم ٩). رأينا أن صمويل وموسى كانا قد اشتركا فى عام ١٦١٢ فى المفاوضات من أجل استرداد الكتب، وكانا يعرفان كم كانت تهم مولاي زيدان: ربما يفكران فى استغلال هذه القضية وقدرتهما كوسيطين مع إسبانيا ليعودا إلى العمل لصالح السلطان.

مع ذلك، وكما هو مفصل فى العقد، الشرط الأول، الخطوة الأولى للمشروع، تتمثل فى إخراج جوزيف باياتشى وأسرته من هولندا ليكون فى المستقبل صمويل وموسى ابن شقيقه فقط هما اللذان يقطنان هناك. وهناك إصرار متكرر على أن موسى «مهم بنفس قدر أهمية صمويل» (البند رقم ١٠). السبب الذى يطلب من أجله هذا الخروج مفصل فى هامش الوثيقة: جوزيف عدو معلن لملك إسبانيا وسوف يفشىل أى اتفاق. لكى يذهب جوزيف وأسرته إلى إسطنبول من الضروري أن يسلم التاج إلى باياتشى ٢٠٠٠ إسكودو. لاشك أنها عبارة عن خطة هدفها الحصول بسرعة على مال نقدى يعالج به الوضع الاقتصادى الصعب جدا للعائلة ويؤمن استقرار جوزيف فى إسطنبول. تلح الوثيقة على ضرورة أن يرحل

جوزيف إلى إسطنبول وتصر على أن هناك ضرورة كبيرة ملحة، وأن الوقت يضيق (البند رقم ١١). ينبغي أن يصدر جواز السفر بأسرع ما يكون و«بشكل طيب ولائق».

يوضح خطاب وجهه فيليبي الثالث Felipe III إلى شقيقه ألبرتو أن غريغوريو دي فالنسيا كان قد زاره، وأنه أعطى الضوء الأخضر للمشروع وكان ينتظر إعلامه بسيره^(١٦). لكن ينبغي علينا أن نخمن أن باياتشى كان يعاني حينئذٍ من المرض الذى تعيّن عليه أن يموت به، وأنه ترك المشروع دون إتمام^(١٧).

وفاة صمويل

فى ٢٥ يناير من عام ١٦١٦ اطلب صمويل باياتشى من الولايات قرضاً جديداً قدره ٢٠٠ جنيه. يقول فى الطلب أنه منذ ثلاثة شهور وهو طريق الفراش ومريضٌ جداً وأن حاجته إلى المال كبيرة. فى الخامس من فبراير منحت الولايات القرض نظراً لأن باياتشى كان على وشك الموت^(١٨).

وبالفعل، توفى صمويل فى نفس هذا اليوم. ربّما أثر موضوع لندن سلبياً على صحته وأمواله على حدٍ سواء.

لا نعلم أى مرض أصابه ولاكم كان عمره عند وفاته. لم يكن - على ما يبدو - رجلاً طاعناً فى السن. توجد تقارير عن دفنه فى قرارات الولايات العامة تُفصّل أن الأمير ماوريثيو وأعضاء الولايات العامة ومجلس الدولة شيعوا جثمانه حتى كوبرى هوتسترات (اسمه اليوم، واتيرلوبلين) ومن هناك نُقِلَ على خشبة حتى مدفن طوائف يهود أمستردام فى أوديركيرك آن دى أمستيل^(١٩). هكذا قدم ماوريثيو التكريم الأخير لرجلٍ شعر نحوه بتعاطفٍ واضح وسانده فى كل الظروف التى تطلبت مساندته حتى، فى بعض المناسبات، على حساب مصالح مؤسسات أخرى لبلده. مات صمويل فقيراً.

فى سجل الوفيات وفى الكلمات المنقوشة على مقبرته يطلق على باياتشى لفظ «حاخام»، شىء هكذا مثل «موقر»، إشارة إلى معرفته الجيدة ومشاركته فى الطقوس والشعائر اليهودية^(٢٠). مقبرته، التى لاتزال محفوظة حتى اليوم، عليها شعار بيضاوى به أسد وتاج كونت، يقرأ تحته، باللغة العبرية: «هذه هى مقبرة الرجل الحكيم والتقوى والوجيه الذى أدى واجباته نحو الرب والناس، الحاخام صمويل باياتشى، ليستريح فى سلام، نودى إلى كنف الرب يوم الجمعة ١٦ شباط من عام ٥٣٧٦».

العلاقات التى أحرز فيها باياتشى تقدما كبيرا مع الإسبان تولى موسى مسئوليتها، وقد سافر موسى إلى بروكسيل يرافقه دوارتى فرنانديث وعقد مقابلة مع مركز غواداليستى ومع أمبروسيو دى سبينولا. عرض موسى خدماته من أجل الاشتراك فى الخطة الإسبانية لاحتلال سلا وفيدالا فى الساحل المغربى. لم ينتج شيئا عن هذه الاتصالات، لأن الإسبان تخلوا أساسا عن خططهم لاحتلال سلا^(٢١). سيظل موسى على اتصال بدوق مدينا سيدونيا وبالإسبان، على الأقل حتى عام ١٦٢٧.

بعد موت صمويل استمر البياتشيون يلعبون دورا على الساحة الدولية. فى يونيو من عام ١٦١٦ اطلب جوزيف، كعميل لزيدان فى هولندا، من الولايات العامة أن تغطى نفقات سفر له إلى المغرب التى كان يتعين عليه أن يرحل منها برفقة السفير المغربى إلى إسطنبول^(٢٢).

السفارة المغربية، برئاسة أحمد بن عبد الله المذكور سابقا، وصلت حقيقة إلى إسطنبول، بيد أن مهمتها لم تحقق نجاحا كبيرا^(٢٣). شعر الأتراك بخيبة الأمل من السفارة المغربية، وهو الأمر الذى أثرت فيه بلا شك مناورات هاغا الذى كان غاضبا بسبب تجاربه السابقة مع البياتشين. حمل المغاربة معهم هدايا للسلطان العثمانى: قفطانا فاخرًا وسيفًا وصولجانًا، غير أن هذه الهدايا كانت تقدم عادة لشخصيات أقل أهمية من السلطان^(٢٤).

لكن بدءًا من موت صمويل، تختفى إسطنبول ومدرّيد من الساحة بالنسبة للباياتشيين الذين يكرسون أنفسهم بالكامل للمغرب وهولندا.

بموت صمويل يختفى أيضًا العنصر المغامر والمخاطر الذي كان قد ميّز أعماله. كانت العائلة مستقرة بما فيه الكفاية. كانت قد أقامت مكانًا ومجالًا تخصصتميزت به وإن لم يكن سهلًا ولا خالٍ من المخاطر. إنهم موضوع الفصل التالي.

هوامش الفصل الخامس

- 1 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة في التاسع من فبراير من عام ١٦١٦،
SIHM. Pays-Bas.II, pp.629-631,
SIHM. Pays-Bas.II, p 623، أى بعد أربعة أيام من وفاة صمويل،
A.H.de Groot, The Ottoman Empire and the Dutch Republic. A
History of the Earliest Diplomatic Relations 1610-1630
Leiden,1978, p. 143. (رسالة دكتوراه من جامعة ليدن)،
- 2 قبطان – باشا في ظل حكم السلطان أحمد الأول، وكبير وزراء بدء من
يناير من عام ١٦١٧
- 3 SIHM. Pays-Bas.II, p643
- 4 Véase SIHM, Pays-Bas,II, pp.578-583,
ترجمة لخطاب باللغة التركية كتبه باياتشى إلى خليل باشا، ربما بين ٢٩
مايو، ٧ يونيو من عام ١٦١٥
“Voorts sall Uwe Excellentie weten, hoe dat alhier is
gearriveert een man genaemt. Abdulla van wegen den eersamen
Ismael Aga tot verlossinge van een suster van dito Ismel Aga,
die slaeff was in Vranckryck, ende ick Uwe Exellentie slave
hebbe alle mogelycke devoiren aangewendt om dito slavinne
vuyt de handen van de Francoeyen te libereren, ende heb haer
in myn huys ontfangen, betoenende jegens haer alle eer ende
vrundtschap,ende ick heb haer daer nae gebracht by Syn

Excellentie graff Maurits, dwelcke wel genegen zynde om haer
met eenige gelegentheyt van scheepen wech te schicken...”

5 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، SIHM. Pays-Bas,II,pp.655- 658

6 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ١٦ إبريل ١٦١٦،

SIHM. Pays-Bas, II, p. 658.

7 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ٥ مارس ١٦١٦،

SIHM, Pays-Bas,II, p. 644.

8 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ٥ مارس ١٦١٦،

SIHM, Pays-Bas,II, p. 644.

9 قرار صادر في ٤ مايو ١٦١٦، SIHM, Pays-Bas,II, pp.672-675.

10 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 672-675.

11 SIHM, Pays-Bas,II, p. 656.

12 قبل أن تبدأ المفاوضات عن طريق غريغوريو دي فالنسيا كان راهب آخر
يُدعى جابرييل دي أوبي دي كولونيا قد حاول عمل اتصالات باسم صمويل
باياتشي مع التاج الإسباني.
AGS. Estado, Leg. 629,
n.º 117.

13 AGS, Estado, Leg. 629, n.º 116-119, n.º119:

أعطى صمويل باياتشي هذه البنود موقعة بخط يده إلى دوارتي فرنانديث
ورأيتها [أي، غريغوريو دي فالنسيا] وأمسكتها بيداي.

- 14 AGS, Estado, هذه الملاحظات الهامشية لا تظهر فى
Leg.2300.
- 15 عن موضوع كاستيلان وكتب السلطان، انظر الفصل السابق
- 16 وثيقة فى مصنف غانز، مؤرخة فى ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥. انظر
التذييل.
- 17 SIHM, Pays-Bas,II, pp.621-622.
- 18 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 621-622.
- 19 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 623-624.
- 20 Pieterse, op., cit., p.55; D. Henriques de Castro, Keur van
Grafsteenen op de Nederl-Portug-Israël. BegraafLaats te
Ouderkerk aan den Amstel, Leiden, 1883. Lapida de Samuel
Pallache: n.º 15, pp.91-94, S.v. "Hakham" en la Encyclopaedia
Judaica. Traducción del texto en Hirschberg, op.cit., p.219.
- 21 عن محاولات موريسكى سلا تسليم الموقع إلى الإسبان انظر:
H. Bouzineb, «"Plática" en torno de la entrega de Salé en el
siglo XVII» Al-Qantara, XV, (1994), pp.47-73.
- 22 قرار الولايات العامة فى ٢٤ من يونيو من عام ١٦١٦، SIHM, pays
Bas II, pp. 690 - 691 - رسالة من جوزيف إلى الولايات فى
٢٥ من يونيو من عام ١٦١٦،
SIHM, Pays-Bas,II, pp.692-693.
- 23 Heeringa, op.cit., p.119. De Groot, op.cit., pp.147-149.

24 De Groot, op.cit.,p.148, que cita ARA States General 6891

رسالة من هاغا إلى الولايات بتاريخ ٤ من مارس من عام ١٦١٧.

الفصل السادس

بعد صمويل: العائلة

إنَّ موت صمويل في فبراير من عام ١٦١٦ جعل عائلته في وضع صعب. في هذه اللحظة كانت عائلة باياتشي تعتمد على الأعضاء الآتين: في المستند الوثائقي الذي يشهد ببيع بضعة لفائف من التوراة، وتنتمي إلى ميراث صمويل، إلى جماعة نيفي سالوم اليهودية، يأتي ذكرُ أرملة ملكة أو مالكة (أسماء متساوية، حيث أن مالكة أو مليكة معناها ملكة بالعربية والعبرية)، وابن كليهما، إسحاق. تُذكر الوثيقة كذلك أخاه جوزيف وزوجته، بينفينيداء، مع أبنائهما الذين يمثلهم موسى. في الصفحات التالية سوف نرى أنه، على الرغم من أنهم لم يُذكروا كلهم في هذا المستند الوثائقي، إلا أنَّ جوزيف كان لديه خمسة أبناء، إسحاق وموسى وخوسويه ودافيد وأبراهام، وربما ابنته، أماليا، المدفونة في أوديركيرك بجوار صمويل وجوزيف ودافيد، لكن شاهد قبرها تالف أكثر من اللازم كما لو أنَّ ذلك بغرض أن نعرف ماذا كانت حقيقة العلاقة. وكان لصمويل، بالإضافة إلى إسحاق، ابن آخر على الأقل، يدعى خاكوب - كارلوس، الذي نعرف عنه فقط أنه كان عميلًا للشريف في الدينمارك في عام ١٦٥٤^(١).

أهم أعضاء هذه المجموعة العائلية، قبل موت صمويل، لكن بشكل خاص بعد موته، هم جوزيف (الذي سوف يظل يعيش في أمستردام كعميل للشريف حتى أواخر أيامه) وابنه موسى (الذي استقر بدءًا من عام ١٦١٨ في قصر المغرب وكان مترجمًا شفويًا ومترجمًا تحريريًا لسلطين متتابعين) ودافيد الذي كان يعمل كنائب نكليهما، وخاصة في اللحظات التي كان يتغيب فيها أبوه، جوزيف، عن هولندا من أجل الذهاب إلى المغرب. إذا كان موسى ظهر مثل اليد اليمنى لصمويل في السنوات الأخيرة من حياة عمه، فإنه بموت صمويل يتحول إلى الرئيس الجديد للعائلة.

بين المغرب وهولندا: جوزيف وموسى

كما قلنا، وجدت العائلة نفسها فى موقف صعب عند موت صمويل. سافر جوزيف إلى المغرب فى عام ١٦١٦ واستقبل ببرود من قبل الشريف، الذى أرسل خطاب توصية إلى الولايات لم يوضح فيه أنه ضمن حقيقة جوزيف. فى نفس الوقت، بدأ مولاي زيدان يطلب تفسيرات لما حدث فى هولندا فى السنوات الأخيرة السابقة على موت صمويل، يريد شهادة إيراد مبيعات عدة شحنات عهد بها إلى صمويل وتبرير نفقة الأسلحة والذخائر التى اشتراها صمويل له. لهذا الغرض أوفد إلى هولندا وكيلًا خاصًا، هو جاكيس جانكارت، من أجل أن يقوم بتحقيقات فى الموضوع، وفى موضوع توزيع غنيمة السفن. كان مولاي زيدان يتمسك بأن صمويل والقبطان وطاقم السفينة على حد سواء كانوا يعملون فى خدمته، وأنهم استلموا أجرهم وبالتالي فإن الغنيمة كان يتعين أن تكون له بالكامل^(٢). أخطرت الولايات العامة جوزيف، فى يناير من عام ١٦١٧، بوصول جانكارت إلى لاهاي وكتبت أيضا إلى إماراتى بحر روتردام وميدلبورج لإخبارهما بالمهمة ولكى تطلب منهما أن يطلعا جانكارت على كل دفاتر الحسابات وكل الغنيمة التى جلبها صمويل بايانشى. سمحوا أيضا لجانكارت بالإبلاغ أمام العدالة عن جوزيف إذا كان ذلك ضرورياً^(٣).

بينما كان نشاط عائلة بايانشى محظورا، لجأ مولاي زيدان إلى خدام آخرين لديه من اليهود من أجل التجارة مع هولندا، وفى فبراير من عام ١٦١٧ يصل إسرائيل بن تشيلوفا وموتشى ليفى مع بضائع وخطابات توصية من الشريف للولايات العامة^(٤).

فى غضون ذلك وجد جوزيف بايانشى نفسه مضطراً لطلب قرض من الولايات العامة التى، على الرغم من أنها كانت تساعد جانكارت وتسهل له مهمته، كتبت إلى مولاي زيدان خطاباً مطولاً، فى يوليو من عام ١٦١٧، تشهد فيه على التفانى الذى كانت تبديه عائلة بايانشى فى خدمة الشريف وعلى الإخلاص الشديد

الذى برهن عليه صمويل وجوزيف وموسى على حد سواء، حتى على حساب أنفسهم. تؤكد الولايات، بالفعل، أنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يعولوا أنفسهم بما يناسب مكانتهم بدون المساعدة والقروض التى كانت تمنحها لهم الولايات^(٥).

طلب جوزيف - وحصل فى مرات عديدة على - مساندة من جانب الولايات العامة لكى تتدخل لصالحه أمام مولاي زيدان. ولا شك أن المستند الوثائقي الذى وقع عليه العديد من تجار أمستردام فى عام ١٦١٧ الذى كان يشهد أن صمويل فقد كل أملاكه على أيدى قراصنة وقت أن كان مستقراً فى هولندا، كان سببه حاجة جوزيف لتقديم حسابات وتبرير إشهار الإفلاس.

فى أوائل عام ١٦١٨، التمس جوزيف خطاب توصية لابنه موسى، الذى كان قد قرر الرحيل إلى المغرب لخدمة مولاي زيدان، وهو الخطاب الذى كتبه الولايات، تؤكد فيه أنها كانت دائماً راضية جداً عن خدمات موسى^(٦).

جدير بالملاحظة أن جوزيف وصمويل كانا قد أرسلوا أبناءهما إلى الجامعة. درس موسى لغات شرقية فى جامعة ليندين، مثل ابن عمه إسحاق، وعلاوة على ذلك أختير كمرشح لكرسى أستاذية اللغة العربية الجديد، وهو الكرسى الذى احتله فى النهاية توماس إربينيوس المشهور^(٧).

فى قصر مراكش عمل كمرجم للإسبانية والهولندية والفرنسية، أولاً، لمولاي زيدان، الذى توفى فى عام ١٦٢٧، وبعد ذلك لكل واحد من خلفائه الثلاثة، مولاي عبدالمك (الذى تمرد عليه أخوته والذى توفى فى عام ١٦٣١) ومولاي وليد (الذى اغتيل فى عام ١٦٣٦) ومولاي محمد الشيخ. كان بالإضافة إلى ذلك سكرتيراً للقصر ووسيطاً فى كل مرة كان يصل فيها إلى القصر سفير مسيحي. دَوَّرَه، تقريباً «كمقرَّب»، كان مؤثراً جداً، ولا غنى عنه بالنسبة لعدد من الأشراف المتعاقبين، وهو الأمر الملاحظ جداً نظراً للنزاعات على خلافة العرش لأن السلطان الخليفة كان أحياناً عدواً لمن كان قد سبقه.

إلى حد ما أيضًا مثل المصالح الهولندية في المغرب طالما كانت لا تتعارض مع مصالح الشريف. على سبيل المثال يشكو رويل، الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد، من أن جوزيف وابنه موسى يضعان دائمًا مصالح الشريف فوق مصالح هولندا. وظل موسى أيضًا على اتصال بإسبانيا: في خطاب إلى دوق مدينا سيدونيا كتبته موسى في ٤ من أبريل من عام ١٦٢٧، يبدأ بشكره على «النعم التي نحن وأجدادى سواء أبى أو عمى تلقيناها من هذا البيت، سواء في عهد السيد الدوق المرحوم أو في عهد سموكم الرفيع»، ويخطر به أنه متوجه إلى مازاجان لإطلاع الحاكم، غونثالو كوتينهو، على شئون مولاي زيدان^(٨). لم يكن سفرًا منفصلاً، حيث أنه في تقارير عديدة وإخطارات من غونثالو كوتينهو مكتوبة من بلاد البربر ومحفوظة في سيمانكاس، يُقال إن موسى بايانشى أعلم الحاكم.

لابد أنه كان رجلاً ذا شأن، حيث أن وضعه كان دقيقاً واستطاع أن يحتفظ بثقة الأشراف المتعاقبين بدون أن يقع أبداً في محنة. تزوج من ابنة إسرائيل بن تشيلو^(٩)، ناظر أملاك وتاجر للشريف ونقيب الطائفة اليهودية، والمعروف أيضاً بشيخ بنى إسرائيل وبعد موته خلفه موسى كنقيب للطائفة.

يشهد على ثقته داخل العائلة أن جزءاً كبيراً من أعضائها انجذب للعودة نحو المغرب. من المحتمل أن شقيقه استقرا في المغرب بمساعدته أو بناء على طلبه: خوسويه (الذى كان أيضاً ناظر أملاك الشريف والذى وجدناه قبل ذلك في دانزيج مع أخيه إسحاق، وبعد ذلك في هامبورج) وأبراهام، (الذى كان يعيش في صافى). كان أبراهام منشغلاً بعدة مشروعات بالاشتراك مع موسى: بمناسبة سفر رويل، يظهر كممون للسفن بالماء والزاد، لكنه موجود أيضاً في مشروعات تجارية عديدة، وبشكل خاص تجارة الأحجار الثمينة.

فيما يتعلق بهذه المعاملات لدينا خبر عن نزاع قضائي لا يختلف كثيراً عن النزاع القضائي الذى خاضه أخوه إسحاق مع إنريكي غارثيس: فى عام ١٩٢٣ يقوم أبراهام أوثيل، وهو يهودى من أمستردام، بفسخ وإلغاء عقد كان أبراهام

باياتشى قد أجبره على التوقيع عليه فى صافى، بأوامر من أخيه موسى. عندما كان على وشك الإقلاع من صافى متجهاً إلى أمستردام، أمر أبراهام بالقبض عليه والاحتفاظ به كرهينة حتى يلتزم كتابةً بإعادة قطعتين من الياقوت، ويقول باياتشى إنه أخرجهما من المغرب بطريقة غير قانونية وإن أوثيل يمتلكها فى أمستردام. يطلب أوثيل أن يدفع له موسى مبلغ المائتين وستين دوقية الذى يدين بها له، حيث أنه، لتأمين هذا الدين، كان موسى قد سلّمه قطعتى الياقوت المذكورتين^(١٠).

يظهر موسى فى وثائق شرعية هولندية عديدة مكلفاً أو مدينًا بقيمة أشياء فاخرة، لا نعرف إذا كانت لحساب السلطان، أو إذا كانت للاستعمال الشخصى أو بغرض التجارة. إن بيع وشراء الجواهر والأحجار الثمينة ظلت واحدة من الأنشطة الرئيسية لكل أفراد العائلة^(١١).

ابن عمه إسحاق، ابن صمويل، استقر فى سلا بدءاً من عام ١٦٢٣ وتولى هناك افتداء الأسرى الهولنديين^(١٢). عبّرت له الولايات العامة فى عدة مناسبات عن امتنانها، ويبدو أنه لعب دوراً مقارباً أو مساوياً لدور قنصل هولندى^(١٣). ابن عمه دافيد كان قد التمس من الولايات أن تمنحه نوعاً من التوكيل الرسمى، حتى لو بدون أجر لكى يستطيع الاستمرار فى مهمته الخاصة بالافتداء بصلاحيات أوسع^(١٤)، مع أنه فى نفس الوقت يظهر فى الوثائق أيضاً فى خدمة «ملك بلاد البربر»^(١٥). كان لا يزال هناك حتى عام ١٦٣٠.

كانت سلا تُعد واحدة من أكبر قضايا تلك الفترة: إنها عبارة عن موضع فى مصب نهر بورجريج، على الضفة المقابلة لقصبة الرباط، حيث استقر فيها عدد كبير من السكان الموريسكيين بدءاً من عام ١٦١٠. لم يتأخر هؤلاء الموريسكيون فى تكوين ما كان معروفاً بـ «جمهورية» مستقلة، منظمة كمجلس أو مجلس بلدى إسبانى، كان يعترف من الناحية الشكلية فقط بسلطة السلطان. إن «الجمهورية» الموريسكية فى سلا، التى كان يوجد فيها أيضاً يهود والنس كان القراصنة الهولنديون والإنجليز يتخذونها ملجأ، كانت تعيش على القرصنة، وكانت تُخرب

الطرق البحرية بين جزر الكناري وبريست في بريطانيا، كانت أنشطة القرصنة هذه تصل أيضاً إلى غران سول وإلى سواحل إيرلندا. كان الموريسكيون يستغلون أيضاً معرفتهم باللغة الإسبانية، وبسواحل شبه الجزيرة الأيبيرية لعمل غارات قرصانية برية (تشمل غاليتيا) وهكذا، خلال ثلثي القرن السابع عشر، تحولت سلا إلى مصنع حقيقى للأسرى الأوروبيين، الذين كان يتعين اقتداؤهم بعد مفاوضات متعددة ونقل أموال.

لاشك أن موسى هو الشخصية الأكثر وزناً في العائلة، وهو الذى استطاع أن يحتفظ بوظيفة أكثر استقراراً وأكثر أهمية، وهو الذى كان قادراً على أن يخرج، وقت اللزوم، أفراد عائلته من مأزق عديدة. يبدو أنه كان واعياً بدوره المحورى، ومعتزفاً به من قبل أقربائه. حسب ألبرت رويل، الذى يكره عائلة باياتشى، فإن موسى أخبره أنه كان يستعد للسفر إلى هولندا، وحينئذ جعله رويل يعتقد، نظراً لظروف الفترة، أن أباه وأخاه سوف يتعين عليهما البقاء خلال ذلك الوقت فى المغرب لمواصلة المفاوضات. إزاء هذه الإمكانية، دائماً حسب رويل، أجاب موسى حرفياً: «بإله إن أبى وأخى يمكن أن يهدموا فى ثلاثة أيام ما كلفنى عمله والحفاظ عليه خمس سنوات»^(١٦). يكتب إسحاق باياتشى، ابن صمويل، إلى الولايات من سلا: «الأكثر حظوة عند الملك، حفظه الله، هو السيد موسى باياتشى ابن عمى»^(١٧).

يذكر موسى أيضاً فى المصادر الإنجليزية بدءاً من عام ١٦٣٦. فقد وقّع الترجمة الإسبانية للتصديق على معاهدة عام ١٦٣٨ بين ملك إنجلترا والشريف محمد الشيخ الصغير^(١٨). تقدم التقارير الإنجليزية صورة طيبة جداً لموسى: (موسى باياتشى، يهودى، شيخ أولئك الذين يعيشون فى «الحى اليهودى»)[خطأ إملائي فى الوثيقة الإنجليزية]. ولّد فى أمستردام وزار قصور أغلب الأمراء المسيحيين. إنه عالم لغوى جيد وخطيب ممتاز يستخدمه الملك كوزير/سكرتير دولة أو مترجم] أثناء لقاءاته مع السفراء وفى المفاوضات مع الدول الأجنبية. كان

محظوظًا جدًا (على الرغم من التغييرات الحديثة) حتى أنه خدم أربعة ملوك متتابعين ولكونه الآن على علاقة طيبة جدًا مع مولاي محمد الشيخ»^(١٩).

في أبريل من عام ١٦٥٠ اكتب الشريف إلى الولايات العامة يقول لها إن أكبر أبناء باياتشى الذى ظل حيًا، وهو موسى، يريد أن يعقد قرانه على زوجة أخيه دافيد، الذى توفى لتوّه، وهكذا يحصل على ميراث أخيه. رثت الولايات العامة بأن الأرملة رفضت أن تذهب لتعيش فى المغرب^(٢٠). يعد هذا هو آخر ما نعرفه عنه. يبدو أنه كان يبلغ من العمر حينئذٍ أكثر من سبعين سنة.

لكنه على مدى حياته كلها لعب دورًا ذا أهمية كبيرة فى العائلة، وساعد العديد من أعضائها — كما سوف نرى — على الخروج من ورطات كثيرة.

فى أمستردام: جوزيف ودافيد

بعد رحيل موسى إلى المغرب فى عام ١٦١٨، بقى جوزيف ودافيد فى أمستردام. إذا كان موضوع الحسابات وجانكارت قد تم حله، فإن ذلك لم يحل بشكل كامل موقف جوزيف. فى شهر يونيو من عام ١٦١٩ وصل إلى هولندا رجل فرنسى يدعى جاك فابرى موفدًا من قبل الشريف فى مهمة تتعلق بإعادة أسرى هولنديين إلى وطنهم، وتحصيل مبلغ الفدية الذى كان قد دفعه مولاي زيدان من أجلهم، وسبك سلسلة من المدافع البرونزية^(٢١).

كما هو منطقى، فإن جوزيف باياتشى أفزعه للغاية وصول جساك فابرى كمبعوث لمولاي زيدان، والذى كان دوره كعميل بين كلا البلدين مهددًا. فى مذكرة وجهها إلى الولايات العامة يقترح فيها الإجابات التى يتعين عليها تقديمها إلى مولاي زيدان والأسباب التى تتعلل بها فى الدفاع عن باياتشى^(٢٢)، يلتمس جوزيف مساندة الولايات، إزاء الشكاوى غير المبررة للشريف، والذى لم يسد إليه فابرى النصيحة المناسبة. علاوة على ذلك يرجو «من سموكم من أجل إرضائه [مولاي زيدان] أن تكتبوا إليه باللغة الإسبانية بهدف أن يتمكن صاحب الجلالة من أن

يفهمكم جيدًا». كان لدى جوزيف أسباب تجعله مذعورًا: عندما يلتبس من الولايات، بصفته عميلًا للسلطان، أن تستمر في دفع إيجار مسكنه، ترد الولايات بأنها أوقفت مؤقتًا الدفع لأنها تنتظر تأكيدًا بأن باياتشي سوف يستمر في مهامه.

في طلب آخر لاحق إلى حد ما، يُظهر جوزيف فزرعه من عودة فابري إلى المغرب ويلتمس أن يُسمح له هو أيضًا بالرحيل لمقابلة الشريف^(٢٣).

تقرر الولايات، التي لا تريد أن تتخذ موقفًا، أن تكتب خطابين إلى مولاي زيدان، خطاب من أجل أن يحمله جاك فابري، وآخر لكي يُسلمه جوزيف باياتشي.

نزل جوزيف في صافي في يناير من عام ١٦٢١ وعاد إلى هولندا في أغسطس من نفس ذلك العام^(٢٤) وقد أُعيد إلى منصبه كعميل وإلى خدمة مولاي زيدان، كما يثبت خطاب زيدان الذي أحضره جوزيف للولايات^(٢٥). بالإضافة إلى مساندة الولايات له، لاشك أن ابنه موسى كان له دور أيضًا في استرجاع الوظيفة، وموسى هذا «كان مقربًا جدًا من الشريف» وعرض خطة جديدة، سوف نتحدث عنها تباعا. كان العرض يتحدث عن شيء له خلفية سابقة: البحث عن ميناء في الساحل المغربي يتم التفاوض به مع القوى الأوروبية التي استحوذ على تفكيرها في تلك الفترة تفاقم القرصنة حول سلا.

نحو عام ١٦١٩ لاحظ رجل موريسكي كان ذاهبًا مع القوات التي أرسلها مولاي زيدان إلى إقليم دوكالا، حول رأس ساحل كانتين، لمطالبة القبائل العربية المتمردة بدفع الضريبة، أن مجموعة من الأوز كانت تتوغل أكثر من الطبيعي في قناة في بحيرة أيير Aier. تم تحديد موضع المكان للشريف، الذي أمر بفحصه. في ذلك الحين كان يقيم في قصر مولاي زيدان نبيل من بروفينثال يدعى سان مانديريه. باقتراح منه ومن عميل فرنسي، يدعى كلود دو ماس، الذي كان في مهمة في المغرب (مهمة كانت تتعلق بموضوع كاستيلان وبكتيب السلطان الشهيرة) تشكلت شركة في باريس بغرض فتح ميناء في أيير والحصول على امتياز الشريف لعدة سنوات في مقابل مبالغ مالية. لكن المشروع لم يُنفذ. عند عودته إلى المغرب

قادمًا من فرنسا، توقف دو ماس في إسبانيا وأخبر على ما يبدو أمير البحر السيد فادريكي دي توليدو بخطط أبيير، فأمر القائد بإرسال سفن من المعمورة لتفحص المكان.

قرر الإسبان استحالة إنشاء ميناء هناك ولم يهتموا بالموضوع، غير أن مولاي زيدان غضب لكونهم كانوا على علم، ووضع دو ماس وسان ماندييه في السجن^(٢٦). كان موضوع سرقة كتبه يؤثر سلبًا على هذين الشخصين، حيث أن السلطان ظل يكن ضغينة كبيرة ضد فرنسا. وقد أعدم سان ماندييه، بتهمة الخيانة.

لا يُعرف ما إذا كان بتحريض من جوزيف أو من موسى، أنه في مجرى عام ١٦٢١، قرر مولاي زيدان فتح الميناء على حساب الشخصى. كانت صافى هي الميناء الوحيد الذى تبقى لسلطان مراكش، حيث أن سلا كانت مستقلة، وكانت سانتا كروث فى أيدي المتمردين، وكانت العرائش ومازاجان والمعمورة خاضعة للإسبان. لذا طلب مولاي زيدان من هولندا المساعدة الفنية اللازمة ومهندسين وحفارى حجارة، إلخ. فى رحلة العودة إلى هولندا التى قام بها جوزيف فى أغسطس من نفس هذا العام كان يرافقه القبطان أوتجير كلايسث Outger Claesz، الذى كان يحمل خرائط للمكان، كان الاثنان مكلفين بعرض الخطة، بأعلى درجة من السرية، على ماوريثيو دي ناساو. لكى يضمن السلطان موافقة الولايات، رخص لها بأن تستخرج من مملكته كل ما تحتاجه من ملح البارود. وكان ملح البارود المستخدم فى تصنيع البارود، منتجًا يطمع فيه الأوروبيون بشكل غير عادى. جعل جوزيف الولايات تظن أنها سوف تحصل من إنشاء ميناء أبيير على منافع تجارية معينة مستغلة الإقليم، خاصة الملاحات، وأنها علاوة على ذلك، سوف تحصل فى النهاية على امتياز الميناء^(٢٧).

تلى ذلك فترة من الاجتماعات والمداولات قررت الولايات على إثرها أن ترسل إلى المغرب، على متن سفينة حربية، مفتشًا مكلفًا بدراسة موقع الميناء،

يرافقه جوزيف باياتشى، وجاكوبو (Jacobus) غوليوس، أستاذ اللغة العربية فى ليدن والحجّارون الذين طلبهم الشريف. كان المفتش هو ألبرت رويل، الذى نحتفظ له بيوميّات مفصلة عن المهمة، تلك المهمة التى لم يتأتّ منها شيء طيب. بالفعل، ألقت بظلال كئيبة لسنوات على العلاقات بين هولندا والمغرب.

لابدّ أن رويل لم يؤدّ مهمته بشكل طيب جداً، لكن الباياتشيين أيضاً لم يكونوا مستعدين لأن يتركوا خيارات كثيرة. القضية هى أنه ظل فى صافى لمدة سبعة شهور دون أن يستطيع التحرك من هناك، ولا أن يقابل الشريف ولا أن يتعرف على أماكن بحيرة أيبير.

إن خطة فتح ميناء فى بحيرة أيبير لم تعط نتائج إيجابية لأنّ حاجزاً صخريّاً كان يغلّق مدخل القناة ويجعلها غير قابلة للاستعمال. من ناحية أخرى، كانت الملاحات تنتج كمية من الملح قليلة جداً، تكفى بالكاد سكان الإقليم. لقد تخلّت هولندا ومولاي زيدان على حدّ سواء بشكل نهائى عن مشروع أيبير. بعد ذلك بسنوات، شيّد مولاي وليد حصناً فى مدخل البحيرة، سُمّي وليدّيه.

بالنسبة لنا، فإن أهم شيء فى تلك الرحلة هو اليوميّات المفصلة التى كتبها ألبرت رويل. إنها يوميّات مشوقة يذكّر فيها تقريباً فى كل صفحة الباياتشيين: جوزيف، الذى يدعوّه «العجوز»، الذى رافقه فى رحلة الذهاب والعودة، وموسى، الذى كان فى المغرب كسكرتير ومترجم وتولى كل اتصالات رويل مع الشريف وأبراهام، أخيه الصغير، الذى كان يمد السفن والسفارة بالإمدادات والمأكولات، وإسحاق، «الأعرج»، الذى ليس من الواضح ما إذا كان موجوداً من قبل فى المغرب أو إذا كان قد وصل من الجزائر فى مهمة تتعلق بافتداء أسرى. من البداية، كانت العلاقات سيئة، وكانت تسوء أكثر. كان رويل يكره الباياتشيين وأراد جوزيف منذ اللحظة الأولى أن يبقى واضحاً أن وضعه، أى وضع جوزيف، كان أعلى، سواء فيما كان يفعله لهولندا أو، على وجه الخصوص، فيما يفعله للمغرب، وأن ذلك، أى العلاقة بين كلا البلدين، كانت حكرّاً على الباياتشيين. «العجوز كان

لديه الجرأة على أن يقول أن لا أحد سواه قادر على الحفاظ على التحالف [بين هولندا والمغرب] وأنه لم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص كان بمقدورهم فهم أسرار هذا التحالف ... الآخرون كانوا كلهم مبتدئين»^(٢٨).

بالنسبة لرويل فإن كل ذلك يبدو له أمرًا مهيئًا للغاية، خاصة عندما يتضح — بقدر ما تتقدم (أو لا تتقدم) المهمة — إلى أي درجة كان هو في أيديهم. يتهم رويل منذ البداية جوزيف بأنه يعمل لصالح الشريف («العجوز باياتشى يضر كثيرًا هذه المفاوضات، لأنه يريد أن يرضى ملكه حتى لو كان سلوكه ضد مصالح وسمعة سيادتكم»). يقول باياتشى نفسه لرويل: «أنا خادم لصاحب الجلالة [الشريف] وليست لدى الحرية لعمل شيء يمكن أن يضره ولا أن أعمل ضد مصالحه، غير أنى أؤكد لكم، إذا لم تؤدوا واجبكم بالكامل، أننى سوف أشكوكم جدًّا أمام أسيادكم فى الولايات»^(٢٩).

يتساءل رويل كيف يستطيعون أن يعهدوا بهذه الموضوعات إلى يهود إخلاصهم ليس موثوقًا فيه على الإطلاق، «هؤلاء اليهود لا يسعون إلا لتدمير شرف وسمعة سموكم»، يكتب إلى الولايات العامة^(٣٠)، إن اليهود، كما يعرف العالم كله، «مغترين وصبيانين وكذابين»^(٣١). إن عائلة باياتشى تحيط بالشريف وتمنع كل اتصال مباشر بينه وبين رويل. وينظم موسى كل مقابلات المجالس، وتعتمد عليه أية مقابلة. حسب رويل، لن يتركوه يفعل شيئًا، حيث أنهم حكوا له أن موسى غضب عندما علم أن أباه جاء إلى المغرب مع مفتش: «ما الذى يفكر فيه أبى عندما يحضر إلى هنا مفتشًا؟ ألا نستطيع نحن أن نحل الموضوعات بمفردنا؟»^(٣٢). يحكى رويل أن العجوز باياتشى (جوزيف) يتوجه على حصان إلى قصر الشريف ليحييه ويظن أن صاحب الجلالة يعامله بود كبير، علاوة على ذلك فهو يضع له مقعدًا بجوار مقعده ويعامله كما يعامل أعظم القادة. إنها معلومة مهمة من حيث أن الذميين من الناحية النظرية لا يستطيعون أن يمتطوا دوابًا ولا أن يظهروا، بالثروات أو بمواقف خارجية، تفوقًا على المسلمين: إنها نظرية لم تنفذ

عمليًا في أحيان كثيرة لكنها كانت سببًا للكبرياء ونموذجًا لتفضل أصحاب السلطة نحو أولئك الذين كانوا ينعمون بذلك الاستثناء. بالنسبة لإسحاق، فهو يواصل القول لدى الشريف إن رويل لم يَزْ أبدًا سادة الولايات ولا ماوريتيو دي ناستاو، ولم يضع قدميه في لاهاي قبل هذه السفارة، بينما هم خدموهم بإخلاص خلال ستة عشرة عامًا^(٣٣).

يتعين على رويل أن يتولى أيضًا موضوع ملح البارود الذي كان صاحب امتيازته يهوديًا آخر، وكذلك كان مفتشو الجمارك جميعهم، على حد قوله، أصدقاء لبيايتشي. كان ملح البارود أقل كمية، مما حمل هؤلاء على الاعتقاد: «هكذا جرّ هؤلاء اليهود المحتالون بأساليبهم المناققة سموكم إلى دفع نفقات كبيرة وخدعوكم وغشوكم»، يستمر رويل في إخبار الولايات، وكانت كل خطاباته شكوى بحثة ضد هؤلاء اليهود، هذه الأمة الملعونة، أعداء العالم كله، خونة منافقون، مخادعون^(٣٤).

يتشاجر مع جوزيف أيضًا حول سداد قيمة المدافع والذخيرة التي أحضروها من هولندا للشريف. الموضوعات تمتد، إنهم يماطلون رويل، ولا يحصل هو على شيء، لا يستطيع أن يرى الشريف وكل مرة يكون أكثر غيظًا. يؤكد جوزيف أن خطاب الولايات الخاص بالتعليمات ينصر على أن رويل لا يستطيع أن يفعل شيئًا دون موافقة بيايتشي، ورويل لا يريد أن يقبل ذلك^(٣٥).

يقوم رويل باتهام إبراهيم، الابن الأصغر لجوزيف، بغشبه في الإمداد بالزاد والماء. في أحيان عديدة تحدث مشاهد عنيفة بين جوزيف ورويل، ينادي جوزيف علنًا على رويل «سكير» (اللفظ مكتوب بالإسبانية في الوثيقة الهولندية) وفي نوبة غضب شديد يتفاخر جوزيف بكبرياء شديد بأصله، وبأن نعال أحذيته تساوي أكثر من رويل. أكد، علاوة على ذلك، أمام القادة، «بإله إن عائلتي من أصل أفضل من الملك فيليب، وعائلتي تساوي ما تساويه عائلة مولاي زيدان». «عائلة مولاي زيدان» كانت شريفة، يعنى، كان قدرها يعود إلى كونها عائلة تعود أصولها إلى النبي محمد: العائلات البارزة من اليهود المغاربة كانت تُقَرَّم أيضًا بالإنساب إلى

الأنبياء. وهكذا، أمام دهشة رويل ومسيحيين آخرين كانوا معه، لم يغضب القادة الحاضرون إزاء هذا التصريح^(٣٦).

إن أكثر ما فعلوه هو تساؤلهم ضاحكين إذا كان جوزيف لا يخشى أن يتخلص منه رويل في رحلة العودة، وقد رد جوزيف على ذلك بأنه كانت لديه سلطة في هولندا للتخلص من عشرين رجل من عينة رويل. إن كل يوميات رويل واضحة جداً لفكرة أن عائلة باياتشى كانت تعتد بنفسها، وبشأن بيتتها، عند حسم الموضوع ضد رويل، وبنفوذها لدى الملك.

في مشاجرة أخرى، وصل الحد برويل أن فتح رأس إسحاق ضرباً بالعصا. لقد كانت الأمور تسوء بشكل كبير، ليس فقط لأنه كان من الواضح أن المهمة لن تقود إلى شيء، لكن لأن رويل بات لا يستطيع الحصول على إذن الشريف بالمغادرة. كان الموضوع القريب، المتعلق بإعدام سان ماندييه، الذى لم يحصل خلال شهور على إذن بمغادرة المغرب وأُعيد في النهاية، لأبد وأنه أسهم في حالة الهياج العصبى عند رويل. لقد كان حقيقةً في أيدي عائلة باياتشى. القائد الطليطلى وهو صديق موريسكى لعائلة باياتشى، يقول له إن الشريف علم بأنه، أى رويل، كتب إلى هولندا يخبرها أن مراكش وصافى فقط هما اللتان في حوزة السلطان، وهو الأمر الذى أثار غضب السلطان. يصبح رويل مرتعباً ويتسائل كيف يدير هؤلاء اليهود الأمور لكى يعلموا بكل شيء وكيف يمكن أن يكون هناك أناس كثيرون مخلصين لهم. يخشى ألا يحصل الآن على إذن من الشريف بالرحيل^(٣٧).

في مشهد آخر تبدو قراءته مسلية، يصف رويل اجتماعاً حضره رجل موريسكى يقول إن هولندا هي «خراء بقرة» مقارنةً بالمغرب وإن الهولنديين لم يستطيعوا أن يثبتوا جدارتهم ضد الإسبان إلا بمساعدة الفرنسيين والإنجليز. القائد الطليطلى تابع المزحة قائلاً إنه إذا كانت هولندا تسمى «البلاد الواطنة» (خطأً فى الأصل الهولندى) فلأن سكانها من أصل سقلى، فهم نوى فهم ضعيف وهمة هزيلة. رويل يسأل غاضباً كيف يُعرف هو بذلك، وهو الذى لم يتواجد أبداً في هولندا؟ وكان ردّه

أن الذى أخبره بذلك هو باياتشى والذى كان هذا الموريسكى صديقاً حميماً له. يقول رويل إن هؤلاء اليهود خونة ولا يمكن تحملهم، ويقص رويل الحكاية فى الولايات^(٣٨).

يُحسم الموضوع فى النهاية. يأمر مولاى زيدان بعودة رويل إلى هولندا أخذاً معه فى نفس السفينة جوزيف وإسحاق باياتشى وسفيراً جديداً هو الموريسكى يوسف بيسكاينو. تتلقى الولايات العامة رسالة من موسى متعطفة للغاية يقول فيها إن المهمة فشلت بسبب رويل، الذى يكبر عليه موقع السفارة. تعد الرسالة نموذجاً للمهارة الكبيرة ولقدرات موسى، حيث أنه ظاهرياً يتأسف لرويل فى الوقت الذى يتركه مجرداً من الأهلية كلية؛ على الرغم من أنه لا يمكن إنكار حسن نيته، إلا أنه تكلم أكثر من اللازم وارتكب أفعالاً تفتقد إلى الرصانة، جرح أحاسيس ولا يمكن إلقاء الذنب عليه لأنه ليس قادراً على أكثر من ذلك، لكن من الواضح أنه لا يجب أن تُعهد إليه مهام أخرى ذات طابع دقيق^(٣٩).

يُعدُّ تقرير يوسف بيسكاينو أشدَّ قسوة بكثير. يبدأ السفير بكتابة خطاب احتجاج، فى يوليو من عام ١٦٢٤، الآن فى لاهاي، إلى الولايات العامة، يتعلق بالمعاملة التى أبداها رويل أثناء السفر نحو جوزيف باياتشى وأبنائه، الذين هم عملاء لسلطان المغرب^(٤٠). إذا كان لم يقذف بهم من السفينة، كما كان يمزح القادة المسلمون، فقد كان على وشك أن يفعل ذلك: فقد حبس جوزيف فى حجرة بئسة أعلى مطبخ السفينة بلا طعام تقريباً لمدة الخمسين يوماً التى استغرقها السفر، وضرب إسحاق وأمر بوضعه فى الأغلال، وعندما وصلوا إلى روتردام، وفى حضور السفير، ضرب دافيد باياتشى، الذى كان قد جاء لاستقبالهم.

يطالب جوزيف بإنصافه. وفى نفس هذا الشهر يكتب مذكرة مطوّلة عن تصرفات رويل فى المغرب، تُظهر لنا وجهاً آخر للعملة، ويصف حماقات عديدة ارتكبها رويل. على سبيل المثال، عندما وصلت سفينته إلى الميناء اقتربت زوارق لحمل طعام ومرطبات إلى السفينة. فى هذه الزوارق كان هناك مسلمان هولنديان.

أجبرهما رويل على البقاء على ظهر سفينته دون أن يبالي بأن هذا التصرف كان غير قانوني وأن الهولنديين كانوا قد تحولوا إلى الإسلام طواعية. بكل تبجح وجسارة قام رويل بحماية قرصان كان مولاي زيدان قد أمر بالقبض عليه، لأن «صاحب الجلالة يعتبره عدوًا أكبر من الإسبان». ارتكب أعمالاً طائشة، وأفعالاً تقتقد إلى الرصانة، وسخر من كل الإجراءات التي تم إقرارها كقانون بين كلا البلدين، ووضع العلاقة بين كليهما في خطر جاد. لم يشأ أن يضع في الاعتبار أن أفراد عائلة باياتشي كانوا عملاء لصاحب الجلالة، ولكونهم كذلك، فهم يستحقون الاحترام. أحضر يوسف بيسكاينو انمال لسداد ثمن المدافع والذخائر، وكان رويل يتهم باياتشي بحجز المبلغ^(٤١).

يكتب جوزيف باياتشي أيضاً، في شهر يوليو من عام ١٦٢٤، تقريراً مطولاً، ويطلب من الولايات العامة أن تعقد محاكمة، مفصلاً المعاملة السيئة التي كان هو وأبناؤه إسحاق ودافيد هدفًا لها من جانب رويل. بالإضافة إلى ذلك، استولى رويل على كل متاعه، وكان ينوي أن يجعله يدفع قيمة السفر. يصف بالتفصيل كيف ضرب رويل دافيد وتركه وملبسه غارقة في الدم، في حضور السفير نفسه^(٤٢). يكتب دافيد باياتشي أيضاً خطاب شكوى باسمه وباسم أبيه^(٤٣).

لم يبقَ للولايات العامة وسيلة أخرى سوى الأمر بحبس ألبرت رويل في مسكنه ومنعه من دخول لاهاي. وأصبح جوزيف ودافيد قويًا جدًا.

دافيد

دافيد هذا سوف يكون هو المسئول عن المحنة العائلية التالية.

في عام ١٦٣٠ قام شريفان فرنسيان هما راثيلي ودو تشالارد، بافتداء كل العبيد الفرنسيين الذين كانوا موجودين في سلا. لكن في مراكش كان لا يزال هناك أسرى فرنسيون كثيرون. كتب الفارس راثيلي إلى الشريف في هذا الصدد وأرسل ثلاث سفن التقى بها في صافي. منع ذلك فإن العبيد لم يصلوا، وبدا أن الشريف كان

يرمى إلى إطالة الموضوع إلى أن يجبر طقس الشتاء السيئ السفن الفرنسية على العودة لوطنها. غير أن حادثة غير متوقعة غيرت مجرى الأحداث: أسر الفارس في أكتوبر من عام ١٦٣٠، سفينة هولندية كانت عائلة باياتشى قد استأجرتها ووجدت على السفينة مواد حربية مهربة^(٤٤).

كان موسى حينئذٍ في قصر الشريف، فقد كان سكرتيراً ومترجماً له، وعمل سريعاً من أجل استعادة سفينة عائلته وحمولتها، التي كانت تقدر قيمتها بمائة ألف جنيه. أقنع الشريف بالإفراج عن الأسرى، ولكن عندما وصل هؤلاء الأسرى أخيراً إلى صافى، كان راثيلي الذي كان قد فقد صبره وخشى أن يبدأ الطقس السيئ، قد رحل متوجهاً إلى فرنسا. قبل أن يرحل ترك للقنصل الفرنسي، غنيمة ثمينة آتية من السفينة المأسورة وكلفه ببيعها.

قرر موسى حينئذٍ إيفاد شقيقه دافيد كي يتدخل لدى القصر الفرنسي ليُعيد إليهم السفينة ومحتواها. كتب موسى إلى شقيقه يوصيه أن يستخدم أمام ريتشيليو الحماس الذي كان قد عمل به لصالح تحرير الأسرى، وأرسل إليه خطابين ليقوم بتسليمهما إلى لويس الثالث عشر: خطاب من الشريف، وخطاب من الأسرى الفرنسيين الذين كانوا ينتظرون حينئذٍ في صافى.

من لاهاي، رحل دافيد إلى باريس، حيث وصل في مارس من عام ١٦٣١ وسلم للملك الخطابين اللذين كان يحملهما. إن حظ الأسرى البائسين الذين تركوا لمصيرهم بسبب نفاذ صبر راثيلي أثر في القصر الفرنسي فقرر إيفاد سفارة جديدة إلى المغرب تتولى أمرهم وتتفاوض مع الشريف على معاهدة سلام. استطاع دافيد باياتشى أن يجعل القصر يعيد إليه، إن لم تكن الحمولة، فعلى الأقل السفينة، وتلقى هدايا رائعة وإعفاءات عديدة.

كان فريق المهمة الفرنسي الجديد يتكون من راثيلي ودوتشالارد والسيد مولير، المكلف بالمفاوضات مع الشريف. في غضون ذلك، تغير ملك المغرب،

حيث أن مولاي عبدالملك، خليفة مولاي زيدان، توفي في مارس من عام ١٦٣١ وخلفه أخوه مولاي وليد.

بعد وصوله بحرًا إلى صافى، سلك السيد مولير الطريق إلى مراكش يرافقه دافيد باياتشى. انجزت المفاوضات من أجل إبرام معاهدة سلام بين كلا البلدين بسرعة بفضل موسى باياتشى، وهو الأمر الذى، كما نرى، كان غريبًا فى المعاهدات مع القصر المغربى، وتم توقيع المعاهدة فى سبتمبر من عام ١٦٣١. بعد ذلك بقليل عاد السيد مولير إلى صافى يحمل معه نسخة فرنسية من المعاهدة (أمانة الدولة المغربية لم تكن قد أنهت بعد الأصل العربى) والعبيد المحررين.

انتظرت السفن الفرنسية فى صافى وصول النص العربى للمعاهدة حتى يقوم مبعوثوها بالتوقيع عليه. أخيرًا أحضره موسى باياتشى ووقع عليه راثيلى ودوتشالارد اللذان أضافا بندًا باللغة الفرنسية ينص على أن توقيعهما سيكون صالحًا فقط طالما أن النص العربى يتطابق مع النص الفرنسى الذى كان قد كُتب ووقع عليه مسبقًا. اشترطوا أيضًا أن يوقع موسى باياتشى على النص الفرنسى شاهدًا على أن كلا النصين يقولان نفس الشيء.

كان دافيد باياتشى، حامل هذين النصين، موضع حفاوة السفير فى باريس حيث قُدمت له هدايا ثمينة. فى أبريل من عام ١٦٣٢ صُنق الملك على المعاهدة وتعهد دافيد باياتشى بأن يحمل هذا التصديق إلى مولاي وليد. لكنه بدلًا من أن يفعل ذلك على وجه السرعة، توجه أولاً إلى لاهائ حيث توقف لبعض الوقت منشغلًا بمشروعات شخصية.

مولاي وليد، الذى اعتقد — إزاء عدم وصول التصديق — أن ملك فرنسا سخر منه، بدأ من جديد القرصنة ضد السفن الفرنسية وتم أسر عبيد جدد. كان الفرنسيون يجهلون أن دافيد باياتشى لم يكن قد حضر إلى المغرب وأرسلوا سفيرًا جديدًا، دو بوى، الذى استقبل استقبالًا سيئًا جدًا.

لم يشأ مولاي وليد، الذي استمع إلى نصيحة موسى باياتشى، أن يقر بمسؤولية دافيد فى الموضوع وأدخل كلاً من القنصل بيير مازيه ودو بوى فى السجن.

بعد أن علم قصر فرنسا بهذه الواقعة، وكذلك بإهمال أو بخيانة دافيد، أرسلوا تعليمات للمندوب الفرنسى فى هولندا ليحصل من الولايات العامة على قرار بالقبض على دافيد وتسليمه. كان المندوب الفرنسى فى هولندا رجلاً يدعى ألفونسو لوبيث، جدر التوقف عند شخصيته، وسوف نكرس له اهتماماً خاصاً بعد ذلك بقليل. لكننا سوف نقول قبل ذلك إنه فى الوثائق تظهر من جديد كل الصفات التى يُنعت بها اليهود، بحيث يكون من الصعب جدا تقرير ما هى حقيقة الموضوع: «وحيث إنه أمر معروف جدا ومعلن أن سلوك اليهود يقترن دائماً بالغش وأعمالهم مليئة بالأكاذيب والخدع، كيف يمكن أن يثق شخص فى رجل ليس عنده شرف وأمته عدوة أكيدة لكل أمة أخرى؟»^(٤٥).

وجدت الولايات العامة نفسها فى موقف متأزم للغاية حيث أن القبض على دافيد باياتشى وإرساله إلى ملك فرنسا كان يعادل اغتصاب إنسانية شخص دبلوماسى، وهو ما كان عليه دافيد، كمندوب للمغرب فى هولندا. الولايات اعتذرت للويس الثالث عشر وكتبت للشريف تسأله عما يتوجب عليها عمله. قال لها الشريف أن تعتقل «اليهودى الملعون» الذى كان قد أسند إليه دوراً ومهمة لم يكونا يناسبانه^(٤٦). فى غضون ذلك كان دافيد قد احتاط لنفسه وعاد إلى كولونيا منتظراً أن توضح المسابغى الحميدة لأبيه وأخيه موسى الموقف وتعيده إلى خدمة الشريف.

لكن موسى وجد نفسه فى مصاعب: لقد غضب مولاي وليد لأنه وقّع الترجمة العربية للمعاهدة واتهمه، على وجه خاص، بتزوير ترجمات الخطابات، معطياً لنفسه ولأقاربه ألقاباً لم تكن تظهر فى الخطابات العربية. على سبيل المثال، لكونه وضع «وكيل مخلص وكريم» بينما الأصل العربى كان يقول فقط «ذمى»، يعنى يهودى أو دافع جزية، وهو مصطلح كان يعنى مكانة وضيفة^(٤٧). ولكونه قدّم

نفسه وأخوته كسفراء بينما لم يكونوا كذلك. سُجِنَ موسى وكان على وشك أن يُحكم عليه بالإعدام^(٤٨).

مات مولاي وليد مقتولاً على أيدي مسلمين فرنسيين في فبراير من عام ١٦٣٦. خَلَفَهُ شقيقه مولاي محمد الشيخ الصغير، وخرج من السجن الذي كان شقيقه قد أجبره على الإقامة فيه لكي يعتلي العرش. كان محمد الشيخ الصغير ابنًا لأم إسبانية، وكان متزوجًا بامرأتين إسبانيتين أخريين، وكان يتحدث الإسبانية جيدًا مثل مولاي زيدان. بمجرد أن اعتلى العرش ثَبَتَ الثلاثة باياتشي (جوزيف، وموسى ودافيد) في مناصبهم الخاصة بهم^(٤٩). أَعْلَمَ الشريف الولايات بأنه اعترف ببراءة دافيد، الذي اتهم زورًا من قِبَل دوتشالارد وبأنه اعتمده من جديد كممثل دبلوماسي وتجاري للمغرب في هولندا. أُعيد موسى أيضًا إلى منصبه.

ألفونسو لوبيث

تولى موضوع دافيد في هولندا رجلٌ يُدعى ألفونسو لوبيث، كان مكلفًا بأن يطلب من أمير أورانج، بتوكيل من لويس الثالث عشر، مصادرة أملاك دافيد إلى جانب ممتلكات أبيه وأخيه موسى في أمستردام، وكذلك تسليم دافيد إلى فرنسا^(٥٠).

هذا المندوب الفرنسي في هولندا له سيرة غاية في الأهمية، تتفق في نواحي كثيرة مع مسيرة صمويل^(٥١). كان لوبيث شخصية فريدة جدًا، ظهر لأول مرة في عام ١٦٠٤ في المراسلات المتبادلة بين لا فورس وإنريكي الرابع بشأن الموريسكيين الذين كان الملك الفرنسي ينظر في منحهم مساندة. كان موريسكيو أراغون، بوساطة من لوبيث، قد طلبوا من إنريكي الرابع إذنًا للإقامة في سهول إقليم بورديوس الجدياء، التي تعهدوا بتنظيفها وحرثها في مقابل الترخيص لهم بممارسة دينهم بحرية. لم يكن إنريكي الرابع موافقًا بشكل كبير على المشروع، وكانت المحادثات مستمرة عندما مات الملك مقتولاً. في تلك المراسلات^(٥٢) يوصف لوبيث بأنه «يهودي برتغالي» لكن لوبيث يقدم نفسه كموريسكي مولود في

أراغون، في عام ١٥٧٢، جاء إلى فرنسا في عام ١٦٠٢ ليتفاوض على مساعدة من أجل الموريسكيين. نتساءل عما إذا كان قد تعرّف على موسى باياتشى عندما كان هذا الأخير في قصر فرنسا في عام ١٦٠٨. يؤكد باراودى أنه خلال كل القرن السابع عشر كان في الجنوب الغربي لفرنسا تسلاً دائماً ليهود تحت اسم موريسكيين^(٥٣): يجب أن نتذكر أن اليهود كانوا قد طُردوا من فرنسا، وهو طرد أقرّه في عام ١٦١٥ لويس الثالث عشر، بينما كان الموريسكيون رسمياً كاثوليكين.

جاء لوبيث إلى فرنسا كمبعوث شبه رسمي للموريسكيين المتمردين، وعندما فشل التمرد بقي في فرنسا وعمل في تنظيم استقبال ونقل الموريسكيين المطرودين في عامي ١٦٠٩-١٦١٠ عبر الأراضي الفرنسية. عندما حدث الطرد، أعطت ماريا دي ميديثيس إنذاراً للموريسكيين لعبور فرنسا والإبحار من أجدي Agde باتجاه شمال إفريقيا^(٥٤). يبدو أن لوبيث أشرف بنفسه في أجدي على سفر الموريسكيين المتوجهين إلى بلاد المغرب^(٥٥).

انتقل بعد ذلك إلى باريس، حيث تخصص في المشاريع التجارية، عاملاً كوسيط بين التجار الفرنسيين والأتراك، وأنشأ أول ورشة لصقل الماس في باريس. كان أيضاً يقرض المال ويبيع الآثار والتحف الفنية للنبل.

بينما كان لوبيث يتابع قضية الموريسكيين، استطاع أن يسترضى الماركيز رامبويه، الذي كان يتحدث أو على الأقل كان يفهم الإسبانية، واستطاع الماركيز أن يدخله إلى متحف اللوفر، حيث كان نجاحه كصانع سريعاً. في القصر الفرنسي كان يزعم أنه سليل آخر أفراد عائلة بنى سراج، لكن كل وثائق الفترة تؤكد أنه كان يهودياً (يدعونه «السيد عبراني»)، وبالفعل كان يتردد على الأوساط اليهودية. على وجه الخصوص كان صديقاً لإلياس دي مونتالتو^(٥٦) ولثيسار أوغوستو، وهما طبيبان يهوديان، لماريا دي ميديثيس، زوجة إيريكي الرابع ولمحظية الملكة، وليونورا غاليغاي، والتي وُجدَ لوبيث متورطاً في محاكمتها بممارسة السحر. اتُهم أيضاً بأنه جاسوس لإسبانيا، وهو البلد الذي كان يحتفظ معه على الأقل بعلاقات تجارية.

فى تلك الفترة أيضاً عرف لوبيث ريتشيليو، الذى كان يهوى الجواهر والأشياء الفاخرة، وقد أمده صعود ريتشيليو للسلطة بإمكانيات جديدة. بين أمور أخرى، قدم المشورة لريتشيليو فى رغبته فى تطوير ميناء هافر من الناحية التجارية، وسافر عدة مرات إلى هولندا لشراء مؤن وعتاد بحرى. اعتمد دائماً على المساندة الشخصية لريتشيليو، وهو ما وضعه وهو فى هولندا فوق السفير الفرنسى فى هذا البلد. إن دوره كصانع وبائع أعمال فنية أدخله فى بيوت النبلاء الرئيسيين، وهو ما كان يتيح له أن يعمل جاسوساً ومبلغاً لريتشيليو. لم يتمكن فقط من تكوين ثروة كبيرة؛ بل إن نشاطه المخلص فى خدمة الكاردينال جعله جديراً بأن يُعين «كبير خدم» للملك ومستشار دولة. إن إخلاصه للكردينال وللويس الثالث عشر لم يكن أبداً موضع شك. يهودى معروف وموريسكى وإسباني فى فرنسا، كان يمثل بمفرده الطوائف الاجتماعية المضطهدة والمطرودة من بلدها الأصلية وكذلك قدرته وعزيمته على العيش فى الالتباس الثقافى. تُعد مسيرته مدهشة وتقدم عناصر مماثلة ليس فقط مع مسيرة صمويل، بل مع مسيرة مقولين برتغاليين فى مدريد، مخلصين لفيليبى الرابع وللكونت الدوق.

فى نوفمبر من عام ١٦٣٦ يحصل موسى على خطابات من الشريف لصالح أبيه وأخيه موجهة إلى ملك إنجلترا. كان يتعين أن يعامل أفراد عائلة باياتشى معاملة طيبة فى هذا البلد، حيث أنهم كانوا يتولون مسئولية مشروعات تجارية مهمة للشريف. ومن إنجلترا كانوا يفكرون فى التوجه إلى القدس^(٥٧). لا يبدو أن جوزيف وصل أبداً إلى القدس: فقد توفى فى عام ١٦٣٨ ودفن فى أوبركيرك، بجانب صمويل. فى هذه المقابر أيضاً دُفِنَ دافيد، الذى توفى فى عام ١٦٤٩.

يعد دليلاً على الفضل الذى نعم به موسى فى جوار مولاي محمد هذا الخطاب المؤرخ فى شهر أبريل من عام ١٦٥٠ والذى ذُكرَ آنفاً، والذى يطلب فيه الشريف من الولايات العامة أن تسمح لموسى بالزواج من أرملة أخيه دافيد واسترداد إرثه: «نحيطكم علماً من خلال هذا الخطاب بأن اليهود من عائلة باياتشى

— أبنا وابنا — خدموا ويخدمون بيتنا الكريم الذى التجأوا تحت ظله، جاعوا [موسى وخوسويه] يرتمون على قدمينا متوسلين أن أكتب لكم عن دافيد باياتشى، الذى توفى فى بلدكم. لقد ترك دافيد ثروة شاسعة فى حوزة أرملته وليس له أى وريث مباشر من جنس أو آخر باستثناء تلك الأرملة. وفى دينهم، يكون الشقيق الأكبر للمرحوم هو الذى يتوجب عليه أن يخلفه، ويتزوج من الأرملة ويرث أملاكها». يرجى أيضا أن يعتنى بالوكيل الذى أرسله موسى بهدف أن يستطيع إحضار تلك الأرملة إلى المغرب، وإذا لم توافق هذه الأرملة، فلتعملوا على أن يحل الموضوع طبقاً لشريعتهم (اليهود). «لا تكفوا عن مساعدة باياتشى الأكبر حتى يحصل على الإذن بالميراث دون أن يجد نفسه مضطراً لمغادرة منزله... بتقديم الحماية لباياتشى توفون واجبكم حيالهم حيث أنهم أقاموا زمناً طويلاً بينكم. لا تتجاهلوا واجبات الجار حيال الجار والمستخدم حيال مُستخدِمِه»^(٥٨). صمويل باياتشى، ابن خوسويه، يتولى فى لاهاي متابعة الموضوع حيث أن موسى أصبح مُسبباً أكثر من اللازم ولا يستطيع تحمل مشاق السفر^(٥٩). تردُّ الولايات، باحترام شديد، بأن الأرملة ترفض مغادرة هولندا، وأنه طبقاً لقوانين البلد، لا يمكن إجبارها^(٦٠).

إسحاق

فى تلك السنوات يبرز فى دور البطولة إسحاق باياتشى، ليس ابن صمويل الذى كان يعيش فى سلا، بل ابن عمه، ذلك الذى كان رويل يدعوه «الأعرج». كان إسحاق هو الابن الأكبر لجوزيف، إلا أنه فى مذكرة مؤرخة فى عام ١٦٤١ يؤكد أنه على الرغم من أنه كان الابن الأكبر من حيث السن، لم يكن يُنظر إليه على هذا النحو لارتداده إلى البروتستانتية، وهو الارتداد الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد. كنّا قد رأينا فى حينه، بطبيعة الحال، أن إسحاق وأخيه خوسويه كانا قد استعدا للتحويل إلى الكاثوليكية فى إسبانيا، وفى عام ١٦١٠ قام إسحاق كذلك بالتبليغ عن إنريكي غارثيس، وهو تاجر برتغالى كان يعيش فى أمبيريس، لكونه استولى على — وباع — بضائع ثمينة كان قد أحضرها السفير المغربى أحمد بن عبد الله

المارونى وصمويل باياتشى. يتمسك إسحاق بأنه يقوم بهذا البلاغ مدفوعاً برغبته فى خدمة «الرب وملك [إسبانيا]» ضد أعدائه الولايات العامة وملك بلاد البربر. إن بلاغ إسحاق لم يلتفت إليه، ومن خلال الوثائق التى نتجت عن هذا البلاغ يوصف كشابٍ متمرّدٍ ولا يمكن التحكم فيه حتى أنه، بأمرٍ من أبيه وبسبب سوء سلوكه، أودع فى السجن فى قلعة بورميريند بالقرب من أمستردام. فى عام ١٦١٢ وُجِدَ إسحاق متورطاً فى نزاع قضائى ضد أبيه جوزيف وضد عمه صمويل. لا نعلم ماذا كان سبب ذلك النزاع^(٦١).

مع ذلك، درس العبرية واللغات الشرقية فى جامعة ليدن. فى عام ١٦٣١ يقدم نفسه كأستاذ للغة العبرية بتلك الجامعة، لكن بدون شك بالتزوير^(٦٢). فى سجل الدارسين بالجامعة يظهر كطالب، وليس كأستاذ، وبالإضافة إلى ذلك التمس فى عام ١٦٣٥ قبوله كـ «سمسار» فى أمستردام^(٦٣)، وهو منصب أقل سمواً بكثير من كرسى الأستاذية وأنه لا يعتقد أن يطلبه شخص يشغل بالفعل كرسى أستاذية.

يمكن أن يعد أيضاً دليلاً على مرحلة شباب، ربّما مضطربة، نقض فيها تعهده بالزواج من كاتالينا لوبيس، ابنة البرتغاليين خيرونيمو وماريا لوبيس، الذى كان سبباً لخصومة تركت أثراً فى الوثائق الشرعية. لم يتضح ما إذا كان الزواج تمّ أم لا، لكن على أية حال، من المحتمل أن الزواج أو التعهد بالزواج نُقِضَ، ليس عن رغبة أو بمبادرة من إسحاق، الذى طالب فى عام ١٦١٤ بأن يُسَلَّم إليه مهر كاتالينا^(٦٤). فى عام ١٦١٩ خُطِبت كاتالينا لوبيس لأبرام ألفاريم بشرط أن يعوض أبراهام كاتالينا عن وعدها بالزواج من إسحاق باياتشى^(٦٥).

قام إسحاق، مثل كل أعضاء عائلته، بنشاط دبلوماسى وتجارى. بين عامى ١٦١٤، ١٦١٦ كان فى اسطمبول، يتفاوض، بين أمور أخرى، على إقامة أبيه أو عمه فى هذه المدينة كعملاء للسلطان المغربى^(٦٦). وفى عام ١٦٢٤، بينما كان مع أبيه فى المغرب، كان لكليهما مواجهة قاسية مع السفير الهولندى ألبرت رويل، الذى يحكى فى يومياته أن إسحاق باياتشى، الذى يطلق رويل عليه لقب

«الأعرج»، قال له، في مناقشة في حضور قادة عديدين «في لهجة من الاحتقار العميق، إنه كان سفيراً أفضل منى [رويل]، حيث أنه كان قد أوفد بهذه الصفة من قبل الرب العظيم إلى صاحب الجلالة ملك المغرب، بينما أنا جئت فقط من جانب مجرد جمهورية»^(٦٧). بين عامي ١٦١٨ و ١٦١٩ كان ملكا المغرب وبولندا في دانزيج، كان هذان الصديقان للولايات العامة يقيمان روابط تحالف فيما بينهما^(٦٨).

في عام ١٦٢٤ التقى بأبيه في المغرب، التي كان الأب قد وصل إليها مع ألبرت رويل في الرحلة التي وصفناها آنفاً. كان فيما يبدو قادماً من مهمة أداها في الجزائر تتعلق بافتداء الأسرى.

في حوالى عام ١٦٣٣ تحول إسحاق إلى البروتستانتية^(٦٩). غضب أبوه جوزيف غضباً شديداً بسبب هذا التحول، وحرمه من نصيبه في ميراث أمه، وطلب من الولايات أن تمنحه هو حضانة ابن إسحاق الذي كان يبلغ عمره سنتين. العلاقات السيئة مع أبيه ومع أخيه دافيد والمحاكمة الطويلة التي سببتها هذه الأحداث (النزاع على الميراث وحضانة الطفل) دمرت إسحاق، الذي كان يتعين عليه إعالة زوجة وستة أبناء. قام أساتذة علم اللاهوت بجامعة ليدن بتنظيم حملة تبرعات من أجل جمع أموال تسمح لإسحاق بإعالة أسرته^(٧٠). ربّما بسبب وضعه الاقتصادي المتأزم، قرر إسحاق حينئذٍ العمل في موضوع افتداء الأسرى.

بناءً على طلب من إسحاق نفسه، عهد الحاكم الهولندي في عام ١٦٣٩ لإسحاق بالتفاوض مع سيدى على بن موسى — الولى الذي كان يتحكم في إقليم سوس، في جنوب مراكش — على تحرير مجموعة من الأسرى الهولنديين. أقام إسحاق علاقة طيبة مع هذه الشخصية، واشترى لحسابها أسلحة ونخائر، وتحول إلى وكيل له مع هولندا. إذا كان أبوه وأخوته يتولون أمور السلطان، فقد تعين عليه أن يقرر تولى أمور أصحاب سلطة آخرين في المغرب في حالة حرب مع السلطان. في شهر إبريل من عام ١٦٣٩ يكتب إلى الولايات يؤكد أن دافيد قد أمد الولايات بمعلومات خاطئة حول ما يجرى في المغرب، وأن سيدى على بن موسى

لا يمكن اعتباره متمرذا لأنه لم يكن أبداً رعية للسلطان، وأنه ليس هناك لدى إسحاق بياتشى سبب لمنع المساعدة الحربية عن هذا الشخص^(٧١). مستغلاً علاقته الجيدة مع الولي، جمع إسحاق مالا من عائلات الأسرى واستولى على خطابات مكتوبة باللغة العربية موجهة إلى سيدى على من قبل خاكوبو غوليوس، أستاذ العربية بجامعة ليدن. استقل إسحاق سفينة تابعة لشركة أمريكا الجنوبية حملته أولاً إلى سانتا كروث دي أغادير، حيث لم يستطع تحرير الأسرى، ومن هناك إلى البرازيل. بعد ذلك بعام عاد إلى هولندا، حيث دعت الولايات العامة للحضور إلى لاهاي لتبرير فشل مهمته. اعتذر إسحاق عن عدم استطاعته الذهاب إلى لاهاي نظراً لسوء حالته الصحية التي أضرت بها السفر الطويل والمنهك، وأرسل في المقابل مذكرة مكتوبة. في هذه المذكرة قدم تفسيراً كاملاً لمهمته، وأجاب عن الأسئلة التي فرضتها عليه هذه المهمة والتي كانت متعلقة: من ناحية، بعائلات الأسرى، الذين اشترطوا استرداد المال الذي كانوا قد أعطوه لبياتشى من أجل دفع الفديات، والذين إزاء فشل مهمته، رفضوا أن يدفعوا له مرتبه ونفقات سفره. ومن ناحية أخرى، تتعلق بشركة نقل تعمل في أمريكا الجنوبية بشأن بضائع كان إسحاق قد أحضرها من البرازيل وادعت الشركة ملكيتها لها. امتد النزاع القضائي حتى عام ١٦٤٧ دون أن نعرف كيف تم حسمه، لكن النزاع على أية حال سبب الدمار الحاسم لإسحاق^(٧٢). إن المذكرة الطويلة التي كتبها إسحاق^(٧٣)، والتي أوردت حوارات ووصفت مواقف، بكل ما جاء فيها من سباب، تُعدّ مذكرة ثرية وتوضيحية بشكل غير عادي بالنسبة للوضع الصعب المستديم لعائلة بياتشى، الذي لم يسببه فقط وضعهم كوسطاء يشترط عليهم كلا الجانبين ولاءً مسبقاً، بل سببه في الغالب الاحتقار الهائل وعدم الثقة التي سببتها صفتهم كيهود بين الهولنديين، الذين تعسّوا على اليهود التعامل معهم، سواء كانوا تجاراً، أو قباطنة سفن، أو عملاء وسفراء مثل كورنيليس هاغا، وألبرت رويل، وباول فان ليبيلو وآخرين كثيرين ممن ذكرناهم.

إذا كان تشريع هولندا يتضمن سلسلة من حريات لاشك فيها من أجل مواطنيها اليهود، وإذا كانت عائلة باياتشى قد حصلت مرارًا وتكرارًا على مساندة الولايات وماوريشيو دى ناستاو، فإن العداء والأفكار المضادة لليهودية من جانب معاصريهم الهولنديين لم تتوقف عن الظهور فى كل الوثائق التى استخدمناها، دون اختلافات بالنسبة للاتجاه المضاد لليهودية لباقي معاصريهم الأوروبيين.

على سبيل المثال، لا يسمح قبطان السفينة لأى هولندى أن يقوم بخدمة باياتشى نظرًا لأنه يهودى. إن واحدًا من الأسرى، كان باياتشى يعتقد أنه ارتبط معه بصداقة، وكان قد احتفى به فى المغرب. بعد أن وصل إلى مسكن باياتشى ورأى خادمًا ينزع عنه حذاءه، قال للأسرى الآخرين: «نفطر قلبى أن أجبر على رؤية مسيحى يقوم بخدمة يهودى»^(٧٤). كان إسحاق باياتشى فى ذلك الحين يهوديًا متحولاً إلى البروتستانتية، وهو تحول لا يبدو أنه جلب له أية فائدة اجتماعية.

قامت عائلة باياتشى بأعمال نصب، لكن من الواضح أيضًا أنه كان هناك كثيرون يعتقدون أن النصب عليهم أو على الأقل الحصول على أقصى فائدة منهم كان يعد أمرًا شرعيًا، كما يتضح من الحسابات التى تقدمها صاحبة الفندق فى روتردام عن الأيام التى أقامها إسحاق باياتشى وزوجته انتظارًا لأن يكون الريح مواتٍ وتستطيع السفينة أن ترفع. يكتب إسحاق بمرارة: «حتى الآن كنت أظن أنه لا يوجد قراصنة إلا فى البحر، لكننى أرى فى الحقيقة أنهم موجودون بعدد كبير فى البر، فى هذا البلد المشهور بعذله»^(٧٥). وبما أن اليهود كانوا أناسًا بلا شرف — هكذا كان يعتقد المسيحيون الأوروبيون — فلم يكن هناك سبب للإسراف فى الشرف، ولا فى الأمانة، فى التعاملات معهم^(٧٦).

يفند إسحاق فى المذكرة اتهامات شركة النقل، واحدًا تلو الآخر، إنه بينما هو مسيحى فى هولندا، جعل نفسه يهوديًا فى المغرب وأقام مع اليهود فى سانتا كروث، وأن الولى المغربى قد ساءه أن المبعوث كان يهوديًا. يرد إسحاق: «كيف كنت سأظاهر بأنى يهودى، وأنا الذى تخليت عن أبى وأمى وممتلكاتى وهجرت

وطنى حبًا فى الدين المسيحى؟». بالطبع أقام باياتشى مع اليهود، إن أى مبعوث أو سفير أجنبى يأتى إلى المغرب يُسكنونه مع اليهود، لأنه لا توجد فنادق فى هذا البلد، وجرت العادة على تسكين الضيوف فى الأحياء اليهودية، وهذا شىء معروف جيدًا. الأستاذ جاكوبوس غوليوس يمكن أن يشهد على ذلك، حيث أن نفس الشىء حدث معه حينما كان فى المغرب مع أبيه جوزيف ومع ألبرت رويل. والمسلمون يتقون فى اليهود حيث أن الشريف لديه - كسكرتير للقصر - موسى باياتشى، وخوسويه، ناظر أملاك، وأبوه جوزيف كان سفيرًا لدى الولايات لمدة اثنتين وثلاثين سنة وشقيقه الأصغر، دافيد، هو الآن وكيل للسلطان فى هولندا. يرى إسحاق بدوره أن قبطان السفينة وتهور وجراة الأسرى أنفسهم، كانت عوامل أفشلت المهمة.

يتكلم أيضًا عن البضائع التى أحضرها من البرازيل: أفيون، قرنفل، صمغ، خشب أسود من بلاد الهند، جوز الهند، بلاسم من بيرو، إلخ وسلسلة من «الأشياء الغريبة»، البعض منها هدية من حاكم البرازيل، خوان ماوريتيو دى ناسا، مثل علبة للنظارة مطعمة بالصدف. لم يسمحوا له بالتصرف فى البضاعة ولا فى الهدايا. يدعو الرب أن يمنحه الصبر ويُقسم بأحفاده التسعة ١

وأخيرًا يشير إلى موضوع آخر لا يتضح فى المذكرة: يبدو أن أخاه دافيد قد أبلغ عنه واتهمه زورًا (فحوى الاتهام غير معلومة، ربما لأنه عاد إلى اليهودية فى المغرب، كما اتهمته شركة النقل) أمام الكنيسة البروتستانتية الهولندية، والآن يمنعونه هو وزوجته وأبناءه من دخول الكنائس. يبدو إسحاق مفعما بالمرارة. لقد تخلص عنه الجميع.

فى عام ١٦٤٧ كان إسحاق يحمل خطابات من الشريف، «ذات أهمية كبيرة» للملك ولاديسلاس السابع ملك بولندا Waladislav VII ، وكان لا يزال يطالب بالملكيات التى حجزتها شركة النقل^(٧٧). يؤكد فى ذلك الحين أن لديه أحد عشر ابنًا.

أثناء إقامته في المغرب في عام ١٦٤٧، كان قد فحص مع أخيه موسى
مناجم النحاس في هذا البلد وكتب إلى الولايات العامة يقترح عليها استغلال هذه
المناجم^(٧٨).

بالنسبة للمعتقدات الدينية لإسحاق، فإن الوثائق — كما اعتادت أن تكون في
هذه الحالات — تُعدُّ متناقضة. الوثيقة الأكثر دهشة تأتي من فضيحة تورطت فيها
حفيدة لإسحاق تدعى إيفا كوهين. ولدت إيفا كوهين في عام ١٦٥٨ وكانت بنتًا
لابنة لإسحاق، متزوجة من أبرام كوهين الذي كان تاجرًا ثريًا ومديرًا لمزارع
هولندية في البرازيل. قام والدا إيفا بتنشئة ابنتهما على تعاليم الديانة اليهودية. ونحو
عام ١٦٨٠ أرادت إيفا أن تنتصر، وهو الأمر الذي عارضته أمها، التي أرادت أن
تحبسها في البيت ؛ إلا أن إيفا هربت واستطاعت الفرار إلى إنجلترا حيث تنصرت
في لندن باسم إليزابيث وتزوجت من ميشيل فيربون الذي كان خادمًا لأبيها والذي
كانت قد أحبته ورغبت لاشك في أن تنتصر من أجله. قصتها كانت موضوعًا
لمنشور قيل فيه إن جدما إسحاق كان يهوديًا من داخله على الرغم من أنه كان عند
الناس مسيحية^(٧٩).

لدينا أيضًا أخبار عن عضو على الأقل من عائلة باياتشي له علاقة بالحركة
السابائية^(*) التي كانت لها أصداء كثيرة في أمستردام والمغرب، والتي تُعدُّ لاحقة
في الزمن على حركة بن أبي محلي الذي ذكرناه قبل ذلك والذي كتب موسى
باياتشي ضده.

ولد ساباتاي سيفي في إسميرنا في عام ١٦٢٦، وهو متصوف ومخلص،
أطلق الحركة التي من المحتمل أنها كانت أهم حركة خلاصية في تاريخ اليهودية،
حيث أنها انتشرت من مكان نشأتها في الإمبراطورية العثمانية إلى كل أراضى هذه
الإمبراطورية وإلى اليمن والمجر وبولندا، ومن المغرب إلى هولندا وإنجلترا...

(*) سيأتي ذكر الحركة ومؤسساها في الفقرة التالية. (المراجع)

مسببةً في الأوساط اليهودية المسيحية هياجًا لا مثيل له. أعلن ساباتاي نفسه مخلصًا نحو عام ١٦٤٨، وقد جعل الاضطراب الذي سببه هو ومؤيدوه - جعل مجتمعه يطرده من إيسميرنا في عام ١٦٥١. بعد فترات إقامة في سالونيك والقاهرة، لجأ ساباتاي إلى القدس، حيث كانت توجد نواة مهمة من متصوفي القبلة cabalistas اليهودية من أتباع لوريا، وحيث تعرّف على ناتان دي غاتا الذي أعلن نفسه النبي إلياس الظاهر حديثًا والذي كانت مهمته هي تمهيد الطريق للمخلص. الحركة التي تزعمها ساباتاي وناتان جرت مثل النار في الهشيم: كان عام ١٦٦٦ هو عام الخلاص. أنت رحلة إلى إسطنبول إلى تحول ساباتاي إلى الإسلام واحتجابه في قرية في ألبانيا حيث مات في حوالى عام ١٦٧٦. استمر ناتان يكافح للحفاظ على حياة الحركة، وقد تحول كثير من التابعين لساباتاي أيضًا إلى الإسلام^(٨٠).

كان لحركة ساباتاي أصداء غاية في الأهمية في أمستردام، فقد كانت هناك اعتناقات وحركات مضادة على حدٍ سواء. عُرفت أصداء الحركة في المغرب بقدر أقل، حيث أن مصادر عديدة فيها تشير إلى سلا كمركز مهم لنشر المذهب الساباتي، بين أمستردام والشرق. غيرمان دي موييت، مواطن فرنسي أسره القراصنة في عام ١٦٧٠ وعاش في سلا سنين طويلة وكتب قصة عن أسره وعن حياته في المغرب، يحكى أنه بينما هو في سلا وصلت سفينة من أمستردام تحمل نبوءات من اليهود حول مخلص سوف يظهر خلال العام التالي، أى في عام ١٦٧٢^(٨١). عندما سمع اليهود هذه الأخبار ابتهجوا واحتفلوا بعيدًا ثانٍ للمعبد المتنقل لمدة ثمانية أيام. كان هؤلاء اليهود يجتمعون في بيت خاكوب بوينو دي ميسكيتا، وهو يهودي مرتد كان قد هرب من إسبانيا بسبب محكمة التفتيش. تنصّب رواية موييت على نقاط للأخذ في الاعتبار: سلا كمركز لنقل المذهب الساباتي ونقل الدعاية التي كانت تأتي من أمستردام، وتوقع وصول المخلص من جديد في عام ١٦٧٢، اشتراك اليهود المنفيين في الحركة.

حاولنا البحث عن أثر لهذا المدعو بوينو دي ميسكيتا الذي تحدث عنه موييت. لم نجد الشخص المسمى خاكوب، لكننا وجدنا أعضاء عديدين من عائلة

بوينو دي ميسكيتا أو دي أميثكيتا، كما تقول وثائق محاكم التفتيش الإسبانية، فهناك أعضاء عديدون من هذه العائلة قد حوكموا^(٨٢). إنها عائلة برتغالية المنشأ، أصلهم من فيلافور، عبارة عن عائلة من التجار المهمين المقيمين في أمستردام والذين أوقفوا نشاطهم على التجارة مع شبه الجزيرة الأيبيرية. في عام ١٦٧٠، أقامت مجموعة من يهود أمستردام المتدينين مدرسة دينية اسمها مجد الشباب Tiferet Bahurim، لكنها عُرِفَت أيضًا باسم مدرسة ميسكيتا، لأن من يدعمها ماليًا كان أبراهام دافيد بوينو دي ميثكيتا، الذي كان قد خصص بيته للاجتماعات والتأمل، وهو ما استمر عليه أبناؤه وخلفاؤه. كان خاكوب ساسبورتاس مشتركًا في هذه المدرسة الدينية^(٨٣). يُعد خاكوب ساسبورتاس هذا بالتحديد أفضل مصدر عن المذهب الساباتى في المغرب بكتابه *sisat Nobel sevi*. ينتمى ساسبورتاس إلى واحدة من أهم عائلات الحى اليهودى في وهران، التى كانت لا تزال حينئذٍ موقعًا إسبانيًا. ولد ساسبورتاس في هذه المدينة في عام ١٦١٠. يبدو أنه نتيجةً للمشاجرة بين عائلة ساسبورتاس والعشيرة اليهودية الكبيرة الأخرى في وهران عائلة كانسينو^(٨٤)، نفى خاكوب من وهران. كان خاكما في تلمسان. وبعد ذلك في فاس وفى سلا. هاجر مع أسرته إلى أمستردام فى عام ١٦٥٣، وكان بعد ذلك خاكما كبيرا فى هامبورج، حيث كتب العمل الذى أشرنا إليه، والذى يُعد واحداً من أهم الأعمال الجدلية ضد المذهب الساباتى، وهى الحركة التى اتخذ ساسبورتاس ضدها موقفاً عنيفاً وخصومة عسكرية ظهرت فى المراسلات التى احتفظ بها مع قادة للجماعات اليهودية من أماكن أوروبية عديدة وأيضاً من شمال إفريقيا. هناك جزء من هذه الخطابات، المرسلة والمستلمة من المغرب، منشور فى كتابه *sisat Nobel sevi*^(٨٥).

فى نفس الوقت الذى كان فيه ساسبورتاس خاكما فى فاس وسلا، تعين على خاكوب باياتشى أن يكون خاكما لمراكش، بعد ذلك عاش خاكوب باياتشى فى مصر وكان تابعا بارزا ومحرضا للحركة الساباتية. عندما وصلت إلى القاهرة أخبار إسلام ساباتاى، أسقط الحاخامات القاهريون عضوية باياتشى وطردوه من الجماعة^(٨٦). قابله أبراهام كاردوسو فى تونس فى طريق عودته إلى مراكش

واستمر، لسنوات بعد الرّدة، مؤيدًا متحمسًا لساباتائى. ولن ندخل هنا فى حالة أبراهام أو ميغيل كاردوسو (من طرابلس فى ليبيا) والذي يعد واحدًا من أهم الموالين والمدافعين عن الحركة، والذي كان له جدال مع أخيه إسحاق، (الذى كان طبيبًا للملك فيليبي الرابع ويحمل اسم فرناندو كاردوسو)، كان أبراهام ذا ثقافة لاهوتية كبيرة^(٨٧). يستغرب ساسبورتاس لأنه بعد حبس وإسلام ساباتائى، لا يزال له أتباع كثيرون، غير أنه لا يذكر اسم باياتشى بوضوح^(٨٨).

استمرت عائلة باياتشى إذن تلعب دورًا على الدرجة الأولى من الأهمية فى علاقات المغرب مع هولندا طوال فترة حكم الأسرة السعدية. كان أعضاء عائلة باياتشى يعتمدون على هذه الأسرة وكانوا مرتبطين بها كانوا قد عاشوا، كما قال مولاي محمد، «فى ظل بيته». باختفاء هذا البيت فى الستينيات من القرن، ينتهى دور عائلة باياتشى. بعد موت مولاي محمد الشيخ فى عام ١٦٦٣، لم نعد نجد من الناحية العملية ذكرًا لهم.

مع ذلك، تحت حكم الأسرة التالية، لاتزال توجد عائلات من تجار يهود على علاقة بالقصر، منخرطين فى إمدادات الأسلحة، إلخ. لكن هناك الآن عائلات يهودية أخرى هى التى تسيطر على العلاقات مع هولندا: عائلات مايموران وتوليدانو وساسبورتاس^(٨٩).

تفرقت عائلة باياتشى بين بلاد شتى: بعد اختفاء السعديين بسنوات قليلة، أرسل رابى خاكوب ساسبورتاس رسالة إلى إسحاق باياتشى فى ليورنا، وعلم بعد ذلك بقليل أن إسحاق هذا كان فى إيسميرنا يتولى حماية يهود برتغاليين. فى عام ١٦٩٥ يطلب إسحاق باياتشى حماية من القنصل الهولندى فى إيسميرنا لـ سالومون مينديس^(٩٠).

استقر فرع من العائلة فى ليورنا، لكن حتى أوقات معاصرة ظل أعضاء من عائلة باياتشى يعيشون فى أمستردام. فى عام ١٩٠٠ اختير إسحاق فان خودا باياتشى (١٨٥٨-١٩٢٧) حاخامًا كبيرًا للجماعة البرتغالية فى أمستردام. كان

خودا باياتشى أستاذًا للغات السامية بكلية علم اللاهوت بجامعة أمستردام. أثناء الحرب العالمية الثانية رُحِّلَ إلى معسكرات الاعتقال، حيث مات مثل يهود أوروبيين كثيرين ضحايا للنازية. مع ذلك، يوجد اليوم أعضاء من عائلة باياتشى فى أمستردام، يشاركون فى تراث السفرديم فى المدينة.

هوامش الفصل السادس

- 1 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 244-45 y IV, p. 399.
- 2 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 5 y ss.
- 3 SIHM, Pays-Bas, III, p. 7.
- 4 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 13 y 18.
- 5 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 62 y ss.
- 6 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 4 y 5
- 7 W.M.C. Juynboll. Zeventiende-eeuwsche Beoefenaars van het Arabisch in Nederland, Utrecht, 1931, p. 52.
- 8 AGS, Estado, Leg. 2646.
- 9 SIHM, Pays-Bas, III, p. 426.
- 10 Studia Rosenthaliana, XXIV, 1 (1990), p. 69, doc. notarial n.º 2857.
- 11 Studia Rosenthaliana, XVI (1982), p. 218, doc., notarial n.º 2125.
- 12 SIHM, Pays-Bas, III, p. 244.
- 13 SIHM, Pays-Bas, III, p. 388.
- 14 SIHM, Pays-Bas, III, p. 367.
- 15 Studia Rosenthaliana, XXXI (1997), p. 146, doc. n.º 3357.
- 16 SIHM, Pays-Bas, III, p. 410.

- 17 SIHM, Pays-Bas, III, p. 246.
- 18 SIHM, Angleterre, III, p.401.
- 19 SIHM, Angleterre, III, p. 483.
- 20 SIHM, Pays-Bas, V, pp.192 y ss.
- 21 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 88 y 109.
- 22 SIHM, Pays-Bas, III, pp.112 y ss.
- 23 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 145 y 148.
- 24 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 163 y 179.
- 25 SIHM, Pays-Bas, III, p. 172.
- 26 SIHM, Pays-Bas, III, pp.571-578 y France, III. عن كل تلك انظر
- 27 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 220 y ss.
- 28 SIHM, Pays-Bas, III, p.289.
- 29 SIHM, Pays-Bas, III, pp. 274-275.
- 30 SIHM, Pays-Bas, III, p. 411.
- 31 SIHM, Pays-Bas, III, p. 534.
- 32 SIHM, Pays-Bas, III, p. 412.
- 33 SIHM, Pays-Bas, III, p. 510.
- 34 SIHM, Pays-Bas, III, pp.415, 417.

- 35 SIHM, Pays-Bas,III, p. 427.
- 36 SIHM, Pays-Bas,III, p. 507.
- 37 SIHM, Pays-Bas,III, p. 511.
- 38 SIHM, Pays-Bas,III, p. 527.
- 39 SIHM, Pays-Bas,III, p. 499.
- 40 SIHM, Pays-Bas,III, p. 564.
- 41 SIHM, Pays-Bas,IV, pp. 4 y 5.
- 42 SIHM, Pays-Bas,III,p.566 y Pays-Bas, IV,
مذكّرة لجوزيف باياتشي بتاريخ ٢٨ من أغسطس من عام ١٦٢٤.
- 43 SIHM, Pays-Bas,III, p.567.
- 44 SIHM, France,III, p. 325.
- 45 SIHM, Angleterre,III, p.209.
- 46 SIHM, Pays-Bas,IV, p.373.
- 47 SIHM, Angleterre,III, pp. 157
- 48 SIHM, Angleterre,III, pp.208 y 256.
- 49 SIHM, Pays-Bas,IV, p.406.
- 50 SIHM, France,III, pp. 471-472.
- 51 خصص خ. كارو باروخا دراسة جيدة لهذه الشخصية، "آخر أفراد عائلة
أبينثيراخي" (El último Abencerraje) ضمن كتابه سير قليلة التشابه (مع

الاعتذار لبلوتاركو)

Vidas poco paralelas (con perdón de Plutarco), Madrid, 1981
pp.51-68.

انظر كذلك

F. Hildesheimer, «Une créature de Richelieu: Alphonse Lopez, le "seigneur Hebreo», en Les Juifs au regard de l'Histoire, Mélanges en L'honneur de Bernhard Blumenkranz, paris, 1985, pp.293-299.

52 Mémoires de La Force..., vol.II, passim.

53 Apud Caro Baroja, , op. cit., p.56.

54 انظر

Guadalajara y Javier, Prodición y destierro de los moriscos..., Pamplona, 1614, pp.124 y ss.

55 Pierre Santoni, "Le passage des Morisques en provence (1610-1613)", Provence Historique, 185 (1996), pp.333-383, esp. pp. 366 y ss.

56 عن هذه الشخصية الهامة انظر

C. Roth, "Quatre Lettres d'Elie de Montalte. Contribution á l'histoire des Marranes", Revue des Etudes Juives, 87 (1929), pp.137-165.

57 SIHM, Angleterre,III, p. 255. Pays-Bas, IV, p.428.

- 58 SIHM, Pays-Bas,V. pp.197-198.
- 59 SIHM, Pays-Bas,V, p. 234.
- 60 SIHM, Pays-Bas,V, p.261
- 61 Resolutiën der Staten Generaal, Nieuwe Reeks, 1610-1670.I (1610-1612), n.º 1178, 19 de octubre de 1612.
- 62 Resoluties, 6 de enero de 1631, apud Henriques de Castro, Keur, p.93.
- 63 Resoluties, 25 de sept. de 1635.
- 64 Studia Rosenthaliana, VII (1973), documentos notariales n.º 781, 784-790.
- 65 Studia Rosenthaliana, XIV (1980), p.91, n.º 1682.
- 66 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 627 y 639.
- 67 SIHM, Pays-Bas,III, p. 507.
- 68 SIHM, Pays-Bas,IV, p.84.
- 69 قرارات الولايات العامة فى ٢٢ مارس و ٣ يونيو من عام ١٦٣٣،
apud Henriques, Keur.
- 70 A. Eekhof, De Theologische Faculteit te Leiden in de 17e eeuw, Utrecht, 1921, pp.94, 129-132.
- 71 SIHM, Pays-Bas,IV, p. 492.
- 72 SIHM, Pays-Bas,V, p. 108.

- 73 SIHM, Pays-Bas, IV, pp.530-550.
- 74 Loc. cit., p.553/ traducción, p.535.
- 75 Loc. cit., p.544.
- 76 القارئ الإسباني سوف يتذكر بلا شك الفصل الخاص بـ راقيل وبيداس
Raquel y Vidas في ملحمة السيد. "Poema de Mfo Cid".
- 77 SIHM, Pays-Bas, V, p.124.
- 78 SIHM, Pays-Bas, V, p.128.
- 79 Biblioteca Real, La Haya, folleto n. 11802, «De Ware Bekeringe en Violent ver volgenen Van Eva Cohen, Nu genaemt Elisabeth. Zijnde een Persoon van qualitevt vande Joodsche gesintheyt geweest, en gewoont hebbende tot Delft; dewelcke Gedoopt is den 10. October, 1680 inS, Martins Kerck... van Whitehall,...Uyrgegeven (sic) in het Engels, door...Gilbert Burnet... nu getranslateert in het Nederduyts, etc.» 26 mei 1681, f.4.
- 80 Gershom Scholem, Sabbatai Sevi, the Mystical Messiah, Princeton, 1973.
- 81 "في الوقت الذي كنت فيه في سلا، وصلت سفينة هولندية قادمة من أمستردام، تحمل ليهود هذه المدينة، نبوءات أكيدة يرسلها إليهم يهود هولندا. كانت هذه النبوءات تتضمن، بين أشياء أخرى، أن المسيح المخلص الذي كانوا ينتظرونه على مدى قرون كثيرة، سوف يُولد في هولندا في بداية العام التالي، الذي كان عام ١٦٧٢"

Relation de la captivite du sr. Moüette dans les Royaumes de Fez et de Maroc, paris, 1683, p.31.

82 ملف قضية فرانشيسكو دي أميثكيتا،

AHN, Inquisición, Leg.134 exp.13.

83 David Franco Mendes, Memorias do estabelecimento e progresso dos judeos portuguezes e espanhoes nesta famosa cidade de Amsterdam, Amsterdam, 1772, reed. En Os Judeos portugueses em Amsterdao, Lisboa, 1990, p.71.

84 F. Schaub. Les juifs du roi d'Espagne, Orán, 1509-1669. París, 1999, vid. En particular cap.II, "Les Cansino contre les Sasportas".

85 Ed. Tishby, Jerusalen, 1954.

قام إسبيرانثا ألفونسو بترجمة النصوص التي أذكرها تباعاً.

86 Scholem, op. cit., p.644.

87 خصص ي.هـ. يروشالمي Y.H.Yerushalmi فصلاً طويلاً وموثقاً عن هذا النزاع بين الأخوين وعن الحجج التي ساقها كل منهما في كتابه.

From Spanish Court to Italian Ghetto, Nueva York, 1971, pp. 302-49.

88 Op.cit.p.354.

89 انظر

J.C.de Bakker, Slaves, Arms and Holy War Moroccan Policy

vis-à- vis the Dutch Republic during the establishment of the Alawí dynasty (1660-1727) (Tesis doctoral), Amsterdam, 1991.

90 Apud Hirschberg. Op., cit., vol.II. p.212.

خاتمة

في الفصول السابقة لم نَقم فقط بوصف سيرة باياتشى بالقدر الذى سمحت به الوثائق الموجودة، بل أننا حاولنا أن نضع باياتشى فى بيئته، المغربية والهولندية بشكل أساسى، مُبرزين نشاطه الوظيفى، أى العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين أوروبا والعالم الإسلامى. على ضوء هذه البيئة وعلى ضوء المسار الوظيفى لأقربائه من بعده، فإنه من الضرورى الإيجاز، وهو ما يُجبرنا بشكلٍ ما على وضع باياتشى فى موقع مختلف عن المعرفة التى انطلقنا منها وعبرنا عنها فى مقدمة هذا الكتاب.

كان باياتشى، فوق كل ذلك، مغامراً، تضعه ظروفه فى مواقف غاية فى الصعوبة، تُجبره على البحث عن مكان أو وسيلة للبقاء هو وعائلته على قيد الحياة. تبدأ مغامراته، على حدِّ علمنا، بوصوله إلى إسبانيا نحو عام ١٦٠٣ وبمحاولاته الفاشلة للاستقرار هو وعائلته فى شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو هدفٌ كان مستعداً فى سبيله حتى للتحويل إلى الكاثوليكية. جاء أفراد عائلة باياتشى إلى إسبانيا كما رأينا بصفاتهم "يهود الإنز"، وهو ما لم يكن أمراً منفصلاً أو استثنائياً، إلا أنه كان يضعهم فى موقف صعب للغاية وغير مستقر. لقد فشلت بالفعل كل مساعيهم ومحاولاتهم (ومن ضمنها التَّصَرُّع للهروب من وضع "يهود الإنز" الذى لم يكن من الممكن تحمله على المدى البعيد؛ لم يحصلوا على الاندماج الذى كانوا يبحثون عنه فى المجتمع الإسبانى، مع أنهم كانوا مستعدين لتنفيذ كل الالتزامات التى كان يشترطها ذلك المجتمع، والتنازل عن هويتهم.

فى هولندا، كانت العلاقات بين عائلة باياتشى (ورثة التقليد السفردىمى أو الإسبانى القديم) و"يهود الأمة البرتغالية" الذين كانوا يتجمعون فى الجمعيات المنشأة حديثاً فى مدينة أمستردام، لا تنطبق على ما يوحى به التصور الذى قدمه باريوس، والذى أشرنا إليه فى الفصل الأول. مع أن صمويل كان يُعتبر شخصاً مثقفاً فى

القضايا الدينية وعضواً في جماعة نيفي سالوم، إلا أنه لم يندمج أبداً في علاقات المصاهرة التي كانت إحدى ركائز الشبكات التجارية لليهود البرتغاليين الذين كانوا يشكلون جماعة ضيقة ومُغلقة ومن المحتمل أنها لم تكن تثق في هؤلاء اليهود القادمين من بلاد البربر. نستطيع فقط أن نُخمن أسباباً دينية وثقافية لذلك التباعد، لكن الواضح، بالإضافة لذلك، هو أن دور صمويل كعميل مغربي في هولندا كان يُحد من حرية تحركاته في هذا البلد بالإضافة إلى اضطارره للسفر باستمرار إلى الخارج. كممثل أجنبي، كان يتعين عليه أن يعيش في لاهاي وليس في أمستردام. كان وضع صمويل إذن مستحيلاً في إسبانيا، وغير مستقر في المغرب، وفي هولندا كان وضعه شبيهاً بالسَّير على حبل غير مشدود وليس له نهاية. يُجربُ حظه في بلاد أوروبية أخرى وفي إسطنبول، يحاول أن يبيع تقارير، وأن يثبت صلاحيته في العلاقات العامة، وأن يبحث لنفسه عن مكان وعن أشخاص يدفعون له ثمن خدماته. لم يكن أمراً سهلاً. والمدهش أنه استطاع أن ينشئ مجال عمل خاصاً به، تمثل في العلاقات بين هولندا والمغرب، لم يسمح أن يشارك أو يتدخل فيها أحد. إن هذه العلاقات هي الميراث العائلي لأفراد عائلة باياتشي، والذي بُني على أساس من جهد كبير ومخاطرة ومهارة. إنها «عزبتهم» أو «مؤسستهم»، كما استطاع أن يثبت أولئك الذين سنحت لهم الفرصة وأرادوا أيضاً العمل فيها، من فإن ليبيلو إلى رويل. لم يكن الجيل التالي في حاجة إلى نفس الأعمال والمخاطر، ولا للسفر بلا هوادة ولا لممارسة القرصنة. لم يحتاجوا للعنف البناء، ولا إلى طاقة بلا حدود، ولا إلى رئيس عائلة. لقد أصبحوا «بورجوازيين» بالمعنى الحرفي للكلمة، ذهبوا للجامعة، وأصبح لهم دور مستقر أُسس في معظمه بفضل صمويل، ومساحة من «الخبرة» تمدهم بنشاط ضروري ومعترف به. يمكنهم من الالتزام المخلص في خدمة المغرب ومن العمل أيضاً من أجل هولندا.

بل وأكثر من ذلك، يعد صمويل سابقة حقيقية لما سوف يُعرف في أوروبا بعد نصف قرن باسم «يهود القصر»، الذين بدأوا يكونون مهمين حقيقةً نحو عام ١٦٧٠ واستمروا كذلك حتى العقود الأولى من القرن الثامن عشر^(١). كان «يهود

القصر» مندوبين وموردين عسكريين للدول الأوروبية وصار لهم دورٌ على الدرجة الأولى من الأهمية في ألمانيا والنمسا وهولندا بشكل أساسي، لكن أيضًا في بولندا والدنمارك والمجر وإيطاليا، بدءًا من حرب الثلاثين عامًا. بدأوا حينئذٍ في عمل الإجراءات الخاصة برواتب جنود القوات، وفي تولى تمويل الجيوش وعلف الخيول، وخاصة إمداد البارود. في بعض الأحيان أثبتوا إلتزامًا قويًا مع حكومة معينة، لكن ذلك لم يكن أمرًا شائعًا أو مُميّزًا. وكما يوضح خ. إسرائيل، كان اليهود الذين يعملون كمعلماء للقصر يعيشون خارجه وبعيدًا حتى عن الدول التي كانوا يخدمونها، حيث لم يكن غريبًا أن يعملوا لأكثر من حكومة في نفس الوقت. كانت الدول تستخدم أيضًا عملاءها اليهود للحصول بانتظام على معلومات ذات طابع سياسي أو اقتصادي؛ كانوا بارزين في مدن مثل أمستردام أو هامبورج، اللتين كانتا من أكبر الأسواق الأوروبية لبيع وشراء الذخائر والعتاد البحري. كان كل يهود القصر بالإضافة إلى ذلك خبراء مجوهرات. إن أسماء عائلات أوبينهيمير أو غومبيرز لها دلالة كافية.

لم يكن يهود القصر يكرسون أنفسهم لأعمال دبلوماسية لأن الأوروبيين، على عكس القصور المسلمة، لم يسمحوا لهم أبدًا بتولى هذه المهام: هذا هو الاختلاف الأساسي لليهود الذين عملوا في خدمة القصور العثمانية أو المغربية وهذه هي خصوصية العمل الذي بذلته عائلة باياتشي خلال ثلاثة أرباع القرن. ويفسر ذلك أيضًا عداوة زملائهم الأوروبيين، الذين لم يكونوا متعودين ولا كان يعجبهم أن يجدوا يهودًا في أعمال دبلوماسية.

أشرنا أيضًا، بالنسبة للتجارة والمؤسسات، إلى أن تمويل يُعدُّ مُبتلًا نموذجيًا لروح المذهب التجاري. فمن نهاية القرن السادس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر تنشأ في أوروبا صيغ سياسية جديدة للتصدي للقضايا المتعلقة بالاقتصاد والمجتمع، مع صيغ سياسية تتعرض للحكم كانت تهتم في الأساس بما يسمى "المصلحة العليا للدولة". إن المذهب التجاري، أكثر من كونه مبادئ جديدة

أو نظريات اقتصادية، هو الهدف المتعمد للبحث عن المصلحة الاقتصادية للدولة بعيداً عن خدمة الامتيازات والتقاليد والدين. لكي نشرح ذلك بكلمات واحد من أبرز مؤرخي تلك الفترة فإننا نقول إن المذهب التجارى مثل «نزعة تحرر» و«نزعة لا أخلاقية» و«نزعة علمانية»^(٢). لقد كان المذهب التجارى والسياسة القائمة على المصلحة العليا للدولة هو المحرك الذى حرك ما أطلق عليه أول نزعة تحررية أوروبية كبيرة. وباياتشى لا يُقدّم فقط دلالات واضحة للمفاهيم الثلاثة التى يشير إليها كوليمان، بل إن مفهوم "المصلحة العليا للدولة" هو الذى أورده شفاعوه الهولنديون بطريقة واضحة جداً خلال محاكمة صمويل فى لندن.

ولاشك أن مفهوم "المصلحة العليا للدولة" هو الذى يدفع دييغو دى أكونيا إلى توصية ملك إسبانيا بالتعاقد على خدمات باياتشى. فى ضوء ما تم طرحه فى الفصول السابقة، فإن تصور باياتشى كرمز للولاء للصراع الهولندى ضد الإسبان يعد أمراً من الصعب تأييده. فقد كانت ولائته متعددة ومرنة. فى هذا الصدد لم يكن صمويل استثنائياً، فيهود "برتغاليون" كثيرون أظهروا سمات مماثلة. إن ما يجعل باياتشى استثنائياً هو دوره كعميل لمولاي زيدان وطول الفترة الزمنية والتزامه الوثيق بخدمة السلطان.

أطلق مؤرخون آخرون على نفس تلك الفترة اسم، عصر المداراة^(٣)؛ إن الحروب الدينية والمطاردات الدينية أجبرت أشخاصاً كثيرين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر على إخفاء معتقداتهم الخاصة أولاً، وأيضاً على إخفاء شرعية على هذا الإخفاء الذى يقود إلى تشكك معين، تكمن فيه، ربّما، بدايات الإلحاد. لقد كانت المداراة على أية حال، هى حجر الزاوية لمناورات أخلاقية وسياسية كثيرة من رجال من القرن السابع عشر. إنها مناورات يكذب المرء فيها لكى يؤكد، ويختبئ بهدف أن يظهر^(٤). ويشكل الحوار الدينى جزءاً من تلك المناورات. هل كان تشككاً أكيداً ذلك الذى يحمل باياتشى على أن يقول، فى خطاب إلى الملك فى عام ١٦٠٨ «فيما يتعلق بالأرواح، الرب موجود فى كل مكان»؟ إنه تأكيد يذكّرنا

بأصداء إسبينوثا. أو ربّما كان الأمر يتعلق بعقيدة داخلية لا شأن لأحد بها إلا ذلك الذى يتبعها فى قلبه، على طريقة باث دى أثيبيدو، الذى كان يقول لأولئك الذين كانوا يلحون عليه للذهاب للاعتراف بأنه «كان يعترف فى قلبه». كما يقول إسحاق عندما كان يتكلم عن «أناس من الأمة» من أمبيريس، «هل يعلم أحد ما هى صلاة الآخرين؟».

فى كتابه الشهير عن عصر النهضة يقترح بوركهاردت نموذج المغامر الخاص بعصر النهضة كأصل للإنسان الحديث. فى دراسته عن بناء الهوية الأوروبية الحديثة المرتكزة على قضية «المرتدين»، يقدّم ل. سكارافيا هؤلاء، ليس فقط كأشخاص بعيدين عن خيانة المسيحية، بل كنموذج لمولد الإنسان الغربى الحديث: مواطن له هويّات وانتماءات متعددة، قادر على أن «يختار» وفقًا للظروف المغيرة أو المراحل المختلفة من حياته، الأجزاء الخاصة التى يبنى عليها هويته. إنّ الدين، كأمر متغلغل فى الضمير الشخصى، هو فقط واحدٌ من هذه العناصر. إنه مواطن يتخلّى عن كل جذر عميق أو عن كل شعور بالانتماء، فى حوار مع نفسه هو^(٥). إنّ كل ذلك يجعل من باياتشى شخصية معقدة للغاية وحديثة للغاية.

هوامش الخاتمة

- 1 J. Israel. La judería europea en la época del Mercantilismo, Cap. VI, "Los judíos de Corte", pp.151 y ss.
- 2 D.C. Coleman, Revisions in Mercantilism, Londres,1969.
- 3 Perez Zagorin, Ways of Lying: Dissimulation, Persecution and Conformity in Early Modern Europe, Cambridge, Mass, 1990.
- 4 S. Berti, "At the roots of Unbelief", Journal of the History of Ideas (1955), p.562.
- 5 L. Scaraffia, Rinnegati. Per una storia dell' identità occidentale, Roma, 1993, p.187.

ملحق وثائقي (بتسلسل تاريخي)

(١)

رسالة من دوق مدينا سيدونيا، ربّما كانت موجهة إلى مجلس الدولة، مؤرخة في السادس من سبتمبر من عام ١٦٠٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٦٣٧، رقم ٦٠ مكرر).

"وصل إلى هنا اليهودي صمويل باياتشي يحمل خطابين من السيد دوق اينفانتادو ومن السيد دوق بونيو اينروسترو... وسافر إلى سبتة مكلفاً بشدة (هكذا قال لي) بما عرضه بشأن التفاوض مع مولاي الشيخ على أن يسلم العرائش مقابل المال وأن يقوم بنفس المسعى مع قائد تلك القوات. ولأن دوق بونيو اينروسترو أخبرني عما تزونه حضراتكم في الشخص الذي يتولى هذه المهمة، ارتبت في الأمر وحتى أعتقد أن شكوكي صحيحة. وهكذا تراجعت من جديد عن القضية وكلفته فعلاً بالألا يتفاوض على شيء من هذه الأشياء حتى أخطره بل وأن يهتم فقط بمشروعاته التي هي كلها مكائد لأنه ليست له لا ثروة ولا صفة، وهكذا فقد اندهشت أن الأمر يسير هكذا مهملاً جداً، لأنه ليس هناك سبب يجعل ذلك مناسباً وليس من المناسب التعامل مع مولاي الشيخ عن طريق المراسلة، وذلك للاعتبارات التي قدمتها لصاحب الجلالة والتي رأيتموها حضراتكم، وهكذا لم أستطع أن أخفي عنكم ما يحمله هذا اليهودي وكيف أنني قمت بتأخيرته حتى لا يتفاوض حول القضايا حتى أخطركم وأتمنى أن يلتزم بذلك وأن تخطرولي بما يتعين تكليفه به".

[في الهامش، بخط السكرتير (أندريس دي برادادا)] "ذلك اليهودي طلب إذننا للذهاب لإحضار زوجته وأبنائه، وقد أعطى له الإذن ولم يكن هناك أكثر من ذلك".

(٢)

رسالة خطية من صمويل باباتشي إلى شخص غير معروف، يحتمل أن يكون دوق مدينا سيدونيا، مؤرخة في الثلاثين من نوفمبر من عام ١٦٠٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٠٠، بدون ترقيم).

صاحب المعالي السيد:

هذا الاسبوع قال لي السيد ألونسو [أدى نورونها] إن مولاي الشيخ يريد أن يسلم العرائش إلى المسيحيين، وقد بدا لي أنه كان يفعل ذلك لكي يستخلص منى معلومات عما كان يجرى، فجعلت نفسي أكثر حمقا مما جعلني الرب وقلت له لماذا إنن يريد الملك سيدنا جبهات في بلاد البربر، لقد كان له هناك أرسيله وتركها، فقال لي إننى لا أعرف سوى القليل؛ سررت بذلك لأنه لم يخاطبني أكثر في هذه المسألة. الآن يُقال علانية إن مولاي الشيخ يريد الهروب من العرائش، ومن أجل ذلك لديه سفينة أحضرها له يهودى خادم له من ليورنا. إن ذلك وما سوف أقوله هو حقيقة. إن هذه السفينة موجودة في العرائش منذ شهر سبتمبر، عليها خمسة وخمسون بحارا وهم مستعدون جدا ويعطيهم قائد القصر، وهى مملكة تابعة لمولاي الشيخ، ٢٥٠ أونز كل يوم لطعامهم وهناك احتفاء كبير بخدم دوق فلورنثيا. اليهودى [خطأ في كتابة لفظ يهودى] الذى أحضر السفينة، هو أيضا مفضل. من هنا صار الناس يقولون إنه يريد الهروب، لكن السفينة وحصاة الطعام التى يعطيها لهم الملك هى حقيقة كبيرة. يُقال أيضا بالمناسبة إنه يرسل ما يملكه من أشياء ثمينة إلى تلك السفينة. فى تطوان تمردوا وقتلوا خدام قائدهم وابن عم له وهرب القائد وفر مسرعا وهو موجود فى القصر. هذه حقيقة. كانت تطوان قد أوشكت على الغرق فى التمرد لولا المقدم، انظر يا صاحب المعالي إلى أى حالة وصلت الأمور فى فاس... لدى الآن، الأمجاد للرب، ابنا أخ لي فى مدينة سبتة هذه وسوف يكون موجودا ابنى وابن شقيق آخر جاهز جدا هنا فنحن جميعا خدام لصاحب المعالي.

عُدّ بإصاحب المعالى للإنعام علىّ، واعهّد بكل الأمور إلى السيد ألونسو الذى يجب عليه هكذا ألا ينسى الجواهر. تلقيت خطابًا من خوانيتين مورتارا الذى سوف يشتري الجواهر منى ويرسل المبلغ إلى غارثيا دى خيريس. وبالتأكيد ولكى يبقى المشروع منظّمًا جيدًا فلنرسل رجل بريد وكل شيء سوف يتم على خير إن شاء الرب. بايالوت، وهو العبد الأسود الذى يملكه مولاي الشيخ فى تطوان، كتب إلىّ بالأمس يتحدّث عن الرسالة التى كتبته أنا إلى مولاي الشيخ الذى أرسلها بعد ذلك وذهبت حيث كنت أخطر فيها عن جوهرة صاحب المعالى وأنه كان ينتظر الرد وأنه كان يريد جواهرى وأن هذا الأسبوع سوف يأتى هنا فى سبتة لينهى الموضوع وأول من سيأتى، المذكور بايالوت...، سأتم الموضوع معه أيضًا. قائد تطوان قال لى نفس الشيء. لإعطاء نهاية فى هذه الأشياء، لو كان يناسب معاليكم عندما تكتب بإصاحب المعالى إلى السيد ألونسو تعهد إليه من أجلى تقول له إنه لو عرض عليه إرسال يهودى أو مسلم إلى تطوان فلا يضع لى موانع وأنه بالإضافة إلى أن ذلك سيكون تسرعًا فيما يخص موضوع الجواهر، سواء جواهر صاحب المعالى أو جواهر السيد روى غوميس فإنه يمكن أن يعرض رغبته فى معرفة أمور عن خدمة صاحب الجلالة. لقد جاء رهبان الغفران. سوف يكتب السيد ألونسو ما يحدث وليأخذ الرب بيديك كثيرًا بإصاحب المعالى ويعطيك حياة ويحسن أحوالك كما أتمنى أنا خادمك. فى سبتة وفى ٣٠ نوفمبر من عام ١٦٠٥.

صمويل باياتشى:

سعر القمح فى فاس ١٥٠ أونز والناس يموتون من الجوع ولم تمطر السماء على مسافة ٤ فراسخ فى المنطقة المحيطة ويبدو أن الرب يشاء أن تنتهى تلك المملكة.

(٣)

جوزيف وصمويل باياتشى يطلبان تصاريح من أجل إحضار أسرتيهما من

المغرب، في ٢٧ مارس من عام ١٦٠٧ (الأرشفيف العام لسيمانكاس، الحرب والملاحه، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم).

جوزيف باياتشى وصمويل باياتشى وثلاثة أبناء لجوزيف^(١) باياتشى: يتوسلون أن يُمنحوا تراخيص من صاحب الجلالة لكى يسمح لهم القادة العموميون فى الحدود مع شمال إفريقيا بإحضار زوجاتهم وثلاثة أبناء لديهم هناك لكى يتعمدوا جميعهم. فى ٢٧ مارس من عام ١٦٠٧.

(٤)

جوزيف وصمويل باياتشى يلتزمان الحصول على أعمال فى خدمة الملك، فى ٩ من أبريل من عام ١٦٠٧ (الأرشفيف العام لسيمانكاس، الحرب والملاحه، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم)

جوزيف باياتشى وشقيقه صمويل باياتشى، يهوديان من فاس، يقولان إنهما منذ ثلاث سنوات وهما يلتزمان فى هذا القصر عملاً لخدمة الرب ولخدمة جلالتم فى المجلس الملكى للدولة والحرب والذى أنفقوا فيه كمية كبيرة من المال، والآن من جديد أحضر المذكور جوزيف إلى هذا القصر ثلاثة أبناء له [إسحاق وموسى وخوسويه] فى محاولة لأن يكونوا مسيحيين، اثنان منهم عازمان الآن على تلقى التعميد من خلال الغفران الألهى بالأمر الذى أصدره صاحب الجلالة الملكية، والثالث، وهو الأصغر، بفضل الرب سوف يفعل نفس الشيء لأنه رأى أخوته فى حالة جيدة^(٢). يطلبون ويتوسلون إلى جلالتم أن تمنوا عليهم بمساعدكم المقدسة جداً وتأمرؤا بإعطائهم مساعدة تكاليف لإعالتهم لأنهم يجيئون وهم فى أمس الحاجة نظراً لمسافة الطريق الطويلة جداً، وأن تأمرؤا بالبحث لهم عن بعض السلوى لكى يستطيعوا أن يعيشوا بشرف وفقاً لوضع أشخاصهم وخدمات آبائهم، إلى أن ترتبوا جلالتم شيئاً آخر لهم.

آخرون يتوسلون إلى جلالتم أن تتفضلوا بأن تأمروا بكتابة أو إرسال ترخيصكم الملكى إلى القادة العموميين فى الحدود مع بلاد البربر لكي يقدموا لهم مساعدة لكي يستطيعوا إحضار زوجاتهم وباقى الأبناء الذين تبقوا لهم هناك، حيث أن جميعهم لديهم رغبة فى خدمة ربنا وجلالتكم، على أمل أن يشملهم فضلكم قريباً وأن يكون فى ذلك طاعة للرب.

٩ أبريل من عام ١٦٠٧

(٥)

جوزيف وصمويل يطلبان تمكين إيوسيبى ميخياس من المجيء إلى القصر، ٢٣ من أبريل من عام ١٦٠٧ (الأرشفيف العام لسيمانكاس، الحرب والملاحقة، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم).

فى الثالث والعشرين من أبريل من عام ١٦٠٧

جوزيف باياتشى وشقيقه، من فاس، يتوسلان إلى جلالتم بأن تأمروا - فى الترخيص الملكى الذى أنعمتم به جلالتم عليهما - أن يقدم لهما الجنرالات على الحدود المساعدة ليتمكننا من إخراج أبنائهما وعائليتهما من بلاد البربر، وأن تأمروا بتمكين إيوسيبى ميخياس من المجيء إلى هذا القصر مع خادمين، بحرية دون أن يلحق به أذى، لكن قبل ذلك أن يكرموه لأنه خادم لكم، وقد خدم جلالتم حين طُلب منه ذلك.

ليُفعل ذلك.

(٦)

خطاب من صمويل وجوزيف باياتشى إلى الملك، فى ٩ من سبتمبر من عام ١٦٠٧ (الأرشفيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٠٨ بدون ترقيم).

صاحب السمو [صاحب الرفعة والجلالة الملكية]

لجلالتكم فى العالم كله شهرة فى الكيفية التى تجازون وتكافئون بها من يعملون فى خدمتكم، ومع أنهم لديهم هذا الحق لكونهم رعايا ولكونهم ينتمون للعقيدة الكاثوليكية، ومن ثم فهم يدينون بذلك لعظمتكم وكيف أن ملكاً عظيماً جداً وعظيماً النفس بكافئهم دون أن يكون ملزماً بذلك نحوهم.

لقد خدمنا عظمتكم أنا وشقيقى دون أن يكون لدينا أى من هذين الواجبين ولم تكن خدماتنا لفترة قليلة، إذ لم تكن أقل من طوال حياتنا، كما سوف يظهر فى التقرير الخاص بأدوارنا وهو لدى السيد أندريس دى برادا^(٣). وقد نتج عن ذلك أننا فقدنا وطننا وبيوتنا واستقرارنا، ولم يكن أحد فى وطننا له وضع أفضل منا، وبدأتم عظمتكم فى التفضل علينا بإعطائنا ترخيصكم الملكى عن طريق مجلس الحرب لى تأتى عائلاتنا بحرية إلى العاصمة، ومن هنا سوف يتحدد ما سوف يوجهه الرب لخدمته المقدسة.

أعضاء محكمة التفتيش أرسلوا يخطروننا بضرورة الخروج من العاصمة وإلا فإن جزاءنا سيكون طردنا وأنهم سوف يرسلون شرطياً إلى بيتنا.

لم يكف القول أن أبناء جوزيف بايانشى كانوا موجودين من أجل التعميد وأنهم كانوا تحت رعاية الكنيسة وكيف أن عظمتكم أصدرتم أمراً إلى السيد البارو دى كاراباجال (بدلاً من كاراباخال) لى يقوم بإعدادهم من أجل تعميدهم، كل ذلك لم يكن كافياً لى يكف أعضاء محكمة التفتيش المذكورون عن التصرف على هواهم.

إننا نشعر بكثير من الأسى لأننا خدمنا عظمتكم وأتينا إلى عاصمتكم أغنياء وخرجنا منها فقراء، دون الحصول على أية مكافأة، وكان ذلك يمكن أن يكون مقبولا لو أن خدماتنا لم تحقق نجاحاً. كان يمكن أن يقال إن أن عظمتكم لم

تكافئونا بينما تكافئون كل الناس لأننا لم نقم بالواجب وفقدنا شرفنا، حيث إن مجالس عظمتكم الخاصة بالدولة والحرب يعلمون إذا ما كان هناك إهمال في خدمتكم الملكية، وإذا ما لوحظ في كل ما يتعلق بالعرائن فقد كانت كل الأمور منضبطة وبالكفاءة التي تعلمها تلك المجالس. إننا نشعر بالأسى أيضاً لأنه كان يُقال إن ملوك بلاد البربر يصدرون قراراتهم الملكية ولا ينفذونها. وداخل قصر عظمتكم لا يُنفذ أمركم الملكي ودون أن يكون هناك سبب يخالفه، ودون أن تصدر عنا ملحوظة سيئة طوال الوقت الذي أمضيته في العاصمة منذ ما يقرب من أربع سنوات^(٤). نتوسل لعظمتكم أن تأمروا بمعالجة هذا الموضوع كما يجب، تبرئة لضميركم، وأن يكافئونا كما يجب بأن يعطونا مساعدة تكاليف وسلوى لكي نستطيع أن نعيش بشكل لائق. وفيما يخص القلوب والنوايا، فالرب موجود في كل مكان وإذا كانوا لم يقبلونا في إسبانيا فسوف تكون هناك أماكن أخرى كثيرة وأينما تريد أن نكون فنحن نكون وسنكون خدم عظمتكم. أطل الرب في عمركم ومنحكم الصحة. في سان خوان دي لوث، ٩ من سبتمبر من عام ١٦٠٧.

صمويل باياتشى وجوزيف باياتشى

(٧)

عن تعميم أبناء جوزيف باياتشى، ٢ نوفمبر ١٦٠٧ (الأرشفيف العام لسيমানكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٠٨، بدون ترقيم).

إلى كبير متعهدى المراسلات خوان دي أربيلايث

صمويل وجوزيف باياتشى يهوديان متواجدان في سان خوان دي لوث. عندما رحلا عن هذا القصر فهم أن أبناء جوزيف باياتشى الصغار كانوا يريدون أن ينتصروا، ولأن صاحب الجلالة يرغب أن يعرف ما إذا كانوا لا يزالون مصممين على هذه الرغبة أمرنى بأن أكتب إلى سيادتكم في ذلك من أجل أن

تستعلم وتُخبر... لأنه يريد أن يعهد بتنظيم هذا الموضوع إلى كل من والى نافسارًا
وأسقف بامبلونا لكي يعمدوهم وهذا ما سوف يتم.

٢ من نوفمبر من عام ١٦٠٧

(٨)

الأخوان باياتشى يلتمسان وثيقة سفر إلى هولندا، ١٨ من أبريل من عام
١٦٠٨ (أرشفيف ريجكس، الولايات العامة، قرارات، ربطة رقم ٥٥٥، صفحة رقم
١٨٣). نشر في SIHM، هولندا، ١، صفحات ٢٧٣-٢٧٥.

في أعلى الوثيقة: الجمعة، الثامن عشر من أبريل من عام ١٦٠٨.

في هامش الوثيقة: جوزيف وصمويل باياتشى.

بناءً على التماس من جوزيف وصمويل باياتشى، وهما شقيقان، وكلاهما
يهودى، وهما من مواليد فاس، المغرب، وقد قررا - بسبب الحروب الكبيرة
والقلق التي تحدث منذ زمن طويل في بلاد البربر والتي مع كل الاحتمالات
سوف تزداد بدلاً من أن تقل - قررا نقل موطنهم من فاس، والاستقرار في هولندا،
ولهذا الغرض يرغبان في استدعاء زوجتيهما وأبنايهما وعائلتيهما ونقل ثرواتهم
من بلاد البربر وإحضارها إلى هنا، إذا كان بوسعهم تحت حكم سادة الولايات أن
يتمتعوا بكل الأفضال، والمنافع والمعاملة الحسنة التي يظهرونها لكل القوميات
الأجنبية والتجار، ولهذا الغرض يرغبون في الحصول من سادتها النبلاء على
وثيقة سفر ملائمة؛ وقد استجابت الولايات المذكورة لطلبهم.

[في الهامش]: لاحظ أن وثيقة السفر هذه رُقِضت وسُحبت في اليوم التاسع
عشر من هذا الشهر.

(٩)

مركز غواداليستى بكتب إلى الملك، في الثلاثين من يوليو من عام ١٦٠٩

(الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٢٩١، رقم ٢٢٧-٢٢٨).

سیدی،

أوضحت لجلالتكم فی خطاب بتاريخ ١٧ أبريل^(٥) كيف وصل إلى هولندا يهوديان من فاس مع سفارة موفدة من قبل ذلك الملك إلى الولايات. منذ ثلاثة أيام قالوا لي إن أحد هذين اليهوديين أتى من هولندا إلى أمبيريس، ويدعى خوسويه باياتشي. أوليت الأمر اهتماما وفوجئت به في بيتي بينما لم أكن أتوقع ذلك، وقال لي إنه لديه أمورًا كثيرة يريد أن يخبر بها لجلالتكم. وتناسب خدمتكم الملكية. لم أستطع أن أحصل منه سوى على ما هو وارد في هذا التقرير الموقع بخط يده، وقال لي إن من المناسب إرساله إلى إسبانيا لأنه يريد عند وصوله أن يكون مسيحيًا. أقنعت به بأن ذلك ليس مناسبًا وقد أرسل لجلالتكم القبطان فرانثيسكو دي إيرارا ثابال وكيلًا عنه والذي عرض عليّ أن يقوم بحمل ما يريد أن يرسله موكله مع رسالة إلى لجلالتكم. إنه فارس شريف ويؤكدون لي بأنه خدم بكثير من الانضباط في كل المناسبات التي عرضت عليه وهكذا فهو يستحق من لجلالتكم التفضل عليه، يحفظ ربنا شخصكم الكاثوليكي فالمسيحية في احتياج إليكم، في بروكسيل ٣٠ من يوليو من عام ١٦٠٩.

[وقع عليه] مركيز غواداليستي.

يقول خوسويه باياتشي، ابن جوزيف باياتشي وهو يهودي من فاس، إنه عندما كان في مدريد في عام ١٦٠٧ حاول أن يكون مسيحيًا رغبةً منه في إنقاذ نفسه وأن أباه وعمه أخرجاه من هناك خشية ألا يتحقق هذا الهدف وأفهماه أنها رحلة قصيرة توجب عليهما القيام بها وكان دليلهم في كل ذلك هو لويس دي ثامورا، وهو يهودي يقيم في مدريد ولم يقلوا له إلى أين كانا يصطحباه إلى أن أصبحوا في بايونا وحيث كتبنا من هناك إلى صاحب الجلالة يعتذران لكونهما تغيبا عن إسبانيا بدون إذن، وفي بايونا استقلوا جميعهم سفينة هولندية. وكان قبطان

السفينة هو دى غواتيلان، وذهبوا إلى ميناء أمستردام بهولندا وأعجبتهـم هناك الأرض والناس وأقاموا صداقة مع خوان دى كارلى وسيمون غوليمس، وهما من مواليد أمستردام.

اتفقا فيما بينهما على نقل مسكنهما وموطنهما من فاس إلى هولندا ولتنفيذ ذلك ذهبا إلى فاس منذ عام ووصلا إلى ميناء تطوان. عندما علم المسلمون بأنهم كانوا فى الميناء أرسل لهم المقدم النقيس رجاله إلى الميناء، ولدى مركز بيارىال خبر عن هذه الحقيقة، وساعدهم المقدم إلى أن ذهبوا عائدين إلى هولندا وكشف لهم المقدم كيف أنه كان قد صنع لغما من أجل الاستيلاء على سبته ولكن بسبب نقص الفتيل لم يعد له تأثير غير أنهم لم يروه، بل وقال لهم إنه من المناسب لخدمة ملك المغرب مولاي زيدان أن يحاولوا مع ولايات هولندا لكى ترسل لهم أربع سفن حربية، فقد كانت لديهم أخبار عن طريق رجل يهودى يعيش فى سبته ويدعى خاكوب بيباس أن سفنا كانت تأتى إلى العرائش عن طريق تفاوض تم مع ملك فاس الذى كان يريد تسليمها بالمفاوضة إلى صاحب الجلالة وأن المقدم كان قد أمر قائد العرائش والذى يدعى البيتوارى بأن يدافع عن نفسه ويقاوم أسطولنا (الإسباني) وأنه كان قد أعطى له كلمة سر حتى لا يعوقوا دخول سفن هولندا حتى لو كانت سفنا حربية (إذ أفهمه أنها كانت سفنا تجارية)

وحتى لا تفشل هذه المفاوضات المهمة جدا ذهب صمويل من تطوان، حيث كان موجودا، إلى صافى، وهو الميناء الرئيسى للمغرب ليرى الملك مولاي زيدان. وهذا الصبى ظل فى السفينة مع أمه ستة وعشرين يوما وهى المدة التى استغرقها عمه فى العودة، وبعد عودته ذهبوا بعد ذلك إلى أمستردام مع سفارة ملك المغرب ولم يحدث لهم شىء فى الطريق، وبعد أن نزلوا من السفينة عرض رسالة من طرف الملك إلى الولايات فى لاهاي، وقُبِلت وإن كان عارضها بيرنابيل إلا أنه على الرغم منه، قضت الولايات بأن تذهب سفينتان على نفقتها الخاصة مع القبطان جولفيت هيرميس واثنان من الفرقة. طلب هذا اليهودى من الولايات أيضا أن

يرسلوا له خبراء في الألغام والمفرقات إلى فاس. أرسلوا له المفرقات وخبير الغام وذلك بطريقة سرية. يقول هذا الصبي إن الهدف الذي يوجه من أجله كل ذلك هو عمل مفاجأة لسبته وطنجة بتفاوض بحت من القدم نقسيس، الذي يحميه ملك المغرب، وأن المقدم لديه جاسوس خادم له وهو مسلم ويدعى حامد فيراندور [من المحتمل أن يكون موريسكيًا]، الذي له دراية بالأرض وبالمدخل إلى تلك المواقع في سبتة حيث يدخل بشكل اعتيادي مع بضائع لكونه جاسوسًا وليس لبيعها، وهو ما سوف يكون مبررًا عادلًا سواء بالنسبة له أو بالنسبة للمسلمين واليهود الذين لا يدخلون إلى الضفة ولا إلى الميناء والذين لا يصلحون إلا لأن يكونوا جواسيس ولعمل إشارات للمسلمين الموجودين في المعسكرات، وهذا ما حدث مرات كثيرة.

يقول كذلك إنه عندما رأى عمه مولاى زيدان ملك المغرب قال له إنه منذ حوالي ثمانية أيام كتب خطابًا إلى صاحب الجلالة عن طريق مارثاغان، وإنه كان حزينًا لأنه كتبه « انظر كم أحب ملك إسبانيا »، دون أن يقول لهم عن فحوى ما كان يتضمنه ذلك الخطاب.

يقول كذلك إن هناك يهودًا يقيمون في هولندا وإنه عرف بشكل خاص دوارتى فرنانديث الذى كان كاتبًا في ميناء لشبونة، وأن أبناءه يعيشون في لشبونة وهم تجار يهود. فى مدريد يعيش أنطونيو رودريغيس الذى كان فى هولندا منذ عام واختتن علانية. ذهب رودريغيس إلى كامبانيا بهولندا مع أصدقاء له لسك عملة مزورة وذهب هو إلى إسبانيا. وقد اكتشفت العملة عند حملها إلى السفينة، ولم تسمح الولايات بإتمام صعودها إلى السفينة وما كان على الأرض. أرجعوه وقالوا إنهم لا يريدون فى زمن الهدنة أن يسمحوا بمثل تلك الأعمال ويهود برتغاليين آخرون كثيرون سوف يتحدث عنهم فى مدريد.

يقول كذلك إن عمه أرسى اتفاقًا مع ولايات هولندا أنه طالما كان الملك فى حاجة إلى مساعدة عسكرية من أجل حربه ضد الإسبان فسوف يعطونه مائة سفينة حربية مع كل ما هو ضرورى.

يقول إنه من المناسب جدا عمل الإجراء اللازم لكي يأتي عمه إلى إسبانيا
ويكشف عن أسرار كبيرة ومعاهدات ضد ملك إسبانيا والتي إذا عُرِفَت يمكن
بسهولة معالجتها والعكس صحيح.

ولكي يمكن التفاوض بشكل أفضل على قدوم عمه صمويل باياتشي ينبغي
الإعلان عن أنه ذاهب إلى روتشيل حيث لديه ممثلون تجاريون يعرفهم من وقت
أن كان في فاس.

أرسل ماوريتيو إلى ملك المغرب مع عم الصبي أربعة جياذ وصورة له.
كل ما تحويه هذه الورقة أبلغته إلى السيد مركيز غواداليستي سفير صاحب
الجلالة الكاثوليكية في هذه الولايات بفلانديس وللحقيقة أوقع باسمي في بروكسيل
في الثلاثين من شهر يوليو من عام ١٦٠٩.
[موقع عليه] خوسويه باياتشي.

(١٠)

مقتطفات من رسالة ديكارت إلى بويزيو، في ١٢ من أكتوبر من عام
١٦٠٩ (المكتبة الوطنية. محتويات فرنسية. - مخطوطة رقم ١٦١٣٣، أرقام
الصفحات ٢٩٢، ٢٩٣. أصلية) منشورة في SIHM، فرنسا، العدد الثاني، أرقام
الصفحات من ٤٧٤ إلى ٤٧٦.

مدريد، ١٢ أكتوبر ١٦٠٩.

الموجه إليه الرسالة: إلى سيدي، مولاي بويزيو، مستشار الملك في مجلس
دولته وسكرتير شئون صاحب الجلالة. في القصر.

على ظهر، اليا مانو: ديكارت، في الثاني عشر من أكتوبر. سُلمت في
العشرين من الشهر المذكور.

سيدي،

اثتان من خطاباتي، مؤرخان في الثالث والسابع من هذه الشهر وجهتهما إليكم في آن واحد عن طريق رسول يرافق شريفا متجها إلى فلاندرس.

متابعة للورقة التي أرسلتها إليكم مع خطابي المذكور في الثالث من هذا الشهر، أحاول أن أكون موضوعيا إذ أن كل الكبار والسادة الذين يمثلون إسبانيا يحشدون في أراضيهم وفي دوائر اختصاصاتهم ما يستطيعونه من رجال الحرب، لقد أرسلت الرسائل إلى كل واحد في هذا الصدد، سواء إلى هؤلاء أو إلى الأساقفة والأشراف الذين يطمعون في الحصول على الأوسمة، يطلبون منهم كذلك الرماح بالإضافة إلى المشاة، كشكل «مرسوم عال» و«دعوة لحمل السلاح»، وهو نهج قليل ما يُستخدم بهذا الشكل؛ بالطريقة التي بها لوحظ كذلك أنه صدر أمر ينص على أنه إذا بدا أن هذه الثورة ستقوم، فعندما تكون للأعداء القدرة السريعة على الدخول في هذا البلد، فإنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من ذلك.

نفس الشيء صدر أمر به في البرتغال، هكذا قيل لي، ويتوجب أيضا على مركز سانت جيرمان الرحيل خلال أيام قليلة للذهاب إلى كاليبس وإلى مواقع بحرية في أندلوثيا من أجل زيارة التحصينات. وهو قائد للمدفعية يتوجب أن يكون هناك بعض الشيء من هذا العبء في سفره.

الحجج التي يسوقونها في كل ذلك هي تنفيذ المرسوم ضد الموريسكيين والاستيلاء على العرائش، التي لا تزال محل طمعهم.

وصلت أخبار من فالنسيا تفيد بصدور أمر بالصعود على السفن من أجل عبور المذكورين إلى شمال إفريقيا، يقومون بقيد الأموال التي يحملونها، ويرون أن لن تكون لهم الحرية إذا ما كانت أكبر مما ينص عليه المرسوم المذكور.

بعد أن فعلوا ذلك معهم، يتوجب على المسلمين الإسبان الآخرين في قشتالة وفي أراغون أن يكون لهم نفس المصير.

تلقيت مكتوباً في ذلك من أشبيلية في السادس من هذا الشهر وكنت قد تلقيت إخطاراً بأن مولاي عبد الله، ابن مولاي الشيخ الموجود في هذا البلد، قُتل عمه مولاي بوفارس، وأنه استولى على تطوان، بالقوة والنهب. هذا العم كان ملاذاً له في نكبته وساعده فيها. والذي كان يعترف له بالجميل المعتاد للمسلم؛ هذا الذي سوف يستطيع مع ذلك تأمين أبيه.

قيل لي أن أخوين يهوديين كانا قد مكثا وقتاً طويلاً في هذه العاصمة، ورحلا عنها منذ ما يقرب من عام ونصف، دون أن يستطيعا التفاوض حسب رغبتهما، التي يفترض أنها كانت عن أحداث بلاد البربر، فاما بعد ذلك بنزهة في إيطاليا، ثم ذهباً عند سادة الولايات، حيث يبدو أنهما وجداً من يعيرهما آذاناً صاغية، وأن أحدهما رحل من هناك بما تفاوضا عليه إلى ملك المغرب، والآخر أذعن بعد ذلك بجوار الأرشيديوق، ومن هناك أرسل لهذا الغرض ابناً له كان بوسعه أن يعطى أهلية لهذا الذي تفاوضا عليه مع سادة الولايات المذكورين، وكذلك ذهبوا يخدعون البعض والبعض الآخر من أجل أن يحصلوا بحيلهم على ما يستطيعونه من مال. أظن أن ابن اليهودي هذا هو شخص يدعى أنه برتغالي، عن طريقه تسلمت رسالتكم المؤرخة في الخامس عشر من سبتمبر، السيد لوفيه أعطاه حزمته، ويطلب مني أن أعقد صداقة مع شخص يدعى أندراد موجود في باريس، وأنه إذا رغب في أن يعرفه، فيمكنه أن يقول.

أتضرع إلى الخالق أن يمن عليكم.

يا مولاي،

بأتم الصحة وبحياة طيبة وطويلة

في مدريد، في الثاني عشر من أكتوبر ١٦٠٩

خادمكم المتواضع جدا والمطيع جدا

التوقيع: ديكرت

(١١)

مقتطفات من رسالة ديكرت إلى بويزيو، المؤرخة في ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦٠٩ (المكتبة الوطنية. محتويات فرنسية. مخطوطة رقم ١٦١١٣، أرقام الصفحات من ٢٩٩ إلى ٣٠٠. أصلية)

منشورة في: SIHM، فرنسا، العدد الثاني، أرقام الصفحات من ٤٧٧ إلى ٤٧٩.

مدريد، ٢٥ أكتوبر ١٦٠٩.

الموجهة إليه الرسالة: إلى سيدى، مولاي بويزيو، مستشار الملك في مجلس دولته وسكرتير شئون صاحب الجلالة.
في القصر.

على ظهر، اليامانو: ديكرت، في الخامس والعشرين من أكتوبر. سُلمت الرسالة في التاسع من نوفمبر من عام ١٦٠٩.

سيدى،

رسالتى السابقة مؤرخة في الثانى عشر من هذا الشهر.

أنا فى انتظار الرسالة التى قلت لى أنك كتبتها إلى عن طريق رجل من العامة أوفده السيد كونستانت، بهدف أن أرى إذا كانت تتفق جدا مع إرادة الملك حيث أنكم أرسلتم إلى تبليغونى فقط بأن صاحب الجلالة يريد أن أعاونه على تخلص الأمور التى أراها مناسبة وإذا لم تحددوا شيئاً خاصاً، فإن التصرف الذى أظنه فى هذا الصدد هو التحدث فى ذلك بدون اكتراث وعن نفسى أنا، بادئاً بالسكرتير براد، من أجل النظر فى أية لغة سوف أتحدث بها.

قيل لى إنه جاءت منذ أيام قليلة رسالة من نائب ملك البرتغال يطلب فيها أن يلقي الزائر الفرنسى حراسة جيدة، وفى رده على ذلك أمر بمواصلة العمل فى هذا

الصدد ليلقى عناية طيبة لشخصه المهم، يظن أن ذلك سوف يستمر حتى يُعتبر ملك فاس، مولاي الشيخ - المستمر في التفاوض - إلى بلاد البربر.

وعَلِمَ أن خوانيتين مورتارا هذا وهو موظف من جنيف، ورجل يُدعى ديجو أوريا، مترجم إلى اللغة العربية، سوف يتعين عليهما قريبًا جدًا أن يذهبا سويا إلى المكان الموجود فيه مولاي الشيخ، لإفهامه المداولات الخاصة بذلك، المماثلة للمشورة التي أرسلتها إليكم سابقًا والمدرجة في الاتفاقية، وعمل الكتابات الضرورية الخاصة بالتعهد برهن العرائش مقابل المال الذي يطلبه. ثم بوسعه بعد ذلك أن يتزود بما يلزم لرحلته. في غضون ذلك، أنا لم أتوقف عن الكلام عن ذلك الزائر، بعد استلامي لخطاباتكم.

هذا الذي كتبه إليكم في رسالتي المؤرخة في الثاني عشر من ابن لرجل يهودي جاء في هذا الصدد، ليس الشخص الذي أذكره لكم، وفهمت أنه منذ نحو ثلاثة أشهر أنه سافر إلى باريس، حيث يقول إنه تحدث إلى الملك، بسبب أنه رُفِضَ (إعطائه) خيول بوسطة، امتثل بصفته كان قد خدم في فلاندرس أثناء الحرب وأنه جاء في هذا الصدد من أجل أن يحصل على مكافأة. الشخص الذي أعاشه قال لي أنه فهم أن أباه وعمه رحلا من هنا وذهبا عند سادة الولايات وتفاوضا معهم؛ وعُتِرَ من هناك مع عمه عند ملك المغرب، ثم عاد إلى هولندا، حيث قرأ منها من أجل أن يأتي إلى هنا ويكشف التفاوض، الذي كان ينص، بين أمور أخرى، على أن سادة الولايات تعهدوا بمساعدة الملك المسلم في المستقبل بمائة سفينة للعبور إلى إسبانيا، حيث يتوجب أن تندلع هناك ثورة كبرى، دون أن يذكر شيئًا أكثر من ذلك؛ وتقديرًا لهذه الخدمة، أمر له بإعاشة في نابلي. إذا كانت روايته حقيقية فسيكون قد عرِفَ جانبًا من سبب النهج الذي يرى الآن ضد موريسكي مملكة فالنسيا. لست أدري إذا ما كان الاثنان الآخران اللذان يقول إنهما أقاما هناك كانا يجهلان إن رحلته التي يوضحها، أو إذا ما كانا يشتركان معه في ذلك من أجل أن يحاولا الاستفادة من كل النواحي، على عادة أولئك اليهود.

ركب الموريسكيون السفن جميعهم بمحض إرادتهم، هذا ما يُقال. دون أن يرغب أحد في أن ينعم بضمون المرسوم الخاص بالماوى لستة في المائة من العائلات؛ ويبدو أن مرورهم سوف يحدث قريباً جداً، إن ذلك ليس سوى مجيء لشتاء طويل. موريسكيو قشتالة هؤلاء أرسلوا مندوبين عنهم عند ملك إسبانيا، الذى أحالهم إلى مجلس دولته من أجل طرح أسبابهم، التى يشيرون فيها إلى أنهم مسيحيون، يعيشون على شريعة الكنيسة، وبالتالى لا ينبغي جعلهم يعبرون إلى بلاد البربر؛ يتمسكون بأنهم يجلبون كذلك بعض العروض المالية..

سفينة الأسطول هذه التى كنت قد أخبرتكم سابقاً بأنها أخذت على مرأى من قادش يُقال الآن بأنها ثمينة بحيث تساوى أكثر من أربعمئة ألف دينار، وتتسع لعدد آخر من المسافرين، وأن مالکها هو قرصان إنجليزى، وأنهم كتبوا إلى من أشبيلية يقولون بأنها رست فى العرائش، وأن ابن مولاى الشيخ أخطره أن يُبقیها حتى يعرف قراره فيما سوف يفعل. وهو ما لا يصدق كثيراً

من مدريد، فى الخامس والعشرين من أكتوبر ١٦٠٩

خادمكم المتواضع جدا والمطيع جدا،

[التوقيع:] ديكارت

(١٢)

بلاغ من إسحاق باياتشى ضد خوان مينديس اينريكييس، فى أغسطس من عام ١٦١٠ (الأرشيف الملكى العام بروكسل، مكتب المدعى العام - بورتيفوليس، مصنف رقم ١٣١ مجموعة رقم ٩٢٤ [أ]، صفحة رقم ٢٢ف).

السيد صاحب السمو:

يقول إسحاق باياتشى إنه جاء إلى هنا فى ظل حماية سموكم ومن أجل خدمتكم، ليؤدى أعمالاً ذات أهمية كبيرة فى خدمة صاحب الجلالة وفى خدمة

سموكم، إنَّ خوان مينديس اينريكي غارثيس وابن عمه فى نفس الوقت والموجود فى تلك المدينة، قد قابله فى شارع مفتوح ورئيسى فى المدينة المذكورة هذه وقال له وهو يهدده، "أنت خائن وكلب ويهودى ومفضوح. يتوجب علىَّ أن أقتلك وأن أسدد لك ستين طعنةً بيدى إنك خائن". وقد كان هذا اللقاء بين الساعة السابعة والثامنة، بعد ذلك بين الساعة الواحدة والواحدة والنصف، بينما كان المذكور إسحاق قادماً من غرفته لىأتى إليها النائب العام أشار عليه جندى بعلامة الصليب وكان يفكر أيضاً فى إلحاق الأذى به قائلاً وهو يضع يده على سيفه "أقسم بأنه كان يتعين عليه أن يقتله". قبل ذلك بينما كان اينريكي غارثيس يخضع للأسئلة والاستجابات التى كانت توجه إليه بشكلٍ رسمى فى مجلس مدينة أمبيريس كان ضائعاً جداً لدرجة أنه دعا المذكور إسحاق بالخائن فى حضور النائب العام المذكور والنواب المذكورين، ولأن كل الذين يأتون لخدمة سموكم الرفيع هم تحت حمايتكم فليس مسموحاً لأحد أن يتعرض لهم بالأذى والمضايقات العلنية جداً مثل هذه. لذا فهو يتوسل لتأمين شخصه أن تتفضلوا سموكم الرفيع بالأمر بالإعلان بالآ يتعرض أحد للمذكور إسحاق بالقول أو بالفعل وأن الذين يفعلون ذلك سوف يُعاقبون كما يجب حسب القانون حتى لا يتجرأ آخرون على ارتكاب فعل آخر ضد خادم ذى أهمية كبيرة مثل هذا وخدم آخرين كثيرين يتوجب تقديم تقارير بشأنهم يعملون فى خدمة صاحب العظمة وخدمة سموكم الرفيع. أقبل الأقدام الملكية مرات كثيرة، وإذ أرسل لسموكم هذا الطلب تقبلوا خالص العرفان.

(١٣)

تقرير ضد اينريكي غارثيس بشأن ما حدث فى التجارة، أول سبتمبر من عام ١٦١٠. الأرشيف العام الملكى. بروكسيل، مكتب المدعى العام. بورتيغوليس، مصنف رقم ١٣١ مجموعة رقم ٩٢٤ [أ]، صفحات ٢٨١ - ٢٨٤.

تقرير عما حدث فى التجارة ضد اينريكي غارثيس لكشف الثروة التى يُعتقد أنها موجودة فى حوزته، مُقدّم من سفير ملك المغرب او من عميليه صمويل وجوزيف باياتشى، الموجودين حالياً فى هولندا.

إنَّ خطاب أصحاب السمو والرفعة المؤرخ في ٢٣ من أغسطس إلى هيئة
قضاة أمبيريس قد سلّم إلى هيئة القضاة المذكورة في ٢٤ من ذلك الشهر وتم تعيين
وإنابة القضاة أنطونيو دي بيرتشيم كاباييرو وخوان دي ستيমبور مع السكرتير
كريفيل لمساعدة النائب العام في تلك القضية حسبما، ووفقاً للأمر المنصوص عليه
في ذلك الخطاب. بعد ذلك استدعى القضاة الأشخاص المذكورين - من أجل إزالة
كل الشكوك -، المذكور إينريكي غارثيس للمثول في مجلس المدينة لأمر يتعلق
بنزاع نشأ في اليوم السابق بين برتغاليين، حيث تواجد بعد ذلك النائب العام
المذكور الذي أفهم غارثيس بأنه مفوض وموفد إلى هذه المدينة من قبل أصحاب
السمو المذكورين، وقال له بأنهم على علم تام بكل ما كان يحدث بين المذكور
غارثيس والسفير المذكور (المذكور صمويل) ولهذا كان من الضروري أن يقول
ويدلى بالحقيقة المجردة بكل ما كان يحدث وإلا فإنه قد يجد نفسه متورطاً أكثر في
حالة ما إذا انتظر حتى تتكشف الحقيقة بطريق آخر، لأنه في هذه الحالة يغامر
بحياته وبممتلكاته، لكنه لو اعترف بالحقيقة فلن يُطلب منه شيء آخر سوى تلك
الثروة أو قيمتها.

وكيف أنه أخذت بعض أقواله حول ذلك الموضوع، وكان المذكور غارثيس ينفى
دائماً أن لديه ثروة، وكان يدّعي أنه كان في حوزته خمس ياقوتات بالآسية، كان قد أخذها
من نوارتي فرنانديس، حماه، ويصر على العكس النائب العام المذكور بتفاصيل كثيرة مما
كان يزعم وقد أمر أيضاً بأن يأتي في وجوده إسحاق بايانشي ابن جوزيف، الذي قال بثبات
كثير للمذكور غارثيس إن امتلاك غارثيس لتلك الثروة هو حقيقة، وأوضح إسحاق ماذا
كانت تلك الثروة ومن الشخص الذي سلّمها وكيف سلّمت إليه.

لقد أصّر دائماً المذكور غارثيس على أنه لم تكن لديه أي ثروة من التي كان
يُبحث عنها، لا ذهب ولا جواهر ولا عمبر ولا أي شيء آخر. وفي ذلك تم عمل
استجوابات على وجه الخصوص للمذكور غارثيس وقد أجاب عليها، كما يرى من
أقواله المرفقة هنا: المسماة رقم ١.

وبعد ذلك يشتكى بكثرة من أن هذه المكيدة الافتراضية كانت تستهدف على حد قوله تدمير شرفه وسمعته وأنها كانت يجب بكل تأكيد أن تدمر الائتمان، إذا لم يتواجد حينئذ في بورصة هذه المدينة ويقدم من أجل ذلك، كفالة وضامن ليس فقط ليمثل شخصه، لكن كل ما يمكن أن يُطلب منه، كان موجودًا لحسن الحظ، عن طريق اجتماع للنائب العام المذكور مع القضاة، لأخذ وقبول تلك الكفالة والضمان، بل لأنَّ المذكور غارثيس كان يقول إن البريد رحل في نفس اليوم إلى إسبانيا، بحيث توجب عليه أن يكتب إلى ممثليه هناك وإلا كان رجالاً ضائعاً.

وهكذا ظهر خوان مينديس اينريكيث، وهو تاجر برتغالي، مقيم في مدينة أمبيريس، جاء مرافقاً له إلى مقر مجلس المدينة، وتولى ضمانته وكفالته كأساس من قبل المذكور اينريكي غارثيس، عمه، كما هو ثابت من المحضر المرفق هنا أيضاً. رقم ٢.

ولأن المذكور اينريكي غارثيس وفقاً لذلك كان ذاهباً إلى بيته، فقد تعقبه مساعدو النائب العام ليأخذوا دفاتره وخطاباته التي كان يحتفظ بها في مكتب بيته، وعندما وصلوا، رأوا وسمعوا أن المذكور اينريكي غارثيس عندما دخل مكتبه المذكور ولم يجد هناك دفاتره تلك، سأل بعد ذلك أهل منزله، أين كانت. وقالت له زوجته إنها قد أرسلتها خارج البيت، ثم أعادوا الأشياء في الحال إلى البيت في جوال صغير أبيض اللون. وهكذا قام مساعدو النائب العام بغلاقها وختمها داخل صندوق. وظلوا منشغلين الفترة الباقية من هذا اليوم فيما سبق ذكره حتى الساعة الثانية بعد الغداء، تم عمل بعض الإجراءات، من أجل الحصول على استدعاء بعض الشهود. الذين لم يأتى منهم سوى شاهد واحد، وتم استجواب الآخرين في اليوم التالي. كما يظهر أيضاً من التقرير المرفق هنا. رقم ٣.

بالإضافة إلى ذلك، تم عمل اللازم مع بعض سماسرة الأمة وآخرين، لكي يخبرونا إذا كان غارثيس قد عرض بالصدفة بيع عنبر، وذهب وأحجار وجواهر، ولم يُعثر على أى شيء بخلاف الخمس يواقيت البالايسية.

وبالنسبة لما كان يلحُّ عليه صاحب الاتهام من أنَّ الذهب حوِّل إلى عملة، فقد تبين العكس من خلال إقرار مدير عام العملة، الذي قال بأنه منذ شهر مايو الماضى لم يدخل أى ذهب فى عملة هذه المدينة.

وفى المساء بعدما حلَّ الظلام ذهبنا كلنا إلى بيت المذكور اينريكي غارثيس حيث تم عمل بعض الاستجوابات الأخرى وتم تفقُّد أجندته، لأن دفاتره الكبيرة لم تكن منتهية، ولم يكتمل فيها شهرا يوليو وأغسطس. ولما لم يُعثر فى تلك الأجندة على أى شىء يخص أو يأتى بذكر لهذه الصفقة، ولا لما كان يُزعم ضده، قام المساعدون بأخذ الدفاتر وأغلقوها من جديد حتى اليوم التالى الذى كان يتوجب عليهم فيه مراجعة وتفقد الخطابات ودفتر نسخ المستندات الخاصة بالمذكور اينريكي غارثيس.

فى صباح اليوم التالى وبعد أن استجوبوا بعض الشهود الذين ذكرهم المذكور إسحاق وبناءً على طلبه، راجعوا وفحصوا الخطابات المذكورة بمساعدة كاتب العقود فاندينبو ستشى لكونه متحدثاً جيداً باللغة البرتغالية. وأخذوا اثنين منهم، حيث أخذت النسخ المقلدة والتى أثبت صحتها كاتب العقود المذكور مع نسختين من خطابين آخرين كتبهما اينريكي غارثيس إلى إيمانويل دياس ودوارتى فرنانديث، مأخوذاً من كتاب النسخ سالف الذكر، وبموجبها جمعت هنا. ومن خلالها يتضح أنها عبارة عن بعض اليواقيت البالايسية رقم S. بأسماء مشفرة أو حروف مغطاة للقيمة أو السعر الذى قُدِّم عن طريقها، وأمور أخرى تُرى من خلال النسخ المذكورة. واعترف المذكور اينريكي غارثيس، أن الخطاب الذى كتبه باسم إيمانويل دياس كان مرسلاً فى الحقيقة إلى صمويل باياتشى وأنه تكلم فى ذلك الخطاب عن موضوع خاص، كتب عنه لسيِّده (يقصد دوارتى فرنانديث) ويتعين أن يكون متعلقاً باليواقيت البالايسية المذكورة، كما هو ثابت من نسخة الخطاب التالى فى الدفتر المذكور، الذى كتبه للمذكور دوارتى فرنانديث، حماه.

نسخ مسماة رقم ٤.

بعد ذلك بسؤال المذكور اينريكي غارثيس عن السبب الذي جعله يستخدم ذلك الاسم المستعار لإيمانويل دياس عندما كتب خطابًا إلى المذكور صمويل باياتشي، بينما لم يكن لديه أسرار معه، ولم يكن في حاجة لاستعمال هذا الاسم المستعار، فقال غارثيس إنه فعل ذلك فقط لأنه كان ولا يزال يهوديًا، ولكي لا يكون معروفًا عنه أن له علاقة معه، على أنه أثناء رده على الاستجواب المذكور غضب كثيرًا وتغير لونه.

وبسؤاله كذلك عن سبب استخدامه الشفريات في خطابات المذكورة، أو لحروف كانت تعني الأسماء السرية المعروفة بينهم، قال إنه فعل ذلك بغرض اختصار الأسماء المعروفة كما هي العادة، وليس لسبب آخر.

واتفق غارثيس مع المذكور خوان مينديث اينريكيث في أقوال كثيرة تتعلق بأن المذكور أسحاق كان يريد أن يخلق سندًا على أن المذكور غارثيس، ابن عمه، أراد أن يكون خائنًا وعدوًا لأصحاب السمو، ولصاحب الجلالة الكاثوليكية، بينما كانوا هم أعداء للبرابرة وغير مخلصين، ولكونهم كذلك فقدوا ويفقدون كل يوم بضائع كثيرة بسبب قراصنتهم، ولو كانت لديهم ثروة من صمويل، لسارعوا بإرسال خطابات جيدة أو بالتبليغ عن تلك الثروة إلى صاحب الجلالة أو أصحاب السمو السابق ذكرهم، للحصول على مكافأة وأخذ نصيب منها، دون الانتظار حتى يقوم شخص آخر بذلك.

استمرت إذن كل هذه المسألة وتقرر إرسال الموضوع كله إلى صاحب السمو مع الإخطار التالي.

للعلم أنه من كل ما سبق ذكره تتبين بعض الدوافع والدلائل ضد المذكور اينريكي غارثيس، لأنه يعترف ومن الواضح أنه كانت له علاقة مع البرابرة الخائنين، وهو من رعايا أصحاب السمو المتقدم ذكرهم ومن سكان مدينة أمبيريس هذه، واشتغل ببعض الأمور أو المشروعات التي أراد لها أن تكون سرية، بانتحال اسم غير معروف، وأيضًا لأن الحقيقة تبدو كذلك من خلال تلك الخطابات وأن

تجارة اليواقيت البالايسية كانت هي الموضوع الخاص الذي كتبه في تلك الخطاب إلى إيمانويل دياس، قاصداً صمويل باياتشي، طبقاً للاعتراف المتقدم ذكره، ويقول إنه كان يكتب للمذكور دوارتي فرنانديث بطريقة أخرى، إذا لم تكن تخصه تلك التجارة، ما أرسل بخصوصها للمذكور صمويل وخاصة لأنه تعين عليه أن يراعى أن توضع تلك اليواقيت البالايسية برقم خمسة، ومن ثم يحتمل أن تكون هناك أعداد أخرى كثيرة قد تسلمها من تلك اليواقيت وأنه تناول في حوزته بضائع أخرى وجواهر وذهب وعنبر، أو أشياء أخرى.

من ناحية أخرى ينبغي الأخذ في الاعتبار أن من كل القرائن المذكورة لا يوجد دليل قاطع يمكن به أو بمقتضاه أن يُدان المذكور إينريكي غارثيس في محاكمة حضورية، واضعين في الاعتبار ما يقول من أنه لم يرَ السفير المذكور، سوى بدافع الفضول مثل آخرين كثيرين، وأنه في طريق عودته مع المذكور صمويل من أمستردام إلى لاهاي، كان قد وعده أن يرسل إليه خطاباً يطمئنه فيه على سلامة وصوله إلى أمبيريس، ويقول أيضاً إن الخطاب سالف الذكر الذي كتبه إلى صمويل تحت اسم إيمانويل دياس، لم يكن يحتوي سوى على عبارات المجاملة وعبارات أخرى مشابهة، ولم يكن فيها جرم مع أنها كانت موجهة إلى رجل بربري أو يهودي، وأنه بالنسبة لباقي الموضوعات الخاصة بالصفقة لم يكن هناك دليل على أن اليهود والبرابرة الخائنين المذكورين أرادوا أن - يأتمنوا على صفقة ذات أهمية كبيرة - رجلاً كاثوليكيًا ومسيحيًا مثل المذكور إينريكي غارثيس، وأنه كان يمتنها كما كان يقول، وحيث أنه كان قد أعاد قبل ذلك بأيام كثيرة تلك اليواقيت البالايسية إلى المذكور دوارتي فرنانديث، كما بدا من خلال الخطابات في كتاب النسخ المذكور الخاص به، وكأنه كان يحاول هكذا أن يقول بأنه لم يكن مسئولاً عنها لأصحاب السمو المذكورين الذين كان لهم خادماً وراعياً مجتهداً.

تعد هذه الاعتبارات في رأينا ذات وزن ولا يمكن أن يُدان المذكور إينريكي غارثيس في محاكمة حضورية على القرائن والافتراضات المذكورة. من الممكن

جعل ضامنه ملزماً وأن يظل ملتزماً، حتى يحقق المبلغ مقصده ببعض الدلائل الأخرى، ويتوجب عليه أن يعمل في ذلك، حيث أننا هنا ليست لدينا دلائل أخرى ولا شهود، سوى الذين استطاع أن يحدد لهم لنا، وإنه إذا لم يفعل ذلك يمكن أن يُظن، أنه مُفتر طبقاً للقانون، وبشهادة بعض الشهود الذين أمدنا هو نفسه بهم، ولم يعرف أن يقول شيئاً عن التجارة الأساسية. يبدو أن المبلغ المذكور هو غلام سيئ التربية جداً، غير مطيع لأبيه، الذي أودعه السجن لهذا السبب بضعة أشهر هنا، والآن بعد خروجه من السجن بقليل يجيء ليطارد هذه التجارة في الواقع ضد أبيه وعمه المتدخلين كما يزعم في تلك التجارة، إذا كان يوجد شيء من ذلك يشوبه الشك فهو كما قيل.

مع كل ذلك فإننا نرسل كل شيء ليتفضل صاحب السمو بالأمر والحسم.

[توقيع:] أنطونيو دي بيرتشيم، خوان دي اسيمبور.

(١٤)

خطاب من أحمد بن عبدالله المريني وصمويل باياتشى إلى محمد بن موسى، قائد صافى وآخرين، ١٩ نو الحجة ١٠١٩ / ٤ من مارس ١٦١١ (الأرشيف العام لسيমানكاس. الدول، ربطة رقم ٤٩٤ ن بدون ترقيم).

الحمد لله وحده ! إلى محبوبنا قائد صافى، والخطيب النبيل، السيد محمد بن موسى، الإمام التقى، سيدنا محمد بن عبدالكريم وإلى أمناء سيدنا مولاي زيدان، نصره الله. رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

نحن، خدام سيدنا، أحمد بن عبدالله الحايثى المارونى، والشيخ صمويل باياتشى، خدامه المتواضعان، نعرفكم... أن حامل خطابنا هذا هو القبطان كُبُرْزَى^(٦)، أعانه الله.

إذا قدر الله وافترقنا لسبب يتعلق بسفرنا بحراً، ووصل قبلنا ثغر صافى، غمّره الله، فاعلموا أنه وكل طاقم السفينة المباركة هم من خدم مولانا، نصره الله،

وأن مرتبات الشهور التالية دُفعت، أى رمضان وشوال. إن السفينة وكل ما فيها تم شراؤه بأموال السلطان. وعلى السفينة غنيمة، أمسكنا منها جزءا كبيرا. اعلّموا أنه ينبغي عليكم إعلام السلطان عن وصول السفينة إلى صافى. يتوجب عليكم أيضا أن تستلموا كل الحمولة باسم السلطان، نصره الله. إذا احتاج الطاقم شرايا أو طعاما، فأعطوه، فهم خدام السلطان، نصره الله، وإذا حدث تأخير، فسوف نعتبره ذنبكم، وليس ذنبنا، لأن كل شيء ينتمى إلى السلطان.

٩ ذو الحجة ١٠١٩ [٤ من مارس ١٦١١]،

[وقع عليه:] أحمد بن عبدالله المارونى، خادم القصر العالى لمولاي زيدان، نصره الله، وصمويل باياتشى، أعانه الله.

[باللغة الإسبانية:] هذه الورقة عُثِرَ عليها مكتوبة باللغة العربية فى la almiranta de Cidan

(١٥)

خطاب تعليمات من أحمد بن عبدالله المارونى وصمويل باياتشى ومارتين فان ريجسبيرجين إلى القبطان كوبيندرايير، ٤ من مايو من عام ١٦١١. (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٤٩٤، بدون ترقيم.)

نحن الموقعون أدناه، حامدى بن عبدالله، سفير ملك بلاد البربر، مولاي زيدان، حماه الله، وصمويل باياتشى، وكيل صاحب الجلالة الملكية، نطلب من القبطان كلايس جاكوبسين كوبيندرايير^(١) أن يأتى برفقتنا فى خدمة الملك المذكور أى بسفينة اسمها القمر الذهبى، والتي نتعهد بأن لا تتفصل [كذا] عن أسطولنا ما لم يكن لظرف عارض أو أن يكون قد حدثت فتحات تسريب أو أن يكون قد حدث خطأ ما، وتبحروا رأسا إلى حاجز أو ميناء صافى وترسوا هناك وتظلوا مستعدين حتى تتجمع كل السفن، وهذا ما نكلفكم به ونأمركم بتنفيذه، وإذا وجدتم بعض السفن التابعة لإسبانيا أو للتاج البرتغالى فسوف تستطيعون بحرية الاستيلاء عليها

للحصول على غنيمة كبيرة. مع ذلك فالأشياء والثروات التي سوف تعثرون عليها في هذه السفن لا تلمسوها ولا تنتقصوها بل احملوها إلى تلك المنطقة من صافى، وهناك سلموها إلى القائد ريجسبيرجين لى ينظر المذكور ما إذا كانت غنيمة طيبة، وعليه يتصرف طبقاً لأمر الملك ووفقاً للبند التي وضعناها في أمستردام. ونأمركم كذلك بوضوح بألا تتوقفوا عن القرصنة ولا تأووا أية سفينة بل ابحروا بكل همة إلى بلاد البربر إلى الميناء سالف الذكر، وبنفرد الشيء نأمر كل الضباط والبحارة أن ينفذوا ذلك كما قيل، حسب القسم الذي أقسموه في أمستردام والذي ينصر على تنفيذ كل ما يُطلب منهم خدمةً للملك مولاي زيدان، الذي بأمره عملنا ووقعنا هذا التكليف المؤرخ في ٤ مايو من عام ١٦١١. صمويل باياتشى. أنا مارتين فان ريسبيرجين، مفتش السفن المذكورة أمر بتنفيذ ما سبق قوله.

(١٦)

رسالة خطية من صمويل باياتشى إلى الأمير ماوريتيوس دي ناساو، ٢٠ ديسمبر ١٦١٤ (مصنف غانز، صفحة رقم ١١١).

الأمير صاحب الرفعة

أنا ممتن كثيرًا لتفضل معاليكم على وإيفاد سكرتيركم لزيارتي ولا أزال أمل في أفضال أخرى كثيرة من أمير عظيم النبل، وأنا أقوم بعمل خدمات فسي شركة شقيقى، وكلانا نتطلع إلى تقبيل أيادى معاليكم.

بالنسبة لموضوع السكر: أرسلت لأخطر معاليكم والآن أعود وأقول لكم إنهم ثلاثون صندوقاً أبيض. قمت بعمل خدمة صغيرة لمعاليكم عن طريق ريندال كينثال سميت والذي قال لى إنه لم يكن يوجد إلا ثمانية وعشرون صندوقاً أبيض وفي مقابل الصندوقين الناقصين لإكمال الثلاثين أعطيتكم أربعة، بحيث أنهم اثنان وثلاثون. مَرَّ معاليكم بالتكرم على بأن يعيدوا إلى سبعة عشر صندوقاً أخذها منى المذكورين ولم يدفعوا لى سوى ثلاثين جنيهاً، لقد أعطيت صناديق فسي مناسبات

أخرى، أعطيتها بشكل إرادي وأنا مسرور لأنى أعطيتها. يتعين على معاليكم أن تتعموا على دفع ما أعطيته بإرادتى حيث أننى شخصية عامة وخادم للأمير، وهذا هو جوهر الموضوع. أمد الله معاليكم بسنوات الحياة. فى لندن الموافق ٢٠ من ديسمبر ١٦١٤. خادم معاليكم. صمويل باياتشى.

(١٧)

مركيز غواداليستى يكتب إلى الملك، فى ٢٦ أغسطس عام ١٦١٥ (الأرشفيف العام لسيমানكاس، الدولة، ربطة رقم ٦٢٩، رقم ١١٧). الراهب غريغوريو دى فالنسيا، راهب بأجر جاء إلى هذه الولايات بسبب قضية، وعندما علم أنه كان فى هولندا شاهدًا كان يهيمه الحضور ذهب إلى هناك، وفى أمستردام تعرف إليه رجل أعمال من سكان أمبيريم يدعى اينريكي غارثيس، صهرًا لرجل يهودى يدعى دوارتى فرنانديث، يهودى متتصر لكنه رجل ذو رأى سديد. لذا تصفى إليه الولايات، ومن خلال الحديث معه علم كيف أن صمويل باياتشى كان فى هولندا سفيرًا لملك المغرب وأن الولايات كانت تعمل له حسابًا وقال له دوارتى فرنانديث إنه كان بإمكانه تحويل صمويل باياتشى إلى خدمة عظمتكم، ويمكن أن ينتج منها فوائد عظيمة للتاج الملكى، وإن باياتشى هذا كان سجينًا فى لندن بناءً على طلب من السيد ديبغو سارميينتو وأفرجوا عنه وقد طلب السيد ديبغو بعد ذلك ألا يفرجوا عنه لأنه كانت لديه أمور أخرى يريد اتهامه بها وأفرجوا عنه بشرط أن يدفع كفالة قدرها ثلاثون ألف دوقية، وقد دفعها عميل هولندا بأمر تلقاه من الولايات من أجل ذلك، لقد كانوا يرغبون كثيرًا فى حصوله على الإفراج. كتبت إلى السيد ديبغو لكى يخبرنى ما إذا كان الأمر هكذا، وقد رد فى خطاب فى الثالث عشر من هذا الشهر بأن ذلك حقيقة، وأضاف أنه يبدو له مناسبًا تحويل باياتشى هذا لخدمة جلالتم.

كذلك قال له، إنه بأمر من دوق إينفانتادو كان غرابييل دى رويى قد سافر من كولونيا، حيث يقيم، إلى هولندا ليحاول ضم المذكور صمويل باياتشى إلى خدمة جلالته وأنه لم يخرج بشيء ولا حتى برسالة إلى الدوق تسره، وأن دوارتى فرنانديث سوف يخبر عن ذلك الأمر وعن أمور أخرى شفاهة إذا ما أرسل إليه جواز سفر من أجل ذلك. أخطرت صاحب السمو بكل ذلك، وتفضلت بالموافقة على عودة الراهب إلى هولندا حاملاً خطاباً منى إلى دوارتى فرنانديث ليستخدمه كجواز سفر جاء به - وبدون ضمانات أخرى - إلى بروكسل وقد سررت كثيراً لرؤيته وجاملته بقدر ما استطعت. وفيما يتعلق بالأمور التى يأتى منها ضرر إلى الجزر، يقول إنه ليس بمقدوره أن يتكلم، لكنه بوسعه أن يتكلم عن الأمور التى تخص ملك فاس، لكون صمويل باياتشى مقرباً جداً منه، وهو يعرض ما سوف ترونه عظمتكم لهذا الدور دون أن يرغب فى أجر آخر حتى يفى بما يعد به سوى مائتى إسكودو كل شهر بشرط أنه فى أى وقت يبدو لعظمتكم أو للشخص الذى سيتعين عليه الحضور بالإخطارات أن صمويل لا يعمل كما ينبغى فلا تعطوه ثأنية، ولكون شقيقه مصدر قلق كبير له من أجل ما يتوجب عمله فى خدمة صاحب العظمة، فمن المناسب إبعاده عنه، وهو أمر لا يمكن عمله بدون مساعدته بألفى دوقية ويطلبهم هكذا معطياً ضمانات كافية هنا فى أمبيريس أنه وقتما تريدون عظمتكم استرداد المبلغ فسوف يعيده. أخبرت بذلك أيضاً صاحب السمو ومركيز إسبينولا، وبموافقتهمما يذهب الراهب غريغوريو دى فالنسيا للتفاوض على كل هذه الأمور. سوف تتفضلون جلالته بأن تأمروه أن ينصت وأن يخطرنا بما هو مفيد حيث أن ذلك سيكون هو الأصوب، حفظ ربنا الشخصية الكاثوليكية لجلالته كما يشاء، فالمسيحية فى حاجة إليها. أمبيريس، فى ٢٦ من أغسطس من عام ١٦١٥

مركيز غواداليستى

(١٨)

مركيز غواداليستى يكتب إلى الملك، فى ٢٦ من أغسطس من عام ١٦١٥

(الأرشفيف العام لسيমানكاس، الدولة، ربطة رقم ٦٢٩، رقم ١١٨-١١٩).

من أمبيريس، يبعث مركز غواداليستي برسالة إلى صاحب الجلالة، في السادس والعشرين من أغسطس، تسلمها جلالتة في التاسع عشر من سبتمبر من عام ١٦١٥.

بحضور الراهب غريغوريو دي فالنسيا (من رهبانية نويسترا سينيورا دي لا ميرثيد) الذي سوف يتوجب عليه أن يدرس البنود الموضحة لما تم بحثه والاتفاق عليه مع صمويل باياتشي، وهو يهودي مقيم في هولندا وهو ما سوف يرى من خلال الدور المدرج. هذا الدور وصفه هنا الأب غريغوريو دي فالنسيا الذي جاء بناء على استدعاء من مركز غواداليستي وما يُقال في الهوامش هي ملاحظات دونها الراهب.

— البند الأول —

بما أن صمويل باياتشي خضع لخدمة صاحب الجلالة فسوف يتعين عليه أن يخدمه بكل إخلاص وبكل ما يعرفه، وأن يقوم بتنفيذ هذا العمل الأشخاص الذين تم الإعلان عنهم إلى الأب غريغوريو دي فالنسيا وليس أشخاص آخرون.

[في الهامش] ولكونه خضع... إلخ، فينبغي لكي يخضع أن يُضمن له دفع مبلغ مقابل خدماته وهو يطلب ذلك لأن الخدمات التي قدمها في السنوات الماضية لم يعطوه أجرًا عنها. الأشخاص هم: صمويل باياتشي، وابن أخيه موسى باياتشي، ودوارتي فرنانديث الذي سوف يأتي إلى لاهاي أو إلى أمبيريس أو إلى المكان الذي سوف أمره به وأن يظهر بالشكل الذي يناسب خدمة صاحب الجلالة. يريد أن يتلقى مراسلاته في أمبيريس عن طريق الراهب غريغوريو ووفقًا لذلك فهو بطبع وسوف يطيع بحق لأن لا دوارتي فرنانديث ولا صمويل باياتشي سوف يثقون في شخص آخر حسبما أخبرا شفاهة وتداولاً في حضوري.

— البند الثانى —

عندما يدرك صاحب الجلالة أن صمويل باياتشى يقوم بتقديم خدمات له وأنه نال جواز سفره وتصريح مرور وسدد إليه أجره أو بالتأكيد يجب أن تُسدد إليه مستحقاته عن الخدمات السابقة كل ذلك بالشكل المتفق عليه والذي تم التداول بشأنه مع الأب غريغوريو، يمكنه فعلاً أن يخدم فى الأمور التالية.

[فى الهامش] عندما يتأكد صاحب الجلالة قبل أى شىء إذا ما كان شخص صمويل باياتشى وما يقترحه مفيداً لصاحب الجلالة، يعطيه جواز سفره وعفواً وترضية عما مضى ستكون بإعطائه مبلغ مائتين إسكودو كل شهر وذلك مع التأكيد على أنه إذا لم ينفذ ما اتفق عليه بأفضل شكل ممكن فإنه سوف يرد ما تلقاه من تلك المبالغ.

— البند الثالث —

عن طريق الأشخاص المذكورين سوف يدلى صمويل بمعلومات عما سيتوصل إليه حقيقة وعن نوايا الدول المجاورة من أجل علاج الضرر والحصول على منفعة يُعلم منه أنها يمكن أن تأتى.

[فى الهامش] عن طريق... إلخ، سوف يُبلغ أسرار هولندا عن طريق أرثين وسوف يتجنب الأضرار بكل صدق. هذان الشخصان مشهوران بحيث أن قول ص.ب. ود.ف. يفهم منه ما يجب أن يكون.

— البند الرابع —

معاً يستطيع أن يعلن عن محاولات فرنسا وإنجلترا مع ملك المغرب كما توضح بشكل قاطع الخطابات التى يراجعها الأب غريغوريو ويحمل النسخ وباقى الأشياء التى قيلت له شفاهة فى ذلك الخصوص.

[فى الهامش] معاً عن طريق المذكور أرثين سوف يعرف أسرار هذه

الجهات وأسرار المغرب مع حلفائها وأسرار الإمبراطورية العثمانية التي تأتي إليه كل يوم، كما هو ثابت ومعلوم في لاهاي وأمستردام وكل هولندا. من هنا سوف يستمر عمل ما هو مناسب أكثر لصاحب الجلالة.

— البند الخامس —

ربما باتباعه أكثر الأمر الذي أصدره أن ينشأ اتحاد بين صاحب الجلالة وملك المغرب، إما بإرادته أو ضدها ويأمر بأن تستبعد من ممالكه الاتفاقات والتجارة الخاصة بمملكتي فرنسا وإنجلترا وبهذه الولايات، بهذا وبأشياء أخرى تأتي في هذا الصدد سوف يعلنها يبقى المضيق آمناً بالنسبة لصاحب الجلالة بحيث لا تستطيع أن تبحر السفن ولا أناس من الولايات ومملكتي فرنسا وإنجلترا وجهات أخرى بدون أمر وموافقة من صاحب الجلالة، وبحيث أنه بإبرام الاتفاق بين صاحب الجلالة وملك المغرب يبقى كل شيء آمناً.

[في الهامش] ربّما يعد هذا الفصل ذا مضمون عظيم جداً يؤكد أنه البند الذي يمكن لصمويل باياتشي وحلفائه أن ينفذوه بسهولة أكثر إذا كان صمويل باياتشي متأكداً من وصول الراتب.

يراعى الانتباه لهذه النقطة لأنها مهمة.

— البند السادس —

بوسعه أن يكشف التعاملات بين الإمبراطورية التركية عن طريق سليم باشا، أمير بحر الإمبراطورية التركية مع دول أخرى تابعة.

[في الهامش] بوسعه أن يكشف etts المذكور صمويل باياتشي له صداقة وثيقة مع أمير بحر الإمبراطورية التركية.

— البند السابع —

يمكن لصمويل باياتشى عمل المراسلات الضرورية مع أولئك الأشخاص وتوظيفهم فيما يأمره به صاحب الجلالة، بأن يعين لكل وظيفة وزيرا مخلصا.

[فى الهامش] يمكن لصمويل... إلخ، سوف يذهب إلى حيث يطلب منه أن يذهب، وسوف يعمل متسترا خلف وظيفته كسفير للمغرب، وهو ما سوف يناسب أكثر خدمة صاحب الجلالة ويحافظ على النظام الذى أعطى له دون أن ينسى نقطة واحدة كما سوف يرى من خلال العمل.

— البند الثامن —

غير ذلك من الأمور التى تم بحثها شفاهة مع الأب غريغوريو فإنه سيتم سداد مقابل الخدمات السابقة وتأخير دفع مقابل الخدمات الحالية وفقا لما اتفق عليه مع الراهب المذكور. إن سداد أجر الخدمات التى سوف يقوم بها صمويل ستكون حسب تلك الخدمات وحسب النية الصادقة لصاحب الجلالة [...] فسوف تكون هناك عطايا كبيرة مقابل الخدمات.

[فى الهامش] غير ذلك من الأمور... إلخ، يُحال إلى البند الثامن فقط أنه بخصوص المكافأة على ما حقق رضا صاحب الجلالة من الخدمات، فإن المكافأة ستكون وفقا لنوع الخدمة.

— البند التاسع —

بناء على الإرادة الصادقة التى يديها صمويل باياتشى من الضرورى أن يخطر صاحب الجلالة بما يدور حول كتب ملك المغرب وحول ملك فرنسا والذى تم التباحث بشأنهما شفاهة مع الأب غريغوريو دى فالنسيا وأن يتحاور مع الملكة دون أن يعطيها بأى شكل من الأشكال وعدا برد تلك الكتب وأن يبدو قبل ذلك غليظا ويوقف المداولة لأن ذلك مهم جدا من أجل مقصدنا كما صرّح شفاهة للراهب نفسه.

[فى الهامش] بناءً على... إلخ، من المهم أن يعطى هذا الإخطار كأساس
لأمور كثيرة ليس لديهم فى إسبانيا خير عنها... إلخ.

— البند العاشر —

وحتى يمكن لكل الأمور أن تبلغ الهدف المنشود فمن الضروري أن يُلقى
بشقيق ص.ب. وأسرته خارج هولندا بعيداً كما قال شفاهة للراهب وحيث أنه كان
من الضروري لأجل هذا الهدف أن يبقى صمويل باياتشى هنا وحده مع ابن شقيقه
م. ب. والذي يعد على نفس القدر من أهمية صمويل نفسه، وليكن هذا هو أول
حجر يُلقى لأن عكس ذلك سيكون ذا ضرر كبير.

[فى الهامش] وحتى يمكن لكل الأمور... إلخ، من أجل طرد عدو كبير
لصاحب الجلالة وواشٍ للذين يحكم هو عليهم بأنهم يحبون خدمته الملكية، من أجل
طرده من هولندا ينبغي إعطاء ألفى إسكودو، وسيقوم دوارتى فرنانديث بإعطاء
ضمان مقابل هذا المبلغ هنا أو فى مدريد يتوجب أن يكون ذلك فيما بعد.

— البند الحادى عشر —

للبدء بحماس فى هذه الأمور من الضروري الإعلان عن كونه موفداً إلى
إسبانيا لأن التأخير سوف يسبب ضرراً، ومع هذا الإعلان أمر بخروج الشقيق من
هنا، ولكون هذين الأمرين متلازمان فسوف يشرع بعد ذلك فى وضع يده على
العمل ويرسل التقارير الضرورية.

[فى الهامش] للبدء... إلخ، أُنْفَق مع دوارتى فرنانديث على أن يكون الإفاد
إلى إسبانيا فى الثامن من أغسطس، وهكذا قال هو لصمويل باياتشى الذى يعرض
نفسه للخطر من قبل السفن التى يتعين أن تكون قد خرجت وهو معها ولأنه يرى
أن الشقيق يطرد من موطنه ويحاول أن يخبر صاحب الجلالة بقراره حتى يمنح
المكافأة ومن أجل أن يخدم بحق يقول إن لديه تقارير تعرض للخطر إذا تأخر العلم
بها.

— البند الثاني عشر —

أن يأتي جواز السفر بشكل لائق، وواجب وخلال وصوله فإن المذكور ص.ب. سوف يستمر يكتب بيده ويخطر بما هو ضروري بالصيغة المذكورة.

[فى الهامش] أن يكون جواز السفر حقيقياً. كتب صمويل باياتشى هذه البنود بخطه وأعطاهما — بعد أن وقع عليها — إلى دوارتى فرنانديث، وأنا رأيتهما وأمسكتها بيدي وشهد على صحتها هيكتور مينديث وهو تاجر صاحب نفوذ من لشبونة ذو قدر كبير عند دوق ليرونا، وفى ذلك قال لى شفاهة ما ينبغي. قال د.ف. [دوارتى فرنانديث] إن له ابناً فى مدريد وآخر فى لشبونة سيكونان مسئولين عن الثروة التى سوف يسلمها إليه صاحب الجلالة.

وقع عليه الراهب غريغوريو دى فالنسيا.

(١٩)

مجلس الدولة فى ٢٣ من نوفمبر من عام ١٦١٥. حول ما كتبه مركز غواداليستى مع الراهب غريغوريو دى فالنسيا (الأرشفيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٦٢٩، رقم ١١٦).

السيد:

كتب مركز غريغوريو لجلالتكم فى خطاب بتاريخ ٢٦ من أغسطس أن الراهب غريغوريو دى فالنسيا من رهبانية لاميرثيد ذهب إلى هولندا فى عمل كان له هناك، وفى أمستردام تعرّف إليه رجل أعمال من سكان أمبيريس اسمه إنريكى غارثيس، صهر اليهودى دوارتى فرنانديث، وهو شخص ذو رأى سديد وتصغى إليه الولايات، وبالحديث معه علم المذكور الراهب غريغوريو أن صمويل باياتشى كان هناك كسفير لملك المغرب وأن الولايات كانت تعمل له حساباً. قال دوارتى فرنانديث لرجل الدين هذا أن بإمكانه أن يجعل صمويل باياتشى يعمل فى خدمة جلالتكم وأنه من الممكن أن يثمر ذلك عن فوائد عظيمة لتاج جلالتكم، وقال له

كذلك إنه بأمر من دوق إنفانتادو كان قد ذهب إلى هولندا رجل يدعى غابرييل روبي من أجل إقناعه ولم ينجح في مسعاه، وأن دوارتي فرنانديث سوف يخبر عن كل ذلك شفاهة إذا أرسل إليه بهذا الغرض جواز سفر وأن المركز شارك في كل الموضوع المذكور وحسنا فعل بالموافقة على عودة هذا الراهب إلى هولندا مع رسالة إلى دوارتي فرنانديث الذي تقابل مع المركز وأعطاه الورقة المتضمنة للأمور التي يعرض فيها باياتشى خدمته دون أن يطلب تعويضا سوى مائتي إسكودو في الشهر حتى يرى ما يعد به وبشرط أن صاحب الجلالة — أو الشخص الذي يتعين عليه الحضور بالتعليمات — حينما لا يبدو له أنه يعمل كما ينبغي فلا يعطوه مكافأة. ولكون شقيقه الموجود هناك معه يعد مصدر قلق كبير له لما ينبغي أن يقوم به باياتشى فمن المناسب إيعاده عنه ولن يكون من الممكن عمل ذلك إلا بمساعدته بمبلغ ألفى إسكودو، وهو مبلغ يطالب بإعطائه له ويقدم ضمانا كافيا فى أمبيريس على أنه وقتما ترغبون جلاتكم فى استرجاع المبلغ فسوف يُرد لكم. أخبر المركز الأرشيذوق بكل ذلك وبموافقته يأتى رجل الدين هذا لتتفضلوا جلاتكم بالاستماع إليه.

ولأن المجلس رأى كيف أن جلاتكم أرسلتم واستمعتم إلى المذكور الراهب غريغوريو دى فالنسيا فيبدو أنه سيكون من الممكن إيفاد الراهب غريغوريو من جديد فيما بعد وإعطائه خطابات للأرشيذوق البرتو وإلى مركز إسبينولا وإلى مركز غواداليسى فأمرهم بأنه إذا كانت الأعمال التي يتحدث عنها ذات جودة وملائمة فمن المناسب استئنافها وأن يعملوها ويبحثوها بالمواصفات التي يطلبها وأن يبلغوا ما يفيد به وأن يدفعوا لهذا الأب هناك ما يروونه فى هذا الصدد حتى يرى مجرى تلك الأمور ويعطى له هنا بعد ذلك مائتي دوكادوس مصاريف انتقال ويقال له أنه حسب ما يحصلون عليه سيكون هناك اعتبار لشخصه.

يبدو كذلك أنه يقال له بأنه سوف يُرسل إليه جواز السفر الذي يطلبه من أجل جوزيف باياتشى ومبلغ الألفى دوقية الذي يطلبه من أجل رحيله، متساوياً الضمان الذي يعرضه، وأن صمويل باياتشى سوف يمكنه أن يضمن مبلغ المائتي

دوقية فى الشهر الذى يرغبه وأنه ستكون له مراسلات مع الشخصين اللذين يحددهما هذا المجلس، وأنه فيما يتعلق بالإذن لفرانثيسكو لوبيث، فسوف يُنظر فيما يمكن عمله لأنه بالعجلة لا يمكن اتخاذ قرار فى ذلك ويجب على مركز إسبينولا ومركز غواداليسى أن ينظرا بشكل خاص جدا فيما يمكن أن يخدم مانويل [بدلاً من صمويل] باياتشى ويبلغون ذلك بسرعة^(٨).

(٢٠)

صيغة ثانية من الاتفاق المبرم بين غريغوريو دى فالنسيا وصمويل باياتشى، بعد شهر سبتمبر من عام ١٦١٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٣٠٠).
تذكرة للأمور التى بُحِثت واتفق عليها مع صمويل باياتشى

— البند الأول —

بما أنه خضع لخدمة صاحب الجلالة فسوف يخدمه بكل إخلاص فى كل ما يعهد إليه وأن يجرى العمل على أيدى الأشخاص الذين صرح بهم إلى الأب غريغوريو دى فالنسيا وليس على أيدى آخرين.

— البند الثانى —

عندما يدرك صاحب الجلالة أن صمويل يعمل فى خدمته ويحصل صمويل على جواز سفره وعلى تصريح مرور ويُسدّد إليه أجره أو يكون متأكّداً من تسديد مستحقّاته عن الخدمات السابقة، كل ذلك بالشكل المتفق عليه والذى تمّ التداول بشأنه مع الأب غريغوريو ويبدأ بالفعل يمكنه أن يخدم فى الأمور الآتية.

— البند الثالث —

[غير مذكور]

— البند الرابع —

عن طريق الأشخاص المذكورين الذين أعلن عنهم إلى الأب غريغوريو، سوف يصرح بما سوف يتوصل إليه حقيقةً ونوايا دول الجوار من أجل علاج الضرر والحصول على فائدة يمكن أن تتأتى من معرفة ذلك.

— البند الخامس —

يستطيع صمويل والعميل الآخر أن يُعلنا عن محاولات فرنسا وإنجلترا مع ملك المغرب كما يتبين بشكل غامض من الخطابات التي رآها الأب غريغوريو والتي يحمل نسخاً منها وعن باقي الأمور التي قيلت له شفاهةً حول هذا الموضوع.

— البند السادس —

يمكنه كذلك أن يتبع الأمر الذي أصدره بحيث يعقب ذلك اتحاد بين صاحب الجلالة وملك المغرب، إما بإرادته أو ضدها، ويأمر أن تُستبعد من ممالكه الاتفاقات والمشاريع التجارية لمملكتي فرنسا وإنجلترا ولهذه الولايات، وبهذا — وبأمور أخرى سوف يعلنها بالفعل — يبقى المضيق بالنسبة لصاحب الجلالة أمناً بحيث لا تستطيع السفن أن تُبحر ولا أناس من مملكتي فرنسا وإنجلترا وأماكن أخرى دون أمر وموافقة من صاحب الجلالة لأنه بالتوافق الحادث بين صاحب الجلالة وملك المغرب يبقى كل شيء آمناً.

— البند السابع —

يمكنه أن يكشف العلاقات بين الإمبراطورية التركية وملك المغرب عن طريق سليم باشا أمير بحر الإمبراطورية التركية، مع دول خاضعة أخرى.

— البند الثامن —

يمكنه القيام بالمراسلات الضرورية عن طريق الأشخاص المذكورين

ويمكنه استخدامهم فيما يأمر به صاحب الجلالة، بتعيين ممثل مخلص في كل أمر.

— البند التاسع —

بأقى الأمور، ما اتفق عليه شفاهة مع الأب غريغوريو، سداد الخدمات السابقة وتأخير سداد الخدمات الحالية، وطبقاً لما تم التفاوض بشأنه مع الأب المذكور فإن سداد الخدمات التى يقوم بها ستكون وفقاً لتلك الخدمات وللنية الملكية لصاحب الجلالة الذى يؤمل منه دفع أجور فائقة عن الخدمات.

— البند العاشر —

انطلاقاً من الإرادة الصادقة التى يبديها صمويل باياتشى، من الضرورى أن يبلغ صاحب الجلالة بما بُحِثَ شفاهة مع الأب غريغوريو حول كتب ملك المغرب وحول ملك فرنسا وأن يتفاوض مع الملكة دون أن يعطيها بأى شكل من الأشكال وعداً بإعادة تلك الكتب، وأن يبدو قبل ذلك غليظاً ويوقف المداولة لأن ذلك مهم جداً من أجل مقصدنا كما صُرِّح بذلك شفاهة للبابا نفسه.

— البند الحادى عشر —

وحتى يمكن لكل الأمور أن تبلغ الهدف المنشود فمن الضرورى أن يُطرد شقيق صمويل باياتشى وأهل بيته خارج هولندا بعيداً كما قيل شفاهة للراهب، حيث أنه من الضرورى لأجل هذا الهدف أن يبقى صمويل باياتشى هنا وحده مع ابن شقيقه موسى باياتشى والذى يعد على نفس القدر من أهمية صمويل نفسه وليكن هذا هو الحجر الأول الذى يلقى لأن عكس ذلك سيكون ذا ضرر كبير.

— البند الثانى عشر —

للدخول بحماس فى هذه الأمور من الضرورى الإعلان عن أنه موفد إلى إسبانيا لأن التأخير سوف يسبب ضرراً، وأن يصدر مع هذا الإعلان أمر بخروج الشقيق من هنا، ولكون هذين الأمرين متلازمين

فسوف يشرع بعد ذلك فى وضع يده على العمل ويرسل التقارير الضرورية.

أن يأتى جواز السفر بشكل لائق، وعند وصول الجواز المذكور سوف يستمر صمويل باياتشى يكتب بيده ويبلغ بما هو ضرورى وبالطريقة المتفق عليها. (هذه نسخة من الورقة التى حملها إلى إسبانيا الأب غريغوريو دى فالنسيا وأصل النسخة مع صاحب السمو مركز غواداليسى).

(٢١)

شهادة الطاقم ضد صمويل باياتشى، نوفمبر ١٦١٥ (تقويم قديم عام ١٦١٤) (الوثيقة التاسعة فى مصنف غانز).

فى اليوم الثالث من شهر نوفمبر من عام ١٦١٤، كورنيليوس كلايسون من هورن بهولندا، بائع، استجوب أمام المحترم العادل سير دانييل دون، فارس قاضى لأصحاب الجلالة المحكمة العالية لإمارة البحر، بترجمة من لويس مالابيرت، الذى يتحدث اللغتين الألمانية والإنجليزية، وأقسم على أن يترجم بصدق بنودًا معينة تمد صاحب الجلالة بالفائدة بناءً على طلب اللورد سفير إسبانيا، يقول علاوة على ذلك مايلى.

بالنسبة للبند الأول هو يقول إنه قد أجيب عنه سابقًا، باستثناء أن كل ملاحى السفينة الذين تم استجوابهم فى رحلتهم الأخيرة كانوا مسيحيين، باستثناء قائدهم، الذى كان يدعى صمويل باياتشى، فهو يهودى، وخدمه الذين يطهون له اللحم الخاص به.

وفى رده على البند الثانى يقول إن باياتشى كان هو صاحب السفينة الحربية المصادرة، وإن قبطانها، المدعو جون جونسون^(٩) من هورن قد تزود بالمؤن هنا. ويقول إن نفس السفينة الحربية ذهبت من روتردام بترخيص من الولايات، وإن

أفراد طاقمها قد حُشدوا جميعهم بقرع الطبول وإنهم ذهبوا من روتردام إلى ساحل إسبانيا للبحث عن غنائم.

عن البند الثالث يقول إن المذكور باياتشى وملاحيه، الذين أجرى معهم هذا الاستجواب وجدوا على ساحل إسبانيا وذهبوا إلى صافى فى بلاد البربر حيث مكثوا لفترة ثلاثة أسابيع، وفى هذا الوقت ذهب المذكور باياتشى إلى قصر ملك المغرب وحصل على تفويض منه بالإبحار والاستيلاء على كل السفن الإسبانية التى يمكن أن يصادقها.

عن البند الرابع يقول إن المذكور باياتشى عندما حصل على التوكيل المذكور من ملك المغرب أمر ملاحيه بالإبحار على الفور، وبعد مرور حوالى ثلاثة أو أربعة أشهر استولوا بالقرب من فيال فى بحر بيل على مركب شراعى برتغالى متجه إلى البرازيل، ومحمل بالسكر. قام ملاحو ذلك المركب بالقفز إلى الشاطئ عند جزيرة سانتا ماريا، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام استولوا أسفل القلعة عند فيال على سفينة إسبانية متجهة إلى الوطن قادمة من غرب أمريكا، محملة بجلود حيوانات وبضائع أخرى. قفز ملاحو تلك السفينة أيضا إلى الشاطئ فى جزيرة سانتا ماريا مع ملاحى المركب البرتغالى.

عن البند الخامس يقول إن السفينة الشراعية البرتغالية المذكورة كان عليها مائتان وستة صندوقاً من السكر وبرميل أو برميلان من الشراب، والسفينة الإسبانية المذكورة كان عليها ثلاث آلاف قطعة من جلود حيوانية، وستون صندوقاً مزدوجاً من السكر، أربعة غليونات للتدخين وأربعة أو خمسة أطنان من الزنجبيل وبضائع أخرى لا يستطيع تحديدها. كل تلك البضائع كانت تخص الإسبان والبرتغاليين، والكثير حول هذا البند لا يمكنه الإجابة عليه.

عن البند السادس يقول: إنه على ظهر السفينة الشراعية فى وقت الليل قام المذكور باياتشى وملاحوه بقتل واحد من البرتغاليين الذين كانوا فيها. ومع ذلك فقد أنكر التهمة.

عن البند السابع يقول إن المذكور باياتشى وملاحيه أحضروا السفينة المذكورة والسفينة الشراعية كارويل إلى بليماوس، والسبب الذى جعلهم يرسون فى بليماوس هو أن ملاحى المذكور باياتشى كانوا فى شدة الإعياء حتى أنهم كانوا غير قادرين على قيادة سفينتهم، ويقول إن هذا الاستجواب لكونهم فى شدة الإعياء تم إجراؤه على الشاطئ فى بليماوس، وإن الكثير حول هذا البند لا يستطيع الإجابة عليه.

عن البند الثامن يقول إن بعض أفراد طاقمه أخبروه أنه كان هناك ٥٧ صندوقاً من السكر تم إنزالها من على ظهر السفينة كارفل فى بليماوس، غير أن هذا الاستجواب وهم مرضى على الشاطئ لا يمكن أن نعلم منه إلى من أعطيت تلك الصناديق أو بيعت.

عن البند التاسع يقول إن الغنائم المذكورة ذهبت من بليماوس وقت النهار وحصلت على إنز بالمغادرة من كل الضباط هناك، وهو ما يفهم من الاستجواب. وهذا المستجوب والآخرين الموجودون الآن فى السجن تركوا وهم مرضى على الشاطئ. والكثير عن هذا البند لا يستطيع أن يقول عنه شيئاً باستثناء أن الغنائم المذكورة كما يعتقد هذا المستجوب ذهبت إلى أمستردام. كلايز كلايزون وسيمون كورنيليزون وكارين جارتسون وبرنارد كورنيليزون وهنرى كلايزون؛ أدلوا بأقوال فى نفس هذا المضمون، باستثناء أن كلايز كلايزون فى رده على الاستجواب الثانى يقول إنهم ذهبوا من روتردام فى البداية ليأخذوا قراصنة، وكذلك بمقتضى توكيل كان صمويل باياتشى قد حصل عليه من ملك المغرب والذى كان قد أظهره للولايات قبل مجيئه من روتردام للاستيلاء على أى سفن إسبانية أو بضائع ربما يصادفونها.

وسيمون كورنيليزون يقول فى رده على الاستجواب الثانى إنهم ذهبوا من روتردام للبحث عن قراصنة والاستيلاء على سفن إسبانية بمقتضى توكيل من ملك المغرب.

وكرين جاريتسون في رده على الاستجواب الثاني يقول إن المذكور باياتشى عند مجيئه من روتردام حصل على توكيل من ملك المغرب للاستيلاء على سفن إسبانية، وهو ما كان معروفاً عموماً في روتردام قبل مجيئه إلى هناك.

[هنرى كلايزون] يقول إنه عندما حُشد الملاحون بقرع الطبل في هولندا كان هناك استدعاء عام جعل أن كل من سيخدم القبطان (كابتن جونسون) من أجل ملك المغرب ضد السفن الإسبانية فإنه سوف يأتى إلى منتجع الأمير في روتردام وهناك سوف تكرم وفادته. على هذا النحو يبدو أنهم فى البداية بدأوا رحلة للاستيلاء على سفن إسبانية عندما انطلقوا من روتردام. وأيضاً يعتبر أن السفن التى انطلقت فى البداية لم تكن سفن ملك بلاد البربر بل أنها كانت سفن باياتشى.

[فى الهامش الأيمن: استجواب الهولنديين].

(٢٢)

الملك يكتب إلى مركيز غواداليستى، فى ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥ (وثيقة فى مصنف غانز).

السيد صاحب السمو/

الراهب غريغوريو دى فالنسيا، الذى سيقوم بتسليم هذه الرسالة إلى سموكم والذى جاء إلى هنا حاملاً خطابات من مركيز غواداليستى، اقترح أن يعيد إلى خدمتى صمويل باياتشى، وهو يهودى المولد، بالشروط المدونة فى الورقة المرفقة هنا وهى رد على خطاب سترونه سموكم فى ورقة أخرى وقّع عليها خوان دى ثيريتا سكرتير دولتى، ومع أن مركيز غواداليستى كتب إلى أنه أخبر سموكم بهذا الأمر إلا أننى أردت أن أخطركم بذلك لكى تأمروا بالاستماع إلى رجل الدين هذا، وإذا كانت الأعمال التى يتحدث عنها ذات جودة، وملائمة، بحيث يتوجب متابعتها فلتفعلوا سموكم ذلك بالاعتبار الذى انتظره من فطنتكم مؤكداً على الضمانات التى تقدّم لما يتوجب إعطاؤها، وأن تخطرولى سموكم بإيجاز عما يعرض عليكم

وبتراءى لكم فى كل الأمور وفيما يمكن أن يخدم باياتشى. وبالنسبة لرجل الدين هذا فيمكن لسموكم أن تأمروا بتأخيرته هناك بالقدر الذى يتراءى لكم فى هذا الصدد حتى تستبين هذه الأمور ولقد أعطى له هنا مؤقتاً مائتا دوقية لمصاريف انتقال.

اكتب أيضاً إلى المركز أمبروسيو إسبينولا وإلى مركز غواداليمتى أبلغهما بهذا القرار من أجل أن يكون مفهوماً لديهما وأن يستمعا إلى رجل الدين هذا وسوف أبتهج أن سموكم تخطرونهما بكل ما يتم عمله فى العمل حيث أنهما يفهمانه جيداً. حمى الرب سموكم كما أرغب.

دل باردو فى ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥

أخوكم المخلص لسموكم. أنا الملك

.....خوان دى ثيريثا.

(Verso) Pardo, Su Md a 14 de Diciembre 1615. R. con fray Gregorio de Valençia. Al ser^{mo} señor el Archiduque Alberto, mi her^{ma}no.

هوامش الملاحق

- 1 Ms.:Samuel.
- 2 كان موسى يبلغ من العمر تسعة عشرة سنة في عام ١٦٠٧.
- 3 لم نستطع العثور على هذه الوثائق
- 4 i.e. desde 1603.
- 5 رسالة ناقصة
- 6 i.e. Capitán Claes Jacopse Coppedraaijer.
- 7 مات قبل الرابع والعشرين من عام ١٦١٢. كوبيندرابير والبحارة غُملوا
معاملة سيئة على الشاطئء واجبروا على تسليم أنفسهم إلى الإسبان الذين
جعلوهم عبيداً،
- SIHM, PB, II, pp. 52 y ss.
- 8 رسالة مشفرة جزئياً في نصها ومفكوكة الشفرة في الهوامش
- 9 Jan Jansz. Slobb.

المراجع

الأرشيفات

Antigua Colección de M.H. Gans.	أمستردام
Archives Générales du Royaume	بروكسل
Archivo Ducal de Medinasidonia (ADM)	سان لوكار دي باراميدا (قادش)
Arquivo Nacional da Torre do Tombo (AN/TT)	لشبونة
Archivo Histórico Nacional (AHN)	مدريد
Archivo General de Simancas (AGS)	سيمانكاس (وادي الوليد)

مطبوعات:-

Aa, A.J.van der, Biographisch Woordenboek der Nederlanden, Haarlem [1852] - 1878, 12 vols.

Abrahams, L.B., "Two Jews before the Privy Council and an English Law Court", Jewish Quarterly Review, XIV (1902), pp.354-358.

"A Jew in the Service of the East India Company in 1601", The Jewish Quarterly Review, IX (1897), pp.173-175
Álvarez de Toledo.L.I., Alonso Pérez de Guzmán. General de la Invencible, Cádiz, 1994, 2 vols.

Alvares Vega, L., Het Beth Haim van Ouderkerk Beelden van een Portugees- Joodse Begraafplaats, Ouderkerk aan de Amstel, 1994.

Baer, F., *Die Juden im christlichen Spanien*, Berlín, 1936.

Bakker, J.C. de, *Slaves, Arms, and Holy War. Moroccan Policy vis-à-vis the Dutch Republic during the establishment of the «Alawî dynasty (1660-1727)(tesis doctoral)*, Amsterdam, 1991.

Beinart, H., "Fez as a Center of Return to Judaism in the 16th Century (en hebreo)", *Sefunot* VIII (1963-4), pp.319-24.

Beinart, H., "La ruta de los judíos de Marruecos a España a comienzos del siglo XVII (en hebreo)", *Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume on the occasion of his Eightieth Birthday*. Nueva York y Londres, 1974.

Benbassa, E. (ed.), *Memoires juives d'Espagne et du Portugal*, París, 1996.

Bernaldez, "Historia de los Reyes Católicos", *Crónicas de los Reyes de Castilla III* (BAE, LXX), Madrid, 1953 Bertí, S., "At the roots of Unbelief", *Journal of the History of Ideas*, 56 (1995), pp.555-575.

Bodian, M., *Hebrews of the Portuguese Nation Conversos and Community in Early Modern Amsterdam*, Bloomington, 1997.

Bouzineb, H., «Plática» en torno de la entrega de Salé en el siglo XVII», *Al-Qantara*, XV (1994), pp.47-73.

Bouzineb, H. y Wieggers, G.A. "Tetuán y la expulsión de los moriscos", *Titwân jilál al-qarnayn* 16 wa 17, Tetuán, 1996, pp.73-108.

Boyajian, J.C. "The New Christians Reconsidered: Evidence from Lisbon's Portuguese Bankers, 1497-1647", *Studia Rosenthaliana* XIII,2 (1979), pp.129-156.

Cabanelas. D., "El problema de Larache en tiempos de Felipe II", *Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos*,9 (1960), pp.19-53.

Cabrera de Córdoba, H., *Relaciones de las cosas sucedidas en la Corte de España dede 1595 hasta 1614*, Madrid, 1857.

Cansino, J., "Relación de los servicios de Iacob Cansino y los de su padre", *Extremos y Grandezas de Constantinopla* compuesto por Rabi Moysen Al-mosnino, Madrid, 1638.

Cantera,F. (trad.), *Chebet Yehudá (La vara de Judá) de Salomón ben Verga*, Granada, 1927.

Cantera, F. (trad.), *El Libro de la Cabala de Abraham ben Salomon de Torrutiel*, Salamanca, 1928.

Cantera, F., «El "Purim" del Rey Don Sebastián», *Sefarad*, V (1945), pp.219-225.

Caro Baroja, J., «El último Abencerraje», J. Caro Baroja, Vidas poco paralelas (con perdón de Plutarco), Madrid, 1981, pp. 51-68.

Caro Baroja, J., Los judíos en la España moderna y contemporánea, Madrid, 2a ed., 1978, 3 vols.

Caro Baroja, J., Las falsificaciones de la historia (en relación con la de España), Madrid, 1991.

Castries, H, de, "Les relations de la France avec le Maroc de 1631 á 1635. Les Pallache. Introduction critique", SIHM, France, 1ere série, III, pp. 391-397

Catálogo comentado Exhibición de facsímiles de libros de autores judíos y Judaizantes españoles (s. XVI-XVIII), realizado por Fernando Díaz Esteban con los fondos de la Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1992.

Catalogue of an exhibition of Anglo-Jewish Art and History in Commemoration of the Tercentenary of the Resettlement of the Jews in the British Isles, held at the Victoria and Albert Museum London, 6 January- 29 February. 1956, Londres, 1956.

Cohen, G.D., A Critical Edition with a Translation and Notes of the Book of Tradition (Sefer ha-Qabbala) by Abraham Ibn Daud,

filadelfia, 1967.

Cohen, M., (ed. y trad.), *The Autobiography of a Seventeenth century Venetian Rabbi*, Leon Modena, Princeton, 1989.

Coleman, D.C., *revisions in Mercantilism*, Londres, 1969.

Contreras, j., "Cristianos de España y judíos de Amsterdam: Emigración, familia y negocios", J. Lechner y H. den Boer (eds.), *España y Holanda Ponencias Leídas durante el Quinto Coloquio Hispanoholandés de Historiadores*, celebrado en la Universidad de Leiden del 17 al 20 de noviembre de 1993, Amsterdam, 1995, pp.187-213.

Corcos Abulafia, D., "Samuel Pallache and his London Trial" (en Hebreo), *Studies in the History of the Jews of Morocco*, Jerusalén, 1973

"Correspondencia oficial de Don Diego Sarmiento de Acuña, Conde de Gondomar", *Documentos Inéditos para la historia de España*, 1-4 Ts., Madrid, 1936-1945.

Cruz, Bernardo da, *Chronica de El Rei D. Sebastião*, Lisboa, 1837.

Crónica de Almançor, sultão de Marrocos (1578-1603), Estudo

crítico,

introd. e notas, A. Dias Farinha, Lisboa, 1997.

Dakhlí, J., «Réinscriptions linagères et redéfinitions sexuelles des Convertis dans les cours maghrébines (XVIe - XVIIe siècles)», M. García Arenal (ed.), *Conversion religieuse en Islam Méditerranéen* (en prensa).

Denison Ross, E., *Sir Anthony Sherley and his Persian Adventure*, Londres, 1933.

Dictionary of National Biography, Oxford, 1885 y ss.

Domínguez Ortiz, A., *La clase social de los conversos en Castilla en la Edad Moderna*, Madrid, 1955.

Eekhof, A., *De Theologische Faculteit te Leiden in de 17 e eeuw*, Utrecht, 1921.

Encyclopaedia of Islam, second edition, Leiden, 1960vv.

Encyclopaedia Judaica, Jerusalén, 1970 vv.

Figueras García, T. y Rodríguez Jouliá, C., *Larache, datos para su historia en el siglo XVII*, Madrid, 1973.

Fischel, W. J., «Abraham Navarro, Jewish Interpreter and Diplomat in the Service of the English East India Company (1682-1692)», Proceedings of the American Academy for Jewish Research, XXV (1956), pp. 39-62.

al-Fishtali, Manahil al-safa fi ajbar mawali-na al-shurafa', Tetuán, 1964

Fruin, R. (ed), «Uittreksel uit Francisci Dusseldorpii Annales», Werken uitgegeven door het historisch genootschap gevestigd te utrecht, 3e serie, n.01, La Haya, 1893.

Gans, M.H., Memorboek Platenatlas van het leven der joden in Nederland van de middeleeuwen tot 1940, Baarn, 1971.

Gans, M.H., «Don Samuel Pallache als moré en zeerover, grondlegger onzer gemeenschap», Opstellen opperrabbijn L. Vorst aangeboden, Rotterdam, 1959, pp. 15-23.

García Arenal, M. (ed.), Diego de Torres, Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante. Sevilla, 1568, Madrid, 1980.

García Arenal, M. «Les bildiyyin de Fes: un groupe de neo-

musulmans d'origine juive", *Studia Islamica*, LXVI (1987), pp. 113-144.

García Arenal, M., "Vidas ejemplares: Sa'id Ibn Faray al-Dugàli (m.987/1579), un granadino en Marruecos", M. García Arenal y M.j. Viguera (eds.), *Relaciones de la península Ibérica con el Magreb*, s. XIII-XVI, Madrid, 1988, pp. 453-486.

García Arenal, M. y M. de Bunes, *Los españoles y el Norte de África*, siglos XV- XVIII, Madrid, 1992.

García Arenal, M., "Los judíos de Fez a través del proceso inquisitorial de los Almosnino (1621)", *Judíos en tierras de Islam*, II, *Entre el Islam y Occidente: Los judíos magrebíes en la edad moderna* (en prensa).

García Fuentes. J. M., *La Inquisición en Granada en el siglo XVI: Fuentes para su estudio*, Granada, 81.

Genot-Bismuth, J., "Le mythe de l'Orient dans l'eschatologie des Juifs d'Espagne à l'époque des conversions forcées et de l'expulsion", *Annales E.S.C.*, 45, no.4 (1990), pp.819-838 Gerber, J.S., *Jewish Society in Fez, 1450-1700*, Leiden, 1980.

Glick, T. F., "Moriscos and Marranos as Agents of Technological

Diffusion", *History of Technology*, 17 (1995), pp.113-125.

Gozalbes Busto, G., *Los Moriscos en Marruecos*, Granada, 1992.

Groot, A.H. de, *The Ottoman Empire and the Dutch Republic. A History of the Earliest Diplomatic Relations, 1610-1630* (tesis doctoral), Leiden, 1978.

Hajari, A. b. *Qasim al-Kitab Nasir al-din alà al-qawm al-Kafirin* (The supporter of religion against the infidel), *Historical Study, Critical Edition and Annotated Translation* by P.S. van Koningsveld, Q. Samarrai y G.A. Wiegers, Madrid, 1997.

Heeringa.K., "Een bondgenootschap tusschen Nederland en Marokko", *Onze Eeuw*, VII, n.o3, (1907), pp.81-119.

Heeringa, K., *Brunnen tot de greschiedenis van den levantschen handel*.I (1590-1660), en II vols. (*Rijks Geschiedkundige Publicatiën*,9,10), La Haya, 1910.

Henriques de Castro.D., *Keur van Grafsteen en op de Nederl-Portug-Israil Begraafplaats te Ouderkerk aan de Amstel*, Leiden, 1833. Hildesheimer,

F., "Une créature de Richelieu: Alphonse López, le seigneur Hebreo",

L'honneur de Bernhard Blumenkranz Les Juifs au regard de l'Histoire. Mélanges en l'honneur de Bernhard Blumenkranz, Paris. 1985, pp.293-299.

Hirschberg.H.,Z. A History of the Jews of North Africa. vol.II. Leiden, 1974.

Huussen, A. J., "The legal position of Sephardi Jews in Holland circa 1600", Dutch Jewish History III (J. Michman ed.), Assen, Maastricht, 1993, pp.1941.

Israel,J.I., "A conflict of Empires Spain and the Netherlands, 1618-1648", Past and Present, 76 (1977), pp.34-74.

Israel,J.I., "Spain and the Dutch Sephardim", Studia Rosenthaliana, 12 (1978), pp.1-61.

Israel,J.I., "The Jews of Spanish North Africa,1600-1669", Transactions of the Jewish Historical Society of England, XXVI (1979), pp. 71-86.

Israel,J.I., Empires and Entrepots. The Dutch, the Spanish Monarchy and the Jews, 1585-1713, Londres, 1990.

Israel,J.I., La judería europea en la era del mercantilismo (1550-1750),

Madrid, 1992.

Justel, B., *La Real biblioteca de El Escorial y sus manuscritos árabes*, Madrid, 1978.

Juynboll, W.M.C., *Zeventiende-eeuwsche Beoefenaars van het Arabisch in Nederland*, Utrecht, 1931.

Kaddouri, A., "Ibn Abi Mahalli: a propos de l'itineraire psycho-social d'un mahdi", A. Kaddouri (ed.), *Mahdisme, crise et changement dans l'histoire du Maroc*, Rabat, 1994, pp.119-125.

Kaplan, Y., *From Christianity to Judaism: Isaac Orobio de Castro*, Oxford, 1989.

Kaplan, Y., "De Joden in the Republiek tot omstreeks, 1750. Religieus, cultureel en sociaal leven", J.H.C. Blom (eds.), *Geschiedenis van de Joden in Nederland*, Amsterdam, 1995, pp.129-173.

Kaplan, Y., *Judíos nuevos en Amsterdam*, Madrid, 1996.

Koen, E.M.; "Notarial Records relating to the Portuguese Jews in Amsterdam up to 1639", *Studia Rosenthaliana*, múltiples entregas en los volúmenes desde 1970 hasta el present.

Koen, E.M., "Durante Fernandes, Koopman van de Portugese Natie", *Estudia Rosenthaliana* 2 (1968), pp.178-193.

Koningsveld, P.S. van, «Mijn Kharûf: Over de Arabische leermeester van Nicolaas Cleynaerts», *Sharqiyyâdt* 9/2 (1997), pp.139-161.

Lapeyre, H., *Céographie de l'Espagne Morisque*, Paris, 1959.

Laredo, A., *Les noms des juifs au Maroc*, Madrid, 1978.

Laredo, A., «Les "Purim" de Tanger», *Hespéris*, XXXV (1948), pp. 193-203 Lechner, J., y den Boer, H., *España y Holanda Ponencias leídas durante el Quinto Coloquio Hispanoholandés de Historiadores, celebrado en la universidad de Leiden del 17 al 20 de noviembre de 1993*, Amsterdam, 1995.

Le Tourneau. R., "Notes sur les lettres latines de Nicholas de Clénard relatant son séjour dans le royaume de Fès (1540-1541)", *Hespéris*, XIX (1934), pp. 45-63.

López Belinchón. B., *Estudio de la minoría judeoconversa en Castilla en el siglo XVII. El caso de Fernando Montesinos. Tesis doctoral leída en la Universidad de Alcalá de Henares, 1995 (Próxima publicación).*

López Belinchón, B., "Aventureros, negociantes y maestros Dogmatizadores; Judíos norteafricanos y judeoconversos ibéricos en la España del siglo XVII", Judíos en tierras de Islam, II, Entre el Islam y Occidente: los judíos magrebíes en la edad moderna (en prensa).

Marcos Guadalajara y Xavier, Fr., Prodición y destierro de los moriscos de Castilla hasta el valle de Ricote con las disensiones de los hermanos Xarifes y presa en Berbería de la fuerza y puerto de Alarache, Pamplona, 1614.

Mármol, Luis del, Descripción general de África, Málaga, 1599.

Mediano, F.R., "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazarquivir", M.García- Arenal (ed.), Conversión religieuse en Islam Méditerranéen (en prensa).

Méendes da Costa, M.B., Catalogus der handschriften, Bibliotheek der Universiteit van Amsterdam, VII. Amsterdam, 1899.

Mendoça.J.de, Jornada de África del rey Don Sebastián. Lisboa, 1613.

Nahon, G., "Les rapports des communautés judéo portugaises avec celle d'Amsterdam au XVIIe siècle", Studia Rosenthaliana 10 (1976), pp. 37-78.

Offenberg. A. K., "Spanish and Portuguese Sephardi Books Published in the Northern Netherlands before Menasseh Ben Israel (1584-1627)", Dutch Jewish History (J.Michman, ed.) Vol.III, Assen, maastricht, 1993, pp. 7-90, pp. 82-83.

Orozco, A., Discurso historial de la presa que del puerto de la Maarmora hizo el armada real de España en el año 1614, Madrid, 1615, Biblioteca de Autores Españoles. Vol. 36.

Perez Zágorin, J., Ways of Lying: Dissimulation, Persecution and Conformity in Early Modern Europe, Cambridge, Massachusetts, 1990

Pieterse. W. Chr., Daniel Levi de Barrios als geschiedschrijver van de portugees- Israelietische gemeente te Amsterdam in zijn Triumpho del gobierno popular, (tesis doctoral), Amsterdam, 1968.

Pieterse, W. Chr. (ed.), Livro de Beth Haim do Kabal Kados de Bet Yahacob. Original Text Introduction, notes, and index, Assen, 1970.

Ravid, B., "The first Charter of the Jewish Merchants in Venice, 1589", ASJ Review, 1 (1976), pp. 187-222.

Resolutiën der Staten-Generaal van 1576 tot 1609, XVII (1607-1609), bewerkt door H.H.P. Rijperman, La Haya, 1970.

Resolutiën der Staten-Generaal. Nieuwe Reeks, 1610-1670,I (1610-1612), bewerkt door A. Th. Van Deursen, La Haya. 1971.

Resolutiën der Staten-Generaal. Nieuwe Reeks, 1610-1670,II (1613-1616), bewerkt door A. Th. Van Deursen, La Haya, 1984.

Ricard, R., "Baptême d'un Juif de Fés á l'Escorial (1589)", *Hespéris*, XXIV (1937), p.136.

Ricard, R., "Bastião de Vargas, agent de Jean III de Portugal au Maroc", *Al-Andalus*, X (1945), pp. 53-77.

Ricard, R., "Datos complementarios sobre Bastião de Vargas, agent de Jean III de Portugal en la corte de Fez", *Al-Andalus*, X (1945), pp. 383-386.

Roersch. A. (trad.). *Correspondence de Nicolas Clenard*, 3 vols., Bruselas, 1940-1941.

Rojas,J.L., de, *Relación de algunos sucesos postreros de Berbería, salida de los moriscos de España y entrega de Alarache*, Lisboa, 1613.

Roth, C., "Quatre lettres d'Elie de Montalte. Contribution á l'histoire des Marranes", *Revue des Etudes juives*, 87 (1929), pp. 137-165.

Roth, C., "The Strange Case of Hector Mendes Bravo", Hebrew Union College Annual, 18 (1944), pp.221-245.

Rudeman, D.B., "Hope Against Hope: Jewish and Christian messianic Expectations in the Late middle Ages", *Exilio y Diáspora. Homenaje al Prof. H. Beinart*, Madrid, Jerusalén, 1991, pp. 185-202.

Salomon, H.P. *Os primeiros Portugueses de Amesterdão. Documentos do Arquivo Nacional da Torre do Tombo, 1595-1606. Introdução, Leitura, notas e cartas genealógicas*, Braga, 1983.

Salomon, H.P., "Mendes, Benveniste, de Luna, Micas, Nasci: the state of the art (1532-1558)", *The Jewish Quarterly Review*, LXXXVIII (1998), pp. 135-211.

Samuel, E.R., "Portuguese Jews in Jacobean London", *Transactions of the Jewish, Historical Society of England*, XVIII (1958), pp.177-230.

Santoni,p., "Le passage des Morisques en Provence (1610-1613)", *provence Historique*, 185 (1996), pp. 333-383.

Saraiva, A., J., *Inquisição e cristãos-novos*, Oporto, 1969.

Sasson, B.H. "Exilio y redención a ojos de la generación de exiliados de Sefarad" (en hebreo), *Yitzhak Baer Jubilee Volume*, Jerusalén,

1961, pp.216-227.

Scaraffia, L., *Rinnegati Per una storia dell'identità occidentale*, Roma, 1993.

Sémach, Y. D., "Une chronique juive de Fès: le Yahas Fes de Ribbi Abner Hassafaty", *Hespéris*, XIX (1934), pp.79-94.

Les sources inédites de l'histoire du Maroc par le Lt. Colonel H. de Castries et autres. Première série-dynastie sá dienne. L'Espagne, France, Angleterre, Pays-Bas.

Swetschinski, D.M., *The Portuguese Jewish Merchants of Seventeenth Century Amsterdam A Social Profile* (Tesis doctoral inédita), Ann Arbor, Michigan, 1979.

Swetschinski, D.M., "Kinship and Commerce: the Foundations of Portuguese Jewish Life in Seventeenth Century Holland", *Studia Rosenthaliana* 15 (1981), pp.52-74.

Swetschinski, D.M., "Tussen Middeleeuwen en Gouden Eeuw, 1516-1621", J.H.C. Blom et al (eds.), *Geschiedenis van de Joden in Nederland*, Amsterdam, 1995, pp.53-94.

Swetschinski, D.M., "Un refus de mémoire. Les juifs portugais

d'Amsterdam et leur passé marrane", E. Benbassa (ed.), Memoires juives J'Espagne et du Portugal. París, 1996, PP. 69-79

Tavares, M.J. Pimenta Ferro, Los judíos en Portugal, Madrid, 1992.

Tavares, M.J. Pimenta Ferro "Judeus de sinal em Portugal no século XVI", Cultura- História e Filosofia, V (1986), pp. 339-363.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, "Os judeus na expansão portuguesa na India durante o século XVI. O exemplo de Isaac do Cairo", Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian, 33 (1994), pp.137-260.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, Os judeus e a expansão portuguesa em Marrocos durante o século XVI. Origens e actividades duma comunidade, Braga, 1997.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, "Uma "estranha" tolerância da Inquisição Portuguesa: Belchior Vaz de Azevedo e o interesse das potências europeias no Marrocos, na segunda metade do século XVI ", Judíos en tierras de Islam, II. Entre el Islam y Occidente los judíos magrebíes en la edad moderna (en prensa).

Tedghi, J., "Books, Manuscripts and Hebrew Printing in Fez" (en hebreo), Pe'amim, LII, pp.47-74.

Valensi, L., fables de la mémoire. La glorieuse bataille des Trois Rois. Paris, 1992.

Vajda, G., "Un recueil de textes historiques judéo-maocaines". Hespéris, XXXV (1978).

Vlessing, O. "New light on the Earliest History of the Amsterdam Portuguese Jews", Dutch Jewish History III (J. michman, ed.) (1993), pp.43-75.

De Ware Bekeringe en Violent vervolgingen Van Eva Cohen. Nu genaemt Elisabeth. Nu getranslateert in het Nederduyts. Etc. 1681.

Webster, W., "Hebraizantes portugueses en San Juan de Luz en 1619", Boletín de la Real Academia de la Historia, 15, (1889), pp.347-360.

Weiner, J.M. Fitna. Corsairs, and Diplomacy: Morocco and the Maritime States of Western Europe, 1603-1672, tesis doctoral, Columbia University. Nueva York, 1976.

Wiegers, G. A., "Learned Moriscos and Arabic Studies in the Netherlands, 1609-1624", J. Lüdtke (ed.), Romania Arabica. Festschrift für Reinhold Kontzi zum 70 Geburtstag, Tubinga, 1996, pp.405-417.

Wiegers, G.A., "The Andalusí Heritage in the Maghrib: the Polemical Work of Muhammad Alguazir (d. 1610)", *Orientalia*, IV (1997), pp.107-132.

Wilke, L. C., "Conversion ou retour ? La métamorphose du nouveau chrétien en juif portugais dans l'imaginaire sépharade du XVII^e siècle", E.Benbassa.(ed.), *Mémoires juives d'Espagne et du Portugal*, Paris, 1996. PP.53-67.

Wolf, L., *The Jews in the Canary Islands*, Londres, 1926.

Yahya, D., *Morocco in the Sixteenth century. Problems and Patterns in African Foreign Policy*, Londres, 1981.

Yerushalmí, Y.H., *From Spanish Court to Italian Ghetto: Isaac Cardoso, a Study in Seventeenth Century Marranism and Jewish Apologetics*. Londres, 1971.

Yerushalmí, Y.H., "Professing Jew in Post- Expulsion Spain and Portugal", *Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume at the occasion of his Eightieth Birthday*, English section vol.II, Nueva York y Londres, 1974, pp.1023-1058.

Zimmels, H.J. *Die Marranen in der Rabbinischen Literatur. Forschungen und Quellen zur Geschichte und Kulturgeschichte der*

Anussim. Berlin, 1932.

Zwarts,J.. "De eerste rabbijnen en synagogen van Amsterdam naar Archivalische bronnen".Bijdragen en Mededeelingen van hetgenootschap voor de joodsche wetenschap in Nederland IV (1928), pp.147-271.

المؤلفان في سطور

- ١- مرثيديس غارثيا أرينال (مدريد، ١٩٥٠)
 - أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمي بإسبانيا ورئيسة قسم الدراسات العربية به لعدة دورات.
 - من أبرز المتخصصين في مجال الدراسات الموريسكية
 - لها العديد من الكتب والمقالات المنشورة في إسبانيا وغيرها حول العلاقة بين إسبانيا والمغرب
 - أشرفت على العديد من الرسائل الجامعية المقدمة إلى جامعة مدريد المركزية
- ٢- جيرارد ويغرس
 - أستاذ تاريخ الأديان بجامعة رابود (هولندا)
 - له دراسات عديدة حول الأقليات المسلمة في إسبانيا والبرتغال.
 - ترجم وحقق كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين» لأحمد بن قاسم الحجري.
 - له دراسات حول العلاقة بين الإسلام والغرب.

المترجم في سطور

— ممدوح البستاوى

— الدراسات التمهيدية للدكتوراة من جامعة سلمنكا (إسبانيا)

— مدرس اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر)

المراجع فى سطور

- جمال أحمد عبد الرحمن
- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) من كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومريد
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩)
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإشباني والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كارتنيكولا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إنيثش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التفيرات البيئية	أنثرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هنا عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب طوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إنوارد لومى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يشارفد أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العناتى
٢٢- مذكرات رحالة من المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	يشارف: جابر مصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر النيب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سولاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب طوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثه	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثه	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاها	٢٧-
أنور مقيث	ألن تورين	نقد الحداثة	٢٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٢٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين باربر	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكتايفو پات	اللهب المزوج	٤٣-
مارلين تانرس	ألنوس هكسلى	بعد عدة أسياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت دينز وچون فاين	التراث المخفون	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاتى	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد برادة عثمانى لليلود ويوسف الأنكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ . م . بينياليستى	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفي قطيم وعادل دمرداش	ب . نواليس وس . روسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسى التصيى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألنجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو خرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو خرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو خرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	المجبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الغنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
ياشرف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسومة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	الان رود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرنانو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	للعلم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج روجيرث	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسن محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إلبيرت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	جين ب . تومبكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيمينولا	صلاح الدين والمماليك فى مصر	٧٤-

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چالك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ووليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد القانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	الكسندر بوشكين	مكارم الفمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بنديكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	ملول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم النسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	رسم السيف وقمصان أخرى	يورخييس وأخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	لنائب ومخاض المسرح الإمبراطوري المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فينرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بوينو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات وردة وقمصان أخرى	نخبة	إنوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مصاطلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليت	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	من الدين الكتانى الإبريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤيد	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتوات بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	مسرة اللدائى فى الشعر الأندلسى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك ومادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنه ييجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين طوى ماكليود	إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى بلانت
١١٤- مسرحيتا حصاد كونهى وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥- غرفة تخص المرء وحده فرجينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (سيرة شفيق) سينثيا نلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩- النساء والأمرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها النولية أنيتل ألكسندرو فنادولينا
١٢٤- الفجر الكاذب: لوهام الراسمالية العالمية جون جراى
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦- فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحى
١٢٨- الأدب المقارن سوزان باسنيث
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا ناولوس أسيس جاروت
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرفراثك
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولة مايك فينرستون
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كرونو
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحلة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان
١٣٩- باريسقال (مسرحية) ريتشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار هربرت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارلو جوالونى
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فويلتس
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميجيل دى ليس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد نورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكى أندرسون إمبرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان
- أحمد حسان
نسيم مجلى
سمية رمضان
نهاد أحمد سالم
منى إبراهيم وهالة كمال
ليس النقاش
بإشراف: روف عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندى وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بلبع
سمحة الخولى
عبد الوهاب طوب
بشير السباعى
أميرة حسن نويرة
محمد أبو العطا وآخرون
شوقى جلال
لويس بقطر
عبد الوهاب طوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توليق
كاميليا صبحى
وجيه سمعان عبد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبورى
نعيم عطية
حسن بيومى
عدلى السمرى
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرحمن البمبى
عبدالغفار مكوى
على إبراهيم منوفى
أسامة إسبر
منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	قرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	هدالة الهند وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال والآن وأديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجرى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	قرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأينيوأوپية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	إله الطبيعة	بول إيرايش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوى	صلاح عبدالعزیز محبوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جورجون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصانفة
١٦٦-	العلاقات بين التبتين والطلالين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوخدير
١٦٧-	في عالم طافور	رايندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرائك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	واتر. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	الله الذى الأمريكى من التفتيه إلى الشيفيه	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوة (شعر)	وب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تمام	هانز إيندورفر	نصوى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب طوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُردج طوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأنثى	ألين كرنان	بدر النيب

١٨٩-	للمسرح والمهنة ثلاثة في ثلاثة النقد المعاصر	بول دي مان	سعيد القانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازي السيد
١٩٢-	سياحة نامة إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المرافي	محمود علاوي
١٩٣-	هامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ثلاثين راسبيوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	إنوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لاندوا	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	شعاب التنمية المقاومة والبدائل	جيرمي سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأنبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زلمان شازار	أحمد هويدي
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي-سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولانية تصنع علماء جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي (رواية)	رامون خوتاسنديز	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائي (شعر)	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فريديان نوسوسير	جوناثان كلار	محمود حمدي عبد الفنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلكور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جينز	محمد محيي الدين
٢١٥-	سياحة نامة إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المرافي	محمود علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحتان طبيعيتان	سمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاسان	علي إبراهيم منوفي
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كارو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولانية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرائز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم في مجتمع حر	بالول فيرابند	السيد محمد نقادي
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبد الظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابريل جارتيا ماركيت	السيد عبد الظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	طاهر محمد علي البريري

- ٢٢٧- المسرح الإسياني في القرن السابع عشر خوسيه ماري ديث بوركى
- ٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن چانيت ولاف
- ٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيجان
- ٢٣٠- من الذباب والفئران والبشر فرانسواز چاكوب
- ٢٣١- الترافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمي سالوم بيدال
- ٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير
- ٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغريى آرثر هيرمان
- ٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سبنسر تريمينجهام
- ٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (ج١) مولانا جلال الدين الرومى
- ٢٣٦- الولاية ميشيل شونكيڤيتش
- ٢٣٧- مصر أرض الوادى روين فيدين
- ٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الانكتاد
- ٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى جيلا راماز - رايوخ
- ٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
- ٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزى
- ٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض وليام إميسون
- ٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفى بروفنسال
- ٢٤٤- الغليان (رواية) لورا إسكيبييل
- ٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أنيس وآخرون
- ٢٤٦- مختارات قصصية جابريل جارتيا ماركيث
- ٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدائق فى مصر والتر أرمبرست
- ٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا
- ٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك
- ٢٥٠- علم اجتماع العلوم بومنيك فيتك
- ٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال
- ٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
- ٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوفا
- ٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روبنسون وجودى جروفز
- ٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روبنسون وجودى جروفز
- ٢٥٦- أقدم لك: ديكرت ديف روبنسون وكريس جارات
- ٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وايم كلى رايت
- ٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريزر
- ٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور نخبة
- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال
- ٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود زكى نجيب محمود
- ٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إنياردو مندوتا
- ٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن چون جرين
- ٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وثلى
- السيد عبدالظاهر عبدالله
- مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
- أمير إبراهيم العمرى
- مصطفى إبراهيم فهمى
- جمال عبدالرحمن
- مصطفى إبراهيم فهمى
- طلعت الشايب
- فؤاد محمد عكود
- إبراهيم الدسوقي شتا
- أحمد الطيب
- منايات حسين طلعت
- ياسر محمد جادالله وعزى مديولى أحمد
- نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
- صلاح محجوب إدريس
- ايتسام عبدالله
- صبرى محمد حسن
- بإشراف: صلاح فضل
- نادية جمال الدين محمد
- توفيق على منصور
- على إبراهيم منوفى
- محمد طارق الشرقاوى
- عبداللطيف عبدالحليم
- رفعت سلام
- ماجدة محسن أباطة
- بإشراف: محمد الجوهري
- على بدران
- حسن بيومى
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمود سيد أحمد
- عبادة كُحيلة
- فاروجان كازانجيان
- بإشراف: محمد الجوهري
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمد أبو العطا
- على يوسف على
- لويس عوض

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لؤيس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين هرودى	٢٦٧-
ليون شمس تبريزى (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم السوقى شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وايم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزير العربية وشرقها (ج٢)	وايم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال	٢٧١-
الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الأمم الاجتماعية والثقافية لمصر فى مصر	جوان كول	حنان الشهاوى	٢٧٣-
السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي	٢٧٤-
ص. س. إلبه شامراً بالذاكر كاتبة مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التلمسانى	٢٧٦-
الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى	٢٧٧-
البدائيات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفرنوس الأعلى (رواية)	عبد العظيم شرر	جلال الحفناوى	٢٨١-
طبيعة العلم غير الطبيعية	لؤيس ووبرت	سمير حنا صائق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرؤوف البمبى	٢٨٣-
هزقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المرافى	محمود علاوى	٢٨٦-
الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائى	ليفيد لودج	ماهر البطوطى	٢٨٨-
ليون منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	جورج موان	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني فى القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كاميل وبيل موريز	بدر الديب	٢٩٥-
مكبث (مسرحية)	وايم شكسبير	محمد مصطفى بدوى	٢٩٦-
فن النحو بين اليونانية والسريانية	نيونيسيوس ثراكس ويوسف الاهوازى	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد	٢٩٨-
ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
أسطورة بروتسوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١)	لؤيس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
أسطورة بروتسوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢)	لؤيس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى	٣٠١-
أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجوى جروفرز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٢٠٢- أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧- أقدم لك: الشعور	بيثيد بايينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ريج كوانجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢- روح الشعب الأسود	وليم دييوس	أسعد حليم
٢١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعدي
٢١٤- مارسيل نوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعي
٢١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميثيل برونينيو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٢١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧- بلا غد	س. شير لايموثا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨- الألب الروسى فى السترات الطير الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩- صور نريدا	جايترى سبيفالك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	ياشرف: صلاح فضل
٢٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	جلبو يوجين كلينپاور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علوى
٢٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧- مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامى صلاح
٢٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية نياپ
٢٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٨٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحي العشرى
٢٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إنوار براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيروش بيريرى جلو	فخرى لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نابين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيرو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	جان كوكنو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	تسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفي
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفي
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علاوي
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر هاندي	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أنثريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشرييني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيسون	صبري محمد حسن
٣٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد پرنس	هابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	هاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفي
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أنثريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام الستين (مسرحيات)	جان أنوي وآخرون	إنوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	إنوار براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل بات	٣٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شبيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٣٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادی	بهاء الدين محمد اسفنديار	٣٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد طي بهزادراد	٣٨٥- مشتري العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء چاهين	چون دن	٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٣٨٨- مواظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٣٩٠- الأرضيات والمدن الكبرى
منى النروى	مايف بينشى	٣٩١- الحافلة الليلى (رواية)
عبداللطيف عبدالعليم	فرناندى لاجرانجا	٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٣٩٥- ألام سياوش (رواية)
محمود علاوى	نقى نجارى راد	٣٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٣٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٣٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش والن كوركس	٣٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممنوح عبد المنعم	زياودن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممنوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر باقلام كتابه
حنان الشهاوى	چوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوبر	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى برونسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. أ. رتشاريز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

- ٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥) رينيه ويليك
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العشانية جين هاثواي
٤١٩- العصر الذهبي للإسكتندرية چون ماراو
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية) فواتير
٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول روى متحدة
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١) ثلاثة من الرحالة
٤٢٣- إسراطات الرجل الطيف نخبة
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامي
٤٢٥- من طاووس إلى فرح محمود طلوصي
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى نخبة
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان
٤٢٨- الخزائن الخفية محمد هوتك بن داود خان
٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سبنسر وأندرجي كروز
٤٣٠- أقدم لك: كانط كريستوفر وانت وأندرجي كليموفسكي
٤٣١- أقدم لك: فوكو كريس هوروكس وزوران جفتيك
٤٣٢- أقدم لك: ماكيافلي پاتريك كيري وأوسكار زاريت
٤٣٣- أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلنت
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية نونكان هيث وچودي بورهام
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زديرج
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فريدريك كويلستون
٤٣٧- رحلة هندي في بلاد الشرق العربي شبلي النعماني
٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بييرس
٤٣٩- موت المراهبي (رواية) صدر الدين عيني
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرسن بروسناد
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتي روى
٤٤٢- حثشبسوت: المرأة القرمونية فوزية أسعد
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها كيس فرستينج
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه
٤٤٥- حول وزن الشعر پرويز ناتل خانلري
٤٤٦- التحالف الأسود ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير
٤٤٧- ملحمة السيد تراث شعبي إسباني
٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة) الأب عيروط
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزبورن وودن فان لون
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إيجينانزي وأوسكار زاريت
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة چان لوك أرنو
٤٥٤- خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه بريدال
- مجاهد عبدالمنعم مجاهد
عبد الرحمن الشيخ
نسيم مجلي
الطيب بن رجب
أشرف كيلاني
عبدالله عبدالرازق إبراهيم
وحيد النقاش
محمد علاء الدين منصور
محمود علاوي
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
ثريا شليبي
محمد أمان صفاني
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
إمام عبدالفتاح إمام
حمدي الجابري
مصام حجازي
ناجي رشوان
إمام عبدالفتاح إمام
جلال الحقاوي
عايدة سيف الدولة
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
محمد طارق الشرقاوي
فخري لبيب
ماهر جويجاتي
محمد طارق الشرقاوي
صالح طعماني
محمد محمد يونس
أحمد محمود
الطاهر أحمد مكي
محي الدين اللبان ووليم داوود مرقس
جمال الجزيري
جمال الجزيري
إمام عبد الفتاح إمام
محيي الدين مزيد
حليم طوسون وفؤاد الدهان
سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فرديك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موالر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المورييسكيون الأندلسيون	مرثيديس هارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جاستنز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليند وجوى جروانز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	النولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقتل	مايكل بارنتى	حصه إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنتزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	ثيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا روبس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النزة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	نون كيوخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	نون كيوخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأنب والنسوة	بام موديس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال منانى
٤٧٦-	أرض الصبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى الثورة الصينية	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليونثيه شنج ولى شى تونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو موروا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبي	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوة وما بعد النسوة	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت يابوس	رشيد بنحنو
٤٨٥-	القوة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	مُسْرَل: الفلسفة طمًا نقيًا	إدموند مُسْرَل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البيفاء	محمد قادرى	عبد الوهاب طوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأنب الأثريى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت مواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	تصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوي	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	الطمانية والنوع والنوة في الشرق الأوسط	ثانية على	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريونز	أحمد على بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	قيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هاينجر	إسماعيل المصنق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هاينجر	إسماعيل المصنق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المواوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنازلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في مصر سلاطين الممالك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكورة (مسرحية)	كارلو جولونوني	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريغان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوانتان كوار	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالتى بوجلاس	فدوى مالتى بوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإنسان	أرنولد واشنطن وديونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	مخاضات في المثالية الحديثة	جوزايا روس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الروح الفرنسي بمصر من العلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمذبح	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	لنيس جونسون	ثانية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرويل ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	بيفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وليل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق همر

٥٣١-	ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباحي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لايا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	سمويل هنتجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكاوي
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانييل	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	في تخيل وفلاس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلابين	روبرت هنتشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	هزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن وبيرون فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وإيتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤوف البعبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صاحبة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خائيتو بينابيتتى	هبرى محمدى التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خائيتو بينابيتتى	هبرى محمدى التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الاصولى في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر نيب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوايتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فريد	ريتشارد أيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤- مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥- الاقتصاد السياسي للعملة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كوالدي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس ومنت	أيومي مينوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الووف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكي	چون ماهر وچودي جرونز	محيي الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف النولية (مج ١)	چون فيزر وپول سبترجز	باشراف: محمد فتحي عبد الهادي
٥٨١- الحقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود نوات آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالمكوس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبد العزيز حمدي
٥٨٨- أمحتوت الثالث	أنيس كاپرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩- تمبكت العجبية	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفننية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١- الشاعر والفكر	هوراثيوس	على عبدالقواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	پول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج ٢)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت نيجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوايو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكتعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهربن	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ثوت	أيمن بكر وممر الشيشكلي
٦٠٢- ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر آيزنبرجر	وقاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المنجدة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم متوفى
٦١١-	النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياسة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	مصر الأحمد التى وقعت فى يده من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت حواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	موراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح لورشليم القدس	ريمون استانبولى	هايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباهى
٦٢١-	رياحيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباهى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوار جها الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب طوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود الملىجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	هزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	بولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التبثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	هج يوناندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الضيوية	ف. روبرت هنتر	يبر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فننق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكرومينيا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	چوناثان ميلر وروين فان لون	معنوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد التريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد دتيرنر	فتح الله الشينغ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصلحتها اللغوية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موياسان	سهر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	بيليسبس الذى لا تعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من لوزبكستان (ج١)	نصوح قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	موتيسيس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أدبسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو سالتيجار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عانية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومنحه الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعلم الاجتماع الغربى	ألن جولدر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	ول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أنولفو	جوستاف أنولفو بركر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهاال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	ياشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	ياشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وايام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فوش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حقل التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأمم المتحدة الكاملة (١٢ كندا) (ج١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأمم المتحدة الكاملة (المصراع) (ج٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العناني
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. نوبل وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحي
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادوش روجيفيتش	هنا عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتاين: حياته وفكراته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجوه	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدي الجابري
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعي (المحرقة)	حاتيم برشيت وآخرون	جمال الجزيري
٦٩٤-	أقدم لك: نريدا	جيف كولينز وويل مايلين	حمدي الجابري
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودي جروف	إمام عبد الفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبد الفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودي جروف	إمام عبد الفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر والدرزيجي كروز	إمام عبد الفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسي	إيفان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمه عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحدائق	وايم رود فيليان	منى البرنس
٧٠٢-	سيرة جوستيان فى اللغة الروماني (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمي
٧٠٣-	تاريخ الأنبياء فى إيران (ج٢)	إنوار جرانفيل براون	أمين الشواربي
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومي	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالي	عبد الحميد مذكور
٧٠٦-	الشجرة الراهية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراغة من؟	دونالد مالكولم ريد	رواف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباي وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	ليرة التاج	ميرزا محمد هادي رسوا	هنا عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٣-	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تلم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إنيمون ليمولان	أحمد فتحي زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جوادبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	نوتام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافي أحمد القطوري
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيعنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدي	بول روبنسون	عبد الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون في المغرب	فييرمو غوثاليس بوسنتو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية في إيران	صادق زيبا كلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	ماساة عطيل (معرضية)	وايم شيكسبير	محمد مصطفى بنوى
٧٣٤-	بونابرت في الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة في العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكي
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج١)	هوارد زن	شعبان مكارى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	محقق من عصر ما قبل التاريخ إلى العلة للتركيب	جيرار دى جورج	محمد هواد
٧٣٩-	محقق من الإمبراطورية المشاعة حتى العلة للعصر	جيرار دى جورج	محمد هواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكودرا	دنى بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك النبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة في لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتمنى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	باشراف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج في تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	المآثيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	أندرو ب. بيبكى	على إبراهيم منولى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكي خاردييل بوتشلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الربيعى
٧٥٨-	الإحساس بالعولة	بروس روينز	عاطف عبد الحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مواوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا رواف	فاطمة ناموت
٧٦٢-	المسلم عدواً وصديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تيرى هنتش	غازى برو و خليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسبى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أبناء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وخدياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريت جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سوميرا	ريكاردو جویرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف النولية (ج٢)	جون فيذر و پول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والتركيزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليندى	هزى عامر
٧٧٨-	صفوة المنيح	مولانا محمد أحمد ورضا القادري	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تাকাهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كاراسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	العولة والرعاية الإنسانية	فيك جورج و پول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساعة للطفل	ديفيد أ. رواف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات من تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المننبة (رواية)	مارجريت أتروود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاجين	منى الدروبي
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بوترو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة لـ بريس ومطرب	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيثس	رواف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)	نخبة	على عبد الرواف البعبى
٧٩٦-	أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزنى

طلعت شاهين	نخبة	الرؤية في ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	الإرشاد النفسي للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمي الجمال	أن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثي	قضايا في علم اللغة التطبيقي	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دولي	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شربين محمود الرفاعي	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسي	توماس باترسون	التغيير والتنمية في القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الطلوجي	دانييل ميرفي-ليجيه وجان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
ظاهر البريري	كارل إيشيجورد	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المتوسطة	٨٠٦-
خيري نومة	ميريام كوك	يحي حقى: تشريح مفكر مصري	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپس	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كروپس	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعيمي	جوزيف أشموبيتز	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهي	ميشيل مافيزولي	تطل العالم: المسرة والأسلوب في الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	أنى إرنو	لم أخرج من ليلي (رواية)	٨١٣-
آمال الروبي	نافثال لويس	الحياة اليومية في مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى لبيب عبد الغنى	ه. أ. والفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين هرويكى	فيليب روجيه	العدو الأمريكى	٨١٦-
محمد لطفى جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام في الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	العرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	العرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندى	وليم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرياضى (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعى	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	مصر النهضة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	مصر النهضة في إيطاليا (ج٢) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد طي فرج	دوتالد ب. كوكول وثريا تركى	امل مطروح: الجبر والمسلمون والدين يقدسون السلطة	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتاين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدى عبد الحافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتاين وأيوپولد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعيمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (ج٢)	٨٣٢-
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	نبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

٨٣٥- تشيخوف: حياة في صور
٨٣٦- بين الإسلام والغرب

بيتر أوربان
مرثيدس غارثيا

ملاء عزمي
ممنوح البستاوي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣١٦٤ / ٢٠٠٦



هذا الكتاب هو ثمرة بحث دعوب فى الأرشيفات
الأوروبية لرسم صورة شخص كان يمكن ألا يلتفت إليه أحد،
وهو نموذج لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين باحثين من
بلاد مختلفة.

ويتضمن الكتاب وثائق لم يلتفت إليها أحد من قبل
على حد علمنا، وتتعلق بتاريخ المغرب العربى، وتوضح بعض
الحقائق التى يمكن من خلالها أن نصحح بعض المعلومات
الخاطئة.

Bibliotheca Alexandrina



0639906

بين الاسلام والغرب_الغرب

Price: 20.00 L.E.

